



المجلس الأعلى للبحوث الإسلامية  
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد  
مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف  
الأمانة العامة  
الشؤون العلمية

# المُتَشَابِهَاتُ لِلْفِظِي فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأَسْرَارُهُ الْبَلَاغِيَّةُ

دراسة تحليلية  
لتراث علماء المتشابه اللفظي

الدكتور صالح بن عبد الله السري



المتشابه للفضي في القرآن الكريم  
وأسراره البلاغية



الملك عبدالعزيز آل سعود  
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد  
مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف  
الأمانة العامة  
الشؤون العلمية

# المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية

دراسة تحليلية

لتراث علماء المتشابه اللفظي

الدكتور صالح بن عبد الله السري

③ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف  
المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية. / مجمع  
الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة، ١٤٢٥هـ.

٥٤٤ ص، ١٦ X ٢٣ سم

ردمك : ٣ - ٨٥ - ٨٤٧ - ٩٩٦٠

١- القرآن - المتشابه اللفظي أ. العنوان

١٤٢٥/٦٧٨٢

ديوي ٢٢٥

رقم الإيداع : ١٤٢٥/٦٧٨٢

ردمك : ٣ - ٨٥ - ٨٤٧ - ٩٩٦٠



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## كلمة

بقلم معالي الشيخ: صالح بن عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ  
وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد،  
المشرف العام على المجمع

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله  
وصحبه أجمعين.  
أما بعد:

فإن علم المتشابه يبحث في الآيات الكريمة التي تكررت في موضوع  
معين من موضوعات الكتاب العزيز، بيد أنها وُردت بألفاظ متشابهة  
وأساليب متنوعة في التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف  
والتنكير، والإفراد والجمع، والإيجاز والإطناب؛ وذلك لغرض بلاغي  
منشود، أو معنى دقيق يراد تقريره.

وقد نهض لبيان حكمة هذا المتشابه وأسراره طائفة من علماء السلف،  
الذين كشفوا اللثام عن ضروب تصريفه في البيان القرآني الفريد، وكانت  
جهودهم في هذا الجانب ضميمة مهمة، عززت مباحث إعجاز القرآن  
الكريم، والدراسات التي عُنيَتْ بالرد على الطاعنين الذين زعموا أن في  
التنزيل الحكيم خللاً أو لغواً.

وأفرد هذا العلم بالتصنيف علماء سابقون بهذا الفضل كأبي جعفر بن  
الزبير، والقاضي ابن جماعة، والرازي، والإسكافي، كما أشار إليه الزركشي  
في (برهانه) والسيوطي في (إتقانه)، وما يزال كتاب الله عز وجل ميداناً  
رحباً للبحث عن كنوزه وأسراره.



وإن وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - وقد عازمت على الإسهام في نشر الدراسات العلمية الجادة التي تعنى بكتاب الله - لِيُسَرُّهَا أن تقدم إلى الباحثين في العالم الإسلامي، المَعْنِيَّين بِبلاغته وإعجازه هذه الرسالة القيمة: (المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية) للدكتور صالح بن عبدالله الشري.

وقد تهيأ لهذه الدراسة جهد حثيث، تمثل في قدرة الباحث على لَمِّ شتات الموضوع، وتَتَبُّع عناصره من كتب السلف، والسير وفق قواعد البحث العلمي ومنهجه، بالإضافة إلى الإشراف والمتابعة اللذين حظي بهما من لدن القسم العلمي المختص بالجامعة، وما تلا ذلك من المراجعات التي قامت بها إدارة الشؤون العلمية في المجمع.

وأودُّ أن أتقدم في هذا المقام بالشكر الجزيل لقادة هذه البلاد، وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز، وولي عهده الأمين سمو الأمير سلطان بن عبدالعزيز، حفظهما الله جميعاً، اللذين يرعيان مسيرة العلم والمعرفة، ويحرصان على بذل الغالي والنفيس في سبيل ازدهارها، واطراد تقدُّمها، ونسأل الله عزَّ وجلَّ لهما السداد والعون.

كما أتقدم بالشكر للأمانة العامة لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة النبوية، على ما تبذله من جهود طيبة للنهوض بالأعباء المنوطة بها، ونسأل الله لها ولأسرة المجمع كل خير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



وإن وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - وقد عازمت على الإسهام في نشر الدراسات العلمية الجادة التي تعنى بكتاب الله - لِيُسَرُّهَا أن تقدم إلى الباحثين في العالم الإسلامي، المَعْنِيَّين ببلاغته وإعجازه هذه الرسالة القيمة: (المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية) للدكتور صالح بن عبدالله الشثري.

وقد تهيأ لهذه الدراسة جهد حثيث، تمثل في قدرة الباحث على لَمِّ شتات الموضوع، وتَتَبُّع عناصره من كتب السلف، والسير وفق قواعد البحث العلمي ومنهجه، بالإضافة إلى الإشراف والمتابعة اللذين حظي بهما من لدن القسم العلمي المختص بالجامعة، وما تلا ذلك من المراجعات التي قامت بها إدارة الشؤون العلمية في المجمع.

وأودُّ أن أتقدم في هذا المقام بالشكر الجزيل لقادة هذه البلاد، وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز، وولي عهده الأمين سمو الأمير سلطان بن عبدالعزيز، حفظهما الله جميعاً، اللذين يرعيان مسيرة العلم والمعرفة، ويحرصان على بذل الغالي والنفيس في سبيل ازدهارها، واطراد تقدُّمها، ونسأل الله عزَّ وجلَّ لهما السداد والعون.

كما أتقدم بالشكر للأمانة العامة لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة النبوية، على ما تبذله من جهود طيبة للنهوض بالأعباء المنوطة بها، ونسأل الله لها ولأسرة المجمع كل خير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



## تقديم الأمانة العامة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف منشأة علمية تحرص على تزويد الباحثين والمُعَينين بالدراسات القرآنية الأصيلة، بكل ما يخدم كتاب الله عز وجل وعلومه. وقد طبع المجمع طائفة من المراجع العلمية القيمة المتصلة بهذا الشأن، منها مصنفات حررها السلف رحمهم الله، ومنها رسائل علمية لباحثين معاصرين، أفادوا من تراثنا في صياغة دراسات متأنية، خضعت لإشراف علمي ومراجعات نافعة.

ويسرُّ هذا المجمع المبارك أن يقدم هذه الرسالة القيمة: "المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية" للدكتور صالح بن عبدالله الشثري، وهذه الرسالة عبارة عن دراسة تحليلية لتراث علماء المتشابه اللفظي، وقد عهد بمراجعتها إلى إدارة الشؤون العلمية التي بذل العاملون فيها جهوداً حثيثة لتسديدها، ومراجعة نصوصها على أصولها المستقاة منها.

ومجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف لن يألو جهداً في تنفيذ توجيهات معالي الشيخ صالح بن عبدالعزيز بن محمد وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المشرف العام على المجمع، الذي يحرص دائماً على دعم الرسالة المنوطة بالمجمع، ويتابع إنجازاته.

ندعو الله عز وجل أن يحفظ لهذا الكيان الشامخ — المملكة العربية



السعودية — ازدهاره وأمنه، وأن يديم عليه آلاءه، في ظل القيادة الرشيدة التي يحظى بها، وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز وولي عهده الأمين سمو الأمير سلطان بن عبدالعزيز، حفظهما الله جميعاً.

والحمد لله رب العالمين.

الأمين العام

لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

أ.د/ محمد سالم بن شديد العوفي

## المُقدِّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي المصطفى الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.. أما بعد:

فإن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة والفريدة التي لم يعرف لها مثيل، فلم يُقيد بما قيّد به غيره من المعجزات، فهو كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه ونظمه، وفي علومه وحكمه، وفي تأثير هدايته، وفي كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلية، ففي كل باب من هذه الأبواب للإعجاز فصول وفروع، قد تحدى المولى سبحانه وتعالى على لسان نبيه محمد النبي الأمي صلوات ربي وسلامه عليه العرب قاطبة بإعجازه، وحكى لهم عن ربه القطع بعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله، فظهر عجزهم على شدة حرص بلغائهم على إبطال دعوته، واجتثاث نبتته، حتى قال قائلهم: لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق.

لقد بهر القرآن الكريم العقول بما يحويه من وجوه الإعجاز، ففيه الإعجاز العلمي الكوني، والإعجاز التشريعي الفريد، والإخبار عن الأمم السابقة، والإخبار عن الغيب في المستقبل، ومن ذلك أيضاً: الإعجاز البياني البلاغي المتمثل في أسلوب القرآن ونظمه وتركيبه اللغوي، فهو المَعِينُ الذي لا ينضب، والزاد الذي لا يمل، فسبحان الله عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته.

نعم، إن العرب الذين تحداهم الله تعالى بأن يأتوا بمثل كتابه العزيز كانوا



مضرب المثل في الفصاحة والبلاغة وإحكام البيان وسبكه، ولأجل ذلك تحداهم الله تعالى من جهة ما تميزوا به، وضلّعوا فيه، وهذا بحق أظهر للعجز، وإعلان لقيام الحجة عليهم إذ زعموا أن القرآن الكريم كلام بشر. وهذا الكتاب الذي بين يديك -أخي القارئ الكريم- يبسط جانباً من جوانب هذا الإعجاز غفل عنه الكثير، وهو جانب التشابه اللفظي في القرآن الكريم.

## أهمية الموضوع:

وتظهر أهمية هذا الموضوع في الأمور التالية:

**أولاً:** أنه يدرس بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، من زاوية مهمة لم تنل حقها من الدراسة والبحث، وهي التشابهات القرآنية التي تعني وجود اختلافات يسيرة في بناء الأسلوب، والكشف عن هذه الاختلافات في ضوء فهم السياق يدل دلالة ظاهرة على ملاحظة البناء اللغوي القرآني لأحوال المقامات، وهذا هو جوهر البلاغة وجوهر النظم وجوهر الإعجاز.

**ثانياً:** أن بحث هذا الموضوع ردٌّ على الملحدّين الطاعنين في كتاب الله تعالى الذين يزعمون أن هذه الآيات المتشابهة دليل على خلل في الأسلوب، وتعارض بين الآيات، فجاء هذا البحث لبيان الحكمة من هذا الاختلاف، وأنه سرٌّ من أسرار إعجازه.

**ثالثاً:** عدم وجود مؤلّف يجمع بين مؤلفات هذا العلم، ويربط بينها من حيث التأثير والتأثير، ويحقق مسائل أولئك العلماء، ويشرح مبهم كلامهم، ويفصل مجمله، ويدل على جوهره، ويرجع بجزئيات كلامهم إلى كليّات يمكن أن تستنبط من كلامهم، وتكون بمنزلة الجذور لكل المسائل الفرعية، وهذا ليس بالأمر السهل مع أن البحث لا بد أن يقوم عليه، ولذلك كان هذا الأمر موضع عنايتي واهتمامي في هذا البحث، فقد حاولت فتق كلامهم، وبيان ما يرجع إليه ما تشابه منه وما تخالف، كما حاولت تجلية

الأسس العامة التي قام عليها النظر عند كل واحد من هؤلاء العلماء، واستخراج كلياته التي تُعدُّ المرجع الذي ينتهي إليه النظر عنده.

**رابعاً:** تميز المادة البلاغية في مناقشات العلماء للمتشابه اللفظي من حيث التخصص في القرآن الكريم، ومن حيث الكثرة والغزارة، ففي هذا الموضوع قدر هائل من المسائل البلاغية المصحوبة بالتطبيقات والتحليلات الكثيرة.

**خامساً:** هذا البحث يمثل البلاغة التحليلية في أعلى صورها؛ إذ تتسع النظرة لتشمل النص كاملاً، فتبرز خصائص دلالاته، ومحاسن صياغته مع بيان ما فيه من الذوق الرفيع والحس المرهف.

**سادساً:** يتميز هذا الموضوع بالربط الكامل بين الدراسة البلاغية، والدراسة النحوية، وحاجة كل منهما للآخر، ولا سيما في دراسة التراكيب وخصائصها، ومسألة النظم القرآني.

### تعريف المتشابه القرآني:

هذا، وقد ذكر علماء اللغة أن المتشابه اللفظي يطلق في اللغة على ما تماثل من الأشياء، وأشبه بعضه بعضاً، وعلى ما يلتبس من الأمور<sup>(١)</sup>، يقول المناوي (ت ١٠٣١ هـ): (المتشابه: المشكل الذي يحتاج فيه إلى فكر وتأمل)<sup>(٢)</sup>.

أما متشابه القرآن حين يطلق فإنه يطلق على نوعين، الأول: المتشابه المعنوي، وهو يقابل المحكم، وقد دار حول هذا النوع جدل كبير بين العلماء لتحديد المراد منه في القرآن الكريم، وهو ليس مجال بحثي في هذا الكتاب، وخلاصة ذلك أن المراد به: الغامض المُشْكَل مما استأثر الله سبحانه بعلمه كعلم المغيبات، وعلم الساعة، أو أنه مما التبس فهم المراد منه، من حيث خرج

(١) انظر: الصحاح للجوهري: ٢٢٣٦/٦، ومعجم مقاييس اللغة: ٢٤٣/٣، وأساس البلاغة:

٤٧٧/١، ولسان العرب: ٥٠٣/١٣، والقاموس المحيط: ١٦١٠.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبدالرؤوف المناوي: ٦٣٣.



ظاهره عن دلالة على المراد به، لشيء يرجع إلى اللغة، أو العقل أو غير ذلك<sup>(١)</sup>، وقد تناوله الزركشي في «البرهان»، في النوع السادس والثلاثين (معرفة المحكم من المتشابه)، كما بحثه السيوطي في الإتيان، وكذلك في «معترك الأقران»، وكذلك كتاب «التحبير»<sup>(٢)</sup>، وأبرز كتب هذا النوع: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، و«حقائق التأويل في متشابه التنزيل» للشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ)، و«متشابه القرآن» للقاضي عبد الجبار (ت ٤١٥هـ).

أما النوع الثاني — وهو مجال البحث في هذا الكتاب —: فهو المتشابه اللفظي، والمراد به: الآيات التي تكررت في القرآن الكريم، في القصة الواحدة من قصص القرآن أو موضوعاته، في ألفاظ متشابهة، وصور متعددة، وفواصل شتى، وأساليب متنوعة، تقديماً وتأخيراً، وذكرأً وحذفاً، وتعريضاً وتنكيراً، وإفراداً وجمعاً، وإيجازاً وإطناباً، وإبدال حرف بحرف آخر، أو كلمة بكلمة أخرى ونحو ذلك — مع اتفاق المعنى العام — لغرض بلاغي، أو لمعنى دقيق يراد تقريره، لا يدركه إلا من آتاه الله علماً وفهماً لأسرار كتابه، وهي بحق كنز ثمين من كنوز إعجازه، وسر من أسرار بيانه.

يقول الزركشي: "هو إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء، وحكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب؛ ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك"<sup>(٣)</sup>، ومراده بالقصة: الأمر والموضوع مطلقاً، سواء ورد الاختلاف في أثناء القصة القرآنية، أو غيرها، وهذا النوع ألف فيه العلماء مؤلفات كثيرة جداً<sup>(٤)</sup>.

---

(١) انظر: متشابه القرآن دراسة موضوعية للدكتور عدنان زرزور: ١٥ — ٥٣.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن: ١١٣/١، الإتيان في علوم القرآن: ٢/٢، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن: ١٠٣/١، والتحبير في علم التفسير: ١٠١.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ١١٣/١.

(٤) انظر: كتاب متشابه القرآن دراسة موضوعية، ومقدمة تحقيق كتاب كشف المعاني لابن جماعة: ٥٩ — ٦٢، ومقدمة تحقيق كتاب درة التنزيل: ٤٩ — ٥٢.

من ذلك: «متشابه القرآن» لعلي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٧ هـ)، و«حل الآيات المتشابهة» لمحمد بن الحسن بن فورك (ت ٤٠٦ هـ)، و«هداية المرتاب» لعلي بن محمد السخاوي (ت ٦٤٣ هـ). وهذه الكتب مع غيرها أشبه ما تكون بمعاجم لجمع الآيات المتشابهة من غير توضيح العلل والأسباب لذلك الاختلاف بين الآيات.

ويستثنى من الكتب التي ألفت في هذا الموضوع خمسة كتب اعتنت بتعليل الآيات المتشابهة في ألفاظها، هي محل البحث والدراسة، وهي: أولاً: كتاب «درة التنزيل وغرة التأويل» للخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠ هـ)، ويُعدُّ بحق أهم كتب هذا الفن، وهو أول من فتح أبواب هذا العلم.

ثانياً: «البرهان في متشابه القرآن» لمحمد بن حمزة الكرمانى (ت ٥٠٥ هـ)، وهو مطبوع بعدة تحقیقات، من أفضلها تحقيق: أحمد خلف، وقد اعتمد الكرمانى على كتاب الإسكافي كثيراً، كما اختصر وأوجز مواضع كثيرة منه. ثالثاً: «ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل» لابن الزبير الغرناطي (٧٠٨ هـ)، وهو أوسع الكتب وأبسطها.

رابعاً: «كشف المعاني في المتشابه من المثاني» لبدر الدين بن جماعة (ت ٧٣٣ هـ)، وقد اعتمد ابن جماعة على كتاب الكرمانى، كما أفاد من ابن الزبير.

خامساً: «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن» لأبي يحيى زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦ هـ)، وقد اختصر ما ذكره الكرمانى.

## الدراسات السابقة:

مع أهمية هذا العلم في خدمة كتاب الله العزيز، وتدبر نظمه المعجز، وتوجيه ما اختلف فيه من الآيات المتشابهة، وحمایته من طعن الطاعنين وكيد الملحدين؛ إلا أن اهتمام العلماء به لم يكن كبيراً كما هو المتوقع، ولا يقاس



مطلقاً بما ألف في بعض علوم القرآن كالتفسير ونحوه...، ولعل من دواعي قلة التأليف في هذا العلم وعورة مسلكه، ودقة مباحثه وغموضها إلا لمن امتلك الأدوات، ورزق الصبر والنظر الدقيق المتكرر.

وقد كانت دراسة المتقدمين لهذا الموضوع عبارة عن جمع للآيات المتشابهة، فهي أشبه بمعجم بين يدي الدارسين والمطلعين، فلم تذكر تلك المؤلفات توجيه الآيات المتشابهة، ومن الأمثلة على ذلك: كتاب «متشابه القرآن» لعلي بن حمزة الكسائي، يقول محقق الكتاب: "كان يجدر بالكسائي وهو إمام في اللغة والنحو أن يذكر علة التشابه والاختلاف بين الآيات، كما فعل بعض من ألف في التشابه، ولكنه لم يذكر من ذلك شيئاً أبداً، وهذا من المآخذ الواضحة على كتاب المتشابه للكسائي..."<sup>(١)</sup>. وكذلك كتاب «متشابه القرآن العظيم» لأبي الحسين المنادي، ومثله كتاب «هداية المرتاب» للسخاوي، وهو مجرد منظومة لجمع الآيات المتشابهة لتسهيل حفظها على الطلاب، وهذه الكتب لم تُعْنِ ببيان العلة، وتوجيه سبب الاختلاف بين الآيات المتشابهة، كما أنها لم تستوعب كل الآيات المتشابهة تشابهاً لفظياً في القرآن الكريم، فهي أشبه ما تكون بمختصرات يستفيد منها حفظة كتاب الله تعالى.

ولا نستثني منها إلا الكتب الخمسة التي تقوم عليها الدراسة، وإن كانت هي الأخرى لا تعدم نقل المتأخر من المتقدم، وقد عرفنا أن أبرزها وأهمها اثنان «درة التنزيل» لسبقه وقدمه، و«ملاك التأويل» لبسطه وتوسعه، وهذه الكتب الخمسة قد استوعبت كثيراً من الآيات المتشابهة في القرآن الكريم؛ لأن كل كتاب يستدرِك ما فات الذي قبله.

أما بحوث المتأخرين فلم أجد فيها ما يشفي الغليل؛ فكانت عنايتهم لا تخرج عن أحد أمرين: إما تحقيق كتب المتقدمين وإخراجها في صورة لائحة،

---

(١) متشابه القرآن: ٢٣٢.

وهذا واضح جلي، وهو أمر محمود، وعناية حسنة بتراثنا. وإما تأليف كتب على شاكلة كتب المتقدمين أشبه ما تكون بمعاجم هدفها حصر الآيات المتشابهة، نظراً لكثرتها، وغزارتها، وهذه المصنفات لا تعنى ببيان العلة، وسر الاختلاف بين الآيات، لكنها تتميز بالتنظيم والترتيب والتبويب لآيات المتشابهة القرآني، ومن أمثلة ذلك كتاب «دليل المتشابهات اللفظية في القرآن الكريم» للدكتور: محمد عبد الله الصغير، وهو من أجود ما ألف في ذلك؛ لأنه استقصى جُل ما في القرآن الكريم، وقد ذكر المؤلف في مقدمة كتابه أنه جمع مادته من كتب العلماء الذين صنفوا في هذا الفن، كما اعتمد على المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، وقد أخذ المؤلف طريقة السخاوي في كتابه، إلا أنه أعاد ترتيب الآيات حسب السور، وزاد عليه الكثير من الآيات، وكذلك «تنبيه الحفاظ للآيات المتشابهات الألفاظ» لمحمد المسند. وللدكتور محمد بن علي الصامل عناية بهذا الموضوع، فقد كان له حلقات في إذاعة القرآن الكريم عن بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، إلا أنها توقفت، وقد أخرج منها عشر مسائل في كتاب «من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم»، وهو كتاب جدير بالعناية، وللدكتور إبراهيم طه الجعلي كتاب قيم، يضاف لمكتبة علم المتشابه اللفظي، وهو بعنوان: «من بلاغة المتشابه اللفظي».

وحين ندقق النظر في الآيات المتشابهة تشابهاً لفظياً نلاحظ أن فيها آيات متشابهة تشابهاً تاماً، أو شبه تام، ولا يقع الاختلاف إلا في كلمة واحدة، أو كلمتين، وهذه الآيات ذكرها علماء المتشابه في مصنفاتهم، وتحدثت عنها في هذا البحث، كقوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾: ١٥، وبعدها: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾: ٣٣، وهناك آيات كثيرة ليس بينها تشابه إلا في مطلع الآية أو في وسطها أو في خاتمها، بل وفي



جزء يسير منها، أي أن التشابه بين الآيتين لم يقع إلا في جزء من الآية فقط، كقوله تعالى في الإسراء: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾: ٩، وفي النمل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: ٧٦، ومثل ذلك أيضاً في سورة الرعد: ﴿.. فَيُصِيبُ بِهِمَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾: ١٣، وفي النور: ﴿.. فَيُصِيبُ بِهِمَا مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾: ٤٣، وهذه الآيات تحدث علماء المتشابه في مصنفاتهم عن كثير منها، وبقي الكثير، وسأكتفي بدراسة ما ذكره علماء المتشابه اللفظي، نظراً لكثرتة وتنوعه وثرائه، وجهدهم يعد أنموذجاً حياً، وتجربة جلية في فهم هذا الباب وسبر أغواره، وسأقوم بإذن الله تعالى بدراسة مائة وثلاثة وثمانين موضعاً من أصل ثلاثمائة وثمانين موضعاً، فما لا يدرك كله لا يترك جُلّه، ولأن بحث هذا الموضوع العظيم، وبهذا القدر من الآيات والمسائل، لا يمكن لمثل هذه الدراسة المحدودة أن تستوفي كل ما جاء فيه، ولكن من المعلوم في كلام العرب أن للكلام نظائر يدل بعضها على بعض.

وقد رأيت أن أجعله في ثلاثة أبواب بعد أن وضعت له مقدمة، أوضحت فيها معنى المتشابه القرآني، وحددت فيها الكتب التي تقوم عليها الدراسة.

**\* الباب الأول:** تراث أهل العلم في توجيه المتشابه اللفظي: وقد جاء في خمسة فصول استعرضت فيها الكتب التي قامت عليها هذه الدراسة، معرّفاً بالمؤلف، وموضحاً مصادر كل كتاب وقضاياها.

**الفصل الأول:** (درة التنزيل) للخطيب الإسكافي: مصادره، وقضاياها.

**الفصل الثاني:** (البرهان في متشابه القرآن) للكرماني: مصادره، وقضاياها.

**الفصل الثالث:** (ملاك التأويل) لابن الزبير الغرناطي: مصادره، وقضاياها.

**الفصل الرابع:** (كشف المعاني) لابن جماعة: مصادره، وقضاياها.

**الفصل الخامس:** (فتح الرحمن) للأنصاري: مصادره، وقضاياها.

**\* الباب الثاني:** الكلمة في المتشابه اللفظي: وقد أبرزت فيه مسائل

المتشابه اللفظي في كتب علماء المتشابه، وجاء في خمسة فصول:

الفصل الأول: الاختلاف بين الآيات المتشابهة في اختيار الصيغة.

الفصل الثاني: الاختلاف بين الآيات المتشابهة في الإفراد والجمع.

الفصل الثالث: الاختلاف بين الآيات المتشابهة في التذكير والتأنيث.

الفصل الرابع: الاختلاف بين الآيات المتشابهة في التعريف والتنكير.

الفصل الخامس: الاختلاف بين الآيات المتشابهة في الحروف.

\* الباب الثالث: التراكيب في المتشابه اللفظي: وقد جاء هذا الباب

في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الاختلاف بين الآيات المتشابهة في الذكر والحذف.

الفصل الثاني: الاختلاف بين الآيات المتشابهة في التقديم والتأخير.

الفصل الثالث: الاختلاف بين الآيات المتشابهة في الفصل والوصل.

بعد ذلك ختمت البحث بملخص أبرزت فيها النتائج التي توصلت

إليها، ووضعت فهرس تساعد من أراد الاطلاع على هذا العمل، وشملت

الآيات القرآنية المتشابهة، والأبيات الشعرية، وثبت المصادر والمراجع،

والموضوعات.

هذا وقد سلكت منهجاً خاصاً في كتابة هذا البحث من أبرز ملامحه:

١— تأصيل موضوع المتشابه اللفظي، وبيان أبرز المصنفات التي ألفت فيه.

٢— بيان مصادر هذه المصنفات.

٣— بيان أثرها في الدراسات البلاغية المتأخرة.

٤— إظهار ما تميز به البحث البلاغي عند علماء المتشابه اللفظي مادةً،

ومنهجاً، وتوظيفاً.

٥— جمع المسائل البلاغية ذات الصلة بالمتشابه اللفظي من خلال أبرز

المصنفات التي ألفت في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم.

٦— تصنيف المسائل على أبواب البحث، وفقاً للخطة المذكورة.

٧— دراسة هذه المسائل، وشرحها، وتحليلها، وموازنتها بالسابقين



واللاحقين، ثم تقويمها ووضعها في موضعها اللائق بها.

وبعد: فإني أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان الجميل بعد شكر المولى سبحانه لأستاذي وشيخي، الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى، على ما قدمه لي من توجيهات واستدراكات كان لها أعظم الأثر في بناء هذا البحث، فله مني صادق الدعوات، فقد عرفته معلماً ومؤدباً، والشكر موصول لكل من خصّني بنصحه، وأفادني بعلمه، فجزاهم الله عني خير الجزاء وأوفاه. وإن أنس لا أنس أن أشكر والديّ أمد الله في عمرهما، ومتعهما بالصحة والعافية على ما لقيته منهما من رعاية ودعوات صادقة، كان لها أعظم الأثر في نفسي وفي إنجاز هذا البحث.

كما لا يفوتني أن أقدم شكري وتقديري لمعالي الشيخ الفاضل صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المشرف العام على مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة — على صاحبها أفضل الصلاة والسلام — على عنايته ودعمه لطباعة هذا الكتاب، كما أشكر أصحاب الفضيلة والسعادة في الأمانة العامة لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف على ما قاموا به من جهد حتى خرج الكتاب بهذه الصورة. وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور محمد سالم العوفي الأمين العام للمجمع.

وختاماً فإن هذا الجهد المتواضع صنعه بشر، فهو عرضة للخطأ والنقص، فما كان فيه من صواب وتوفيق فهو من الله، وما كان فيه من خطأ أو زلل فمن نفسي ومن الشيطان، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف

## الباب الأول

تراث أهل العلم في توجيه التشابه اللفظي

الفصل الأول: درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي:

مصادره وقضاياها

الفصل الثاني: البرهان في تشابه القرآن للكرماني:

مصادره وقضاياها

الفصل الثالث: ملاك التأويل لابن الزبير:

مصادره وقضاياها

الفصل الرابع: كشف المعاني لابن جماعة:

مصادره وقضاياها

الفصل الخامس: فتح الرحمن للأنصاري:

مصادره وقضاياها



## الفصل الأول

كتاب درة التنزيل وغرة التأويل  
للخطيب الإسكافي:

مصادره وقضاياه

# الفصل الأول

## درة التنزيل للخطيب الإسكافي

### مصادره وقضاياه

#### أولاً: التعريف بالخطيب الإسكافي:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي الرازي<sup>(١)</sup>، وصفه السيوطي (ت ٩١١ هـ) بالأديب اللغوي<sup>(٢)</sup>، وقال عنه الحموي (ت ٦٢٦ هـ) في معجم الأدباء: ”صاحب التصانيف الحسنة، وأحد أصحاب ابن عباد (ت ٣٨٥ هـ)، وكان من أهل أصبهان، وخطيباً بالري..“<sup>(٣)</sup>، لقب بالخطيب الأصبهاني نسبة إلى أصبهان، وهي موطنه الأصلي، وبالرازي نسبة إلى الري، وهي التي تولى فيها الخطابة، أما الإسكافي فنسبة إلى الأسكفة، وهي حرفة كان ينتسب إليها.

وكل ما جاء عن الخطيب الإسكافي في كتب التراجم لا يخرج عن تعريف الحموي الموجز، ومن جاء بعده كرر حديثه أو نقله من غير زيادة، وهذه الترجمة لا تواكب منزلة الخطيب الإسكافي العلمية، فهي إشارات

---

(١) انظر ترجمته في: معجم الأدباء: ٢٥٤٩/٦، والوافي بالوفيات لصفوت الصفدي: ٣٣٧/٣، وبغية الوعاة للسيوطي: ١٤٩/١، وهدية العارفين لإسماعيل باشا: ٦٤/٢، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة: ٢١١/١٠، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان: ٤٩١/١، والأعلام لخير الدين الزركلي: ٢٢١/٦، ٢٢٧، ومعجم المفسرين لعادل نويهض: ٥٥٨/٢، وانظر: درة التنزيل، تحقيق: محمد مصطفى آيدين: ١٨/١-٢٧.

(٢) انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: ١٤٩/١.

(٣) معجم الأدباء: ٢٥٤٩/٦.



موجزة لا تتجاوز الاسم والكنية، والعمل والشهرة التي عرف بها وثناء ابن عباد عليه، وكذلك تسمية بعض كتبه التي صنفها.

أما عن مولده ونشأته، وطلبه للعلم ورحلاته، وشيوخه وتلاميذه فلم تذكر لنا المصادر شيئاً عنها، رغم ما ذكره الصاحب بن عباد من ذيوع شهرته، وكنا نتوقع لصاحب هذه الشهرة أن يكون له تاريخ حافل من الأخبار. ولعل السبب في ذلك هو ميل الخطيب الإسكافي للعزلة وعدم الظهور، فبذلك أغفلت بعض كتب التراجم ذكره، مثل «سير أعلام النبلاء» الذي ترجم فيه الذهبي لعلماء دون الخطيب الإسكافي، كما يمكن القول أن ابتعاده عن الخلفاء والولاة وعدم اتصاله بهم وتقربه إليهم سبب في هذا الإغفال.

فعلى هذا لعله كان منصرفاً إلى مهنته الخاصة التي اتخذها مصدراً لعيشه، فآثرها على الكسب من تقربه إلى أصحاب الجاه والسلطان، فلم يطرق أبوابهم أو يتردد إلى مجالسهم، فأبعده ذلك عن الشهرة، لأن وقته مستغرق في العلم والمهنة<sup>(١)</sup>.

أما من حيث المعتقد فلم أجد عنده — في كتاب الدرة — نفيًا للصفات، أو تأويلها بالمجاز ونحوه، كما أنه لا يغلو في أحكام التكفير بالذنوب، والله تعالى أعلم<sup>(٢)</sup>.

أما آثاره العلمية فله مؤلفات متنوعة بعضها في اللغة والأدب، وبعضها في التفسير وعلوم القرآن، من ذلك:

- ١ — (غلط كتاب العين).
- ٢ — (كتاب الغرة) في غلط أهل الأدب.
- ٣ — (نقد الشعر).

---

(١) انظر: درة التنزيل، تحقيق: آيدين: ٢٠/١ — ٢١.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٥٢ — ٥٣، ٢٣٧ — ٢٣٨، وانظر: تحقيق محمد آيدين: ٣٨.

٤ — (شواهد كتاب سيويه)<sup>(١)</sup>.

٥ — (مبادئ اللغة)، وهو يشتمل على موضوعات شتى، أولها باب ذكر السماء والكواكب، فباب أسماء البروج والأزمنة، ثم باب الليل والنهار، ثم باب صفة الحر والبرد، وباب أسماء الرعد والبرق، وباب المياه وأوصافها وذكر أماكنها، وهكذا..<sup>(٢)</sup>.

٦ — (درة التنزيل وغرة التأويل)، وهو مجال البحث، ولنا وقفة معه بعد قليل.

٧ — (لطف التدبير في سياسة الملوك)، وفيه تناول الإسكافي أخبار الملوك والأمراء السابقين، وقد ألفه رغبة منه في إفادة من عاصره من الولاة، مرتباً كتابه في أبواب يحتاج إليها كل من ساس أمر الناس، وتولى شؤونهم<sup>(٣)</sup>. أما وفاته رحمه الله فالقول المشهور عند أصحاب التراجم أنه توفي سنة عشرين وأربعمئة من الهجرة النبوية (٤٢٠هـ)، وقيل: سنة (٤٢١هـ)، وهذا القول قال به صاحب «كشف الظنون»، وصاحب «هدية العارفين»<sup>(٤)</sup>.

## ثانياً: التعريف بالكتاب:

عنوانه: هو «درة التنزيل وغرة التأويل»<sup>(٥)</sup>، وموضوعه: حصر الآيات المتشابهة في القرآن الكريم تشابهاً لفظياً، ومعرفة الاختلافات الدقيقة فيما بينها،

---

(١) ذكرت هذه الكتب الأربعة في كتب التراجم، ولم أقف على شيء منها مطبوعاً أو مخطوطاً.  
(٢) طبع الكتاب بدار الكتب العلمية في بيروت، عام: ١٤٠٥هـ.  
(٣) طبع الكتاب بتحقيق أحمد عبد الباقي، في دار الكتب العلمية ببيروت، وقد ذكر محمد آيدين، محقق كتاب الدرة في رسالته ستة كتب لم يشر إليها من ترجم له وهي إما مفقودة، أو مخطوطة: ٢٦/١.

(٤) انظر: كشف الظنون لحاجي خليفه: ٦٤/٦، وهدية العارفين لإسماعيل باشا: ٦٤/٢.  
(٥) هذا هو العنوان الذي أجمعت عليه المصادر التي ترجمت للإسكافي، وقد طبع الكتاب عام: ١٣٢٦هـ، في مطبعة السعادة بمصر، بعناية الشيخ عبد المعطي السقا، وهي في مجلد واحد، في (٣٩٨ صفحة)، بدون مقدمة عن الكتاب، أو المؤلف، وخالية من أي تعليق، أو تخريج، وفي ضوء هذه الطبعة خرجت طبعات أخرى مشابهة لها، كما في مطبعة محمد الوراق بمصر، =



ثم القيام بتعليل هذه الاختلافات وتخرجها بالنظر إلى مواقعها في سور القرآن الكريم، أو في سياق الآيات ونظم السور، أو بالنظر إلى أحوال المخاطبين، أو بالنظر إلى الترتيب القرآني حسب ما في المصحف، أو حسب النزول، أو غير ذلك من الأسباب وطرق التوجيه التي يتم بها إيضاح العلة في تلك الاختلافات بين الآيات المتشابهة.

يقول الخطيب في مقدمته: ”إني مذ خصني الله بإكرامه وعنايته، وشرفني بإقراء كلامه ودرأيته، تدعوني دواع قوية يبعثها نظر وروية في الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة، وحروفها المتشابهة المنغلقة والمنحرفة<sup>(١)</sup>..“<sup>(٢)</sup>، فالخطيب رحمه الله يوضح لنا توجهه العلمي، ورغبته في خدمة كتاب الله تعالى، وخدمة حملة الكتاب العزيز، ولهذا قال في أول خطبته: ”أما بعد: فاعلموا حملة الكتاب المتين الحكيم، وحفظة القرآن المبين الكريم، وفقكم الله تعالى لحق علمه بعد حق تلاوته، وأذاقكم من لذة قراءته، وبرد شراب معرفته ما يشغف قلوبكم بحلاوته..“.

### سبب تأليفه:

جاء تأليف الكتاب محاولة منه رحمه الله تعالى، لرفع اللبس في الآيات المتشابهة، وبيان أسرار الاختلاف بينها، والبحث عن الحكمة من ذلك الاختلاف الوارد، يقول عن ذلك: ”..تطلباً لعلامات ترفع لبس إشكالها،

---

= عام: ١٣٢٧هـ ثم في بيروت في دار الآفاق مرتين في عام: ١٩٧٣، و١٩٧٩م، أما النسخة التي اعتمدها في بحثي، فهي كالنسخ السابقة إلا أن الدار التي أخرجتها هي: دار الكتب العلمية، بيروت، عام: ١٤١٦هـ، وقد تم تحقيق الكتاب في رسالة علمية لنيل درجة الدكتوراه، بكلية أصول الدين بجامعة أم القرى عام: ١٤١٤هـ، للباحث محمد آيدين.

(١) جاء في نسخة أخرى (وحروفها المتشابهة المتعلقة والمنحرفة) انظر: تحقيق محمد آيدين: ١٣٥، والمراد بذلك والله أعلم أن بعض الكلمات المتشابهة قد يتعلق بالمعنى الأصلي للآية، والبعض الآخر قد يعدل به عن هذا المعنى إلى معنى آخر يراد أيضاً من الآية، انظر: لسان العرب: ٤٣/٩.

(٢) درة التنزيل: ٣.

وتخص الكلمة بآيتها دون أشكالها..“<sup>(١)</sup>.

كما يرى أيضاً أن من أسباب تأليف الكتاب عدم بحث هذا الموضوع من قبل العلماء المتقدمين بمثل ما أخرج في كتاب الدرة، فهذا الأمر أوجب عليه تأليف مصنف فيه، يقول: “..عزمت عليها بعد أن تأملت أكثر كتب المتقدمين والمتأخرين، وفتشت على أسرارها معاني المتأولين المحققين المتبحرين، فما وجدت أحداً من أهلها بلغ غاية كنهها، كيف ولم يقرع بابها ولم يفتر لهم عن نايها، ولم يسفر عن وجهها“<sup>(٢)</sup>.

فهذا النص المختصر يدل على أنه رحمه الله قد اطلع على مؤلفات جمعت الآيات المتشابهة، إلا أنها لم تعن ببيان الأسرار والدقائق التي وقف عليها في كتابه، ولهذا قال: “فما وجدت أحداً من أهلها بلغ غاية كنهها“.

ومن أسباب تأليفه أيضاً الرد على الملحدّين الطاعنين في كتاب الله تعالى الذين يزعمون أن هذه الآيات المتشابهة دليل على خلل في الأسلوب، وتعارض بين الآيات، فجاء الكتاب لبيان الحكمة من الاختلاف، وأن هذا أحد أسرار إعجازه، يقول: “...ولطعن الطاعنين رداً، ولمسلك الملحدّين شداً“<sup>(٣)</sup>، ويقول في آخر الكتاب: “هذا آخر ما تكلمنا عليه من الآيات التي يقصد الملحدّون التطرق منها إلى عيبها، والحمد لله وحده..“<sup>(٤)</sup>.

### منهج المؤلف فيه:

يُعد كتاب الدرة بحق أهم كتب هذا الفن، فهو أحد المصادر، بل هو الأساس الأول الذي يقوم عليه بحث التشابه اللفظي في القرآن الكريم، وهذا الكتاب يمكن أن يقال عنه: إنه تميز ببراعة الإنشاء والابتكار من قبل مؤلفه

(١) المصدر السابق: ٣.

(٢) درة التنزيل: ٣.

(٣) المصدر السابق: ٣.

(٤) المصدر السابق: ٣٠٦.

رحمه الله؛ إذ لم يسبق إلى هذا العمل في توجيه الآيات المتشابهة لفظاً، فهو أول من فتح باب هذا العلم، فله قدم السبق، وكفى به من إنجاز، يقول في مقدمة الكتاب: "...فما وجدت أحداً من أهلها بلغ غاية كنهها، كيف ولم يقرع بابها، ولم يفتر لهم عن نابه، ولم يسفر عن وجهها، ففتقت من أكمام المعاني ما أوقع فرقاناً...".

سلك المؤلف في كتابه مسلك المفسرين، فرتّب كتابه على ترتيب السور والآيات في المصحف الشريف، فبدأ بسورة البقرة ثم آل عمران وهكذا، يبدأ بالآية الأم التي تكون البداية للمتشابهات ثم يلحق بها ما يشابهها من الآيات من السورة نفسها، ثم من باقي سور القرآن الكريم، كل ذلك بشكل مرتب، وبطريقة استقرائية دقيقة. فيقول مثلاً: سورة البقرة، الآية الأولى منها، وبعد أن ينتهي من توجيه الاختلاف، يقول: الآية الثانية، وهكذا.. حتى تنتهي المسائل. والجدير بالذكر أن عدد الآيات الأم في الكتاب (٢٧٤)، وإذا أضفنا إليها الآيات المتشابهة التابعة للأصول السابقة يصبح عدد الآيات (٢٥٣) آية متشابهة، وقد فات عليه رحمه الله آيات متشابهة كثيرة استدرکها عليه الكرمانی، وابن الزبير الغرناطي.

ومن الملاحظ على منهج الخطيب الإسكافي في كتابه أنه يستدرك على نفسه إذا فاتته الحديث عن الآية في موضعها حسب ترتيب المصحف، فيذكر الآية التي فيها التشابه في الموضع الثاني، وينبه على أن مكان هذه الآية كان في سورة كذا، ومن أمثلة ذلك قوله: "وكان حقها أن تذكر في موضعها، لكن لم تحضرني هناك فذكرتها مع أخواتها، وإن كان ذكرها متقدماً في القرآن.."<sup>(١)</sup>. ويقول في موضع آخر: "حكم هذه الآية أن يكون ذكرها في سورة الأعراف، ثم لما تأخرت وجب أن تكون في سورة العنكبوت، إلا أنا رأيناها تتعلق بهذه السورة فذكرناها فيها"<sup>(٢)</sup>.

(١) درة التنزيل: ٥٤.

(٢) المصدر السابق: ١٢٤.



ومن منهجه في الكتاب طريقة عرض المسائل، فقد اعتمد منهجاً خاصاً في توجيه الآيات المتشابهة، ففي كل سورة يعقد بحثاً خاصاً لكل آية من الآيات المتشابهة، يذكر معها ما ورد في كتاب الله من آيات مشابهة لتلك التي جعلها أصل المسألة، وهذا منهج يدل على الترتيب، وحسن العرض، ووضوح الرؤية، وقد أصبح منهجه هذا قدوة لمن جاء بعده، فأخذ به من ألف في الآيات المتشابهة بعده.

## مصادر المؤلف:

كما مر بنا في ترجمة الإسكافي أن كتب التراجم لم تذكر شيئاً عن شيوخه الذين تتلمذ عليهم، كما لم تذكر أي كتاب أو كتب اعتمد عليها الخطيب في مؤلفاته على نحو عام، وفي كتاب الدرة بشكل خاص، إلا ما ذكر عن تأليفه كتاباً يوضح فيه غلط كتاب العين، وآخر اختصر فيه كتاب العين، كما ألف كتاباً عن شواهد كتاب سيبويه، وهذا الأمر أشار إليه المترجمون في ترجمتهم له، ولا نعلم عنه شيئاً.

ونحن حين نتأمل كتاب «الدرة»، ونتبع ما قاله الخطيب الإسكافي من أوله وحتى نهايته، يتبين لنا أنه رحمه الله صاحب علم جم وثقافة واسعة، وصاحب اطلاع واسع، ولهذا قال في مقدمة الكتاب: "تأملت أكثر كتب المتقدمين والمتأخرين"، ولكن ليس هناك أي تصريح سواء في مقدمة الكتاب أو في صلبه، بذكر أي مصدر قد يكون استقى منه محتوى هذا الكتاب أو أي جزء منه.

ومن خلال استقراء الكتاب يمكن القول إنه اعتمد رحمه الله في توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم على العديد من المصادر أهمها:

القرآن الكريم وعلومه: حيث اعتمد على تفسير بعض الآيات ببعضها مما يظهر مدلول الآية ويوضحها<sup>(١)</sup>، كما أنه يعتمد في توجيه الآيات على

(١) انظر مثلاً: درة التنزيل: ٤٤.

سياق السور والآيات وهذا أمر جلي، وسنقف مع هذا الأمر حين نتحدث عن قضايا الكتاب. كما استفاد أيضاً من ترتيب القرآن بأنواعه كالترتيب المكي والمدني، أو أسباب النزول، أو حسب ترتيب السور في المصحف، وهذا أمر ملاحظ في الكتاب<sup>(١)</sup>.

الحديث الشريف والأثر: يعد الخطيب الإسكافي مقلداً من حيث الاستشهاد بالحديث والأثر، وربما كان سبب ذلك عدم ربط الكتاب بهما، فمراد الكتاب معرفة الأسرار والحكم من الاختلاف الوارد بين الآيات المتشابهة، ومع هذا استشهد الخطيب بالأحاديث والآثار في أكثر من موضع<sup>(٢)</sup>.

علم القراءات: اعتمد الخطيب الإسكافي في بعض مسائله على القراءات، واختلاف القراء، فكشف بذلك بعض جوانب الاختلاف بين الآيات المتشابهة على ضوء اختلاف القراءات في الآية<sup>(٣)</sup>.

أقوال المفسرين: اعتمد الخطيب على أقوال بعض المفسرين من الصحابة والتابعين، مثل: ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، ولم يشر إلى كتب بعينها<sup>(٤)</sup>.

آراء النحويين واللغويين: الخطيب الإسكافي أحد أعلام اللغة والنحو، ولهذا جاء أكثر مصنفاته حول اللغة والنحو، وفي كتابه «درة التنزيل» يظهر ذلك على نحو واضح وجلي، حيث استفاد من اللغة في توجيه اختلاف الألفاظ القرآنية، كما أن كتابه مليء بالمباحث النحوية التي تدعم رأيه وتوجيهه، أما من ذكرهم في كتابه فهم قلة، وقد يصرح أحياناً بأسماء كتبهم، كالخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ) في العين، وسيبويه (ت ١٨٠ هـ)

(١) انظر: مثلاً: ١٠، ٢٥-٢٦، ٥٧، ٦٥، ١١٥-١١٦، ١١١، ٢٥٢-٢٥٣.

(٢) انظر مثلاً: ٢٥، ٤٩.

(٣) انظر مثلاً: درة التنزيل: ٤٤، ٨.

(٤) انظر درة التنزيل: ١٠١، ٦٦، ٥٢، ٥١، ٤٩.

في الكتاب، أما الفراء (ت ٢٠٧هـ)، والمبرد (ت ٢٧٦هـ)، فذكرهما بالاسم فقط<sup>(١)</sup>.

### أثره فيمن بعده:

يظهر أثر كتاب الخطيب الإسكافي فيمن جاء بعده من ناحيتين:  
الأولى: كونه أول كتاب ألف في هذا الفن، وقد أشار إلى ذلك الخطيب في مقدمته للكتاب، كما صرح بذلك أيضاً ابن الزبير الغرناطي في «ملاك التأويل»، مع أنه عاش في بلاد الأندلس، يقول رحمه الله: "ورد عليّ كتاب لبعض المعتنين من جلة المشاركة، نفعه الله، سماه بكتاب درة التنزيل وغرة التأويل، قرع به مغلق هذا الباب، وأتى في هذا المقصد بصفو من التوجيهات لباب، وعرف أنه باب لم يوجف عنه<sup>(٢)</sup> أحد قبله بخيل ولا ركاب، ولا نطق ناطق قبل فيه، وحق لنا به لإحسانه أن نقتدي به ونستنّ..."<sup>(٣)</sup>.

الناحية الثانية التي تُظهر أثر الكتاب: ما حواه من توجيهات علمية مفيدة، وفوائد نادرة، كشفت عن أسرار الكتاب العزيز، وبيّنت وجوهاً من الإعجاز التي تميز بها القرآن الكريم، فأظهرت الآيات المتشابهة حكماً ودقائق في المعنى والمبنى، أشير إليها لاحقاً بإذن الله.

وقد كان أثر الكتاب واضحاً في كتب المتشابهة التي ألفت بعد الإسكافي، وأخص بالذكر كتاب «البرهان في متشابه القرآن» للكرماني (ت ٥٠٠هـ)، وكتاب «ملاك التأويل» لابن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ)، ثم كتاب «كشف المعاني في المتشابه من المثاني» لبدر الدين بن جماعة (ت ٧٣٣هـ)، وكتاب «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن» لأبي يحيى زكريا

(١) انظر: درة التنزيل: ٦٦، ١٦، ١١.

(٢) كذا في «ملاك التأويل». وفي القرآن الكريم "فما أوجفتم عليه".

(٣) ملاك التأويل: ١٤٦/١.



الأنصاري (ت ٩٢٦هـ)، فمن يطالع كتاب درة التنزيل، ويتأمل الآيات التي تناولها الإسكافي بالدراسة والبحث، ثم ينظر إلى مواضعها في كتب المتشابه التي ألفت بعد الخطيب الإسكافي، يجد تأثير الكتاب واضحاً، إما بنقل التوجيه برمته، أو نقل المعنى والتصرف في اللفظ، وهكذا، بل هناك إجماع بين علماء المتشابه في كثير من المواضع على ما ذكره الإسكافي<sup>(١)</sup>، وستكون لي وقفة مع هذه الكتب أوضح فيها أثر كتاب الدرة، وذلك في الفصول القادمة إن شاء الله تعالى من هذا الباب.

أما أثر الكتاب في كتب التفسير التي تُعنى بالإعجاز القرآني، ولها اهتمام بتوجيه الآيات المتشابهة تشابهاً لفظياً، مثل الكشف للزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، والتفسير الكبير للفخر الرازي (ت ٦٠٤هـ)، والبحر المحيط لأبي حيان (ت ٧٥٤هـ)، وروح المعاني للألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) وغيرها من التفاسير، فأمر واضح أيضاً ويعرف ذلك من خلال توجيه الآيات المتشابهة، إذ إن الخطيب الإسكافي متقدم عليهم جميعاً، حيث توفي رحمه الله عام ٤٢٠هـ، ومن أمثلة ذلك توجيه الاختلاف في التقديم والتأخير في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾: ١٥١، وفي

(١) ففي فصل الذكر والحذف مثلاً، هناك إجماع بينهم على توجيه الإسكافي لقوله تعالى في سورة غافر: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيَّتَةٌ لَّارِيبَ فِيهَا﴾ وفي الآية الأخرى من سورة طه: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَكَّادُ أُخْفِيهَا﴾، وتوجيه قوله تعالى: ﴿إِنِّي عَمِلْتُ فَنُوفَ تَعْلَمُونَ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنِّي عَمِلْتُ سَنُوفَ تَعْلَمُونَ﴾، وتوجيه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ وَهَّاءُ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ وَهَّاءُ﴾، وتوجيه قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، وتوجيه آية الكهف ﴿قَالَ الرَّاقُلُ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿قَالَ الرَّاقُلُ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ﴾، وكذلك توجيه قوله تعالى: ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾، وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ دَعَا تَيْنَهُ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ دَعَا تَيْنَهُ﴾، وكل هذه المواضع وغيرها بحثت في مواطنها في الفصل الأول من الباب الثالث.

الإسراء جاءت الآية بتقديم رزق الأبناء على الآباء في قوله: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾: ٣١، فقد أجمع علماء المتشابه، وعلماء التفسير على توجيه الإسكافي<sup>(١)</sup>، ففي ضوء ما بحثته في الباب الثاني، والثالث، أجد في الغالب معنى كلام الإسكافي في توجيههم للآيات المتشابهة، وأحياناً نص كلامه<sup>(٢)</sup>، ومع هذا لا أجد تصريحاً باسمه أو ذكراً لكتابه في توجيهاتهم، حتى عند المفسرين المتأخرين.

وقد وجدت إشارة من الشهاب الخفاجي في حاشيته على تفسير البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، إذ أشار إلى كتاب الإسكافي وأثنى عليه، يقول رحمه الله بعد أن تحدث عن تفسير آية الأنعام ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ ٣٢: ”بقي هنا نقطة وهو أنه جمع اللهو واللعب في آيات، فتارة قدّم اللعب كما هنا، وتارة قدّم اللهو كما في العنكبوت، فهل لهذا التفنن نقطة خاصة أم لا؟ فأبدى بعضهم لذلك نقطة وزعم أنها من نتائج أفكاره، وليس كما قال، فإنها مذكورة في درة التنزيل، وهو أبو عذرتة<sup>(٣)</sup> في هذا الفن، ومحصل ما ذكره أن الفرق بين اللهو واللعب — مع اشتراكهما في أنهما الاشتغال بما لا يعني العاقل ويهمه من هوى وطرب سواء أكان حراماً أم لا — أن اللهو أعم من اللعب، فكل لعب هو ولا عكس، فاستماع الملاهي هو وليس بلعب، وقد فرقوا بينهما بأن اللعب ما قصد به تعجيل المسرة والاسترواح به، واللهو كل ما شغل من هوى وطرب، وإن لم يقصد به ذلك كما نقل عن

(١) انظر: فصل التقديم والتأخير في الباب الثالث فقد تم بحث المسألة، ومن الأمثلة أيضاً في التقديم والتأخير فقط، توجيه آية المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَى﴾، وآية الأنفال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَإِيَّاكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وآية الأنعام: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾... إلى غير ذلك من الآيات التي بحثت في مواضعها.

(٢) انظر مثلاً: درة التنزيل: ٦، والتفسير الكبير: ٥١/٣ — ٥٢، وانظر أيضاً: درة التنزيل:

٦٩، وروح المعاني: ٢٣٠، وفي البابين الثاني والثالث شواهد كثيرة تراجع في موطنها.

(٣) الاعتذار الافتضاظ، ويقال: فلان أبو عذر فلانة، إذا كان افتزعها وافتضاها، وقولهم: ما أنت بذئ عذر هذا الكلام، أي: لست أول من افتضه: انظر: لسان العرب: ٥٥١/٤ — ٥٥٢.

أهل اللغة“.

ثم نقل أقوال علماء اللغة كما هو مبين عند الخطيب الإسكافي، وقال في ختام حديثه: ”وإن أردت التفصيل فطالع درة التنزيل“<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا فإن مظاهر تأثير الكتاب تظهر في أمور، منها: اقتفاء أثر الإسكافي في التأليف في هذا الفن، وكذلك اتباع طريقته التي أبدعها في منهجه في تأليف الكتاب، وكذلك التأثير المصرح به كما عند الكرمانى وابن الزبير والشهاب الخفاجي في موضع تقديم اللعب على اللهو الذي سبق ذكره، أو التأثير غير المصرح به كما أوضحت سابقاً.

### ثالثاً: قضايا الكتاب وقيمه العلمية:

إن الحديث عن قضايا كتاب درة التنزيل، وعن قيمته العلمية، حديث ليس بالسهل، ولا سيما مع كتاب يعد الكتاب الأم لهذا الفن، فالحديث عنه حديث عن الكتب التي ألفت بعده وأخذت منهجه وطريقته إلا في اختلافات يسيرة ليست بالجوهرية، ومع أن حديثنا هنا جاء بعد بحث المسائل وبسطها، وعرض الأقوال وتمحيصها، ومعرفة درجتها وأثرها، إلا أن الحديث عن قضايا الكتاب وقيمه العلمية يحتاج إلى تأمل وتروٍّ، وإلى مزيد من الوقت.

وبعد طول نظر وتأمل فيما خطه الخطيب الإسكافي في كتابه ظهرت لي أمور أعدها تمثل الخطوط الرئيسة في قضايا الكتاب، كما تمثل القيمة الحقيقية لهذا العمل العلمي العظيم الذي بنى به الخطيب الإسكافي صرحاً علمياً جديراً بالعناية والرعاية في دراستنا لإعجاز القرآن الكريم، وأساليبه البلاغية المتنوعة.

### ١- المنهج التطبيقي: عرف في تاريخ التأليف البلاغي منذ وقت مبكر

(١) حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي: ٤/٤٩، وانظر تفصيل المسألة في فصل التقديم والتأخير في الباب الثالث في هذه الرسالة.



هذا المنهج، والذي ينظر في تراث الأمة يرى عجباً في تحليل النصوص، والوقوف عند دقائقها، فالنظرة واسعة، والأفق رحب، ولك أن تتأمل التراث البلاغي منذ أن وضع أبو عبيدة معمر بن المثنى «مجاز القرآن»، ثم كتب الجاحظ، وابن قتيبة، وابن المعتز، وقدامة بن جعفر، وبعد هؤلاء العلماء، أخذت الدراسات البيانية اتجاهين متقابلين، لكن الغرض واحد والهدف متقارب، فمن العلماء من اتجه إلى بحث إعجاز القرآن، وقد حفظ لنا التاريخ جهد الرماني، والخطابي، والباقلاني. والبعض اتجه في التأليف إلى البيان بعامة، فهذا أبو هلال العسكري في كتابه «كتاب الصناعتين»، والجرجاني في «الوساطة بين المتنبي وخصومه»، والآمدي في «الموازنة بين الطائيين»، وكتاب «عيار الشعر» لابن طباطبا، و«سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي، و«المثل السائر» لابن الأثير كلها تزخر بالمعلومات البلاغية والبيانية، القائمة على تذوق ما في النصوص من خصائص وتراكيب، فتبرز محاسنها وتوضح ما فيها من عيوب.

أما الإمام عبد القاهر الجرجاني فكان له دور عظيم، وأثر كبير، فقد هضم ما أنتجه علماء الإسلام قبله، فبرع في استنباطاته، وأجاد في أطروحاته، فاستطاع أن يضع علماً متكامل البنیان للبلاغة، كان محل إعجاب العلماء واهتمامهم منذ القرن الخامس الهجري، وقد عرف منهجه بتحليل النصوص، والوقوف على أسرار ودقائق لا يستطيعها إلا من أوتي فهماً دقيقاً، وحساً مرهفاً، وذوقاً سليماً، يقول أمين الخولي: "... يجيء عبد القاهر الجرجاني، فنجد المدرستين — يقصد مدرسة الأدباء، ومدرسة المتكلمين اللتين قسّم بهما علماء البلاغة — تظفر كل واحدة منهما بنصيب من عمل عبد القاهر، فهو متكلم فلسفي تارة، وهو أديب صانع كلام وناقده طوراً..."<sup>(١)</sup>، وهذا من الأمور التي تميز بها عبد القاهر الجرجاني رحمه الله.

(١) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها: ٢٣.

لقد ربط الشيخ بين القواعد والشواهد، فحلل النصوص ووقف عند دقائقها، وربط البلاغة بالنحو فأخرج نظرية النظم التي بنى عليها كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وكان مصدر ذلك وأساسه أنه رحمه الله بنى شخصيته بناء متكاملاً تعانقت فيه الثقافة العربية الأصيلة — التي طلبها من تراث من سبقه من أهل العلم، ولا سيما علماء اللغة والأدب، وهو التراث الذي أشرت إليه في أول حديثي — مع روحه التواقية للإبداع، فهضم تلك العلوم، وانطلق يبحث في خصائص اللغة وتراكيبها ودلالاتها، جاعلاً نصب عينيه كلام من سبقه من علماء الأمة، فشرح وحلل، وحشد الشواهد، والأمثلة بمنهج متميز، فوقف عند كل نص موضحاً أسرارهِ ودقائقهِ، ومبيناً عناصر الجودة والضعف فيه، بأسلوب علمي وأدبي<sup>(١)</sup>.

يقول الدكتور أبو موسى عن عبد القاهر: ”.. هذا الاتجاه كان في حاجة إلى كثير من الحوارين ينهضون لتثبيتهِ وتمكينهِ وإتمامهِ حتى يكتمل بناء متناسقاً يمهد سابقه للاحقه، ولكن القدر لم يهيئ لهذا العالم السني إلا فتى من فتیان المعتزلة، أنبتته أرضه فهضم تراثهِ، وارتنى منهجه، ونسج على منوالهِ، وأضاف لبنات في هذا البناء لا تختلف في نسقها ونوعها عما بدأه الأستاذ، ولو قدر لهذا الاتجاه أن تتواصل حلقاته لكان بين أيدينا منه الخير الكثير..“<sup>(٢)</sup>.

والحق أن نعلم أن هذا المنهج المتميز في عرض المسائل البلاغية منهج صعب المسلك، لا يستطيعه إلا من أوتي ذوقاً سليماً وحساً أدبياً مرهفاً في

---

(١) انظر: المدخل إلى كتابي عبد القاهر: موضوع عبد القاهر يستكشف جوهر البلاغة: ١٩٣ وما بعدها.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٣٦، وقول الدكتور أبي موسى: ”ولكن القدر لم يهيئ..“، فيه نظر، ولو قال: ”ولكن اقتضت حكمة الله أن يهيئ لهذا العالم السني...“، لكان أفضل، لأن إضافة أمر يقتضي الفعل الاختياري إلى القدرة لا يجوز، فالقدر والقدرة أمران معنويان، ولا مشيئة لهما، وإنما المشيئة لمن هو قادر، ولمن هو مقدر. انظر: مجموع فتاوى الشيخ محمد بن عثيمين: ١/١٢٨.

معرفة النصوص وسبر أغوارها، يقول ابن خلدون (ت ٨٨٠هـ) في الذوق: "ملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك، التي استنبطها أهل صناعة اللسان، فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها .." (١).

فهذا النص المقتضب من ابن خلدون يدل دلالة عظيمة على أن السبيل إلى معرفة اللغة، والوقوف على خصائصها، لا يمكن أن يأتي وفق الأساليب المتبعة في التعليم التي تعتمد على التقسيم والتعليل ووضع المصطلحات، مع الشح في ذكر الأمثلة والشواهد، وعدم سبر أغوارها، فلا بد لطالب العلم الحق الذي يريد تلك الملكة وذلك السبيل أن يطلع على تراث الأمة، ويهضم ذلك التراث مع المداومة على قراءته، وسبر أغوار النصوص، والوقوف على دقائقها وخصائص تركيبها.

إذاً التطبيقات في الدرس البلاغي ليست أمراً هيناً، فهي حياته ونماؤه، كما تتركز فيها قدرة البليغ ومهارته، فقواعد البلاغة وأصولها يمكن أن تجمع في صفحات، والمهم هو التطبيق والنظر المثبت في النص المدروس وتحليل تركيبه، وإبراز محاسن صياغته ودلالات خصوصياته، والذي يعين على ذلك الحس المرهف، والذوق المتمرس البصير، وهذا التحليل المبني على التذوق هو أصح المناهج وأقومها في دراسة البلاغة، فإذا تخلف الذوق كانت أصولاً علمية شاحبة (٢).

وحين نتأمل كتاب الخطيب الإسكافي «درة التنزيل وغرة التأويل» نجد رحمه الله يعتمد المنهج التطبيقي في تحليل أسرار كل آية تناولها في كتابه الذي فتح به أبواب هذا العلم، وسار عليه العلماء الذين سلكوا مسلكه، ونهجوا منهجه في التأليف في هذا العلم، فأصبح قدوة يقتدى به في ذلك.

(١) مقدمة ابن خلدون: ٣ / ١٢٨٩ - ١٢٩٠.

(٢) انظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٣٧.



ويزيد من أثر الكتاب وتأثير صاحبه أنه رحمه الله متقدم على رموز هذا المنهج وهما الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، والزمخشري (ت ٥٣٨هـ)،  
فله قدم سبق في تطبيق هذا المنهج، كما أن له قدم سبق في التأليف في هذا العلم.

أما أبرز ملامح المنهج التطبيقي في دراسة الخطيب الإسكافي فمن ذلك:  
اعتماده مسألة التناسب في الكلام عن طريق توضيح مناسبة الكلمات بعضها مع بعض، وتطابقها في المعنى في سياق إيرادها، وهذا الأمر يلحظ غالباً في الباب الثاني من البحث حيث خصص لبحث الكلمة المفردة من حيث اختيار الصيغة، والجمع والإفراد، والتذكير والتأنيث، والتعريف والتكثير، ودلالة الحروف، كذلك مسألة التناسب بين الآيات، وهذا مقصد الكتاب، ففي كل موضع نراه يبحث في السياق المتقدم للآية ويحاول الربط بينهما، ليصل إلى السر أو الغرض الذي قصده.

كذلك خرج الخطيب الإسكافي بالبلاغة من دائرة الجملة الواحدة إلى دائرة النص، فأصبح ينظر إلى النص نظرة شاملة قائمة على تحليل التراكيب، ليصل إلى الخصائص والدلالات والمعاني مجتمعة دون تفريق أو تفريع، والكتاب بما يحويه من آيات متشابهة من أوله لآخره خير برهان على اتباع هذا المنهج المتميز.

وأكتفي بمثال واحد على هذا، ففي سورة يونس ورد تقديم الضر على النفع في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾: ١٨، وفي سورة الفرقان تقدم النفع على الضر فقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾: ٥٥.

يقول الخطيب الإسكافي: ”إنما قدم يضرهم على ينفعهم في الآية الأولى، لأن العبادة تُقام للمعبود خوفاً من العقاب أولاً، ثم رجاءً للثواب ثانياً، وقد تقدم في هذا المكان ما أوجب تقديم يضرهم على ينفعهم في الآية الأولى وهو قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: ١٥، فكأنه قال: ويعبدون



والتي تحتاج إلى نظر وتأمل في ذلك المنهج، كما تعد هذه القضية إحدى السمات المهمة التي توضح قيمة الكتاب، ومسائله، والجهد الذي بذل فيه، وقد أشرت بإيجاز لهذا المنهج الذي اتبعه الإسكافي في دراسة مسائل المتشابه في التعريف بالكتاب عند بيان الخطوط العريضة التي أقام الخطيب عليها كتابه.

فأقول وبالله التوفيق: لما بحثت مسائل الكتاب من خلال الخطة التي اعتمدها في البحث، لاحظت أمرين مهمين مع أمور أخرى جزئية، وهذان الأمران يتضحان أكثر مع كل مسألة أقوم بدراستها حتى نهاية البحث:

**الأمر الأول:** عناية الخطيب الإسكافي بالبحث عن الدلالة المعنوية في توجيه الآيتين المتشابهتين، أو الآيات المتشابهة، في كل موضع يقوم بتوجيهه، فيوضح مثلاً سر التعبير بصيغة المضارع في آية، وسر التعبير في الآية الأخرى المتشابهة بالماضي، ومثل ذلك التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والإفراد والجمع، والذكر والحذف، والتذكير والتأنيث، والفصل والوصل، وهكذا يحاول إيضاح السر والعلة من وراء هذا الاختلاف، والحق أن هذا هو الغرض من تأليف الكتاب، ولأجله ألقت الكتب البلاغية، وصنفت المصنفات، وهو ميدان البحث عند علماء البلاغة.

يقول عن توجيه التقديم في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾: ١٦١ وفي البقرة ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: ٥٨ ”والجواب عن ذلك مما يحتاج إليه في مواضع من القرآن في هذه الآية التي قصدنا الفرق بين مختلفاتها، وهو أن ما أخبر الله تعالى به، من قصة موسى عليه السلام وبني إسرائيل وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وما حكاه من قوله عز وجل لهم، لم يقصد إلى حكاية الألفاظ بأعيانها وإنما قصد إلى اقتصاص معانيها، وكيف لا يكون ذلك، واللغة التي خوطبوا بها غير العربية، فإذا حكاية اللفظ زائلة، وتبقى حكاية المعنى، ومن قصد حكاية المعنى كان مخيراً بأن يؤديه بأي لفظ أراد، وكيف شاء من



تقديم وتأخير..“<sup>(١)</sup>. ولم يوضح الفرق بين الموضعين، واكتفى بهذا القول، والحق أن هذا لا يسلم للإسكافي فكل ما ورد في كتاب الله تعالى في قصص الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم لم يكن باللغة التي خوطبوا بها، فهل معنى ذلك أنه لا توجد حكمة من الاختلاف الوارد بين الآيات المتشابهة؟ وقد ذكر ابن الزبير والكرماني توجيهات لهذا الاختلاف أوضحتها في فصل التقديم والتأخير.

ويقول في بداية توجيهه لتقديم بعض الفرق على بعض، واختلافها في النصب والرفع في آية البقرة، والمائدة، والحج: ”فالجواب أن يقال: إذا أورد الحكيم تقدست أسماؤه آية على لفظة مخصوصة ثم أعادها في موضع آخر من القرآن، وقد غيّر فيها لفظة كما<sup>(٢)</sup> كانت عليه في الأولى، فلا بد من حكمة هناك تُطلب، فإذا أدركتموها فقد ظفرتم، وإن لم تدركوها فليس لأنه لا حكمة هناك بل جهلتم...“<sup>(٣)</sup>.

وهذا كلام جيد فأسرار كتاب الله لا تنفذ، وما يخفى علينا لا يخفى على غيرنا، فباب العلم مفتوح، وقدرات البشر ليست واحدة، وكل يعمل على شاكلته.

**الأمر الثاني:** عناية الخطيب الإسكافي بإبراز مطابقة الكلمة في السياق الذي وردت فيه في الآيات المتشابهة، فنراه كثيراً يعود بنا إلى أول الآية التي هي محل البحث، أو إلى الآية التي قبلها على حسب ما يراه في كل موضع، فيذكر مثلاً أن سبب ذكر هذه اللفظة في الآية من تعريف وتنكير، أو تقديم وتأخير، أو أفراد وجمع وهكذا... هو أنه تقدمها في السياق قوله... وهكذا، وكثيراً ما يجمع بين المناسبتين المعنوية واللفظية، وسأذكر شاهدين

(١) درة التنزيل: ٨.

(٢) كذا في المطبوع، وصوابها: عمّا.

(٣) المصدر السابق: ١٠، وقد فصلت الحديث عن هذا الموضع في فصل التقديم والتأخير في الباب الثالث.

أو ثلاثة على ذلك، وإلا فإن في البابين الثاني والثالث شواهد كثيرة جداً قمت بتوضيحها في أماكنها من البحث.

والحق أن معرفة الألفاظ المتشابهة، والصيغ الجارية في الآيات المتشابهة متوقفة على معرفة السياق الذي جرت فيه، لأن السياق هو الجذر الذي يمدّها بالحياة والأسرار، وهو الأرومة والمعدن الذي إليه يرد الأمر<sup>(١)</sup>.

وهنا إشارة لا بد من ذكرها قبل ذكر بعض توجيهات الخطيب الإسكافي، وهي أن كثيراً من المفسرين، وبعض علماء المتشابه يردون مسألة المطابقة اللفظية، أو المناسبة اللفظية - إن صح التعبير - إلى مسألة التفنن في الكلام، والحق أن البلاغة كما يقال: لكل كلمة مع صاحبها مقام، فالنظر في سياق النص، سواء المتقدم أو المتأخر، له أثره في بلاغة الكلام، وأنها تبحث في مطابقة الكلمة للمقام.

وقد نظرت إلى هذه المسألة في كتاب الله تعالى في الآيات غير المتشابهة، فوجدت لها أصلاً يقاس عليه، من ذلك ما جاء في سورة مريم، إذ ورد في أول كل قصة من قصص الأنبياء لفظ (واذكر)، ففي أول السورة جاء قوله في أمر نبي الله زكريا: ﴿كَهَيْعَظَ ۝١ ذَكَرْ رَحِمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢﴾: ١، ٢، وفي قصة مريم عليها السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦﴾: ١٦، وفي قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝٤١﴾: ٤١، وكذلك في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ۝٥١﴾: ٥١، وفي إسماعيل: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ۝٥٤﴾: ٥٤، وفي إدريس: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝٥٦﴾: ٥٦.

فهذا الأسلوب له دلالة وسره، وقد أشار الطاهر بن عاشور رحمه الله إلى ذلك؛ حيث ذكر أن افتتاح القصص بهذا الأسلوب فيه زيادة اهتمام

---

(١) انظر: دراسة في البلاغة والشعر للدكتور أبو موسى: ٢١ وما بعدها، موضوع الأمثال في سورة النور.

بها، وتشويق للسامع أن يتعرفها ويتدبرها<sup>(١)</sup>. ومثل ذلك أيضاً ما جاء في سورة (ص) حيث ورد فيها آيات كلها بدأت باسم الإشارة كقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾: ٤٩، وقوله: ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾: ٥٣، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَالُهُ مِنْ نَفَادٍ﴾: ٥٤، وقوله: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّالِعِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾: ٥٥، وقوله: ﴿هَذَا فَلْيَذوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾: ٥٧، وقوله: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾: ٥٩، وإن التأمل للسورة من أولها يجد أثر التعبير بهذا الاسم، فقوله: ﴿هَذَا سَجَرٌ كَذَابٌ﴾: ٤، و﴿إِنَّ هَذَا شَيْءٌ عَجَابٌ﴾: ٥، و﴿إِنَّ هَذَا شَيْءٌ يُرَادُ﴾: ٦، و﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾: ٧، وهكذا يتكرر اسم الإشارة فيقرع السمع، ويشد الذهن، فهؤلاء الكفار وصفوا الحق بهذه الأوصاف التي تنبئ عن كراهيتهم الشديدة لهذا الدين، وللمصطفى ﷺ، فكان مآلهم إلى النار وشر مآب، أما مآل المؤمنين المصدقين فإلى جنة الخلد وحسن مآب. وحتى يكون لما ذكرته شيء من التطبيق، فإني سأذكر للقارئ نماذج يسيرة من أحاديث الخطيب الإسكافي في هذا الجانب، تؤيد ما ذكرت، ومن أراد الزيادة فليطالع البابين الثاني والثالث من هذه الدراسة؛ فقد وقفت مع كل نص أورده علماء المتشابهة وقمت بتحليله وإبراز معالمه، فمن ذلك تعليله لذكر الضمير المنفصل في قوله تعالى في الحج: ﴿وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾: ٦٢، وفي سورة لقمان جاءت الآية بدون الضمير، يقول تعالى: ﴿وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾: ٣٠.

يقول رحمه الله: "والجواب أن الأولى وقعت في مكان تقدمت فيه توكيدات مترادفة في ستة مواضع وهي: قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، فاللام والنون مؤكدتان، وبعده: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾: ٥٨، واللام مع هو مؤكدان، وبعده: ﴿لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِزْوَانِهِ﴾، واللام والنون سبيلهما تلك السبيل، وبعده

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٧٩/١٦.



﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾: ٥٩، السلام التي في خبر إن كذلك، وبعده: ﴿لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ إِيَّاكَ اللَّهُ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾: ٦٠، فلما ترادفت التوكيدات وجاء في هذا الموضع، وجاء بعده خبر بين خبرين وهو: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ "اقتضت أشباهه مثله" فجاء الخبر الثاني الواقع بين الخبرين وبعده الأخبار المؤكدة مؤكداً بقوله: (هو) فقال: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾، وليس كذلك ما جاء في سورة لقمان، لأنه لم تتقدمه التوكيدات التي تستتبع أمثالها كما تقدمت في الأولى<sup>(١)</sup>.

فالخطيب الإسكافي نظر إلى الآية من خلال المناسبة اللفظية، وهذه النظرة تتكرر كثيراً في ملاحظته لسياق الآيات المتشابهة، وأغفل الجانب المعنوي، وهو ما ذكره ابن الزبير والإمام الكرمانى في توجيههما للآيتين، وستكون لي وقفة مع هذا الموضع في فصل الذكر والحذف بإذن الله، أما نظرة الإسكافي لهذا الاختلاف فقائمة على أن السياق المتقدم لآية الحج قد أكد بعدة مؤكدات مترادفة في ستة مواضع، من لدن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآيات، فلما بني السياق المتقدم على ذلك أكد هذه الآية بضمير الفصل، فالضمير وافق هذه التوكيدات المتناثرة في الآيات فكان مقامه من مقامها، أما آية لقمان فلم يتقدمها مثل ذلك فلم تحتج إلى ضمير الفصل، فكان لكل آية مقام في الزيادة وعدمها<sup>(٢)</sup>.

والخطيب الإسكافي لم ينظر للسياق القريب، بل كانت نظرتة بعيدة لتشمل السورة كاملة، ففي سورة الإسراء ورد تقديم ﴿لِلنَّاسِ﴾، على ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾: ٨٩، وفي سورة الكهف جاء التقديم لقوله: ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ على ﴿لِلنَّاسِ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ

(١) درة التنزيل: ١٧٣.

(٢) للمزيد انظر درة التنزيل: ٧، ٩، ٤٠، ٥٧، ٣٦، ٥٩، ٦١، ٩٠، ١٠١، ١١٣، ١٥٧،

١٦٣، ١٥١، ٩١، ١٧١، ٢٢٠، ٢٧٢، ١٧٠، ٢٨٠، ٢١٥، ١٠٤، ٢١٩...

مِنْ كُلِّ مِثْلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾.

يقول الإسكافي: ”آية الإسراء جاءت بعد أمثال ضربت نحو ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾: ٧٢، وبعد تخويف النبي ﷺ وتحذيره كتحذير الناس كلهم إذ يقول: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَةً﴾: ٧٣، إلى قوله: ﴿إِذَا لَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾: ٧٥، فقال بعده، وقدم للناس ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ..﴾ تنبيهاً للناس، وليهتموا بفهمه، ويعنوا بتدبره، ويقفوا عند أوامره، وينتهوا عن زواجره، فكان موضع الآية يقتضي تقديم الناس على عادة العرب في تقديم ما عنايتهم بذكره أتم.

وأما الآية الثانية فإنها وقعت في السورة التي تقدم فيها ذكر أصحاب الكهف، وما سئل النبي ﷺ عن الإخبار به مما لم يقدر عليه إلا بأن يوحى إليه... فقال في هذا المكان: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مِثْلٍ﴾ للدلالة على ما طلبوه من النبي ﷺ، وما قد أوحى الله به إليه في كتابه، فكان تقديم ذلك في هذا المكان أولى والله أعلم“<sup>(١)</sup>.

وفي توجيه الخطيب الإسكافي لهذا الموضع لفظة ينبغي الإشارة إليها، وهي نظرتة البعيدة في سياق النصوص، فكأن السياق يطلب بعضه بعضاً، حتى أصبح كالجملية الواحدة، فهو رحمه الله يرجع سر تقديم كلمة على كلمة إلى سياق بعيد، ولنا أن نتأمل توجيهه لآية الكهف وهي الآية الرابعة والخمسون، فقد عاد لسياق أول السورة، حيث ذكر قصة أصحاب الكهف، وما تبع ذلك من قصص وأخبار إلى هذه الآية. فهذه السورة العظيمة، هي من السور القرآنية التي يظهر فيها وحدة الموضوع ظهوراً واضحاً؛ فترابط القصص وتدرجها أصبح كالموضوع الواحد، إنه ضرب من التلاؤم الذي ينبغي ألا يغفل.

(١) درة التنزيل: ١٥٣.

ومن ذلك ما جاء في سورة يونس من تقديم الأرض على السماء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾: ٦١، وفي سورة سبأ جاء تقديم السماء على الأرض على المعتاد في أسلوب القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: ٣.

فقد بنى الخطيب الإسكافي تقديم ذكر السموات في سبأ على التقديم الوارد في أول السورة وهو قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾: ١، أما آية يونس فقد جاءت عقب قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾: ٦١، فالمقصود من الآية ذكر علمه سبحانه وتصريفه لعباده من خير أو شر، وذلك كائن في الأرض فجاء تقديم الأرض على السماء. يقول رحمه الله: "إنما قدم ذكر السموات على الأرض في سورة سبأ، لأن هذه الآية مبنية على مفتاح السورة وهو: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾. فقدم ذكر السموات، لأن ملكها أعظم شأنًا وأكبر سلطانًا.. وأما التي في سورة يونس، فإنها جاءت عقب قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾. فكان القصد إلى ذكر علمه بما يتصرف فيه العباد من خير أو شر وذلك في الأرض، فأتمه بقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ واستوعب جميع ما في الأرض ثم أتبعه ذكر السماء، لأن الابتداء وقع بما يتعلق بها، وما يعمل العباد فيها، فلذلك قدمت الأرض عليها"<sup>(١)</sup>.

وتعليل الإسكافي لآية سبأ وأن الآية مبنية على مفتاح السورة وراءه أصل بلاغي أشرت إليه في الموضع السابق، وهو أن سياق الكلام في السورة يتلاحم ويترابط ويبني بعضه بعضاً، حتى يتآخى الكلام ويشبه بعضه بعضاً، ليس في المعنى فحسب، وإنما في المبنى أيضاً، وستكون لنا وقفة مع هذه المواضع في مواطنها من البحث بإذن الله، وإنما كلامنا هنا فيه إيجاز لأن المقام يطلب ذلك.

(١) درة التنزيل: ٢١٥.



٣- التميز والإبداع: لقد تميز جهد الخطيب الإسكافي في إخراج هذا العمل الجليل، وحُقَّ أن يوصف الكتاب بالجدّة والإبداع، وذلك لأُمور منها: أولاً: الجدّة في اختيار الموضوع، وهذا أمر مشاهد ومعلوم، فالكتاب يعد - حسب ما أعلم - أول كتاب في توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، وبه فتح الخطيب الإسكافي أبواب هذا العلم، وهو قول قال به الخطيب، ووافقه عليه جمهرة من علماء التفسير والمتشابه، كالكرماني، وابن الزبير، والشهاب الخفاجي وغيرهم، فكتاب درة التنزيل يعدّ بحق من أقدم وأظهر وأشهر الكتب في توجيه المتشابه.

ثانياً: الجدّة في تناول المسائل، سواء من حيث ترتيب الآيات على حسب ترتيب المصحف الشريف، أو في طريقته في توجيه كل مسألة حتى أصبح الكتاب كأنه مقسم إلى فصول كل فصل يحتوي على مباحث، فكل آية تعد مبحثاً مستقلاً، أو اتخاذ الأسلوب العلمي الأدبي حيث نرى جودة العبارة، وحسن الصياغة، أو سلوك المنهج التطبيقي، ذلك المنهج الذي عرف به الإمام عبد القاهر الجرجاني، وجار الله الزمخشري.

ثالثاً: الأسلوب المتميز الذي صاغ به كتابه، فقد كان للغة الخطيب الإسكافي في كتابه مذاق خاص، ولعل ذلك يرجع إلى أن اللغة التي تكشف حقائق المعرفة لها أثرها وقيمتها، كما أن حقيقة المعرفة لها أثرها وفعاليتها، فالكتاب الذي يبدأ بالمعرفة ويفتح باب علم من العلوم ليست لغته وطريقته ومنهجه كطريقة من جاء بعده، ولنا أن نتأمل كتاب سيبويه في باب النحو، وكتاب عبد القاهر في باب البلاغة، وهكذا جاء كتاب الإسكافي في هذا الفن، وسأقف بعد قليل عند قدرة الإسكافي اللغوية والنحوية.

٤- طول النفس في عرض المسائل: من الأمور الواضحة لقارئ كتاب «درة التنزيل» ملاحظة طول نفسه رحمه الله في توجيه الآيات المتشابهة، وهذا أحد نتائج الأسلوب التطبيقي والتحليلي الذي انتهجه الخطيب

في الكتاب، وعلى هذا فإن مما يؤخذ على الكتب التي تتناول البحث البلاغي تحديد القواعد وذكر الأقسام، والتمثيل بأمثلة قليلة كأن يكون جزءاً من آية، أو شطراً من بيت دون النظر في النص كاملاً، ومعرفة العوامل والظروف المحيطة به، وإن كان عذرهم أنهم يلخصون المعرفة للمبتدئ، ويضعون بين يديه أصول العلم، ويتركونه بعد ذلك يخوض البحر وحده في كلام العرب، ولهم إشارات وتنبيهات إلى ذلك، ولهذا كان أبرز وألمع من عرف بسعة البحث البلاغي، واشتهر بطول النفس في عرض المسائل والقضايا البلاغية الإمام عبد القاهر، حيث خرج بالبلاغة من دائرة الجزئية إلى الكلية، ونظر للنص نظرة بعيدة قائمة على التحليل، وتوضيح الأسرار الدقيقة بين السطور، وعلى هذا كان لازماً إبراز هذه القضية التي تضع الخطيب الإسكافي في موقعه الذي يستحقه، وتوضح هذه القيمة العلمية التي امتاز بها رحمه الله.

وأضرب مثلاً واحداً على ذلك، إذ نراه في بعض الآيات يجد الأسرار البلاغية كثيرة ومتنوعة، فيقوم بعملية الترتيب فيما بينها، حتى يستطيع أن يقف على كل سر، ويقدم توجيهه للقارئ في أحسن صورة، يقول عن الآية الرابعة في الكتاب، وهي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴿٥٩﴾: ٥٩ — ٥٨: ”ففي هذه الآية إذا ما ذكرت ست مسائل إذا قوبلت بالآية التي تشابهها من سورة الأعراف، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا ﴿١٦٢﴾: ١٦٢ — ١٦١.

فالمسألة الأولى: عطف كلوا على ما قبله بالفاء في سورة البقرة، وبالواو في سورة الأعراف، في قوله: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾: ٣٥ وهذه قد مرّ

الكلام فيها مستقصى<sup>(١)</sup>، وأما المسألة الثانية: فجمعه للخطيئة على الخطايا في سورة البقرة، وعلى الخطيئات في سورة الأعراف على قول أكثر القراء، وأما المسألة الثالثة: فزيادته رغداً في سورة البقرة، وحذفه له في سورة الأعراف، وأما المسألة الرابعة: فتقديم قوله: حطة في سورة الأعراف وتأخير له في سورة البقرة، والمسألة الخامسة: إدخاله (الواو) على ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ في هذه السورة، وإسقاطها منها في سورة الأعراف، وأما المسألة السادسة: فزيادة (منهم) في الأعراف في قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وسقوطه في سورة البقرة منها..<sup>(٢)</sup>، وقد تحدثت عن هذه الأسئلة كلها في مواطنها من البحث في البابين الثاني والثالث.

## ٥- قدرة الخطيب الإسكافي اللغوية والنحوية: هذه إحدى السمات

البارزة في كتاب الدرة، وقد عرفنا في بداية حديثنا عن الخطيب وعن كتاب الدرة مقدرته وتمكنه في علمي النحو واللغة، فاعتنى بكتاب الخليل بن أحمد «العين»، وكذلك «كتاب سيبويه» بالشرح والتحليل تارة، وبالنقد تارة أخرى، كما أن له مصنفات أخرى تبرز هذا الجانب، ولا شك أن معرفة النحو، والتبحر في اللغة خطوة كبيرة وقوية للتوصل إلى معرفة أسرار اللغة وبلاغتها، وانظر إلى علمي البلاغة عبد القاهر والزمخشري، فقد عرفا بالنحو قبل أن يعرفا بجهدهما في البلاغة، وبتطبيقهما الرائدة.

وإذا كنا لا نعلم شيئاً عن شيوخه الذين تتلمذ عليهم فإن ما خلفه الخطيب من آثار، وما دونه في كتاب درة التنزيل دليل قاطع على تلك الثقافة الواسعة التي استطاعت إخراج هذا الكتاب البكر في بابه، يقول

(١) تحدث في المسألة الأولى من الكتاب عن قوله تعالى في البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾: ٣٥، مع قوله تعالى في الأعراف: ﴿وَيَقَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: ١٩ ص ٥، وانظر تفصيل المسألة في الفصل الخامس من الباب الثاني.

(٢) درة التنزيل: ٧-٨.



الخطيب الإسكافي في مقدمة الكتاب: "تأملت أكثر كتب المتقدمين والمتأخرين، وفتشت على أسرارها معاني التأولين المحققين المتبحرين، فما وجدت أحداً من أهلها بلغ غاية كنهها"<sup>(١)</sup>، ومراد الخطيب من قوله: "بلغ غاية كنهها"، أنه سبق إلى التأليف في هذا الفن كتأليف الكسائي لمتشابه القرآن، لكن الذين سبقوه لم يبلغوا غاية كنه التأويل والتحليل الذي أبدعه الإسكافي في كتابه، ولهذا كان كتاب الدرة أقدم كتاب وصلنا من حيث التأليف بمعناه العلمي في توجيه الآيات المتشابهة.

وحين نتأمل كتاب «الدرة» نرى ربط الخطيب بين اللغة والنحو وبين البحث عن السر البلاغي الكامن في الآية الكريمة، وهذا هو الصواب، وأصل النظم عند عبدالقاهر الجرجاني قائم على توخي معاني النحو في معاني الكلم، وأن النظم ليس سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، ومن يطلع على الكتاب يجد الشواهد الكثيرة التي تبرز ذلك.

كما أن الخطيب لا يغفل الخلاف بين النحويين إذا كانت المسألة قد تحمل على أحد قولين فيذكر القولين ويرجح، فمثلاً في توجيه آية المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ..﴾: ٦٩، تحدث عن توجيه الرفع في (الصابئون) فأوضح أنه قُدِّم في اللفظ وأُخِّر في النية، وقال: "هذا مذهب سيبويه، لأنه لا يجوز عنده ولا عند البصريين وكثير من الكوفيين (إن زيدا وعمرو قائمان)، والفراء يجوز هذا على شريطة أن يكون الاسم الأول المنصوب بأن لا إعراب فيه، نحو: إن هذا وزيد قائمان، وهذه من كبار المسائل ذوات الشعب، ويتعلق الخلاف بين البصريين والكوفيين في أن لها عمليْن: نصب والرفع على مذهب البصريين، وأن لها عملاً واحداً عند الكوفيين وهو النصب، إلا أن المذهب الصحيح ما ذهب إليه سيبويه، وهذه الآية تدل عليه، لأنه قُدِّم فيها الصابئون والنية بها التأخير على مذهب سيبويه،

(١) مقدمة درة التنزيل: ٣.

ومثل ذلك كثير<sup>(١)</sup>.

أما المواضع التي استعرضها ولها صلة بمسائل النحو واللغة، فكثيرة جداً، ويصعب حصرها، فلا تكاد تخلو مسألة من مسائل الكتاب من ذلك، وهي شواهد على تمكنه رحمه الله في باب النحو وإفادته منه في كتابه، فتحليل المباني تحليلاً بلاغياً لا يتأتى لمن لم يتقن علم الإعراب، وهذا معلوم عند العرب أهل البيان، أما تمكنه في علم اللغة من ناحية فهم دلالة مفرداتها، وسر التعبير بها في الآيات الكريمة، فأمر يطول بيانه وإيضاحه، ويكفي أن نرجع إلى الباب الثاني في فصوله الخمسة من هذا البحث؛ حيث خصص الباب لبحث الكلمة المفردة في التشابه اللفظي.

وقد ذكر محقق كتاب «الدرة» أن من المآخذ على الخطيب الإسكافي: "توسعه في القضايا النحوية والقضايا اللغوية، وعدم اقتصاره على ما هو بصدده من توجيه الآيات التي فيها تشابه من تقديم وتأخير، أو تعريف وتنكير..."<sup>(٢)</sup>، وهذه في الحقيقة محمودة، وليست بمأخذ؛ لأن الغوص في المسائل النحوية، واللغوية مما يعين على كشف خفايا المعاني، كما أنها تنبئ عن شخصية علمية، ذات قدرات عظيمة، فالبحث في توجيه الآيات المتشابهة يحتاج إلى تأصيل دقيق، وعناية فائقة، فالبحث في كلام الله تعالى، وبالأخص فيما تشابه منه، ألا يستحق ذلك الشرح والبسط؟ كما أن عزل النظر النحوي عن النظر البلاغي، أو عن علم التفسير والتأويل لم يعرف عند أهل العلم، ولذا لزم التنبيه.

---

(١) درة التنزيل: ١١، وانظر تفصيل المسألة في فصل التقديم والتأخير، فقد تم بحث المسألة وذكر أقوال علماء التشابه، وآراء المفسرين والبلاغيين، وانظر مثل الموضوع أيضاً في الكتاب: ١٦، ٣٧، ٦٤، ١٢٧.

(٢) انظر: (درة التنزيل وغرة التأويل) تحقيق: محمد آيدين: ١٠٦-١٠٧.





## الفصل الثاني

كتاب البرهان في متشابه القرآن  
للإمام الكرمانلي:

مصادره وقضاياه



## الفصل الثاني البرهان للإمام الكرمانى مصادره وقضاياه

### أولاً: التعريف بالإمام الكرمانى:

الإمام الكرمانى هو محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى، النحوي، تاج القراء، وأحد العلماء الفقهاء النبلاء، صاحب التصانيف والفضل، كان رحمه الله آية في الفهم، وحسن الاستنباط، لم يفارق وطنه كرمان، ولا رحل عنها، هكذا قال ياقوت الحموي في معجم الأدباء<sup>(١)</sup>، وترجمته تعد الأم، وقد تناولها المترجمون بعده، زاد عليها من زاد، واختصر من اختصر<sup>(٢)</sup>.

وقد اعترض الأستاذ أحمد عز الدين خلف محقق كتاب البرهان في متشابه القرآن للكرمانى، على أن الكرمانى لم يفارق وطنه، وقال: "لا نسلم لياقوت أن الكرمانى لم يفارق وطنه ولا رحل، إذ هناك ما يؤكد رحلته إلى بلاد فارس وخراسان والجبّال، وأخذه عن علماء هذه الجهات، هذا وقد جرت العادة برحلة الناهيين من طلاب العلم والعلماء بقصد الاستزادة في المادة

---

(١) انظر: معجم الأدباء: ٢٦٨٦/٦.

(٢) انظر ترجمته في: غاية النهاية لابن الجزري: ٢٩١/٢، وبغية الوعاة: ٢٧٧/٢، وطبقات المفسرين للداودي: ٣١٢/٢، وكشف الظنون لحاجي خليفة: ٢٤١، ١١٢٦، ١١٩٧، ١٥٤١، ١٥٦٢، ومعجم المؤلفين لكحالة: ١٦٠/١٢، ومفتاح السعادة: ٤٨٢/٢، وهدية العارفين: ٤٠٢/٦، والأعلام: ١٦٨/٧.



العلمية، والتبحر في التخصص على يد أئمتها“<sup>(١)</sup>، وهذا اجتهاد منه لأنه ليس بين أيدينا ما يثبت أو يؤكد هذه الرحلة.

وقد ذكر ياقوت الحموي أنه عاش في موطنه كرمان، وهي من أعمال فارس<sup>(٢)</sup>، إلا أنه ليس بأيدينا شيء عن حياته ونشأته وأسرته، ولا عن طلبه للعلم، كما أن الكرمان لم يذكر في كتابه أي إشارة على من قرأ، وعمن أخذ العلم، ولا من قرأ عليه، ولا من أخذ عنه العلم، وجميع كتب التراجم التي ترجمت له، لم تذكر شيئاً عن ذلك<sup>(٣)</sup>، إلا ما ذكره صاحب غاية النهاية حيث قال: ”ولا أعلم على من قرأ، ولكن قرأ عليه أبو عبد الله نصر بن علي بن أبي مریم فيما أحسب“<sup>(٤)</sup>.

وقال عنه ياقوت: ”نصر بن علي بن محمد أبو عبد الله الشيرازي الفارسي الفسوي، يعرف بابن أبي مریم النحوي، خطيب شيراز وعالمها وأديبها، والمرجوع إليه في الأمور الشرعية والمشكلات الأدبية، أخذ عن محمود بن حمزة الكرمانی، وصنف تفسير القرآن وشرح الإيضاح للفارسي..“<sup>(٥)</sup>. يقول محقق الكتاب: ”ومن مصنفات الإمام نصر يتبين عمق تأثيره بأستاذه، فإن اتجاهه في التصنيف ما هو إلا تكملة لاتجاهات شيخه،

---

(١) البرهان في متشابه القرآن للكرمانی، تحقيق الأستاذ: أحمد عز الدين عبد الله خلف الله: ٢٩-٣١، وقد أطل في تحقيق هذه المسألة، والحق أنه ليس بين أيدينا شيء يثبت أو ينفي رحيله من وطنه، وأعظم من ذلك عدم توافر أي أخبار عن نشأته وأسرته، وطلبه للعلم، وشيوخه وتلاميذه، كل ذلك غائب ولا نعلم عنه شيئاً.

(٢) كرمان بفتح الكاف، وسكون الراء، وجاءت أيضاً بكسر الكاف، لكن الفتح أشهر، وهي ولاية من ولايات المشرق في العصر العباسي، وتقع شرق ولاية فارس، انظر: معجم البلدان: ٤٥٤/٤-٤٥٦.

(٣) انظر: البرهان في متشابه القرآن للكرمانی، تحقيق الشيخ ناصر العمر، رسالة ماجستير لم تنشر، كلية أصول الدين جامعة الإمام: ١٣٩٩هـ: ٢٣-٢٤.

(٤) غاية النهاية لابن الجزري: ٢٩١/٢.

(٥) معجم الأدباء: ٢٧٤٩/٦، وانظر ترجمته أيضاً في إنباه الرواة: ٣٤٤/٣، وغاية النهاية: ٣٣٧/٢، وطبقات الشافعية لابن قاضي شعبة: ٢٦٩/٢.

وأهمها تفسيره للقرآن الكريم المسمى (الكشف والبيان في تفسير القرآن) في ثمان مجلدات، و (الموضح في القراءات)، و (المنتقى في علل القراءات)، و (الإفصاح في شرح الإيضاح)، والإيضاح هو نفس كتاب الفارسي الذي لخصه الإمام الكرمانى<sup>(١)</sup>.

أما آثاره رحمه الله فمن يتأمل ما ألفه الكرمانى يلحظ أنه التزم منهج التخصص الدقيق فلا نجد من بين مؤلفاته إلا ما هو متصل بعلوم القرآن الكريم، أما اهتمامه بالنحو فلصلته الوثيقة بالقراءات، أما مؤلفاته التي ذكرها المترجمون فهي:

في علوم القرآن: (البرهان في متشابه القرآن)، (خط المصاحف)، (غرائب التفسير وعجائب التأويل)، (لباب التفاسير)، (الهداية في شرح غاية ابن مهران في القراءات).

وفي علم اللغة (النحو والصرف): (الإفادة في النحو)، (الإيجاز في النحو)، وهو مختصر لكتاب الإيضاح للفارسي، (العنوان)، (النظامي في النحو وهو مختصر اللمع لابن جني)<sup>(٢)</sup>، وهذه الكتب أشار إليها من ترجم له، على اختلاف يسير بينهم.

أما وفاته رحمه الله فلم تُعلم أيضاً، كما لم تُعلم ولادته ونشأته، وأغلب المصادر أخذت بعبارة ياقوت الحموي في معجمه، لأنه أقرب إلى عصر الكرمانى حيث أخبر أنه توفي بعد الخمسمائة من الهجرة النبوية، وهذه عبارة لها احتمالات كثيرة، وكل ما في الأمر أنها تنفي وفاته قبل هذا التاريخ<sup>(٣)</sup>.

---

(١) البرهان في متشابه القرآن تحقيق أحمد عز الدين: ٤١.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٣١، وقد جمع المحقق مؤلفات الكرمانى من كتب التراجم ووضعها في جدول، وقد اعتمد في جمعه للكتب على: معجم الأدباء، وطبقات القراء، والبغية والإتقان للسيوطي، وطبقات المفسرين، وكشف الظنون، ومعجم المؤلفين.

(٣) انظر: معجم الأدباء: ١٢٥/١٩.

## ثانياً: التعريف بكتاب البرهان في متشابه القرآن:

يعد كتاب (البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان)<sup>(١)</sup> امتداداً لكتاب درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي نهجاً واستفادة؛ فالكرماني رحمه الله نقل ما وجدته من ذلك عن الإسكافي، كما صرح هو في مقدمة كتابه، حيث قال: ”وروى أبو مسلم في تفسيره عن أبي عبد الله الخطيب -يعني الإسكافي- كلمات معدودات منها -يعني المتشابهات- وأنا أحكي لك كلامه فيها إذا بلغت إليها مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه“<sup>(٢)</sup>.

### موضوعه:

حدد الإمام الكرماني موضوع الكتاب في مقدمة الكتاب، وذلك بحصر الآيات المتشابهة في القرآن الكريم تشابهاً لفظياً، ومعرفة الاختلافات الدقيقة فيما بينها، ثم القيام بتوجيه هذه الاختلافات وتخرجها، يقول: ”فإن هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف أو غير ذلك مما يوجب اختلافاً بين الآيتين أو الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان..“<sup>(٣)</sup>.

### سبب تأليف الكتاب:

ذكر الإمام الكرماني أن سبب تأليف الكتاب هو أن العلماء الذين عنوا بهذا الأمر اقتصروا على ذكر الآيات المتشابهة وإخراجها في مؤلفات، ولم

---

(١) الكتاب مطبوع بعدة تحقیقات أفضلها وأجودها ما حققه الأستاذ أحمد عز الدين ، وهي النسخة التي اعتمدها في دراستي، وهي الطبعة الأولى عام: ١٤١١ هـ عن طريق دار الوفاء بمصر، كما أن الكتاب حقق في دراسة علمية لنيل درجة الماجستير، بكلية أصول الدين بالرياض عام: ١٣٩٩ هـ.

(٢) البرهان في متشابه القرآن: ١١١.

(٣) البرهان في متشابه القرآن: ١١٠.



يشتغلوا بذكر العلل وتوضيح ما تشابه في القرآن الكريم، وقد أوضح ذلك في مقدمة الكتاب فقال: ”ولكني أفردت هذا الكتاب لبيان المتشابه، فإن الأئمة رحمهم الله قد شرعوا في تصنيفه واقتصروا على ذكر الآية ونظيرها ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها والفرق بين الآية ومثلها، وهو المشكل الذي لا يقوم بأعبائه إلا من وفقه الله لأدائه“<sup>(١)</sup>.

ويفهم من هذه العبارة أنه تجاهل عمل الخطيب الإسكافي، لكنه عقب بعد ذلك بقوله: ”وروى أبو مسلم في تفسيره عن أبي عبد الله الخطيب كلمات معدودات منها، وأنا أحكي لك كلامه فيها إذا بلغت إليها مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه“<sup>(٢)</sup>، وهذا النص يدل على أنه كان ينقل عمل الخطيب الإسكافي، مع أنه أفاد منه كثيراً وسأبين بإذن الله مدى إفادته منه وأنه كان ينقل منه صريحاً وغير صريح، وسأعود إلى هذا حين أتحدث عن مصادر المؤلف، وكذلك حين نتناول المسائل بالدراسة.

## منهج المؤلف في الكتاب:

انتهج الكرمانى منهج الخطيب الإسكافي في كتاب الدرة الذي سبق أن تحدثت عنه في الفصل الأول، وقد أشار إلى شيء من منهجه في مقدمة الكتاب، يقول رحمه الله: ”فإن هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف أو غير ذلك مما يوجب اختلافاً بين الآيتين أو الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان، وأبين ما السبب في تكرارها، والفائدة في إعادتها، وما الموجب للزيادة والنقصان والتقديم والتأخير والإبدال، وما الحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الآية الأخرى، وهل كان يصلح ما في هذه السورة مكان ما في السورة الأخرى

(١) المصدر السابق: ١١٠.

(٢) المصدر السابق: ١١٠.

التي تشاكلها أم لا؟ ليجري ذلك مجرى علامات تزيل إشكالاتها، وتمتاز بها عن أشكالاتها من غير أن أشتغل بتفسيرها وتأويلها“<sup>(١)</sup>.

— فقد سلك رحمه الله مسلك المفسرين في ترتيب السور والآيات، فبدأ بسورة الفاتحة وانتهى بسورة الناس، مراعيًا ترتيب التلاوة سورة سورة، وآية آية، فيذكر السورة ثم يتناول ما فيها من الآيات المتشابهة مرتبة حسب ترتيب التلاوة، حتى إذا ما انتهى من السورة انتقل إلى السورة التي تليها، ثم يذكر الآية الأم ويلحق بها ما يشابهها من الآيات من نفس السورة، ومن باقي السور بطريقة استقرائية دقيقة، ثم يبين أسرار اختصاص كل منها بما جاء فيها من متشابه، وهذا الأمر — كما سبق القول — مأخوذ من طريقة الإسكافي، إلا أن جهد الكرمانى أدق في جمع الآيات المتشابهة، ويلحظ ذلك من اطلع على الكتابين وعقد بينهما مقارنة.

وهنا ملاحظتان:

**الأولى:** أن الكرمانى قد استدرك كثيراً من الآيات التي فاتت الإسكافي، وأن ابن الزبير استدرك أيضاً ما فات الخطيب والكرمانى، وسأوضح ذلك في حديثي عن انفرادهما بتوجيه بعض المسائل.

**الملاحظة الثانية:** أن العلماء الثلاثة (الخطيب الإسكافي، والكرمانى، وابن الزبير) قد استقصوا ما في كتاب الله من متشابه، وحتى يتبين ذلك يمكن الرجوع عند كل مسألة قاموا بتوجيهها إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، أو إلى كتاب دليل المتشابهات اللفظية، ومن جاء بعدهم نقل عنهم، وأخذ طريقتهم، وأخص بالذكر ابن جماعة، والأنصاري.

— إذا كانت الآية قد سبق توجيه ما فيها من المتشابه في موضع آخر، أشار إلى ذلك بقوله ”قد سبق“ دون أن يقوم بتوجيهها وهو كثير جداً في الكتاب، إلا أنه لا يشير إلى الموطن الذي تحدث فيه عنها في الكتاب<sup>(٢)</sup>.

(١) المصدر السابق: ١١٠.

(٢) انظر: البرهان: ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣١١، ٣٢٤، ٣٢٥ وغير ذلك كثير.

— أخذ الكرمانى بمنهج الإيجاز الشديد، والاختصار الدقيق فى توجيه الآيات المتشابهة، فأسلوبه أشبه بأسلوب البرقيات، مختصر ولكنه واضح فى معظمه، وهو فى هذا قد أوتى ملكة أداء المعنى بأخصر عبارة ممكنة، وهذا يدل على تمكنه من اللغة، إلا أن هذا الأسلوب فى توجيه الآيات المتشابهة يصعب تحقيقه، لأن الآيات المتشابهة تحتاج إلى بسط وزيادة توضيح، فالحال معها أدعى للبيان والإيضاح، ولهذا أرى أن الكرمانى يوجز إيجازاً شديداً فى بعض المسائل، وهى فى الواقع تحتاج إلى بسط وبيان، فمثلاً يقول فى سورة يونس: "قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾: ٢٨، وقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾: ٤ يدلان على ذلك فاكفى به"<sup>(١)</sup>. ومثل ذلك قوله عن آية البقرة: "قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾: ١٨٤: قيده بقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾، وكذلك قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾: ١٩٦، ولم يقيده فى قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾: ١٨٥، اكتفاءً بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ﴾ لاتصاله به"<sup>(٢)</sup>، ولهذا أجده فى بعض المسائل يقول: "أطنب الخطيب فى هذه الآيات، ومحصل الكلام.."<sup>(٣)</sup>، ثم يذكر توجيهه بإيجاز شديد.

— وكما حصل للخطيب الإسكافى فى استدراكه على نفسه إذا فاته الحديث عن الآية فى موضعها حسب ترتيب التلاوة، حصل للإمام الكرمانى فنجاه يشير للمكان الذى ينبغى أن يتحدث فيه عن الآيتين المتشابهتين، فمثلاً يقول: "قوله تعالى فى هذه السورة — يقصد الزمر —: ﴿وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ٣٥، وفى النحل: ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ٩٦، وكان حقه

(١) البرهان: ٢١٦.

(٢) المصدر السابق: ١٣٦—١٣٧.

(٣) المصدر السابق: ١٣٨.



أن يذكر هناك<sup>(١)</sup>، ثم يذكر توجيه الآيتين.

## مصادر المؤلف:

يعد كتاب الخطيب الإسكافي (درة التنزيل وغرة التأويل)، أحد أعمدة كتاب البرهان، فالكرماني ينقل ما وقف عليه من كلام الخطيب عن طريق تفسير أبي مسلم الأصبهاني؛ يقول في مقدمة الكتاب: (وروى أبو مسلم<sup>(٢)</sup> في تفسيره، عن أبي عبد الله الخطيب كلمات معدودات منها، وأنا أحكي لك كلامه فيها إذا بلغت إليها مستعيناً بالله متوكلاً عليه..)<sup>(٣)</sup>.

وقد صرح الكرماني بالنقل عن الإسكافي في كتابه البرهان في أربعة عشر موضعاً<sup>(٤)</sup>، وكثيراً ما ينقل عنه دون تصريح، وقد أوضحت ذلك في دراستي للمسائل في البابين الثاني والثالث، فأشير في كل موضع لتصريحه إذا صرح، أو أنه نقل بدون تصريح.

وحين نتأمل كتاب الكرماني نجد رحمه الله قد اعتمد على علماء كثر، فهم إما مفسرون أو قراء، أو علماء لغة وأدب، وذكر منهم: سيبويه (ت ١٨٠هـ)، وأبو عبيد بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، والمبرد (ت ٢٨٦هـ)، والطبري (ت ٣١٠هـ)، والزجاج (ت ٣١١هـ)، وابن السراج (ت ٣١٦هـ)، وأبو مسلم محمد بن بحر (ت ٣٢٢هـ)، وأبو بكر بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ)، وأبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ)، وابن مهران (ت ٣٨١هـ)، والرماني (ت ٣٨٤هـ)، وابن جني (ت ٣٩٠هـ)، والخطيب الإسكافي، والثعلبي (ت ٤٢٧هـ)، وأبو مسلم محمد بن علي الأصبهاني، والواحدي

(١) المصدر السابق: ٣٢٢.

(٢) هو أبو مسلم محمد بن علي بن الحسن بن مَهر يزد الأصبهاني، المفسر الأديب اللغوي المعتزلي، ولد سنة ٣٦٦هـ، وتوفي ٤٥٩هـ، له تفسير وضعه في عشرين مجلداً، انظر: طبقات المفسرين: ٢١٣.

(٣) البرهان: ١١١.

(٤) انظر: ١٢٠، ١٣٨، ١٤٠، ١٨٤، ١٩٤، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٤٠، ٢٤٥، ٣٢٠.

(ت ٦٨٤ هـ)<sup>(١)</sup>، لكن الأبرز والأهم: أبو عبد الله الخطيب الإسكافي.

ولهذا نجد أن بعض هؤلاء العلماء اعتنى الكرمانى ببعض كتبهم، فمثلاً أبو علي الفارسي له كتاب الإيضاح، نجد الكرمانى يقوم باختصاره في كتاب أسمائه (الإيجاز في النحو)، كذلك أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران له كتاب (الغاية في القراءات العشر) قام الكرمانى بتأليف شرح له وهو (الهداية في شرح الغاية)، وكذلك كتاب ابن جني (اللمع في النحو) اختصره الكرمانى في (النظامي في النحو).

وبوقفة متأنية مع كتاب البرهان نرى أن الإمام الكرمانى اعتمد في كتابه على مصادر متنوعة نذكرها فيما يلي:

١- **علوم القرآن:** كتفسير بعض الآيات ببعض، والنظر إلى سياق السور والآيات، وترتيب التلاوة، وأسباب النزول<sup>(٢)</sup>، وكتب التفسير، فالكتاب يزخر بأقوال المفسرين، كابن عباس رضي الله عنه، ومجاهد، والطبري، والرماني، وأبي مسلم الأصبهاني، وغيرهم<sup>(٣)</sup>.

٢- **كتاب درة التنزيل:** وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك، وأن الكرمانى أخذ طريقته ومنهجه، وذكر أقواله وتوجيهاته، فينقل بالتصريح باسم الإسكافي أحياناً، وقد عرفنا أنه صرح باسم الخطيب في أربعة عشر موضعاً فقط، يقول في أحد المواضع: (والخطيب ذهب إلى أن ما في الأعراف خطاب لهما قبل الدخول، وما في البقرة بعد الدخول)، ويقول في موضع آخر: (قال أبو مسلم حاكياً عن الخطيب..)، (وسأل الخطيب نفسه عن هذه المسألة فأجاب عنها..)<sup>(٤)</sup>، وهكذا.

(١) انظر: المصدر السابق: ٣٦-٣٧.

(٢) انظر: المصدر السابق: ١١٤، ١٢٨، ١٤١، ١٤٢، ١٥٠، ١٦١، ١٦٣، ١٦٧، ٢٧٢، ٣٠٢، ٣٠٦..

(٣) انظر: المصدر السابق: ١١٣، ١١٥، ١٣٢، ١٤٦، ٢٩٣، ١٦٨، ١٨١، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٩٣، ٣٠٢، ٣١٧، ٣٥٥، ٣٦٩.

(٤) المصدر السابق: ١٢٠، ١٤٠، ١٨٤.

وينقل بدون تصريح في الأغلب، وقد أوضحت ذلك في كل المواضع التي تناولتها بالبحث والدراسة في البابين الثاني والثالث.

**٣- علم القراءات:** الإمام الكرمانى متخصص في هذا الأمر، وله عناية به لصلته القوية بعلم التفسير، وقد تحدث في كتابه عن بعض الآيات المتشابهة التي ورد فيها أكثر من قراءة، وبيّن اختلاف القراء، فكشف بذلك بعض جوانب الاختلاف بين الآيات المتشابهة في ضوء اختلاف القراءات في الآية التي تناولها<sup>(١)</sup>.

**٤- علم اللغة والنحو:** يستشهد الكرمانى بأقوال أئمة اللغة والنحو في توجيهه للآيات المتشابهة، كسيبويه، والأخفش، والزجاج، ويذكر رأي البصريين والكوفيين في بعض المسائل<sup>(٢)</sup>، كما أنه رحمه الله يستشهد بشواهدهم الشعرية إذا تطلب الأمر ذلك<sup>(٣)</sup>.

**٥- كتاب (لباب التفاسير)** وهذا الكتاب للكرمانى وهو في علم التفسير ألفه قبل كتاب البرهان، وهو يحيل عليه كثيراً، بل إنه ذكر أن ما كتب في (البرهان) مبين في لباب التفسير، يقول في مقدمة الكتاب بعد أن بين منهجه وطريقته: "فإني بحمد الله، قد بينت ذلك كله بشرائطه في كتاب لباب التفاسير... ولكني أفردت هذا الكتاب لبيان التشابه، فإن الأئمة رحمهم الله قد شرعوا في تصنيفه واقتصروا على ذكر الآية ونظيرها ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها..."<sup>(٤)</sup>.

**أثره فيمن بعده:**

لكتاب البرهان أثر كبير في المشرق الإسلامي، فقد ذكره أغلب أصحاب

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١٣٩، ١٤٠، ٢٥٨، ٣٠٥، ٣٥١.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٢٩٣، ١٧١، ٢١٠، ٢٥٥، ٣٤٥.

(٣) انظر: المصدر السابق: ١١١، ١٢٧، ١٦٠، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٧٩، ٣٦٥.

(٤) البرهان: ١١٠.



التراجم من أهل المشرق، فكان للكتاب شهرة، وحتى نتبين أثره فيمن جاء بعده، سنقف مع خمسة علماء هم، الفيروزابادي، وابن جماعة، وأبو يحيى الأنصاري، والزرکشي، والسيوطي، وهؤلاء منهم من أفرد كتاباً في المتشابه، ومنهم من أفرد للمتشابه اللفظي باباً أو جزءاً ضمن مصنفه في علوم القرآن، إلا أنه استفاد من كتاب البرهان فيما كتبه عن الآيات المتشابهة.

**أولاً:** الفيروزابادي: يعد الفيروزابادي من الذين تأثروا بالإمام الكرمانی، وذلك من خلال كتابه الشهير الذي صنفه في علوم القرآن، وهو (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)، وقد تناول في الجزء الأول منه فضائل القرآن، والناسخ والمنسوخ، ثم تناول السور والآيات حسب ترتيب التلاوة، وفي كل سورة يوضح أسباب النزول، وعدد الآيات والحروف والكلمات، واختلاف القراء، ثم يذكر المتشابه من الآيات، وقد نشأ الفيروزابادي<sup>(١)</sup> وترعرع في شیراز في فارس، وهي بلاد الكرمانی، وتلميذه نصر بن علي، ولا غرو أنه اطلع على آثار الكرمانی وآثار تلميذه، وحين نظر فيما ضمه كتاب الفيروزابادي من المتشابه ونعقد مقارنة بينه وبين كتاب البرهان، نجد أن الأول صورة طبق الأصل من الثاني، وليس فيه أي تصرف في النص إلا فيما يحدث بين النسخ من اختلافات يسيرة، ولو أعطينا أحداً ما جاء في كتاب البصائر، وكتاب البرهان من دون أن يعرف من مؤلف كل كتاب، وسئل عن الفرق بينهما لقال دون تردد: هما لمؤلف واحد، كما أنهما نسختان لكتاب واحد.

وهذا في الحقيقة استبطان من الفيروزابادي، ولا سيما أنه عاش في شیراز واطلع على كتاب البرهان، وغيره من كتب الكرمانی التي لا نعلم

---

(١) هو الإمام اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، ولد سنة ٧٢٩هـ في كارزين جنوب شیراز، له من المصنفات القاموس المحيط في اللغة، وقد بلغت مصنفاته خمسين مصنفات في التفسير والحديث والفقه واللغة والتاريخ توفي سنة ٨١٧هـ، انظر: مقدمة كتاب البصائر: ٢١/١.

عنها شيئاً، كما عُرف عن الفيروزابادي شغفه بنسخ الكتب، وعرف عنه أيضاً قوة الحفظ، وكان يذكر عن نفسه أنه كان لا ينام حتى يحفظ مائتي سطر<sup>(١)</sup>، وقد ذكر محقق كتاب «البصائر» الأستاذ محمد علي النجار رحمه الله في الجزء الأول من الكتاب أن أصل هذا الكتاب في المتشابهات هو برهان الكرمانى<sup>(٢)</sup>.

**ثانياً:** بدر الدين بن جماعة: اعتمد ابن جماعة في غالب توجيهات كتابه «كشف المعاني» على البرهان، فأخذ ابن جماعة طريقة الكرمانى ومنهجه في تأليف كتابه، كما اتبع أسلوب الإيجاز في توجيه الآيات المتشابهة، وهو أيضاً أسلوب الكرمانى، ومن تأثره أيضاً أن بين الأسلوبين شبه اتفاق في اللفظ والمعنى، ولم يشر في المقدمة، أو في أي مسألة إلى الكرمانى، أو كتاب البرهان، وإنما اكتفى بأن ذكر كلاماً يشعر بأنه أنشأ الكتاب مما سمح به خاطره، بينما الواقع يؤكد أنه أخذ معظم مادته من كتاب البرهان، وسأتحدث عن هذا الأمر بالتفصيل في الفصل الرابع بإذن الله.

**ثالثاً:** زكريا بن محمد الأنصاري: تأثر أبو يحيى الأنصاري بكتاب البرهان تأثراً كبيراً، ويتضح ذلك في كتاب (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن)، وهذا التأثير يظهر في مظاهر منها: التشابه بين الكتابين من حيث الطريقة والمنهج، واتباع أسلوب الإيجاز في عرض المسائل، ويشترك في هذا مع ابن جماعة، ومنها نقله عبارة الكرمانى كما هي في البرهان تارة، ويتصرف فيها تارة أخرى إذا كان فيها غموض، ومع هذا ليس في الكتاب أي إشارة لكتاب البرهان، وسأتحدث عن ذلك بشيء من التفصيل في الفصل الخامس بإذن الله.

**رابعاً:** الزركشي: تحدث الإمام الزركشي (ت ٧٩٤هـ) عن التشابه

(١) انظر: البرهان مقدمة التحقيق: ٧٤.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الحاشية (١): ٣٣١/١.

في كتابه المشهور (البرهان في علوم القرآن)، وقد أشار إلى كتاب البرهان للكرماني في مقدمته عن التشابه، ونقل عن الكرماني مواضع كثيرة، فعلى سبيل المثال في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾: ٢٣ يقول: ”وفي غيرها بإسقاط (من)، لأنها للتبويض، ولما كانت سورة البقرة سنام القرآن وأوله بعد الفاتحة حسن دخول (من) فيها، ليعلم أن التحدي واقع على جميع القرآن من أوله إلى آخره بخلاف غيرها من السور، فإنه لو دخلها (من) لكان التحدي واقعاً على بعض السور دون بعض، ولم يكن ذلك بالسهل“<sup>(١)</sup>، وهذا هو نص الكرماني في كتابه<sup>(٢)</sup>.

**خامساً: السيوطي:** نقل الإمام السيوطي (ت ٩١١ هـ) مواضع كثيرة من كتاب البرهان، وفي كتابيه النفيسين «الإتقان في علوم القرآن»، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» أمثلة كثيرة للمتشابه بنوعيه اللفظي والمعنوي، والكتاب الثاني فيه بسط وبيان أكثر من الكتاب الأول، وقد أشار السيوطي في مقدمة حديثه إلى كتاب البرهان للكرماني، أما نقله لنص كلام الكرماني فيتضح أكثر في كتاب معترك الأقران، حيث نقل النص كاملاً، وسأذكر أمثلة توضح هذا النقل، يقول في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾: ١٧٣، حيث تقدم الضمير المجرور: ”وأخره في المائدة والأنعام والنحل، لأن تقديم الباء الأصل لأنه يجري مجرى الألف والتشديد في التعدي فكان كحرف من الفعل، وكان الموضع الأول أولى بما هو الأصل ليعلم ما يقتضيه اللفظ، وأما ما عدا هذه السورة فأخر به، لأنه قدم ما هو المستنكر وهو الذبح لغير الله، وتقدم ما هو بالعرض أولى ولهذا جاز تقديم المفعول على الفاعل، والحال على ذي الحال، والظرف على العامل فيه إذا كان أكثر الغرض في الإخبار“<sup>(٣)</sup>. وهذا هو نص الكرماني في

(١) البرهان في علوم القرآن: ١١٥/١.

(٢) انظر: البرهان في متشابه القرآن: ١١٦—١١٨.

(٣) معترك الأقران: ٩٢/١—٩٣.



ومن ذلك قوله في توجيهه لقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾: ١١: ”فإن قلت قد قال في الأنعام ﴿ثُمَّ أَنْظِرُوا﴾، وعطف في غيرها بالفاء فما الفرق بينهما؟ فالجواب: أنه لما كانت «ثم» للتراخي فأمرُوا باستقراء الديار وتأمل الآثار، وفيها كثرة فيقع ذلك سير بعد سير وزمان بعد زمان“ (٢). وقد تحدثت عن هذا الموضع في الفصل الخامس من الباب الثاني (٣).

### ثالثاً: قضايا الكتاب وقيمه العلمية:

بعد أن عرفت أثر كتاب «درة التنزيل وغرة التأويل» في الإمام الكرمانى وفي تأليفه لكتاب البرهان في متشابه القرآن، حيث نهج منهجه واتبع طريقته في التوجيه والتبويب، وقد سبق أن تناولت كتاب الدرة وبسطت القول في قضاياها ومسائله، وبذلك أكون قد أخذت تصوراً ولو يسيراً عن قضايا ومسائل الكتب التي ألفت بعد الخطيب الإسكافي وسارت على ذلك المنهج في العرض والتحليل.

وبعد دراسة المسائل والقضايا، وبحث الآيات المتشابهة في البابين الثاني والثالث اتضح لي أمور كثيرة في كتاب البرهان في متشابه القرآن، عرفت بعضاً منها في حديثنا عن التعريف بالكتاب، وهنا أذكر أبرز معالم الكتاب وقضاياها، وقيمه العلمية:

١- المنهج التطبيقي: سبق أن تحدثت عن أهمية هذا المنهج في الدراسات البلاغية، واستشهدت بأقوال لعلماء متقدمين ومتأخرين توضح عظم هذا المنهج، وأنه السبيل الأمثل لتحقيق الأهداف في شتى العلوم، وهذا المنهج

(١) انظر: البرهان: ١٣٥، وقد تم بحث هذه المسألة في فصل التقديم والتأخير في الباب الثالث.

(٢) معترك الأقران: ٢٧٠/٣، وانظر الموضع في البرهان: ١٦٦.

(٣) انظر: أيضاً المواضع من كتاب المعترك: ٩٠/١، ٩٢/١، ٢٧٩/٣، ٢٩٨.

هو الطريق الذي لا يمكن السير بدونه في دراسة الآيات المتشابهة، فطبيعة المادة العلمية، وطريقة فهمها، ومعرفة مقاماتها، وفهم أسرارها لا يكون إلا بسلوك هذا المنهج.

ومع أن الإمام الكرمانى اعتمد الإيجاز والاختصار في كتابه إلا أن مسألة التطبيق والتحليل للنص باقية مع هذا الإيجاز الذي أوقعه في عدد من المواضع في محذور الإيجاز الشديد، وقد بينت ذلك في التعريف بالكتاب، والحق أن تطبيق هذا المنهج مع هذا الأسلوب أمر صعب، ولا يستطيعه إلا من آتاه الله دقة في الفهم وحسناً في الاستنباط، وهذا ما وصف به الكرمانى في ترجمته، ويزيد من ذلك أن هذا الأمر مطبّق على الآيات المتشابهة في القرآن الكريم وهذا ما يزيد من وعورة المسلك.

أما ملامح منهجه التطبيقي فتتضح من خلال ربطه لسياق الآية الواحدة، وربط الآية بما جاورها من آيات حتى يصل لسر الاختلاف الوارد بين الآيتين أو الآيات المتشابهة، وأيضاً البحث الدقيق في سياق الآيات حتى يخرج بدلالة معنوية، أو دلالة لفظية، فلا تكاد ترى موضعاً إلا ونظر فيه إلى سياق الآية، أو إلى سياق الآيات المجاورة لها، فمثلاً: كثيراً ما يقول: لموافقة ما قبله، أو لموافقة ما بعده، أو: لأنه في هذه السورة تقدم كذا، إذا كان السياق المراد بعيداً عن الآية التي هي محل الدراسة.

ومن أمثلة ذلك قوله: "قوله تعالى: ﴿...الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَإِثْمَهُمْ وَأَنفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ﴾: ٧٢، في هذه السورة — الأنفال — بتقديم ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، وفي براءة بتقديم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: ٢٠، لأن في هذه السورة تقدم ذكر المال والفداء والغنيمة في قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾: ٦٧، و﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾: ٦٨، أي: من الفداء ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾: ٦٩، فقدم ذكر المال. وفي براءة تقدم ذكر الجهاد في سبيل الله وهو قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾: ١٦، وقوله: ﴿كَمَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: ١٩، فقدم ذكر الجهاد.

ولم يكتف بهذا التوجيه بل عقب بقوله: ”ذكر هذه الآية في هذه السورة — الأنفال — ثلاث مرات: فأورد في الأولى ﴿يَاْمُوْلِهِمْ وَاَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ﴾: ٧٢، وحذف من الثانية ﴿يَاْمُوْلِهِمْ وَاَنْفُسِهِمْ﴾: ٧٤ اكتفاءً بما في الأولى، وحذف من الثالثة ﴿يَاْمُوْلِهِمْ وَاَنْفُسِهِمْ﴾ وزاد حذف ﴿فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ﴾: ٧٥ اكتفاءً بما في الآيتين قبلها، وهذا برهان للقرآن كاف“ (١).

وهذا التوجيه يدل بوضوح أن الإمام الكرمانى لا يعالج المتشابه في الآيات، إلا بعد النظر الدقيق والمتكرر لمبنى السورتين، وكذلك الوعي الكامل بموضوعات كل سورة، بعد ذلك يأتي النظر وبشفافية رفيعة إلى المناسبة وتسجيلها، وهو المنهج السليم والطريق القويم في تحليل الأبنية اللغوية، ومعرفة مقاماتها، وأسرارها.

ويقول في موضع آخر: ”قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوْهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُوْنَ﴾: ١١٢، وقال في الآية الأخرى من هذه السورة — الأنعام —: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ مَا فَعَلُوْهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُوْنَ﴾: ١٣٧، لأن قوله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ وقع عقب آيات فيها ذكر الرب مرات وهي: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: ١٠٤ الآيات، فختمها بذكر الرب ليوافق آخرها أولها، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ﴾ وقع بعد قوله: ﴿وَجَعَلُوْا لِلّٰهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾: ١٣٦، فختم بما بدأ“ (٢).

وفي هذا الموضع نلاحظ أن الكرمانى قد عوّل على الكلمة التي كررها السياق، وأصبح لها حضور لدى القارئ بكثرة تكررها، فكأن الكلام ختم بما هو أشبه به، فحين تكرر في السياق ذكر الرب سبحانه ختم بقوله: (ولو شاء ربك)، بينما السياق الذي تكرر فيه ذكر لفظ الجلالة ختم بقوله: (ولو شاء الله)، وهو ضرب من التجانس في البناء، وإلحاق الكلمة بأخواتها.

كما أن الكرمانى يربط بين الظواهر البلاغية مجتمعة، وهذه طريقة الإسكافي

(١) البرهان: ٢٠٥—٢٠٦، وقد تم بحث هذه المسألة في فصل التقديم والتأخير في الباب الثالث.

(٢) البرهان: ١٧٦.



وقد أشرت إليها في الفصل السابق، فتجد أن بعض الآيات فيها ذكر وحذف، وتقديم وتأخير، واختلاف في حروف العطف، فيرتب أفكاره ويتحدث عنها مجتمعة، فبعضها يستدعي بعضاً؛ من ذلك حديثه عن قوله تعالى في البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: ٥٨، مع آية الأعراف المشابهة لها، وهي: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: ١٦١<sup>(١)</sup>، وهذه الآية ذكرها الإسكافي، وبالطريقة نفسها، وهذا يدل على اتباع الكرمانى طريقة الإسكافي ومنهجه، بل ونقله المتكرر بطريقة الاختصار والإيجاز، فالأسس التي بنى عليها الإسكافي بحثه في توجيه الآيات المتشابهة، نقلها الكرمانى، وأخص بذلك اعتماده السياق في التفسير والتعليل، فأقام أغلب دراسته على ملاحظة السياق الأسلوبى، وهو بحق باب جليل في دراسة البيان، ويمكن أن ينقل هذا المذهب إلى الأدب، فيؤسس عليه أصل من الأصول النقدية في دراسة الأدب، وهو السياق الأسلوبى، أو الوحدة الأسلوبية، وقد سبق بيان ذلك في حديثي عن الإسكافي، ولكن لما كان الكرمانى شديد التأثير به أجرى كتابه على تلك الأسس.

ومن خلال بحث الكرمانى وتأمله في سياق النص القرآنى خرج لنا بميزان جيد يمكن أن يقاس عليه الكلام وهو النظر في النص على أساس الخفة والثقل، وهو ميزان دقيق مفرط في الدقة والبيان، وهذا الميزان الدقيق الذي لم يتحدث عنه البلاغيون، عده الإمام الكرمانى أحد وجوه بلاغة الكلام، ومن شواهد ذلك ما ورد في سورة الكهف في توجيه قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾: ٩٧، يقول رحمه الله: "اختار التخفيف

(١) انظر: تفصيل المسألة في فصل الذكر والحذف، وفصل التقديم والتأخير في الباب الثالث، وكذلك في الباب الثاني فصل الجمع والإفراد.

في الأول، لأن مفعوله حرف وفعل وفاعل ومفعول، فاختير فيه الحذف، والثاني مفعوله اسم واحد وهو قوله: ﴿تَقَبَّأُ﴾<sup>(١)</sup>، وتعليل الكرمانى هذا أخذه من الإسكافى، وهو يدور حول خفة اللفظ وسهولة نطقه، وسلاسة جريانه، وكراهية أن يجتمع ثقلان في اللسان، وستكون لنا وقفات مع هذا الموضوع، وغيره من المواضع، نتحدث عنها في مواطنها من البحث بإذن الله تعالى، حيث أذكر أقوال علماء المتشابه وأحلل توجيهاتهم.

**٢- الأسلوب:** لقد تميز كتاب البرهان بالإيجاز والاختصار، فمثلاً بعض الآيات يتناولها الخطيب الإسكافى في صفحتين يتحدث عنها الكرمانى في ثلاثة أسطر، وأسلوبه في الغالب واضح، وهذا إن دل فإنه يدل على الملكة التي يتحلى بها الكرمانى في أداء المعنى بأخصر عبارة ممكنة، وسأذكر ثلاثة أمثلة متوالية في كتابه ويمكن الرجوع لكتاب الإسكافى أو الغرناطى لمعرفة الفرق بين الأسلوبين في مسألة الإيجاز.

يقول: "قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيْنَ﴾ البقرة: ٦٢، وقال في الحج: ﴿وَالصَّبِيْنَ وَالنَّصَارَى﴾: ١٧، وقال في المائدة: ﴿وَالصَّبِيُونَ وَالنَّصَارَى﴾: ٦٩، لأن النصارى مقدمون على الصابئين في الرتبة، لأنهم أهل كتاب فقدمهم في البقرة، والصابئون مقدمون على النصارى في الزمان، لأنهم كانوا قبلهم فقدمهم في الحج، وراعى في المائدة المعنيين فقدمهم في اللفظ وأخرهم في التقدير، لأن تقديره في المائدة: والصابئون كذلك، ومثله قول الشاعر:

فمن يك أمسى بالمدينة رَحْلُهُ      فإنى وقيارٌ بها لغريب<sup>(٢)</sup>

أراد: فإنى لغريب بها وقيارٌ كذلك، فتأمل فيها وفي أمثالها

(١) البرهان: ٢٥٨، وانظر الفصل الأول من الباب الثاني حيث تم بحث هذه المسألة.

(٢) البيت لضابىء البرجمي، وكان قد هم بقتل عثمان رضي الله عنه، فأمر باعتقاله، وقيار اسم لرجل أو فرس أو جمل، انظر: خزانة الأدب للبغدادى: ٣٢٩/٩، ٣٣٥/١٠، والبرهان: ١٢٧.

تعرف إعجاز القرآن“<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا الموضع يقول عن الآية التي تليها في كتابه — في سورة البقرة —: “قوله تعالى ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾: ٨٠، وفي آل عمران: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾: ٢٤، لأن الأصل في الجمع إذا كان واحده مذكراً أن يقتصر في الوصف على التأنيث، نحو قوله: ﴿فِيهَا سُرُورٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾<sup>(١٣)</sup> وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ<sup>(١٤)</sup> وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ<sup>(١٥)</sup> وَزَرَائِبُ مَبْنُوتَةٌ<sup>(١٦)</sup> الغاشية: ١٣—١٦، وقد يأتي سرر مرفوعات، على تقدير ثلاث سرر مرفوعة، وتسع سرر مرفوعات، لكنه ليس بالأصل، فجاء في البقرة على الأصل، وفي آل عمران على الفرع. وقوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ البقرة: ٢٠٣، أي في ساعات أيام معدودات، وكذلك ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ الحج: ٢٨“<sup>(٢)</sup>.

ويقول في الموضع الذي يليه: “قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(١٧)</sup> وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ<sup>(١٨)</sup> البقرة: ٩٤—٩٥، وفي الجمعة: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ﴾<sup>(١٩)</sup>: ٧، لأن دعواهم في هذه السورة بالغة قاطعة وهي: كون الجنة لهم بصفة الخلوص، فبالغ في الرد عليهم بـ (لن)، وهو أبلغ ألفاظ النفي، ودعواهم في الجمعة قاصرة مردودة، وهي زعمهم أنهم أولياء الله فاقصر على لا“<sup>(٣)</sup>. ولهذا نراه رحمه الله في بعض المواضع يقول: “أطرب الخطيب في هذه الآيات، ومحصل الكلام..“<sup>(٤)</sup>، ثم يذكر توجيهه بإيجاز، فمثلاً المواضع الثلاثة التي ذكرت آنفاً تحدث عنها الخطيب الإسكافي في أربع صفحات<sup>(٥)</sup>، بينما

---

(١) البرهان: ١٢٦—١٢٧، وقد بسطت الحديث حول الآية والبيت في موضعه في فصل التقديم والتأخير، في الباب الثالث، وقد بينت أقوال علماء التفسير، وكذلك علماء البلاغة لا سيما توجيه سعد الدين.

(٢) البرهان: ١٢٧، وقد تم بحث المسألة في الفصل الثاني من الباب الثاني، وقد جاء في مطبوعة البرهان: (ثلاث سرر.. وتسع سرر) فأثبتته على الصواب.

(٣) البرهان: ١٢٨، وقد تم بحث المسألة في الفصل الخامس من الباب الثاني.

(٤) البرهان: ١٣٨.

(٥) انظر: درة التنزيل: ١٠—١٣.



لا يتجاوز توجيه الكرماني الصفحة الواحدة، والذي يظهر لي أن هذا الإيجاز يرجع إلى أمرين: أحدهما كثرة المسائل والآيات المتشابهة التي تناولها الكرماني، وحرصه على إخراج ذلك في كتاب مختصر يكون في متناول الجميع، وثانيهما: أنه قد تحدث عن هذا المسائل في كتابيه (لباب التفاسير)، و (غرائب التفسير)، وقد صرح بذلك في مقدمة الكتاب، فجاء هذا الكتاب مختصراً لما دَوَّنَهُ في كتابيه.

**٣- القدرة العلمية:** أبرز الكتاب تمكن الإمام الكرماني من مادته العلمية، فهو رحمه الله كما عرفنا في التعريف به صاحب مصنفات في فنون مختلفة، فهو عالم تفسير وله مصنفات في ذلك، كما أنه عالم قراءات وله مصنفات في ذلك، كما أن له في علم اللغة مصنفات أيضاً، وهذه القدرة أضفت على الكتاب سمة العمق في التحليل، والدقة في الاستنباط، نظراً لسعة علم المؤلف ودقة فهمه، ولهذا نرى في الكتاب الكثير من أقوال المفسرين والقراء وعلماء اللغة مما له صلة وثيقة في توجيه الآيات المتشابهة، وإلا فإن التفصيل والبسط في كتاب (لباب التفاسير)، وكتاب (غرائب التفسير وعجائب التأويل) حيث نقل أقوال المفسرين وأئمة اللغة، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة كتاب البرهان وأحال عليهما.

ومما يؤكد قدراته العلمية مقدرته الفائقة على استحضر آيات القرآن الكريم ووجوه قراءتها، بل استحضر اللفظة القرآنية في جميع الآيات التي ذكرت فيها، وكأنه رحمه الله يطالع معجماً مفهرساً لألفاظ القرآن الكريم وآياته وقراءاته، ولهذا فقد جمع آيات متشابهة لم يقف عليها الخطيب الإسكافي، وقد أوضحت ذلك في موطنه من البحث، لأن تلك المواضع مما انفرد بتوجيهها.

**٤- انفراده بتوجيه بعض المسائل:** إذا كان الكرماني رحمه الله قد اقتفى أثر الإسكافي في تأليف الكتاب، واتبعه كذلك في طريقته ومنهجه في توجيه الآيات المتشابهة، ووافقه في كثير من المواضع، بل نقل واختصر

مواضع كثيرة أيضاً، فإنه مع هذا قد جاء بمواضع جديدة، أبدى فيها رأيه وملاحظته، وتلقاه عنه من ألف في هذا الفن بعده، وهي تدل كما ذكرت سلفاً على قدرته على استحضر الآيات، فمن المسائل توجيه قوله تعالى في الأعراف: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: ٦٤، مع قوله تعالى في يونس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنُجِّينَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾: ٧٣<sup>(١)</sup>، وتوجيه التذكير والتأنيث في المدثر: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ﴾: ٥٤ حيث ورد الضمير مذكراً، وفي سورة عبس بالتأنيث، يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذَكَّرٌ﴾: ١١<sup>(٢)</sup>، وتوجيهه لقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾: ١١٧، وفي غيرها جاء التعبير بذكر الجار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾: القلم: ٧<sup>(٣)</sup>، وتوجيهه لآية البقرة قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾: ٢٦٤، وفي إبراهيم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾: ١٨<sup>(٤)</sup>، ومثل ذلك كثير مما هو مبين في مواضعه<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر: البرهان: ١٩٠، وانظر فصل التعريف والتذكير في الباب الثاني.

(٢) انظر: البرهان: ٣٥٢، وانظر فصل التذكير والتأنيث في الباب الثاني.

(٣) انظر: البرهان: ١٧٧، وانظر فصل الذكر والحذف في الباب الثالث.

(٤) انظر: البرهان: ٢٣٥، وانظر فصل التقديم والتأخير في الباب الثالث.

(٥) انظر: ١٥٤، ١٤٢، ١٨٠، ٢٦١، ١٥٥، ٢٩١، ١٣٥، ١٢٣، ٢٢٦.





## الفصل الثالث

كتاب ملاك التأويل  
القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل  
في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل  
لابن الزبير الغرناطي:

مصادره وقضاياه



## الفصل الثالث

### ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي

### مصادره وقضاياه

#### أولاً: التعريف بابن الزبير الغرناطي:

هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفى الغرناطي، يكنى بأبي جعفر، وكذلك بابن الزبير نسبة لأحد أجداده، وعرف بالثقفى نسبة إلى قبيلته ثقف، وبالغرناطي نسبة إلى غرناطة التي استقر بها وترعرع، كما عرف بالأندلسي نسبة إلى الأندلس، وكان رحمه الله يلقب بالأستاذ تعظيماً لشأنه وتنويهاً بمكانته في العلم والدين<sup>(١)</sup>.

وقد ولد ببلدة جيّان بالأندلس عام ٦٢٧هـ، ونشأ في بيئة غنية كان لها الأثر في إعانته على طلب العلم، وانتقل عن مسقط رأسه وهو في سن البلوغ إلى غرناطة حيث نشأ وترعرع وطلب العلم، وبدأ نجمه يسطع، فغلبت عليه نسبة المدينة فأصبح يلقب بالغرناطي<sup>(٢)</sup>.

---

(١) انظر ترجمته في: الذيل والتكملة: ٣٩/١، تذكرة الحفاظ: ١٤٨٤/٤، والإحاطة في أخبار غرناطة: ١٨٨/١، والديباج المذهب: ١٨٨/١، وغاية النهاية: ٣٢/١، والدرر الكامنة: ٨٩/١، والمنهل الصافي: ٢١٢/١، وبغية الوعاة: ٢٩١/١، وطبقات المفسرين: ٢٧/١، ودرة الحجال: ١١/١، وكشف الظنون: ٢٤١/١، وشذرات الذهب: ١٦/٦، والبدر الطالع: ٣٣/١، ومعجم المؤلفين: ١٣٨/١، والأعلام: ٨٦/١.

(٢) انظر: ملاك التأويل، تحقيق سعيد الفلاح: ٦٢/١-٦٣، وهناك تحقيق آخر للدكتور محمود كامل أحمد، ويأتي في المرتبة الثانية بعد تحقيق سعيد الفلاح.



وفي غرناطة أخذ العلم عن عدد كبير من العلماء، فبلغ مكانة علمية رفيعة، وانتهت إليه الرئاسة في الأندلس في علوم الشريعة واللغة العربية، فبرز في علوم التفسير والحديث والقراءات والنحو والتاريخ وغيرها.  
وقد تولى ابن الزبير الغرناطي التدريس والقضاء، والإمامة والخطابة بغرناطة<sup>(١)</sup>.

أما مذهبه: فهو سني العقيدة مالكي المذهب، كان شديداً على أهل البدع كالمعتزلة، والخوارج، والرافضة، وابن الزبير رحمه الله وإن كان ينتسب لأهل السنة فقد مال إلى المذهب الأشعري في تأويل بعض الصفات<sup>(٢)</sup>.  
وأما عن شيوخه: فقد عُرف ابن الزبير بكثرة الشيوخ الذين طلب العلم منهم وما ذاك إلا لحرصه الشديد على الأخذ عنهم، وملازمتهم، وقد لاحظت في ترجمته في المصادر التي ذكرتها آنفاً كثرة شيوخه فقد وصل عددهم إلى ثلاثة وستين شيخاً<sup>(٣)</sup>.

أما تلاميذه: فإن عالماً يمثل هذه المكانة يكون مقصداً لطلاب العلم، ولهذا نرى أنه كثر طلابه في غرناطة ومالقة، وكثر المرتحلون إليه، وقد جمع محقق كتاب البرهان لابن الزبير سبعة وستين تلميذاً، منهم أبو حيان الأندلسي صاحب تفسير البحر المحيط<sup>(٤)</sup>، يقول أبو حيان: "وقد أخذت هذا الفن — يقصد علم النحو والصرف — عن أستاذنا الأوحد العلامة أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي في كتاب سيبويه وغيره"<sup>(٥)</sup>، كما أشار إليه في تعلم علوم أخرى كالبيان والبديع، والخصوص والعموم، وشرح

(١) انظر: المصدر السابق: ٦٥/١، ٨٠ — ٩٠.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٦٩/١ — ٧١، وانظر: البلاغة القرآنية في ملاك التأويل، لإبراهيم الزيد، أعدت لنيل درجة الماجستير، لم تنشر، جامعة الإمام عام: ١٤١٣هـ: ١٣، ٣٩٩ — ٤٠٩، فقد تناول عقيدة ابن الزبير ومذهبه بشكل مفصل.

(٣) انظر: كتب التراجم السابقة، وانظر أيضاً: كتاب البرهان في ترتيب سور القرآن: ١٣٢ — ١٤٦.

(٤) انظر: المرجع السابق: ١٥٥ — ١٦٤، ومقدمة كتاب ملاك التأويل: ٩٨/١ — ١٠١.

(٥) البحر المحيط: ٦/١.

بعض الكتب<sup>(١)</sup>.

وقد خلف ابن الزبير آثاراً عظيمة، خلّدت ذكره، ونفعت الناس بعده، منها: ”ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من آي التنزيل“، وهو أشهرها وأحد الكتب الرئيسة في هذا الباب، وستكون لي وقفة مطولة مع الكتاب بعد قليل، ومنها: (البرهان في ترتيب سور القرآن)، و(إيضاح السبيل من حديث جبريل)، و(تعليق على كتاب سيبويه)، و(الذيل على الصلة لابن بشكوال)، وهو معروف بـ (صلة الصلة)، و(الزمان والمكان)، و(سبيل الرشاد في فضل الجهاد)، و(شرح الإشارة لأبي الوليد الباجي في الأصول)<sup>(٢)</sup>.

هذا وقد توفي ابن الزبير رحمه الله سنة ٧٠٨ هـ بغرناطة.

## ثانياً: التعريف بكتاب ملاك التأويل:

يأتي كتاب (ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من آي التنزيل) في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد كتاب (درة التنزيل وغرة التأويل) للخطيب الإسكافي، فإذا كان كتاب الدرة فتح أبواب هذا العلم، ولصاحبه فضل سبق عليه رحمة الله، فإن كتاب ملاك التأويل يعد أوسع كتب التشابه وأضخمها، ففيه بسط وبيان، وتوضيح لدقائق القرآن، مع أسلوب علمي امتاز بالوضوح وحسن العبارة، قال عنه الزركشي حين عدد كتب التشابه: ”..وهو أبسطها في مجلدين“<sup>(٣)</sup>، وقال عنه السيوطي بعد أن أثنى على كتاب درة التنزيل: ”..وأحسن من هذا ملاك التأويل لأبي جعفر بن الزبير“<sup>(٤)</sup>.

(١) المصدر السابق: ٦/١-٧.

(٢) انظر: مقدمة ملاك التأويل: ٩١-٩٧.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ١/١١٢.

(٤) الإتقان في علوم القرآن: ٣/٣٣٩.

يظهر موضوع الكتاب في العنوان الذي وضع له وهو (ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من آي التنزيل)، فهذا الكتاب برهان قاطع على أهل الإلحاد والتعطيل في تعلقهم بالآيات المتشابهة للطعن في كتاب الله والنيل منه، فهم يخلقون من هذا شبهاً يمتطونها للكيد للدين جهلاً منهم بما خفي وراء هذا التكرار والتشابه من مقاصد سامية وغايات نبيلة، وبذلك يكون ابن الزبير خدام كتاب الله العزيز، وخدام الأمة من جانبين: بتبصير الأمة لتدبر نظمه وتوجيه ما اختلف فيه من الآيات المتشابهة، وكذلك حمايته من طعن الطاعنين، وكيد الملحدين الذين يسعون — وما يزالون — لصد الأمة وتضليلها عن منابعها، وإفساد أسسها التي قامت عليها، فأصبح تفنيد شبه الملحدين برهاناً على إعجاز القرآن، وهذا من رحمته سبحانه حيث هيا رجالاً صادقين بذلوا فكرهم وعقولهم لكشف ما يراد بهذه الأمة وما يخطط لإفساد عقيدتها، فيصنون تراث الأمة، ويحافظون على مصادرها، مصداقاً لقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر: ٩، ومن أولئك: ابن الزبير صاحب «ملاك التأويل» وباقي علماء التشابه، فرحمهم الله وأجزل لهم المثوبة والأجر إنه سميع مجيب.

## سبب تأليف الكتاب:

ذكر ابن الزبير في كتابه جملة من الأسباب دعت لتأليف الكتاب، فمن ذلك: الرد على أهل الإلحاد والتعطيل الذين يتشبهون بما تشابه في القرآن الكريم، يقول: "... وإنما كلامنا معتمد فيه القطع بذوي الزيغ والارتياب ممن يتعلق بما تشابه منه طعناً في الدين، واتباعاً لسبيل الملحدين، وشأن هؤلاء التعلق بأدنى احتمال من غير تسليم لما وراء ذلك"<sup>(١)</sup>، وهو ما أشرت إليه في موضوع الكتاب. ومن ذلك ندرة التأليف والتصنيف في هذا الموضوع المهم، يقول في

(١) ملاك التأويل: ٢٤٢/١.



مقدمة الكتاب: ”وإن مما حرك إلى هذا الغرض، وألحقه عند من تحلى ولوعاً باعتباره، والتدبر لعجائبه الباهرة وأسراره، بمثل حالي على استحكام جذبي وإمحالي بالواجب المفترض، أنه باب لم يقرعه ممن تقدّم وسلف، ومن هذا حذوهم ممن أتى بعدهم وخلف أحد — فيما علمته — على توالي الأعصار والمدد، وترادف أيام الأبد، مع عظيم موقعه، وجليل منزعه، ومكانته في الدين، وفته أعضاء ذوي الشك والارتياب من الطاعنين والملحدّين، إلى أن ورد عليّ كتاب لبعض المعتنّين من جلة المشاركة، نفعه الله، سماه بكتاب «درة التنزيل وغرة التأويل»..“، وأثنى على الكتاب وأبدى إعجابه به، ولكنه لحظ عليه إغفاله لكثير من الآيات المتشابهة، ولهذا عقد العزم على التأليف وإكمال نقص كتاب الدرة: ”..وأبدت بحول ربي من مكنون خاطري إلى الظهور، ما أثبتته بعون الله وقوته في هذا المسطور، معتمداً عين ما ذكره من الآيات، ومستدرّكاً ما تذكرته مما أغفله رحمه الله...“<sup>(١)</sup>.

## منهج المؤلف في الكتاب:

أخذ ابن الزبير رحمه الله بمنهج الخطيب الإسكافي، سواء في ترتيب المسائل أو طريقة عرضها وتوجيهها، إلا في اختلافات يسيرة:

— فقد تتبع كل الآيات التي تدخل في التشابه اللفظي مراعيّاً ترتيب التلاوة سورة سورة وآية آية، مبتدأ بسورة الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران، مرتباً الآيات في كل سورة، فيذكر الآية الأم في التشابه، ويلحق بها ما يشابهها في السورة نفسها أولاً ثم من السور الأخرى مرتبة.

— ابن الزبير لا يعيد ما تحدث عنه في الآيات الأخرى المشابهة للآية الأم في السور الأخرى، بل إنه لا يشير إلى أنه سبق الحديث عنها كما فعل الكرمانى في البرهان، فنراه في بعض سور القرآن لا يذكر فيها شيئاً من التشابه مع وجوده إلا أنه سبق أن تحدث عنه في سورة سابقة.

(١) المصدر السابق: ١/١٤٥—١٤٧.

— كما ذكر ابن الزبير في المقدمة فقد اعتمد الآيات التي ذكرها الخطيب في الدرة، وزاد عليها ما نقص من الآيات المتشابهة، بل ربما تبعه في التوجيه أو خالفه، وغالباً ما تكون له شخصية مستقلة حتى ولو وافقه في توجيه الآية فإنه يخالفه في طريقة عرضه وتحليله.

— اتخذ ابن الزبير طريقة في التنبيه على ما أغفله الإسكافي من الآيات المتشابهة، فيضع أمام الآيات التي لم يذكرها الخطيب الإسكافي حرف غين (غ)، للدلالة على أن هذا الموضع من مغفلات الدرة، يقول ابن الزبير: ”... مما لم يقع في كتاب درة التنزيل، ولا تعرض له بذكر بنص التنزيل ولا تأويل، فنبهنا إلى ذلك لينحاز من المجتمع على ذكره ويفصل، فعلامه (غ) تدل على أنه من المغفل...“<sup>(١)</sup>.

وقد عقد محقق كتاب ملاك التأويل الدكتور الفلاح مقارنة بين كتاب ملاك التأويل ودرة التنزيل فقال: ”تبين أن مجموع الآيات التي تناولها الإسكافي في كتابه بلغ ثلاثاً وسبعين ومائتين (٢٧٣ آية)، بينما بلغ ما تناوله ابن الزبير سبعةً وسبعين وثلاثمائة (٣٧٧ آية)، فيكون بذلك عدد ما أغفله صاحب «درة التنزيل» وحظي بعناية صاحب ملاك التأويل مائة وأربع آيات (١٠٤ آيات)، يضاف إليه عدد كبير من الآيات أوردها ابن الزبير في نطاق سرد الآيات المتشابهة، أغفلها صاحب درة التنزيل، فقد كان ابن الزبير أكثر استقراءً وتتبعاً وتحرياً“<sup>(٢)</sup>.

## مصادر المؤلف:

اعتمد ابن الزبير في توجيه الآيات المتشابهة على جملة من المصادر، من ذلك:

### ١— علوم القرآن الكريم: فابن الزبير يقوم بتفسير الآيات بعضها ببعض،

(١) المصدر السابق: ١٤٧/١—١٤٨.

(٢) المصدر السابق: ١١٣/١.

فيظهر بذلك مدلولها، كما يعتمد أيضاً على السياق في تعليل كثير من الآيات المتشابهة، وهذا سأحدث عنه بالتفصيل في الحديث عن قضايا الكتاب، واستفاد كذلك من ترتيب السور والآيات حسب ترتيب التلاوة، وكذلك ترتيب الآيات المكية والمدنية، وحسب أسباب النزول، وهذا أمر مشاهد لمن قرأ الكتاب<sup>(١)</sup>.

**٢- السنة والآثار:** اشتغل ابن الزبير بالحديث والرواية، وكان في عصره محدث الأندلس، وقد انعكس ذلك على كتابه ملاك التأويل، حيث نراه يعتمد على أقوال المصطفى صلى الله عليه وسلم في توجيه ما اختلف من آيات متشابهة، وفي الكتاب شواهد كثيرة على ذلك<sup>(٢)</sup>.

**٣- علم القراءات:** لتعدد القراءات في بعض الآيات أثر في توجيه الآيات المتشابهة، ولأهمية ذلك في تحقيق المراد استفاد ابن الزبير من ذلك في توجيه بعض المواضع في كتابه<sup>(٣)</sup>.

**٤- علم اللغة والنحو:** من الأمور المشاهدة في كتاب ملاك التأويل تضلع ابن الزبير في علم اللغة والنحو، ومن يطلع على الكتاب يعرف هذه الحقيقة، فقد استفاد رحمه الله من اللغة في توجيه الألفاظ القرآنية، فيقوم بتحليل اللفظ المفرد من حيث اللغة، ومن حيث وروده في القرآن الكريم، ليخرج بسر وروده في ذلك الموضع في الآية الكريمة، أما النحو فهو الإمام فيه ولهذا نجد القدر الهائل من القضايا النحوية في الكتاب، وكثيراً ما نقرأ نقله عن الفراء والمبرد، ويونس بن حبيب والخليل بن أحمد وسيبويه وغيرهم من أئمة اللغة<sup>(٤)</sup>.

---

(١) انظر: ملاك التأويل: ٨٦٩/٢، ٧٨٣، ٩٩٨، ٨٣٤، ٥٦٩/١، ٣٧٢، ٤٩١، ٥٣٠، ٤٣٩، ٣١٣.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٣٨٨/١، ٧٩٤/٢، ٧٩٩، ١١٠٩، ٣٩٨/١.

(٣) انظر: المصدر السابق: ١٩٩/١-٢٠٠، ٨٣٦/٢-٨٣٧، ٣٢٥/١.

(٤) انظر: المصدر السابق: ٤١٠/١-٤١١، ٢٦٧، ٤٥٤/٢، ٨٠٧، ٨١١-٨٠٧، ١١٥٥،

٢٤٩/١، ٦٥٣/٢، ٣١٨/١، ٧٧٨/٢، ١١٢٢/٢، ٢٠٦/١، ٤٤١/١، ٩٨٩/٢.



٥- أقوال المفسرين: من مصادر ابن الزبير في كتابه ما نقله من أقوال لعلماء التفسير، فاعتمد على من سبقه من العلماء في إيضاح الاختلاف بين الآيات المتشابهة، أما أبرزهم فهم: جابر الله الزمخشري في كتاب «الكشاف»<sup>(١)</sup>، والفخر الرازي في «التفسير الكبير»<sup>(٢)</sup>، وابن عطية في «المحرر الوجيز»، والقرطبي في «الجامع»، والطبري في تفسيره<sup>(٣)</sup>.

## ٦- كتاب «درة التنزيل وغرة التأويل» للخطيب الإسكافي: يعد

هذا الكتاب من أهم المصادر التي بنى عليها ابن الزبير كتابه، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة الكتاب، وأثنى على الخطيب وكتابه، موضحاً سبق كتاب الدرة وتميزه، ولهذا اعتمد ابن الزبير طريقة الإسكافي في دراسة الآيات المتشابهة، وقد سبق الحديث عن كتاب الدرة في الفصل الأول، وأوضحنا أنه — حسب ما نعلم — أول كتاب ألف في توجيه التشابه اللفظي في القرآن الكريم، وقد اعتمد عليه غالب من ألف في هذا العلم، سواء بالأخذ منه مباشرة كالكرماني، وابن الزبير، أو بواسطة كابن جماعة، والأنصاري وغيرهما، فكانوا يأخذون عن الكرماني غالباً، وسيوضح ذلك في الفصلين القادمين.

وبناء على ذلك نلاحظ أن ابن الزبير ينقل وبكثرة أجوبة الإسكافي وتوجيهاته، ولا يصرح بأخذها من الخطيب، وأحياناً يوافقه في توجيه الآيات، ولعل سبب ذلك كثرة المواضع حيث يثقل عليه تكرار نسبتها إليه فاكتفى بالإشارة إليه في مقدمة الكتاب، وسبب آخر ذكره في المقدمة، وهو أنه لم ينظر إلى كلام الخطيب في أكثر ما كتب إلا بعد أن يجتهد في ذكر الجواب بما يلهمه الله، يقول: "...من غير أن أقف — في أكثر ذلك — على كلامه، إلا بعد إبدائي ما يلهمه الله سبحانه وإتمامه..."<sup>(٤)</sup>

(١) انظر: المصدر السابق: ٣٩٣/١، ٢٩٦/١، ٣٠١/١، ٣٩٤/١، ٣٣١/١، ٧٨٥/٢، ٨٢٩.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٢٥٦/١، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٩، ٣٠٥، ٣٩٢، ١٠١٠/٢، ١١١١.

(٣) انظر: المصدر السابق: ٢١٢/١.

(٤) المصدر السابق: ١٤٧/١.

وهذا في الحقيقة بعيد؛ لأن الموافقة غالباً ما تكون في مسألتين أو ثلاث أو عشر، أما أن تكون بهذا القدر الكبير فلا، فهو رحمه الله إما أنه نقل عنه هذه التوجيهات، وتلك المسائل، أو أنه أخذ الفكرة الأساسية منه ثم قام بتطويرها، وفي البابين الثاني والثالث توضيح لكل مسألة نقلها ابن الزبير من الخطيب الإسكافي، أو انفرد بها عنه، أو وافقه عليها ولكن بتصرف في المعنى والعبارة، وستكون لي وقفة مع هذا الأمر حين أستعرض قضايا الكتاب وقيمه العلمية.

### أثره فيمن بعده:

يعد كتاب ملاك التأويل بحق من أفضل ما كتب في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، فإذا كان للخطيب الإسكافي فضل السبق وبراعة الإبداع، فإن لابن الزبير فضل البسط والتحليل، والإحاطة بالموضوع، واستدراك ما فات المتقدم، إلا أنه لم يكتب لهذا الكتاب من التأثير في المؤلفات من بعده ما كتب لغيره من الكتب التي ألّفت في هذا الفن مثل كتاب درة التنزيل للخطيب الإسكافي، أو البرهان للكرمانى.

ولعل من أسباب ذلك: بعد ابن الزبير عن عواصم المشرق الإسلامي، فقد كانت هي المركز في شتى نواحي الحياة، لاسيما الناحية العلمية، كالبصرة وبغداد ودمشق ومكة والمدينة، وبلاد فارس ومصر وغيرها، ولا أدل على هذا مما حصل عليه تلميذه أبو حيان الأندلسي، فقد فاقت شهرته شهرة شيخه، وذلك حين نرح إلى الشرق الإسلامي وبالذات إلى مصر، فنال مكانته العلمية التي يستحقها، وأصبح محل التبجيل والإكبار، والشواهد كثيرة؛ فابن مالك الأندلسي النحوي صاحب الألفية عرف واشتهر حين رحل إلى الشام وهكذا<sup>(١)</sup>.

يضاف إلى ذلك: ما حصل في بلاد الأندلس في عصر ابن الزبير وما

(١) انظر: البلاغة القرآنية في ملاك التأويل، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام: ٤٣٩.

بعده من صراعات وأحداث سياسية كبيرة، فقد كانت الحياة قاسية وصعبة، ومما لا شك فيه أن الازدهار العلمي والثقافي إنما يكون في ظل الأمن والاستقرار السياسي، فكثير الراحلون عن الأندلس<sup>(١)</sup>، ومن هنا يمكن القول: إن عدم تأثير كثير من مصنفات العلماء وعدم انتشارها ليس لضعفها وإنما لضعف الحياة العلمية بأسرها، وما يحيط بها من ظروف سياسية واجتماعية. وأكبر شاهد على عدم تأثير كتاب ملاك التأويل، أنه لم يظهر أثره في مؤلفات بعض تلاميذه ممن لهم اهتمام بالقرآن الكريم وتفسيره، فأبو حيان أشار إلى شيخه ابن الزبير في أربعة عشر موضعاً غالبها في النحو والقراءات<sup>(٢)</sup>، وكذلك ابن جزى الكلبي صاحب التسهيل لعلوم التنزيل أشار إليه في تسعة مواضع فقط<sup>(٣)</sup>، وقد يكون ابن الزبير ألف ملاك التأويل بعد سفر أبي حيان إلى مصر، فلم يطلع على كتاب شيخه.

وبعد هذا لم أجد حسب علمي وإطلاعي من تأثر به تأثراً مباشراً إلا اثنين، هما: بدر الدين بن جماعة في كتابه كشف المعاني، والبقاعي في نظم الدرر:

**١- بدر الدين بن جماعة:** يعد ابن جماعة من المعاصرين لابن الزبير فقد ولد سنة ٦٣٩هـ، وتوفي سنة ٧٣٣هـ، فابن جماعة متأخر عن ابن الزبير في ميلاده بعشر سنين، وفي وفاته بعشرين سنة تقريباً.

وبمقارنة بين الكتابين نجد أن ابن جماعة قد أفاد منه في عدد من التوجيهات التي في ملاك التأويل، ولكنه لم يشر إلى مصدرها، كما لم يذكر أي إشارة لابن الزبير، وهذا ما حصل له مع الكرماني، فأثر كتاب البرهان كان أكثر وأعظم من كتاب ملاك التأويل، ومع هذا لم يشر إليه كما علمنا

(١) انظر: ملاك التأويل: ٤٨/١-٥٠.

(٢) انظر: البحر المحيط: ٦/١، ٨، ١٠، ١٨٩، ٣٢٢، ٣٤٢، ٢٤٢/٢، ٤٨٢/٣، ١٩٣/٤، ٣٨، ٢٦/٥، ١٣٩، ١٦٢/٧، ٢٠٥/٨.

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل: ١٠/١، ٦٠، ١٩٥، ٥٢/٢، ١٧٤، ٤٠/٣، ٢٠٥/٤، ٢٢٤، ٢٢٧.



ذلك في الفصل السابق.

فأما ابن الزبير فهو في بلاد الأندلس بينما ابن جماعة في مصر والشام، وهذا فرق مكاني، وأما عن الفرق الزمني: فإن ابن الزبير وابن جماعة ليس بينهما فاصل زمني كبير، فهذا تعليل لعدم إشارة ابن جماعة لابن الزبير في كتابه، لكن إذا علمنا أن الكرمانى متقدم عليه بأكثر من قرنين من الزمان، وأن كتاب البرهان قد نال نصيباً كبيراً من الشهرة في شرق العالم الإسلامى — ومع هذا لا نجد له ذكراً عنده أو أي إشارة له — زال عجبنا من عدم ذكر ابن الزبير.

أما توجيهات ابن جماعة فكما قلت إنه اعتمد في الأغلب على توجيهات كتاب البرهان، ولكنه ربما خرج عن توجيهات الكرمانى إلى ما ذكره ابن الزبير، وربما جاء بأصل مسألة ليست عند الكرمانى<sup>(١)</sup>، وإذا تأملت وجدتها عند ابن الزبير، وفي البابين الثاني والثالث توضيح لهذا التأثير، فأقف عند كل موضع وأبين أخذ المتأخر عن المتقدم، وهل الموافقة في اللفظ والمعنى أو بالمعنى مع تصرف في اللفظ، وسيكون لنا حديث مفصل عن ابن جماعة رحمه الله في الفصل القادم بإذن الله.

## ٢ — برهان الدين البقاعي: كتاب نظم الدرر ليس كتاباً متخصصاً في

توجيه الآيات المتشابهة، ويتضح ذلك من عنوان الكتاب وهو (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، فهو يختلف عن كتاب كشف المعاني لابن جماعة، واختلاف آخر هو أن البقاعي أشار إلى ابن الزبير الغرناطي وصرّح بالإفادة منه ومن علمه، يقول في مقدمة حديثه عن علم المناسبات: "...وطالعت

---

(١) من الأمثلة على ذلك انظر: كشف المعاني: ١٣٧ وملاك التأويل: ٣٤١/١، وأيضاً في الكشف: ٣٦٤ والملاك: ١٠٣٥/٢، وأيضاً في الكشف: ٣٦١ والملاك: ١٠٩١/٢، وأيضاً: في الكشف: ٣٠٨ والملاك: ٧٥٢/٢، وأيضاً: في الكشف: ١٤٦ والملاك: ٣٧٤/١، وأيضاً: في الكشف: ٩٧ والملاك: ٢٠٢/١، وغير ذلك كثير مبين في الباب الثاني والثالث من البحث.

على ذلك كتاب العلامة أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقي العاصمي الأندلسي، المعلم بالبرهان في ترتيب سور القرآن، وهو لبيان مناسبة تعقيب السورة بالسورة فقط، لا يتعرض فيه للآيات، وسأذكر في أول كل سورة ما قاله فيها بلفظه، كما ستراه إن شاء الله تعالى<sup>(١)</sup>.

فهذا تصريح صريح في إفادته منه، لكن هذه الإفادة مقتصرة على كتاب البرهان وهو كتاب يخدم البقاعي في مؤلفه المتخصص في تناسب الآيات والسور، ولهذا نراه يأخذ كلام ابن الزبير في البرهان بنصه ويوضح أن هذا لابن الزبير في البرهان.

أما كتاب «ملاك التأويل» الذي هو محل بحثنا واهتمامنا فلم أجد أي إشارة من البقاعي في نظم الدرر لابن الزبير، أو أي إحالة على كتاب ملاك التأويل، أو أي تصريح بالنقل عنه، ومن خلال بحث الآيات المتشابهة في البابين الثاني والثالث ألاحظ أن البقاعي رحمه الله قد وافق ابن الزبير في مسائل عديدة، لا سيما المسائل التي برز فيها رأي ابن الزبير، فإذا نظرنا إلى قول ابن الزبير، ثم رجعنا إلى نظم الدرر وجدنا توجيه البقاعي يسير على ذلك المنوال.

من أمثلة ذلك متابعته لتوجيه الاختلاف بين صيغة الفعل في قوله تعالى في آية الأعراف: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾: ٦٤، وفي يونس: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ﴾: ٧٣<sup>(٢)</sup>، وكذلك متابعته لتوجيه الاختلاف بين آية البقرة: ﴿فَمَن تَبَعَ هُدَايَ﴾: ٣٨، مع آية طه: ﴿فَمَن أَتَّبَعَ هُدَايَ﴾: ٢٣<sup>(٣)</sup>، ومثل ذلك موافقته له في توجيه التعريف بالالف واللام في آية فصلت: ﴿فَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: ٣٦،

(١) نظم الدرر: ٦/١.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٥٣٠/١، ونظم الدرر: ٤٣١/٧، وانظر: الفصل الأول من الباب الثاني حيث تم بحث هذه المسألة في الاختلاف في الصيغة بين الآيات المتشابهة.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ١٩٠/١، ونظم الدرر: ٣٦٠/١٢، وانظر: الفصل الأول من الباب الثاني، فقد تم بحث المسألة فيه.

والتنكير في آية الأعراف: ﴿إِنَّهُ وَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: ٢٠٠<sup>(١)</sup>، هذه نماذج من الآيات التي توافق فيها الشيخان، ويمكن الرجوع للكتابين لمعرفة المزيد<sup>(٢)</sup>، كما أن في البابين الثاني والثالث نماذج كثيرة أيضاً.

### ثالثاً: قضايا الكتاب وقيمه العلمية:

إذا كان حديثنا في الفصلين الأولين عن عالمين من علماء المشرق الإسلامي، فإن حديثنا في هذا الفصل يمثل أحد علماء الأندلس والمغرب الإسلامي، وإذا كنا قد عرفنا في الفصل السابق قضايا كتاب (البرهان) للكرماني وقيمه العلمية إذ يأتي الكتاب في المرتبة الثانية من حيث الترتيب الزمني لكتب التشابه اللفظي التي هي محل دراستنا بعد كتاب درة التنزيل للإسكافي، فإن كتاب «ملاك التأويل» يعد أوسع كتب التشابه اللفظي بعد كتاب درة التنزيل وإن جاء بعد كتاب البرهان بقرنين من الزمان، ولهذا نال استحسان العلماء كالزركشي والسيوطي<sup>(٣)</sup>، وقد نال الكتاب هذه المكانة لأسباب كثيرة منها: أن ابن الزبير قد اطلع على كتاب «درة التنزيل»، واستفاد منه، فلم يختصره كالكرماني بل بسط القول فيه، وعقب على بعض أقوال الإسكافي، وجاء بآيات كثيرة لم يتناولها الخطيب الإسكافي، ويضاف إلى ذلك ما أعطاه الله من علم جم في علوم شتى، مع قدرته اللغوية والنحوية في التعبير عما يريد الإفصاح عنه، وسأقف مع ابن الزبير وكتابه «ملاك التأويل» وقفة متأنية لأسلط الضوء على بعض القضايا التي تعد معلماً لهذا الكتاب، وأوضح القيمة العلمية له، وقد سبق في حديثي عن التعريف به

---

(١) انظر: ملاك التأويل: ٥٧٨/١، ونظم الدرر: ١٧/١٩٠، وانظر أيضاً: الفصل الرابع (التعريف والتنكير) من الباب الثاني.

(٢) انظر: نظم الدرر: ٧/١، ٣٨٣، ٤٣٢، ٢٣٠/١٩، ١٢٤/٧، ٣٦/٦، ٤٨٤/١٦، ٢٩٠/١٩، ٤٠٥/١، ٣٠١/١٨، ٢٣٣/٧، ٥٠٨/١٦، وانظر ما يقابلها في ملاك التأويل: ٣٨٤/١، ٥٣١/١، ١٠٦٧/٢، ٤٥٦/١، ٣٧٢/١، ٩٨٧/٢، ٢١٢/١، ٣٢٣/١، ٤٦٩/١، ٥٠٨/١.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن: ١/١١٢، والإتقان في علوم القرآن: ٣/٣٣٩.



رحمه الله وعن كتابه ملاك التأويل ذكر بعض القضايا، وبعض السمات، التي يتحلى بها هذا الكتاب الذي يعد أحد المصادر في توجيه الآيات المتشابهة في القرآن الكريم:

**١- المنهج التطبيقي:** وقد سبق أن تحدثت عنه في الفصل الأول من هذا الباب، وهذا المنهج له فضائله في الدرس البلاغي، لأنه الوسيلة، وكذلك الغاية، للوقوف على الأسرار والدقائق البلاغية في النص، فهذا منهج لا محيد عنه لمن يدرس الآيات المتشابهة، والحق أن كتب المتشابه اللفظي مثال واقعي، حيث تجمع أموراً عظيمة في غاية الأهمية، فهناك المنهج التطبيقي التحليلي القائم على النظر في السياق، وربما النظر في السورة كاملة، ولا يخفى أن هذا التطبيق يتم على الآيات القرآنية والكلام فيه محفوف بالخطر الشديد، وهذا في الحقيقة من أدق مواطن الإعجاز، وهذه الكتب مقتصرة على آيات المتشابه اللفظي، فقد يعطى أحد الدارسين في البلاغة آية فيها حذف، أو تقديم، أو تنكير للمسند، أو للمسند إليه فيوضح سبب ذلك دون أدنى مشقة، ولكن إذا أعطي آيتين متشابهتين مختلفتين في التقديم والتأخير مثلاً، فلن يكون سهلاً عليه بيان سر التقديم في إحداهما، وتأخير في الأخرى، نظراً للأمور التي ذكرتها آنفاً.

والحقيقة أن تطبيق هذا المنهج يعد أمراً عظيماً، وفي الوقت نفسه يعد أحد القيم التي ترفع من شأن كتاب (ملاك التأويل) في زمن طغى عليه منهج التبويب والتلخيص والإكثار من التقسيمات والمصطلحات.

وكتاب «ملاك التأويل» يزخر بهذا المنهج من أوله إلى آخره، وهو مثال في تطبيق هذا المنهج، ولك أن تفتح الكتاب على أي موضع فتجد هذا المنهج بما وصفت، فقد اعتنى بإبراز أسرار النظم القرآني من خلال الآيات المتشابهة، فيبحث في سياق الآية، ويتأمل مفرداتها وتراكيبها، ويقوم بربط الآية بالسياق المتقدم والمتأخر، وربما نظر في سياق السورة كاملة ليوضح لنا العلاقة التي تربط المعنى بالمبنى، وأذكر على سبيل المثال توجيهه لموضعين

تتجلى فيهما هذه الروح، وقد بسطت الحديث عنهما في البابين الثاني والثالث، فقد تحدث عن آيتين متشابهتين في سورة محمد ﷺ يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ﴾: ٩، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾: ٢٦.

وابن الزبير رحمه الله قبل أن يقوم بتوجيه الآيتين ينظر لسياق السورة كاملة، ويتفقد مبانيها، ويحدد الموضوعات التي تعالجها السورة، ثم يربط ذلك بسياق الآيتين اللتين وقع فيهما الاختلاف، ويخرج لنا بمناسبتين معنوية والأخرى لفظية، فالمناسبة المعنوية هي في عموم السياق من أول السورة إلى قوله: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾، وهذا يناسبه لفظ (أنزل)، الذي يعني الإنزال جملة واحدة، أما الآية الثانية فهي خاصة في أهل النفاق، فناسبها لفظ (نزل)، الذي يعني تنزل المنجم، وهو يقتضي تفصيل المنجم وتنجيمة، أما المناسبة اللفظية: فراه يربط بين سياق السورة كاملة من أولها حتى آخرها يقول: "المتقدم من أول هذه السورة إلى قوله بعد الآية المتكلم فيها: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾: ١١، يقصد ممن تضمنته هذه الآية من الكفار غير مشركي العرب من قريش وغيرهم، ولا شك أن كفرهم منسحب على كل المنزل من القرآن، وما تقدم نزوله من التوراة، وغيرها من الكتب. فلم يكن ليلائم ذلك عبارة (نزل) المبنية عن تنجيم المنزل ولم ينزل كذلك غير القرآن، وهم ينكرون كل الكتب المنزلة ويكرهونها...

أما الآية الثانية فالمراد بها ذوو النفاق والمرتدون على أديبارهم، ويبين ذلك ما تقدمها من قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ...﴾: ٢٠، وهؤلاء هم المنافقون، ولم يقع فيما بعد عدول عنهم إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾: ٢٥، وإنما هؤلاء قوم كفروا بعد إسلامهم... وهؤلاء اطلع على المنزل من القرآن، وخصوص كراهية له، وهي المهيجة لنفاقهم، فهو الذي كرهوه حقيقة، فقل هنا:

(كرهوا ما نزل الله) بلفظ التضعيف..<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك حديثه عن قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾: ١١، فورد العطف بـ(ثم)، بينما جاء العطف في آيات أخر مشابهة لها بالفاء، يقول تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ النمل: ٦٩، فقد ربط ابن الزبير آية الأنعام بأول السورة فقال: ”وأما ورود ما أعقبت به كل آية من هذه من المأمور بالنظر فيه والاعتبار به بالفاء من حروف العطف سوى آية الأنعام، فذلك بين؛ لأنهم أمروا أن يعقبوا سيرهم بالتدبر والاعتبار، وحصر نظرهم واعتبارهم في المعقب المذكور بعد الفاء، ولم تقع الإشارة إلى اعتبارهم بغير ذلك، فكان مجيء ذلك بحرف التعقيب محرزاً هذا المعنى، ولم يصح غير ذلك، وأما آية الأنعام فإنها افتتحت بذكر خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وإنما ذكر هذا من الخلق الأكبر ليعتبر بذلك فإنه أعظم معتبر وأوسع، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ غافر: ٥٧، فكان الآية في قوة لو قيل: سيروا في الأرض فاعتبروا لخالقها كيف دحاها... وجعل فيها رواسي أن تميد بكم.. ثم انظروا عاقبة من كذب ونبّه فلم يعتبر، فعطف هذا بـ(ثم) المقتضية مهلة الزمان حيث يراد ذلك..<sup>(٢)</sup>، وستكون لي وقفة مطولة مع هذا الموضع عند الحديث عن الحروف في الباب الثاني حيث أستعرض أقوال علماء المتشابه بإذن الله تعالى.

**٢- شخصية المؤلف:** يعد الخطيب الإسكافي أبرز المؤثرين في ابن الزبير في تأليف الكتاب، وقد ذكر ذلك ابن الزبير في مقدمة الكتاب، وأوضحته في سبب تأليفه للكتاب، لكن هذا التأثير يعد تأثيراً إيجابياً، صاحبه شخصية متميزة وموهبة فذة، فقد كان له رحمه الله وقفات كثيرة تبرز

(١) ملاك التأويل: ١٠٢٢/٢-١٠٢٣ (بتصرف).

(٢) ملاك التأويل: ٤٢٣/١-٤٢٤، وانظر مثل ذلك: ٧٣٦/٢، ٨١٥، ٨٤٧، ٧٤٩، ٧٥٠،

٨٦٦، ١٩٦/١، ٢٨٠، ٣٥٨، ٢٠٧، ٦١٦، ٤٥٦، ٣١٤، ٥٥٧.



تلك الشخصية، يقول في مقدمة الكتاب: ”وأبديت بحول ربي من مكنون خاطري إلى الظهور، ما أثبتته بعون الله وقوته في هذا المسطور، معتمداً عين ما ذكره — يقصد الإسكافي — من الآيات، ومستدركاً ما تذكرته مما أغفله رحمه الله، من أمثالها من المتشابهات، برفع تلك الإشكالات، وإبداء المعاني الخفيات القاطعة بدرب البطالات، من غير أن أقف في أكثر ذلك على كلامه إلا بعد إبدائي ما يلهمه الله سبحانه وإتمامه، ولا ناقلاً — إلا في الشاذ النادر — كلام أحد من أرباب المعاني، إذ لم يتعرض أحد غير من تقدم ذكره لما من هذا الضرب أعاني“.

ثم يقول معتزلاً بموهبته وشخصيته بعد ذلك: ”.. وإنما يلقيه فكري إلى ذكرى، فيلقيه ترجمان فهمي على قلبي، وإن آثرت بعض ما عليه لغيري عثرت فنقلت، أفصحت بالنسبة وعقلت، وما أرى ذلك يبلغ في هذا المجموع غاية أقل الجموع، وإن نيف فيسير... وما سوى ذلك فأنا ابن بجدة وذو عهدته ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ النحل: ٥٣“<sup>(١)</sup>، فهو لا يطالع المسألة في درة التنزيل إلا بعد أن يبدي رأيه الذي يلهمه الله فيها، وإذا كنت قد قلت إنه وافق الخطيب الإسكافي في كثير من المسائل فإنه قد خالفه في مسائل كثيرة أيضاً، فمثلاً في سورة إبراهيم جاء لفظ البلد بالتعريف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾: ٣٥، وفي البقرة بالتنكير: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾: ١٢٦ فلما وجه المسألة ذكر قول الإسكافي ثم قال: ”..قاله صاحب كتاب الدرة، وهو عندي بعيد؛ إذ ليس بمفهوم من لفظ الآي، وهو بعد ممكن، والله أعلم“<sup>(٢)</sup>.

كما نرى ابن الزبير في أكثر من موطن بعد أن يفصل الجواب يذكر رأي صاحب الدرة ويقول في نهايته ”..وهذا الجواب والله أعلم بعيد..“<sup>(٣)</sup>،

(١) ملاك التأويل: ١٤٦/١—١٤٧.

(٢) المصدر السابق: ٢٣٥/١، وانظر المسألة في الفصل الرابع من الباب الثاني.

(٣) المصدر السابق: ١٠٥٤/٢.

وفي موضع آخر يقول: ”..فتأمله، وهو أعمد جوابي صاحب كتاب الدرّة، وأراه لا يصلح والله أعلم“<sup>(١)</sup>، فابن الزبير اطلع على جوابين ذكرهما الخطيب الإسكافي، وأخذ أفضلهما وناقشه ثم رده لعدم صلاحه، فيما يراه.

وهذا الحال ليس مع الخطيب الإسكافي بل مع كثير من العلماء الذين أخذ عنهم وتأثر بمصنفاتهم كالزمخشري والفخر الرازي<sup>(٢)</sup>.

**٣- الإحاطة والشمول:** لقد تميز كتاب ملاك التأويل بإحاطته وشموله لكل الآيات المتشابهة، وإذا كنت قد أثبتت على كتاب (البرهان) للكرماني في إحاطته بكل الآيات المتشابهة، فإن ابن الزبير قد أحاط بذلك كماً وكيفاً، وبسطاً وتحليلاً، فكان رحمه الله يكثر من الاستشهاد بأقوال العلماء وآرائهم من مفسرين، ولغويين وشعراء، كما أن وقفاته في الرد على الفرق من أهل التعطيل طويلة، ولك أن تستعرض أي مسألة من مسائل الكتاب لترى ذلك واضحاً، وأفضل من ذلك أن تقرأ مسألة في ملاك التأويل ثم تقرأها عند غيره ممن تحدث عنها لتجد الفرق أكثر وضوحاً.

ولهذا نراه يشير إلى المواضع التي لم يتحدث عنها الإسكافي بوضع حرف غين (غ) عند أول المسألة للتنبيه على ذلك<sup>(٣)</sup>، أضف إلى ذلك أن مسألة واحدة يستغرق بحثها عند الخطيب الإسكافي صفحة أو صفحتين، تجدها عند ابن الزبير في خمس وربما في عشر، ولهذا جاء الكتاب في مجلدين كبيرين.

**٤- القدرة العلمية:** هذا العلم — علم التشابه اللفظي — في الحقيقة لا يستطيعه إلا من آتاه الله قدرات علمية كبيرة تمكنه من فهمه ومعرفته،

(١) المصدر السابق: ١٠٥٥/٢.

(٢) انظر: مصادر الكتاب، وكذلك ملاك التأويل: ١٧٩/١، ٣٩٢/١، ٤٤٨/١، ٧٥٩/٢، ٧٩٤/٢، ٨٣١/٢، ٩٧٧/٢.

(٣) انظر: مثلاً: ٢٧٩/١، ٢٨٣، ٢٨٦، ٢٩٤، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣١٦، ٣٢١، هذه مواضع في أربعين صفحة فقط كلها عليها إشارة (غ).

وكما علمت في حديثي عن حياة ابن الزبير العلمية أنه على اطلاع واسع في علمي النحو واللغة، وهذه المعرفة خطوة كبيرة لمعرفة أسرار اللغة وبلاغتها، وشيخ ابن الزبير وقدرته في النحو سيبويه أما تلميذ ابن الزبير فهو أبو حيان، وإذا نظرت إلى قدرته اللغوية ألحظ في كتابه ملاك التأويل الفهم الدقيق لدلالة الألفاظ وإيجازاتها، حيث يوضح الأسرار في اختيار الألفاظ ومناسبتها للسياقات الواردة فيها<sup>(١)</sup>.

هذا في شأن قدرته النحوية واللغوية، ولك أن تقول مثل ذلك في علم أسباب النزول، وعلم أصول الفقه، والحديث والتفسير والقراءات، وقد أثرت تلك العلوم بحث ابن الزبير وأدخلت على كتابه كثيراً من عناصر التشويق والتنويع.

**٥- الالتزام بالمنهج:** ذكرت في أول حديثي عن الكتاب منهج ابن الزبير وسبب تأليفه للكتاب، وهنا أشير إلى أنه قد التزم بذلك المنهج حتى نهاية الكتاب، وابن الزبير قد تروقه بعض المسائل فيريد الاستطراد فيها، وفجأة نراه يتذكر ذلك المنهج الذي أوضحه في أول كتابه فيعود إلى ما بدأ به، ومن كلماته في ذلك: “..وليس هذا مما بني عليه هذا الكتاب..”<sup>(٢)</sup>، ويقول في موضع آخر: “وبسط هذا في مظانه”<sup>(٣)</sup>، ويقول: “وليس هذا بالجملة من الغرض المبني عليه هذا الكتاب”<sup>(٤)</sup>، ويذكر أحياناً بالمراد من الكتاب يقول في أحد المواضع: “وبقي السؤال عن وجه تخصيص كل من الموضوعين بالوارد فيه، وهو مقصودنا من هذا الكتاب..”<sup>(٥)</sup>.

---

(١) انظر: مصادر المؤلف في هذا الفصل، وانظر: ملاك التأويل: ٢١٢/١، ٢٤٦، ٣٢٩، ٣٥٩، ٥٦٥، ١٠٤١/٢، ١١٣٥.

(٢) ملاك التأويل: ٢٩١/١.

(٣) المصدر السابق: ٣٦٣/١.

(٤) المصدر السابق: ١١٤٦/٢.

(٥) المصدر السابق: ٣٠٢/١.



## ٦- طول النفس: من الأمور المشاهدة في كتاب ملاك التأويل طول

نفس ابن الزبير في عرض القضايا والمسائل، وإذا كنت قد وصفت كتاب درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي بذلك، فإن كتاب ملاك التأويل يعد امتداداً لذلك الكتاب، بل إن ابن الزبير تميز بالاستقراء الجيد لكل موضع تناوله في كتابه، واستدرك عليه ما نقص، فمن الأمثلة على ذلك جمعه للآيات التي ورد فيها التعريف بالجزاء الأخروي للمؤمنين، ووصف جزائهم في الجنة، فقد جمع ابن الزبير ثلاث عشرة آية، بينما لم يذكر الخطيب إلا ست آيات، وقد تحدثت عن ذلك في الباب الثالث في موضع ذكر لفظ التأييد (أبداً) وحذفه في الآيات المتشابهة<sup>(١)</sup>.

وإذا استثنينا كتاب درة التنزيل وجدنا أن جل الكتابات في هذا الفن جاءت بطريقة موجزة وسريعة، كطريقة الكرمانى، وابن جماعة، والأنصاري، وأسلوب الإيجاز أسلوب محمود، وكما قيل البلاغة الإيجاز، إلا أنه — في رأي المتواضع — غير مناسب في هذا المقام، فتوضيح الاختلاف بين الآيات المتشابهة أمر يحتاج إلى أدلة وبراهين يعرف من خلالها خصائص تركيب الآيات، ودلالاتها، وهذا لا يكون بشكل لمحة سريعة موجزة، ولك أن تقرأ كلام ابن الزبير على آيتي سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا..﴾: ٥٨-٥٩، وآيتي سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ..﴾: ١٦١-١٦٢، فذكر عشرة أسئلة حول الآيات، ثم وقف عند كل سؤال وفصل فيه القول في عشر صفحات<sup>(٢)</sup>، والأمثلة في الكتاب كثيرة ولا سيما وقفاته عند الآيات المتشابهة في القصص

(١) انظر: ملاك التأويل: ٣٣٥/١-٣٤٠، ودرة التنزيل: ٥٣-٥٥، وانظر: الفصل الأول من الباب الثالث حيث تم بحث المسألة.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٢٠٢/١-٢١١، وقد تم بحث المسألة في الباب الثالث، وانظر أيضاً: ملاك التأويل: ٤٩٧/١-٥١٠.

القرآني كما في سورة الأعراف وغيرها<sup>(١)</sup>.

٧- انفراده بتوجيه كثير من المسائل: سبق أن أشرت إلى أن كتاب (ملاك التأويل) تميز بالإحاطة والشمول لكل الآيات المتشابهة، وتميز أيضاً بالبسط والتحليل، وهنا أشير أنه انفرد بكثير من الآيات المتشابهة، فقد دون في كتابه ما فات الخطيب الإسكافي، والإمام الكرمانلي، من ذلك حديثه عن أفراد السماء وجمعها في آية يونس وسبأ، وإفراد الصلاة وجمعها في الأنعام والمؤمنين<sup>(٢)</sup>، وتوجيهه لآية الأعراف: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وفي الزمر: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾<sup>(٣)</sup>، وتوجيه الذكر والحذف في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وفي الكهف: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾<sup>(٤)</sup>، وغير ذلك كثير مما هو مبين في موضعه من البحث<sup>(٥)</sup>.

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١/٥١٧-٥١٧، ٥٢٥-٥٦٧، ٥٦٧-٥٦٧.

(٢) انظر: الفصل الثاني من الباب الثاني.

(٣) انظر: ملك التأويل: ١/٣٣٣-٣٣١، وانظر الفصل الخامس من الباب الثاني (الاختلاف بين الآيات المتشابهة في اختيار الحروف).

(٤) انظر: المصدر السابق: ١/٤٦٢-٤٦١، وانظر: الفصل الأول من الباب الثالث (الذكر والحذف في الآيات المتشابهة).

(٥) انظر: ملك التأويل: ٢/١٠٣٦، ١/٤٠٦، ١/٣٤٠، ٢/٧٩١، ٢/٩٠٧، ١/٢٣٦، ١/٢٨٠، ١/٣٤٢، ١/٣٦٠، ١/٦١٦، ٢/٧٢٠، ٢/٧٢٣، ١/٣٧٤.





## الفصل الرابع

كتاب كشف المعاني في المتشابه من المثاني  
لابن جماعة:

مصادره وقضاياه



## الفصل الرابع

### كشف المعاني لابن جماعة

### مصادره وقضاياه

#### أولاً: التعريف بابن جماعة:

هو أبو عبد الله بدر الدين محمد إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي<sup>(١)</sup>، عرفت أسرته ببني جماعة نسبة إلى ثلاثة من الآباء والأجداد ينتهي نسبهم إلى مالك بن كنانة، وهم: (جماعة — وهو الجد القريب له — ابن علي بن جماعة بن حازم بن صخر بن عبد الله بن جماعة<sup>(٢)</sup>)، أما الكناني فنسبة إلى مالك بن كنانة وهو الجد العاشر من سلسلة نسب الرسول صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup>.

ولد ابن جماعة سنة ٦٣٩هـ في حماة، إحدى مدن الشام، في بيت علم ومهابة، فوالده الشيخ الإمام الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن سعد الله، فنشأ

---

(١) انظر ترجمته في: القاضي بدر الدين بن جماعة حياته وآثاره، للدكتور عبد الجواد خلف، ومراة الجنان لليميني: ٢٨٧/٤، والدرر الكامنة لابن حجر: ٣٧٦/٣، والأنس الجليل للحنبلي: ١٣٦/٢، والنجوم الزاهرة: ٢٩٨/٩، والبداية والنهاية: ١٦٣/٤، والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء: ١٠٨/٤، وحسن المحاضرة: ٤٢٥/١، وطبقات المفسرين: ٥٠/٢، وطبقات الشافعية: ٣٨٦/١، وشذرات الذهب: ١٠٥/٦، وفوات الوفيات: ٢٩٧/٣، ومعجم المؤلفين: ٢٠١/٨.

(٢) انظر: كشف المعاني لابن جماعة: ٦.

(٣) انظر: الروض الأنف للسهيلى: ٤٤/١، والبداية والنهاية لابن كثير: ٢٣٨/٢، وتهذيب سيرة ابن هشام للشيخ عبد السلام هارون: ١٧، والرحيق المختوم للمباركفوري: ٥٤.



في أسرة عرفت بالعلم والدين، وأسرة ابن جماعة من الأسر التي نبغ فيها كثير من العلماء، وكلهم يعرف بابن جماعة، ولذلك وقع كثير من المترجمين والمؤرخين في الخطأ حين نسبوا كتب بعضهم إلى بعض<sup>(١)</sup>.

تلقى ابن جماعة العلم في صغره في بلده حماة، وعمره أحد عشر عاماً على يد علماء أجلاء منهم والده (ت ٦٧٥هـ) الذي يعد من أفاضل علماء الشافعية، وكان خطيباً في حماة، وعرف عنه الزهد والورع، كما درس على يد الشيخ عبد العزيز الأنصاري.

ولما بلغ رحل في طلب العلم فانتقل إلى دمشق، وإلى القدس الشريف، ثم إلى مصر، كما زار مكة المكرمة، فكثر شيوخه، وأخذ علماً كثيراً في الحديث، والفقه والتفسير، والأصول، يقول عنه ابن العماد: هو "قاضي القضاة شيخ الإسلام الخطيب المفسر، له تعاليق في الفقه والحديث، والأصول والتواريخ وغير ذلك، وله مشاركة حسنة في علوم الإسلام مع دين وتعبد وتصوف، وأوصاف حميدة وأحكام محمودة وله النظم والنثر والخطب والتلاميذ والجلالة الوافرة والعقل التام الرضي"<sup>(٢)</sup>.

وقد تولى رحمه الله منصب القضاء في القدس، ثم في مصر والشام مدة أربعين سنة، كما كان خطيباً فيها بالإضافة إلى توليه القضاء، وتولى التدريس في مساجد دمشق والقاهرة أكثر من ستين سنة حتى وافته المنية<sup>(٣)</sup>.

ويميل ابن جماعة رحمه الله إلى الزهد والورع وتقوى الله في السر والعلن، وكف الأذى عن الناس، ولين الجانب لهم، أما مذهبه فيدين بالمذهب الأشعري وهو المذهب الشائع في زمانه، وله ردود على أهل التعطيل، وله في العقيدة مؤلف<sup>(٤)</sup>.

---

(١) انظر: كشف المعاني لابن جماعة، تحقيق: عبد الوهاب المشهداني: ١٨.

(٢) شذرات الذهب: ١٥٦/٦.

(٣) انظر: كشف المعاني: ١٧—٣٤.

(٤) انظر: القاضي برهان الدين: ٢٨، وكشف المعاني تحقيق المشهداني: ٣٥، وكشف المعاني:

٢٤—٢٦.

أما شيوخه فهم أكثر، وقد ذكر علماء التراجم منهم ثمانية وعشرين شيخاً، وهم الذين وقف عليهم عبد الجواد خلف الذي اعتنى بتحقيق كتب ابن جماعة.

أما أبرز شيوخه الذين تتلمذ عليهم: فهم والده، وعبد العزيز الأنصاري في حماة، ومنهم جمال الدين محمد بن مالك، صاحب الألفية في حلب، وكذلك شمس الدين بن علان في دمشق، وتقي الدين بن رزين في القاهرة، ومحمد الدين بن دقيق العيد في صعيد مصر<sup>(١)</sup>.

وقد تتلمذ على يديه كثير من طلاب العلم، وقصده كثير من العلماء، ولا ريب في ذلك فقد عمّر رحمه الله أكثر من تسعين عاماً، فتخرج على يديه كثير من العلماء، منهم: ابنه عز الدين عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم ابن جماعة (ت ٧٦٧هـ)، وصلاح الدين الصفدي صاحب الوافي بالوفيات (ت ٧٦٤هـ)، وتاج الدين السبكي مؤلف طبقات الشافعية (ت ٧٧١هـ)، وصلاح الدين البليسي، كما أخذ عنه أبو حيان الأندلسي، وشمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، وغيرهم كثير<sup>(٢)</sup>.

في ظل هذه الحياة العلمية أخرج ابن جماعة كثيراً من المصنفات في كثير من الفنون، وغالب من ترجم له وصفه بالإكثار من المصنفات، فكان غزير التأليف، وافر الإنتاج، فألف في التفسير وعلومه، ومن ذلك كتاب (التيان في مبهمات القرآن)، و(غرر التبيان)، و(كشف المعاني)، و(الفوائد اللائحة من سورة الفاتحة).

ومن تأليفه في الحديث: (المنهل الروي في علوم الحديث النبوي)، و(الفوائد الغزيرة المستنبطة من حديث بريرة)، ومما ألفه في الفقه: (العمدة في الأحكام)، و(كشف الغمة في أحكام أهل الذمة)، وفي العقيدة (إيضاح

(١) انظر: كشف المعاني: ٦-١٠، و(غرر التبيان لابن جماعة: ٢٥-١٤٥).

(٢) انظر: القاضي بدر الدين بن جماعة: ١٩٧-٢٠٧.

الدليل في قطع حجج أهل التعطيل)، وله في النحو: (شرح كافية ابن الحاجب)، و(الضياء الكامل)، كما أن له ديوان خطب، وأرجوزة في الخلفاء، وله تصانيف في علم الكلام، والسياسة الشرعية، والتاريخ، والفلك<sup>(١)</sup>.  
وقد توفي رحمه الله سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة من الهجرة ٧٣٣هـ، بعد أن تجاوز التسعين من عمره، قضاه في خدمة دينه، وجاد فيها بالكثير من المؤلفات.

## ثانياً: التعريف بكتاب (كشف المعاني في المتشابه من المثاني):

كتاب (كشف المعاني) هو الكتاب الرابع في دراستنا هذه، وهو أيضاً يأتي في الأهمية بعد الكتب الثلاثة السابقة، فقد اعتمد رحمه الله على كتاب (البرهان) للكرماني، وكتاب (ملاك التأويل) لابن الزبير، وقبلهما كتاب (درة التنزيل) للخطيب الإسكافي، وقد أوضحت ذلك في الفصول السابقة.  
أما موضوع الكتاب: فهو واضح من عنوانه الذي يفيد الكشف عن الاختلاف بين الآيات المتشابهة في القرآن الكريم، وقد أوضح ذلك في مقدمة الكتاب<sup>(٢)</sup>.

## سبب تأليفه:

أوضح ابن جماعة أن سبب تأليف الكتاب جاء بناء على ما ورده من أسئلة في دروسه التي عقدها عن سبب الاختلاف بين تلك الآيات، كما أوضح أن كثيراً منها لم يذكر في كتب التفسير، فجاء هذا الكتاب، ليوضح ما خفي من ذلك، فأزال الإبهام، وبدد الأوهام، يقول رحمه الله: "...فلما مَنَّ الله تعالى بالقرآن العزيز وحفظه وتحصيله، والوقوف على ما قدر من تفسيره وتأويله، واتفق إلقاء دروس التفسير في المدارس، وما يظهر في بحوثها

(١) انظر: كشف المعاني: ٣٤—٤٤.

(٢) انظر: كشف المعاني: ٧٩—٨٠.



من النفائس، وربما لهج بعض فضلاء الحاضرين بمسائل حسنة غريبة، وسأل عن مناسبات ألفاظها لمعانيها العجيبة، مما لم يذكر بعضه أو أكثره في كتب التفسير المشهورة، ولا ألت به في أسفارها المسطورة، من اختلاف ألفاظ معان مكررة، وتنويع عبارات فنونه المحررة، ومن تقديم وتأخير، وزيادات ونقصان، وبديع وبيان، وبسط واختصار، وتعويض حروف بحروف أغيار، فتحل تلك الأسولة بما يفتح الله تعالى به إما منقول، أو غير منقول، وقد استخرت الله تعالى في ذكر أجوبة ما على خاطر منه باختصار لا غنى لفهمه عنه، وسميته: كشف المعاني في المتشابه من المثاني<sup>(١)</sup>.

## منهج المؤلف في الكتاب:

سلك ابن جماعة منهج الإمام الكرمانى وطريقته التي سار عليها في تأليف كتاب البرهان، وهو المنهج نفسه الذي سار عليه الخطيب الإسكافي وابن الزبير الغرناطي، إلا أنني خصصت كتاب البرهان لوجه الشبه بينهما في اتباع أسلوب الإيجاز والاختصار في توجيه الآيات المتشابهة، وقد أورد المؤلف مقدمة قصيرة جداً أوضح فيها سبب تأليف الكتاب، دون أن يشير إلى المنهج الذي سيتبعه في توجيه الآيات المتشابهة، وأما ما يمكن توضيحه في هذا الخصوص فهو ما يلي:

— رتب المؤلف الآيات حسب ترتيب التلاوة، بدأ بسورة الفاتحة وانتهى بسورة الناس، وفي كل سورة يتناول الآيات حسب ترتيب المصحف.

— يذكر أيضاً كل موضع في مكانه فإذا كان قد تحدث عن الآية مع الآية الأم نراه يشير إلى الموضع بقوله: جوابه سبق في سورة كذا، أو جوابه تقدم في سورة كذا، أو تقدم الجواب قريباً<sup>(٢)</sup>، وأحياناً يؤجل الحديث عن الآية حتى يصل إلى السورة التي فيها الآية الأخرى المشابهة، فمثلاً يقول: "قوله

(١) المصدر السابق: ٧٩—٨٠.

(٢) انظر مثلاً: المصدر السابق: ١٦٠، ٢٠٤، ٣١٥، ٣٢٣، ٣٥٤، ٣٦٣، ٣٨٤، ٣٩٦.

تعالى في سورة البقرة: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: ٦١، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: ٥١، جوابه في سورة غافر<sup>(١)</sup>، ويقول: ”قوله تعالى: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ غافر: ٤٠، وقال تعالى في سورة عم: ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾: ٣٦، جوابه في عم<sup>(٢)</sup>، ومثل ذلك قوله: ”مسألة: قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ الأنعام: ١٦٥، وفي فاطر: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: ٣٩، يأتي الجواب فيها“<sup>(٣)</sup>.

— وأحياناً يشير إلى أن الموضع تقدم الحديث عنه في سورة كذا، فإذا رجعت للسورة التي أشار إليها لم تجد توجيهه، كما حصل في آية الزمر ﴿وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ٣٥، فذكر أنه سبق الحديث عن الآية في قوله تعالى في سورة النحل: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ٩٦<sup>(٤)</sup>، وهذا يدعونا للسؤال هل يمكن أن يكون قد فقد بعض أجزاء الكتاب، لأنه بعيد أن يقول: قد سبق الحديث عنه في سورة كذا، وهو لم يتحدث، وهل يمكن أن يكون الشيخ أملى الكتاب على تلاميذه، وفاتهم بعض ما أملاه.

— أخذ ابن جماعة أسلوب الكرمانى في كتابه البرهان، حيث اعتمد على الإيجاز والاختصار في توجيه الآيات المتشابهة، فبعضها لا يتجاوز الحديث عنها سطرين<sup>(٥)</sup>.

— ومن الأمور الملاحظة على منهج ابن جماعة أنه يعرض أحياناً في كتابه توجيه آية مفردة ليست من الآيات المتشابهة فيكون حديثه

(١) كشف المعاني: ٩٩.

(٢) المصدر السابق: ٣٢٠.

(٣) كشف المعاني: ١٧٢—١٧٣.

(٤) انظر: كشف المعاني: ٣١٥، وانظر: فصل التعريف والتكثير في الباب الثاني حيث تم بحث المسألة.

(٥) انظر: مثلاً: ٨٨، ٩٠، ١٤٥، ٢٨١، ٢٨٥، ٢٩٦، ٣١٩، ٣٢٤، ٣٣٠، ٣٣٤، ٣٣٩، ٣٤١.

لتوضيح المعنى المراد من الآية، من ذلك قوله: ”قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلَّهَا إِذَا وَاَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ الشعراء: ٢٠، جوابه: المراد: الضالين عن الصواب فيها لا الضلال في الدين“<sup>(١)</sup>، ويقول في قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: هـ ”لم يقل: صبور ولا شكار، فما فائدة ذلك التغاير وكلاهما للمبالغة؟ جوابه: أن نعم الله تعالى مستمرة متجددة في كل حين وأوان فناسب (شكور)، لأن صيغة (فعول) تدل على الدوام؛ كصدوق، ورحوم وشبهه. وأما المؤلمات المحتاجة إلى الصبر عليها فليست عامة بل تقع في بعض الأحوال فناسب صبار، لأن (فعالاً) لا يشعر بالدوام كنوام وركاب وأكال، ولمراعاة رؤوس الآي“<sup>(٢)</sup>.

ولي وقفة مع محقق الكتاب الدكتور عبد الجواد خلف الذي اعتنى بتراث ابن جماعة رحمه الله، وهو جهد يشكر عليه، وهو من الواجبات الملقاة على طلاب العلم، إذ بالغ في الحديث عن كتاب كشف المعاني، حين قال في مقدمة الكتاب بعد أن ذكر مصنفات أهل العلم في التشابه اللفظي، ومنها الكتب الثلاثة التي تحدثت عنها في الفصول السابقة فقال: ”أما كتابنا الذي بين أيدينا وهو (كشف المعاني في التشابه من المثاني)، للعلامة بدر الدين بن جماعة، فهو من أهم هذه الكتب جميعها، بل أوفاهها مادة، وأوسعها بحثاً، وأدقها توجيهاً، وهو فوق كل ذلك من أقدم ما عرف من هذه المصادر المكتوبة كلها..“<sup>(٣)</sup>.

والكتاب له مكانته التي يحتلها بين مصنفات هذا العلم، ولكنه لو اطلع على كتاب درة التنزيل، والبرهان، وملاك التأويل، ثم عقد مقارنة بينها وبين كتاب كشف المعاني، لعلم بأثر أولئك في كتاب كشف المعاني، كما فعل ذلك محقق كتاب البرهان، ومحقق كتاب ملاك التأويل، فقد كانت مقدمة

(١) كشف المعاني: ٢٧٨.

(٢) المصدر السابق: ٢١٩-٢٢٠، وانظر أيضاً: ٩٠، ٣٣٤، ٣٤١، ٣٤٨، ٣٥٤.

(٣) كشف المعاني: ٦٢.



تحقيقهما للكتابين أشبه ما تكون ببحث مصغر عنهما يستحق التقدير، لا سيما في مسألة التأثير والتأثير.

## مصادر المؤلف:

عرف ابن جماعة رحمه الله بالإكثار من التأليف، وفي فنون مختلفة، وقد علمنا أن له مصنفات في التفسير والحديث والفقه واللغة وغير ذلك، فكان لهذه القدرات العلمية أثرها في نفسه، والكتاب الذي بين أيدينا، وهو كشف المعاني، دليل على تلك القدرات، فالكتاب وإن اعتمد الإيجاز في توجيهاته، ففيه روح العالم المتمكن من مادته العلمية، وحين نتأمل ما جاء في كتاب (كشف المعاني) نلاحظ اعتماده على أمور منها:

١- **علوم القرآن الكريم**، فالقرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، كذلك النظر الدائم في سياق الآيات والسور، من ذلك أيضاً مسألة ترتيب التلاوة، وأسباب النزول<sup>(١)</sup>، وهذه طريقة كتب المتشابه، حيث اعتمدت على هذا المصدر.

٢- **كتب المتشابه اللفظي**: سبق أن ذكرت في أكثر من موضع أن كتب المتشابه اللفظي في القرآن الكريم بينها تأثير واضح، فالمتأخر ينقل عن المتقدم، وبعضها يصرّح بالنقل، وبعضها لا يصرح، وقد عرفنا فضل الخطيب الإسكافي على كل من ألف في المتشابه بعده، لأن كتابه هو الأول في هذا العلم، وقد أشار إلى ذلك الكرمانى في البرهان، وابن الزبير في ملاك التأويل<sup>(٢)</sup>.

أما أبرز من أثر في كشف المعاني فهو كتاب (البرهان) للكرمانى، ولولا بعض الاختلافات بين الكتابين لقلنا هما نسختان لكتاب واحد، فوجه

---

(١) انظر: كشف المعاني: ١٠٥، ١١٠-١١١، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٤.

(٢) انظر: تأثير درة التنزيل فيمن بعده في الفصل الأول من هذا الباب، وكذلك تأثر الكرمانى به في الفصل الثاني، وتأثر ابن الزبير به في الفصل الثالث.

الشبه بينهما واضح في طريقة توجيه الآيات، وكذلك في المنهج المتبع، وكذلك الأسلوب الذي يتم به إيضاح العلة، لكن العجب أن ابن جماعة لم يشر إلى الكرمانى، أو إلى كتاب البرهان، بأي إشارة، مع أن الأدلة كثيرة على أنه اطلع على الكتاب، فكتاب البرهان كان معروفاً في بلاد الشام، والمدة الزمنية بينهما طويلة جداً فهي كافية لانتشار الكتاب، والذين ترجموا للكرمانى في عصر ابن جماعة ذكروا كتاب البرهان<sup>(١)</sup>.

ومن يعقد مقارنة بين الكتابين يلحظ شبيهاً كبيراً بينهما، فقدرة ابن جماعة العلمية واللغوية مشابهة تماماً لقدرة الكرمانى، ولهذا كان يتصرف كثيراً في اللفظ، أما المعنى فهو واحد في الأغلب، ولا يخلو الكتاب من إشارات ولمحات جيدة نذكرها بإذن الله في الحديث عن قضايا الكتاب وقيمه العلمية.

ومن الأمثلة توجيه ابن جماعة لآيات سورة الكهف: ﴿لَمَسَكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيَبَهَا﴾: ٧٩، وبعدها: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾: ٨١، وبعدها: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾: ٨٢، يقول ابن جماعة: ”إن هذا حسن أدب من الخضر مع الله تعالى، أما في الأول: فإنه لما كان عيباً نسبته إلى نفسه، وأما الثاني فلما كان يتضمن العيب ظاهراً، وسلامة الأبوين من الكفر، ودوام إيمانهم باطناً قال: (أردنا)، كأنه قال: أردت أنا القتل وأراد الله سلامتهما من الكفر وإبداهما خيراً منه، وأما الثالث: فكان خيراً محضاً ليس فيه ما ينكر لا عقلاً ولا شرعاً نسبته إلى الله وحده فقال: فأراد ربك“<sup>(٢)</sup>.

ولك أن تعقد موازنة مع توجيه الكرمانى المتقدم عليه لترى الأثر يتجلى بوضوح، يقول الكرمانى: ”لأن الأول في الظاهر إفساد، فأسنده إلى نفسه،

---

(١) انظر: ترجمة الكرمانى، في الفصل الثاني من هذا الباب، وكذلك ترجمة ابن جماعة في هذا الفصل..

(٢) كشف المعاني: ٢٤٣.

والثاني<sup>(١)</sup> إنعام محض فأسنده إلى الله عز وجل، والثالث<sup>(٢)</sup> — (فأردنا) — إفساد من حيث القتل، وإنعام من حيث التبديل فأسنده إلى نفسه وإلى الله سبحانه، وقيل: لأن القتل كان منه، وإزهاق الروح كان من الله أمر<sup>(٣)</sup>.

ومثال آخر يوضح لنا عمق تأثير كتاب البرهان في الكشف، يقول ابن جماعة عن قوله تعالى في البقرة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾: ١٣٦، وقوله في آل عمران: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾: ٨٤: ”لما صدر آية البقرة بقوله: ﴿قُولُوا﴾ وهو خطاب للمسلمين راداً على قول أهل الكتاب: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، قال: (إلينا)، ولما صدر آية آل عمران بقوله (قل) قال: (علينا). والفرق بينهما: أن (إلى) ينتهى بها من كل جهة، و(على) لا ينتهى بها إلا من جهة واحدة، وهي: العلو، والقرآن يأتي المسلمين من كل جهة يأتي مبلغه إياهم منها، وإنما أتى النبي ﷺ من جهة العلو خاصة، فحسن وناسب قوله: (علينا) لقوله (قل) مع فضل تنويع الخطاب، وكذلك أكثر ما جاء في جهة النبي ﷺ — (على) وأكثر ما جاء في جهة الأمة — إلى“<sup>(٤)</sup>.

هذا التوجيه هو توجيه الكرمانى الذي يقول: ”..لأن (إلى) للانتهاء إلى الشيء من أي جهة كان، والكتب منتهى إلى الأنبياء وإلى أممهم جميعاً، والخطاب في هذه السورة للأمة لقوله ﴿قُولُوا﴾ فلم يصح إلا (إلى)؛ و(على) مختص بجانب الفوق وهو مختص بالأنبياء، لأن الكتب منزلة عليهم لا شركة للأمة فيها، وكان في آل عمران ﴿قُلْ﴾ وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم دون أمته، فكان الذي يليق به على“<sup>(٥)</sup>، والأمثلة في ذلك

(١) كذا في المطبوع من البرهان، وصوابه: والثالث.

(٢) كذا في المطبوع من البرهان، وصوابه: والثاني.

(٣) البرهان: ٢٥٨، وانظر تفصيل المسألة في فصل الأفراد والجمع في الباب الثاني. وقوله «أمر» كذا في الأصل من البرهان.

(٤) كشف المعاني: ١٠٧—١٠٨.

(٥) البرهان: ١٣١—١٣٢، وانظر تفصيل المسألة في الفصل الخامس من الباب الثاني.



كثيرة جداً، وقد بينت ذلك ضمن حديثي عن كل مسألة أقوم بدراستها في البابين الثاني والثالث.

ويأتي بعد الكرمانى ابن الزبير الغرناطى؛ حيث أفاد منه ابن جماعة فى كثير من المسائل، لا سيما المسائل التى خرج فيها ابن جماعة عن قول الكرمانى، أو ذكر فيها قولاً آخر يختلف عن قول الكرمانى، فإذا نظرت وجدت أصل توجيه ابن جماعة فى «ملاك التأويل» لابن الزبير، من ذلك توجيهه للوصف بمعلوم فى قوله تعالى فى المearج: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾: ٢٤، وحذفه له فى آية الذاريات: ﴿حَقُّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: ١٩<sup>(١)</sup>، ومن ذلك أيضاً توجيهه لزيادة قوله (منهم) فى آية الفتح: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾: ٢٩<sup>(٢)</sup>، ومثل ذلك: ربطه لآيتى سورة الملك: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾: ١٦-١٧ بآية الأنعام: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾: ٦٥<sup>(٣)</sup>، وكذلك توجيهه لوصف الغلام بالحلم فى الصافات: ﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾: ١٠١، وفى الذاريات بالعلم ﴿يُغَلِّمِ عَلِيمٍ﴾: ٢٨<sup>(٤)</sup>، وقد أوضحت تأثر ابن جماعة بابن الزبير فى كل مسألة من مسائل البحث فى البابين الثانى والثالث، حيث يدور البحث حول توجيه علماء المتشابهة للآيات المتشابهة فى ألفاظها.

### تأثيره فىمن بعده:

لم يكن تأثير ابن جماعة فىمن بعده كتأثير من تقدمه من علماء المتشابهة اللفظى، إذ إن كتابه يعتبر تلخيصاً للكتب المتقدمة عليه فى موضوع المتشابهة اللفظى، لاسيما كتاب البرهان للكرمانى، وهذا لا يعنى أنه ليس

(١) انظر المسألة فى كشف المعاني: ٣٦٤، وفى ملك التأويل: ١٠٣٥/٢.

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٤٦، وملاك التأويل: ٣٧٤/١.

(٣) انظر: كشف المعاني: ٣٦١، وملاك التأويل: ١٠٩١/٢.

(٤) انظر: كشف المعاني: ٣٠٨، وملاك التأويل: ٧٢٥/٢.

في الكتاب وقفات وتأملات حسنة، خرج بها ابن جماعة، وقد تحدثت عنها في مواطنها في البابين الثاني والثالث.

أما أثر كتاب «كشف المعاني» فيظهر في كتاب «فتح الرحمن» لأبي يحيى الأنصاري المتوفى سنة: ٩٢٦هـ، فمن يطالع الكتابين يجد بينهما تشابهاً كبيراً سواء في المادة أو في المنهج والطريقة، حتى في الأسلوب الموجز الذي يعتمد على الاختصار في توجيه الآيات المتشابهة، كما أن بينهما توافقاً في توجيه أغلب المسائل.

ومع هذا لم نجد أي إشارة من الأنصاري لابن جماعة، وقد عرفنا في الفصل السابق أن ابن جماعة رحمه الله لم يذكر أي إشارة إلى علماء المتشابه الذين سبقوه لاسيما الكرمانى، والحال مع الأنصاري أشد؛ إذ كان ينقل كلام الكرمانى بنصه كما ورد في البرهان، ومع هذا لم يشر إلى ذلك، وسأوضح ذلك في الفصل القادم.

ومن الأمثلة على تأثر الأنصاري بابن جماعة: توجيه الأنصاري لآية البقرة: ﴿فَأَنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾: ٦٠، وفي الأعراف جاء التعبير بقوله: ﴿فَأَنْبَجَسَتْ﴾: ١٦٠، يقول: "الأول أبلغ؛ لأنه انصباب الماء بكثرة، والانبجاس ظهور الماء، فناسب ذكر الانفجار هنا الجمع قبله بين الأكل والشرب الذي هو أبلغ من الاقتصار على الأكل"<sup>(١)</sup>.

ويقول ابن جماعة المتقدم عليه في هذا الموضع: "قل إن الانبجاس دون الانفجار، وإن الانفجار أبلغ في كثرة الماء، فعلى هذا: أن سياق ذكر نعمته اقتضى ذكر الانفجار وناسبه، وقيل: هما بمعنى واحد، فيكون من تنويع الألفاظ والفصاحة"<sup>(٢)</sup>.

ومسألة الموافقة بينهما في توجيه الآيات كثيرة جداً، لأنهما يعتمدان في توجيه الآيات على توجيه الإمام الكرمانى بوجه خاص، فإذا نظرت إلى

(١) فتح الرحمن: ٢٩.

(٢) كشف المعاني: ٩٨—٩٩، وانظر: كتاب البرهان للكرمانى: ١٢٥.

توجيه الشيخين، ورجعت لكتاب البرهان وجدت أصل التوجيه عنده، وكثيراً ما ينقلان نص الكرماني، ولا سيما الأنصاري، وكل مسألة تناولتها في دراستي في البابين الثاني والثالث أوضح فيها ذلك التأثير وطبيعته.

### ثالثاً: قضايا الكتاب وقيمه العلمية:

كتاب كشف المعاني أحد الكتب المتخصصة في توجيه الآيات المتشابهة تشابهاً لفظياً، وقد عرفنا أن ابن جماعة قد اعتمد على الكتب التي صنفت قبل كتابه، وهي كتاب درة التريل للإسكافي، والبرهان للكرماني، وملاك التأويل لابن الزبير، وقد قام ابن جماعة بتلخيص كتاب البرهان للكرماني، وجاء بمسائل كثيرة ليست من التشابه، وهذه المسائل عبارة عن تفسير لبعض الآيات التي يرى أنها تحتاج إلى إيضاح، وسأذكر بعض الأمثلة لذلك فيما بعد، أما معالم الكتاب وقضاياها فتمثل فيما يلي:

١- المنهج التطبيقي: وهو منهج اتبعه علماء التشابه قبل ابن جماعة، وسار على نهجهم ابن جماعة في كتابه، مختصراً توجيهاتهم وتعليقاتهم، وهو أمر مشاهد في الكتاب، إلا أن هذا التطبيق لا يقارن بتطبيق الخطيب الإسكافي أو ابن الزبير الغرناطي، حتى الكرماني الذي اختصر ابن جماعة بعض مسائله، وكما عرفنا في الفصل الثاني أن كتاب البرهان يعد مختصراً لكتاب درة التنزيل، ومع هذا فإن لابن جماعة وقفات حسنة وتعليقات جيدة.

٢- الأسلوب: جاء أسلوب ابن جماعة في كتابه موافقاً لأسلوب الكرماني في البرهان، فاعتمد على الإيجاز، فمثلاً تعريف البلد في سورة إبراهيم وتنكيره في البقرة، يوجز لنا التوجيه في سطرين فيقول: "إن آية البقرة دعا بها عند ترك إسماعيل وهاجر في الوادي قبل بناء مكة وسكنى جرهم فيها، وآية إبراهيم بعد عوده إليها وبنائها"<sup>(١)</sup>، بينما توجيه

(١) كشف المعاني: ١٠٥-١٠٦.



الكرماني فيه تفصيل أكثر<sup>(١)</sup>، ومثل ذلك كثير<sup>(٢)</sup>.

وحين نتأمل مسائل كتاب كشف المعاني نلاحظ أن ابن جماعة في توجيه بعض المسائل يختلف عن توجيه الكرماني، فيقوم ابن جماعة ببسط المسألة أكثر من الكرماني، وإلا فإن توجيهه مقارناً بتوجيه الإسكافي، أو ابن الزبير يعد مختصراً، من ذلك حديثه عن قوله تعالى في النساء: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾: ١٣٥، وفي المائدة: ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾: ٨، يقول عن التقديم والتأخير في الآيتين: "إن الآية هنا — آية النساء — تقدمها نشوز الرجال وإعراضهم عن النساء والصلح على مال، وإصلاح حال الزوجين، والإحسان إليهن، وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾: ١٢٩، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾: ١٢٧، وشبه ذلك، فناسب تقديم القسط وهو العدل، أي: كونوا قوامين بالعدل بين الأزواج وغيرهن، واشهدوا لله لا لمراعاة نفس أو قرابة.

وآية المائدة جاءت بعد أحكام تتعلق بالدين، والوفاء بالعهود والمواثيق لقوله تعالى في أول السورة: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ إلى آخره، وقوله تعالى قبل هذه الآية: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾: ٧ الآية، ولما تضمنته الآيات قبلها من أمر ونهي، فناسب تقديم (لله) أي: كونوا قوامين بما أمرتم أو نهيتم لله، وإذا شهدتم فاشهدوا بالعدل لا بالهوى"<sup>(٣)</sup>.

أما التوجيه الذي أورده الكرماني فهو "أن «لله» في هذه السورة — النساء — متصل ومتعلق بالشهادة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾: ١٣٥، أي: ولو تشهدون عليهم، وفي المائدة متصل ومتعلق بـ (قوامين)، والخطاب للولاء بدليل قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ﴾: ٨ الآية"<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر: البرهان: ١٣٠—١٣١، وانظر: تفصيل المسألة في الفصل الرابع من الباب الثاني.

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٠٦، ٢٨١، ٢٨٥، ٣١٩، ٣٢٤، ٣٣٠، ٣٣٤، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٤٧، ٣٦٤، ٣٣٦، ٣٧٠، ٣٧١.

(٣) كشف المعاني: ١٤٢—١٤٣.

(٤) البرهان: ١٥٧، وانظر تفصيل المسألة في الفصل الثاني من الباب الثالث.

فابن جماعة رحمه الله نظر في السياق المتقدم لآية النساء فلاحظ أن هناك دواعي ومعاني اقتضت تقديم القسط، الذي هو العدل، ففي الآية نفسها جاء نشوز الرجال، وكذلك الصلح على مال، وأيضاً إصلاح حال الزوجين، وبعد الآية جاء قوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ...﴾: ١٢٩ وقبلها جاء ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾: ١٢٧، فكل هذه المعاني اقتضت تقديم القسط في الآية.

أما آية المائدة فالسياق الذي تقدمها يقوم على أحكام عامة تتعلق بالدين، والوفاء بالعهد، وذكر نعمة الله تعالى على عباده، فهذه المعاني اقتضت تقديم قوامين لله على شهداء بالقسط، وهكذا تتجلى روح ابن جماعة في النظر في سياق الآيات، واستخراج هذه المناسبة لمعرفة أسرار التقديم والتأخير في الآيتين. أما توجيه الكرماني فمقبول أيضاً، وهو يقوم على النظر في المناسبة المعنوية للآيتين فآية المائدة الخطاب فيها للولاية، وهذا يقتضي تقديم قوامين لله، لأن القوامة من شأن الولاية، ولذلك جاء قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ﴾. ومن ذلك أيضاً توجيه ابن جماعة لآية المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَكُونُ أَذْكَرُوا نِعْمَةً اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: ٢٠، وفي إبراهيم حذف النداء: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكَرُوا﴾: ٦، يقول رحمه الله: "إن الخطاب بحرف النداء واسم المنادى أبلغ وأخص في التنبيه على المقصود، وفيه دليل على الاعتناء بالمنادى وتخصيصه بما يريد أن يقوله له.

فلما كانت آية المائدة في ذكر أشرف العطايا من النبوة والملك وإيتاء ما لم يؤت أحداً من العالمين، وهو المن والسلوى، وهم ملتبسون به حالة النداء، حق لها وناسب مزيد الاعتناء بالنداء وتخصيص المنادى، ولذلك أيضاً قال: ﴿يَكُونُ أَذْكَرُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾: ٢١، لأن ذلك من أعظم النعم عليهم، فناسب التخصيص بذكر المنادى. ولما كانت آية إبراهيم بذكر ما أنجاهم الله تعالى منه من قبل فرعون، وكان ذلك مما مضى زمانه، لم يأت فيه بمزيد

الاعتناء كما تقدم في المائدة<sup>(١)</sup>.

في هذا الموضع يربط ابن جماعة رحمه الله ذكر المنادى بمقدار ما يذكر به، فإذا كان الذي يذكر به أمراً جليلاً، قال: يا قومي، وبذلك أفاد الخصوص، وأشعر بجلال النعمة، ومعلوم أنه حين يقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا﴾، المراد يا قومي اذكروا، فكلمة «قومي» مدلول عليها بقوله: (لقومه)، ولكن ابن جماعة أوضح أن هناك فرقاً كبيراً بين الموضعين، فحين يذكر النداء مع المنادى يراد به التنبيه والاهتمام، فهذا النداء ينبه المخاطب ويوقظه.

وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله حين تحدث عن حذف المفعول، فأوضح أن ثمة فرقاً بين أن تخبر عن الشيء بعد التنبيه له والتهيئة، وأن تخبر عنه بغتة<sup>(٢)</sup>.

ومن الملاحظ على كتاب كشف المعاني أن المؤلف لا يذكر أقوال المفسرين أو اللغويين، وهذا يوضح منهجه الذي سار عليه، فاختصر الكلام وأوجز التوجيهات.

**٣- وضوح الشخصية:** مع أن ابن جماعة رحمه الله قد استفاد كثيراً ممن سبقه في التصنيف في هذا الفن، إلا أننا نلاحظ وضوح شخصية المؤلف، وهي شخصية فعالة لها أثرها في الكتاب، فمع قدرة ابن جماعة اللغوية، وحسن أسلوبه في عرض المسائل، جاء الكتاب بشخصية واضحة، حتى إنك لتحس أن التوجيهات التي أخذها ممن سبقه، كأنه مبدعها، لبراعته اللغوية والأسلوبية، وقوة شخصيته في عرض التوجيه، ولكن حين نعقد مقارنة مع ما جاء به علماء المتشابه قبله يتضح لنا متابعته لهم، ولكن بعبارة أخرى، وأسلوب مختلف.

---

(١) كشف المعاني: ١٤٩، وانظر مثل ذلك: ١٥٧، ١٥٩، ٢٠٥، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢٦، ٢٥٨، ٣٣٧، ٣٣٥-٣٣٦.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز: ١٦٤.



## الفصل الخامس

كتاب فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن  
لأبي يحيى الأنصاري:

مصادره وقضاياه

## الفصل الخامس

### فتح الرحمن لأبي يحيى الأنصاري

#### مصادره وقضاياه

#### التعريف بالأنصاري:

هو شيخ الإسلام أبو يحيى زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السُّنِّيكي المصري الشافعي، والسُّنِّيكي نسبة إلى بلده سُنَيْكة التي ولد بها، وهي من أعمال الشرقية بمصر<sup>(١)</sup>.

وقد كان مولده رحمه الله بسُنَيْكة سنة ٨٢٥هـ، وقيل قبل ذلك بسنة، وقيل بعدها بسنة<sup>(٢)</sup>.

وقد نشأ فقيراً معدماً، حفظ القرآن الكريم وبعض المختصرات الفقهية على يد محمد بن ربيع، والفاقوسي البليسي، ثم تحوّل إلى القاهرة سنة ٨٤١هـ، وقد كفّ بصره في آخر حياته<sup>(٣)</sup>.

ولم تذكر المصادر التي ترجمت له شيئاً عن أسرته التي يظهر أنها من الأسر المعدمة، وإنما اقتصر الحديث على انتقاله من بلده إلى القاهرة، حيث لزم الأزهر وتعلّم العلوم، وأخذ عن الشيوخ، فقد انقطع في الأزهر وحفظ

---

(١) انظر ترجمته في: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة لنجم الدين الغزي: ١٩٦/١—٢٠٧، تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر للعيدروني: ١١١—١١٧، معجم المطبوعات العربية المعربة ليوسف سركيس: ٤٨٣—٤٨٨، الأعلام للزركلي: ٤٦/٣.

(٢) انظر: الكواكب السائرة: ١٩٦/١.

(٣) انظر: تاريخ النور السافر: ١١٥.

المنهاج والألفية والشاطبية والرائية، وغير ذلك من أمهات الكتب. وتروي كتب التراجم عنه أن كان يجوع في الجامع فيخرج في الليل إلى الميضاة، فيغسل ما يجده من قشر البطيخ حوالي الميضاة، ويأكله ويقنع به عن الخبز، وقد أقام على ذلك مدة من الزمان، حتى قيض الله له شخصاً كان يعمل في الطواحين في غربلة القمح، فكان يتفقده ويشترى له ما يحتاج إليه من الأكل والشرب والكسوة والكتب<sup>(١)</sup>.

وقد أخذ أبو يحيى العلم عن علماء كثر، فدرس الفقه والأصول والتفسير والفرائض، واللغة والنحو والصرف، والمنطق، والحساب والجبر، وكان لذلك أثره في كثرة مصنّفاته وتنوعها، فقد تجاوزت الأربعين مصنفاً.

ومن أخذ عنه الأنصاري شيخ الإسلام ابن حجر، وموسى بن أحمد السبكي، والشهاب بن المجدي، والعز بن عبد السلام البغدادي، ومحمد بن حمد الكيلاني، والمحيوي الكافيجي، والشمس الحجازي وغيرهم كثير<sup>(٢)</sup>. وكان أبو يحيى يميل إلى الصوفية، ويذب عنها، وهو ممن كتب في نصره ابن عربي وابن الفارض، فكان يعتقد باعتقادهما<sup>(٣)</sup>.

وقد تولى التدريس في مقام الإمام الشافعي، والتدريس يعد أرفع المناصب في مصر في ذلك الوقت، ولما ظهر فضله وشاع أمره تولى منصب القضاء بعد امتناع كثير وتعفف زائد، وكان ذلك في شهر رجب سنة ٨٨٦هـ، واستمر قاضياً مدة ولاية السلطان الجركسي، واستمر على ذلك إلى أن كف بصره فعزل بالعمى، ثم لازم التدريس والإفتاء والتصنيف<sup>(٤)</sup>.

وقيل: لما رأى الأنصاري من السلطان عدولاً عن الحق في بعض أعماله، كتب إليه يزجره عن الظلم، فعزله السلطان، فعاد إلى اشتغاله

---

(١) انظر: الكواكب السائرة: ١/١٩٦، ومعجم المطبوعات: ٤٨٤، والأعلام: ٤٦/٣.

(٢) انظر: تاريخ النور السافر: ١١٢—١١٥، والكواكب السائرة: ١/١٩٧ وما بعدها.

(٣) انظر: الكواكب السائرة: ١/٢٠٤، ومعجم المطبوعات: ٤٨٤.

(٤) انظر: تاريخ النور السافر: ١١٥.



بالعلم إلى أن توفي<sup>(١)</sup>.

أما مؤلفاته: فجاءت متنوعة في التفسير والفقه، واللغة والأصول، والمنطق، ومنها: كتاب (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن) في المتشابه، و(تحفة الباري على صحيح البخاري)، و(شرح الشافية لابن الحاجب)، و(تعليق على تفسير البيضاوي)، و(شرح ألفية العراقي)، و(شرح شذور الذهب)، و(غاية الأصول)، و(تحرير تنقيح اللباب في الفقه)، و(أسنى المطالب في شرح روضة الطالب) في الفقه، و(الدقائق المحكمة) في القراءات، و(تحفة نجباء العصر في التجويد)<sup>(٢)</sup>، ويرى العيدروسي أن مصنفات الأنصاري مع كثرتها، فإن أكثرها مجرد جمع بلا تحرير<sup>(٣)</sup>.

وقد توفي أبو يحيى في الرابع من ذي الحجة سنة ٩٢٥هـ، وقيل سنة ٩٢٦هـ، فرحم الله أبا يحيى فقد عُمر حوالي مئة عام أمضاها في طلب العلم وتعليمه.

## ثانياً: التعريف بكتاب (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن):

كتاب (فتح الرحمن)<sup>(٤)</sup> هو آخر الكتب الخمسة التي تقوم عليها الدراسة في هذا البحث، وهو آخرها من حيث التأليف، كما أن المصنف يعد من المتأخرين بالنسبة لعلماء المتشابه اللفظي، ولذلك اعتمد المؤلف على كتاب البرهان للإمام الكرمانى اعتماداً كلياً، فكان ينقل نصه بأكمله، كما أفاد من ابن جماعة في مواضع كثيرة.

وموضوع الكتاب واضح من العنوان الذي وضع له وهو (فتح الرحمن

---

(١) انظر: الأعلام: ٤٦/٣.

(٢) انظر: معجم المطبوعات: ٤٨٤—٤٨٧، والأعلام: ٤٦/٣.

(٣) انظر: تاريخ النور السافر: ١١٥.

(٤) حقق الكتاب محمد علي الصابوني، وهو تحقيق ينقصه الكثير، فلم يتم المحقق بترجمة موجزة للمؤلف، كما أنه لم يطلع على كتب المتشابه التي ألفت قبل الأنصاري، ليقف على مسألة التأثير والتأثير، كما خلا من تعليقات علمية تبرز الكتاب، وإنما اكتفى بعزو الآيات.

بكشف ما يلتبس في القرآن)، فقد عرض المؤلف الآيات المتشابهة تشابهاً لفظياً، ولم يكتف بذلك بل تحدث عن آيات ليست من المتشابهة، وإنما يرى أنه من المناسب معرفة تفسيرها والمراد منها، فكان حديثه في بعض المواضع يدور حول آية واحدة فقط، وهذا تقريباً نفس منهج ابن جماعة في كتابه.

### سبب تأليفه:

أوضح أبو يحيى ذلك في مقدمة الكتاب التي لم تتجاوز خمسة أسطر، فبيّن فيها موضوع الكتاب، وسبب تأليفه، وأنه مختصر من أقوال العلماء، فقال: ”وبعد، فهذا مختصر في ذكر آيات القرآن المتشابهات، المختلفة بزيادة، أو تقديم، أو إبدال حرف بآخر، أو غير ذلك، مع بيان سبب تكراره، وفي ذكر أنموذج من أسئلة القرآن العزيز وأجوبتها، صريحاً أو إشارة، جمعت من كلام العلماء المحققين، ما فتح الله به من فيض فضله المتين، وسميته بـ: (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن)“<sup>(١)</sup>.

وهذه رسالة واضحة، فالكتاب مجرد جمع أخرجه المؤلف بصورة مختصرة، وهذا شأنه رحمه الله في كثير من مصنفاته التي يغلب عليها النقل.

### منهج المؤلف في الكتاب:

سار أبو يحيى الأنصاري على منهج الإمام الكرمانى وابن جماعة، في كتابي البرهان وكشف المعاني، وهو المنهج نفسه الذي سار عليه الخطيب الإسكافي وابن الزبير الغرناطي، إلا أني خصصت كتابي البرهان وكشف المعاني لوجه الشبه بينهما في اتباع أسلوب الإيجاز والاختصار في توجيه الآيات المتشابهة، وقد أورد المؤلف مقدمة قصيرة جداً أوضح فيها سبب تأليف الكتاب، دون أن يشير إلى المنهج الذي سيتبعه في توجيه الآيات

(١) فتح الرحمن: ١٥.

المتشابهة، واكتفى بأن ما في الكتاب مختصر من كلام العلماء المحققين في هذا الفن، دون أن يحدد العلماء، أو الكتب التي اعتمد عليها.

وقد رتب المؤلف الآيات حسب ترتيب التلاوة، بدأ بسورة الفاتحة وانتهى بسورة الناس، وفي كل سورة يتناول الآيات حسب ترتيب المصحف. ويذكر أيضاً كل موضع في مكانه حسب ترتيب الآيات، وإذا كان قد تحدث عنه في موضعه يشير إلى الموضع.

كما تحدث كثيراً عن آيات ليست من المتشابهة، وقد أوضح ذلك في مقدمة الكتاب، ومن أمثلة ذلك حديثه عن قول الله تعالى في البقرة: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾: ٦١: ”إن قلت: كيف قالوا: ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، وطعامهم كان طعامين: (المن) و(السلوى)؟ قلت: المراد بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل، أو بالطعامين أنهما ضرب واحد، لأنهما من طعام أهل التلذذ والترف، أو أنهما كانا يؤكلان مختلطتين“<sup>(١)</sup>.

أخذ أبو يحيى الأنصاري أسلوب الكرمانى في كتابه البرهان، حيث اعتمد على الإيجاز والاختصار في توجيه الآيات المتشابهة، فبعضها لا يتجاوز الحديث عنها سطرين، بل نقل نص الكرمانى في توجيه آيات كثيرة، وسأحدث عن ذلك بعد قليل.

## مصادر المؤلف:

عُرف الأنصاري بالإكثار من التأليف في علوم مختلفة، وهذا بلا شك يدل على قدرته العلمية، وسعة اطلاعه على تراث السابقين، وأما كتاب «فتح الرحمن»، وهو محل دراستنا، فلم يوضح المؤلف المصادر التي اعتمد عليها في تأليفه، وإنما نص في المقدمة على أن الكتاب مختصر من كتب العلماء المحققين الذين صنفوا في هذا العلم.

وحين نتأمل الكتاب ونعقد مقارنة بينه وبين كتب المتشابهة نلاحظ بلا

---

(١) المصدر السابق: ٢٩، وانظر أيضاً: ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣١، ٧٠، ٧١، ومثل ذلك كثير.



أدنى شك أن الأنصاري تأثر تأثراً مباشراً بكتاب البرهان للكرماني، ونقل نصوصاً كثيرة، وإليك بعض الأمثلة التي نقلها برمتها دون أن يشير إلى صاحبها. فمن الأمثلة — وأذكر توجيه الكرماني أولاً —: يقول الكرماني في البرهان: ”قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّاتِ﴾ البقرة: ٦٢، وقال في الحج: ﴿وَالصَّبِيَّاتِ وَالنَّصَارَى﴾: ١٧، وقال في المائدة: ﴿وَالصَّبِيَّاتِ وَالنَّصَارَى﴾: ٦٩، لأن النصاري مقدمون على الصابئين في الرتبة، لأنهم أهل كتاب، فقدمهم في البقرة، والصابئون مقدمون على النصاري في الزمان، لأنهم كانوا قبلهم، فقدمهم في الحج، وراعى في المائدة المعنيين فقدمهم في اللفظ وأخرهم في التقدير، لأن تقديره في المائدة: والصابئون كذلك، ومثله قول الشاعر: فَمَنْ يَكْ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلَهُ فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغْرِيْبُ أراد: فإني لغريب بها وقيار كذلك“<sup>(١)</sup>.

أما الأنصاري فيقول عن هذا الموضع، وهو نص الكرماني: ”فإن قلت: لم قدم النصاري على الصابئين هنا، وعكس في المائدة والحج؟ قلت: لأن النصاري مقدمون على الصابئين في الرتبة، لأنهم أهل كتاب، فقدموا في البقرة لكونهم أولاً، والصابئون مقدمون على النصاري في الزمن، فقدموا في الحج، وروعي في المائدة المعنيان فقدموا في اللفظ وأخروا في المعنى، إذ التقدير: والصابئون كذلك، كما في قول الشاعر:

فَمَنْ يَكْ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلَهُ فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغْرِيْبُ

إذ التقدير: فإني لغريب بها وقيار كذلك“<sup>(٢)</sup>، وقد بسطت القول عن هذه المسألة في الفصل الثاني من الباب الثالث في هذه الدراسة.

ومن ذلك أيضاً: قول الكرماني: ”قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ البقرة: ٨٠، وفي آل عمران: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾: ٢٤، لأن الأصل في الجمع

(١) البرهان: ١٢٦—١٢٧.

(٢) فتح الرحمن: ٣٠.

إذا كان واحده مذكراً أن يقتصر في الوصف على التأنيث، نحو قوله: ﴿فِيهَا سُرٌّ مَّرْفُوعَةٌ﴾ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَمَنَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَائِي مَبْنُوتَةٌ﴾ الغاشية: ١٣-١٦، وقد يأتي سرر مرفوعات، على تقدير ثلاثة سرر مرفوعة، وتسعة سرر مرفوعات، لكنه ليس بالأصل، فجاء في البقرة على الأصل، وفي آل عمران على الفرع“ (١).

ويقول أبو يحيى الأنصاري: ”إن قلت: لم قال هنا (معدودة)، وفي آل عمران (معدودات)؟ قلت: إشارة إلى الجمع بين الأصل والفرع، إذ الأصل في الجمع بالالف والتاء إذا كان واحده مذكراً، أن يقتصر في الوصف على تأنيثه مفرداً كقوله تعالى ﴿فِيهَا سُرٌّ مَّرْفُوعَةٌ...﴾، وقد يأتي (سرر مرفوعات) على الجمع، فهو فرع عن الأول، فذكر في البقرة على الأصل، لكونها أول، وفي آل عمران على الفرع“ (٢).

فهذان مثالان في سورة واحدة، بل في صفحة واحدة، فما بالك في باقي الكتاب؟ ويتضح ذلك بجلاء حين تعقد مقارنة بين الكتابين في كل موضع، وهذا يؤكد قول العيدروسي في ترجمته للأنصاري: ”إن مصنفاته وإن كانت كثيرة، فليست بهذه المثابة على أن كثيراً منها مجرد جمع بلا تحرير حتى كأنه حاطب ليل“ (٣).

أما أثر كتاب ابن جماعة في فتح الرحمن، فلم يكن كتأثير كتاب البرهان، ولا سيما إذا علمنا أثر كتاب البرهان في كشف المعاني، إلا أنه لم ينقل منه كما نقل الأنصاري، وإنما كان يتصرف في توجيهات الكرمانى، وقد سبق أن تحدثت عن ذلك في الفصل الثاني، والفصل الرابع من هذا الباب،

---

(١) البرهان: ١٢٧، وقد جاء في أصل كلام الكرمانى (.. ثلاث سرر... تسع سرر) وهذا مخالف لقاعدة تذكير العدد وتأنيثه، لذا لزم التنبيه، وانظر أيضاً: ١٢٨، ١٤٢، ١٤٦، ١٤٩، ١٨٦... (٢) فتح الرحمن: ٣٢، وانظر أيضاً: ٥٦، ٦٧، ٦٨، ١٤١... (٣) تاريخ النور السافر: ١١٥، العيدروسي هنا يتحدث عن مؤلفات الأنصاري بشكل عام، أما كتاب فتح الرحمن فهو كتاب جليل وإن اعتمد فيه مؤلفه على كتب المتشابه اللفظي التي ألفت قبله.

ومع هذا فقد وافق الأنصاريُّ ابنَ جماعة في أغلب المسائل؛ لأن مصدرهما واحد وهو كتاب البرهان للكرماني ، ف كلا الكتابين يدين بالفضل لكتاب البرهان للكرماني، وهو بحق العمدة لهما.

ومن أمثلة الموافقة بينهما: توجيه ابن جماعة لتقديم المغفرة على العذاب في آية البقرة: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾: ٢٨٤، وفي المائدة قدم العذاب على المغفرة: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾: ٤٠، فيقول: ”إن آية البقرة وغيرها جاءت ترغيباً في المسارعة إلى طلب المغفرة، وإشارة إلى سعة مغفرته ورحمته، وآية المائدة جاءت عقب ذكر السارق والسارقة، فناسب ذكر العذاب، لأنه لهم في الدنيا والآخرة“<sup>(١)</sup>.

ويقول أبو يحيى الأنصاري عن هذا الاختلاف: ”قدم المغفرة في هذه السورة وغيرها إلا في المائدة فقدم العذاب، لأنها في المائدة نزلت في حق السارق والسارقة، وعذابهما يقع في الدنيا فقدم العذاب، وفي غيرها قدمت المغفرة رحمة منه للعباد، وترغيباً لهم إلى المسارعة إلى موجباتها“<sup>(٢)</sup>.

فتوجيه الأنصاري موافق لتوجيه ابن جماعة، بل إنه نص كلام الكرماني الذي يقول: ”.. يغفر مقدم في هذه السورة وفي غيرها، إلا في المائدة.. لأنها نزلت في حق السارق والسارقة، وعذابهما يقع في الدنيا، فقدم لفظ العذاب، وفي غيرها قدم لفظ المغفرة رحمة منه سبحانه وترغيباً للعباد في المسارعة إلى موجبات المغفرة“<sup>(٣)</sup>.

### ثالثاً: قضايا الكتاب وقيمه العلمية:

عرفنا من خلال عرض الكتاب، أن الكتاب كما ذكر مؤلفه مجرد اختصار لما قاله علماء المتشابه، وعلمنا أن الأنصاري رحمه الله اعتمد على

(١) كشف المعاني: ١٢٣.

(٢) فتح الرحمن: ٥٦.

(٣) البرهان: ١٤٢.



كتاب البرهان، فنقل منه نصوصاً كثيرة دون أن يشير إلى الكتاب أو صاحبه، وإنما اكتفى بإشارة عامة حين قال في مقدمة الكتاب: ”جمعت من كلام العلماء المحققين“<sup>(١)</sup>، وتعنى هذه الكلمة المختصرة أنه رحمه الله ارتضى توجيهات أولئك العلماء التي نقلها في كتابه، وهو أيضاً يؤكد ويثبت ما قالوه، ويبين أنهم قد أصابوا في تعليلاتهم وتوجيهاتهم، كما تفيد هذه العبارة أنه رحمه الله لم يجد في هذه التوجيهات ما يوجب رفضه أو تعديله، أو إضافة شيء إليه، فهذه الجملة الموجزة أفادت هذه المعاني الكثيرة.

أما أبرز قضايا الكتاب، فيمكن أن يقال فيها ما قيل في الكتب السابقة كالبرهان، أو كشف المعاني، فهو رحمه الله ناقل عن تلك الكتب، وقد صرح بذلك في مقدمة الكتاب، ولي أن أبين في هذه الوقفة ما يلي:

١— أن الكتاب تكرر لتوجيهات الكرمانى في كتاب البرهان، حيث نقل توجيهاته بالنص، وهذه قضية لا يختلف عليها اثنان، فمن يتأمل الكتابين ويعقد بينهما مقارنة يلحظ ذلك بوضوح، وقد سبق أن تحدثت عن هذا الأمر في مصادر الكتاب، كما أوضحت ذلك في الفصل الثانى، وقد ذكرت أمثلة كثيرة على ذلك.

٢— أن الأنصارى قد أخذ منهج ابن جماعة، ولهذا نجد أن بين الكتابين تشابهاً كبيراً في المنهج، فليس لدى الأنصارى منهج متميز يوصف به كتابه، ولهذا يرى المطلع على الكتابين أن بينهما توافقاً كبيراً في توجيه الآيات المتشابهة، كذلك اتباعهما أسلوب تفسير الآية الواحدة التي ليست من المتشابه اللفظي، ومن أمثلة ذلك عند الأنصارى — وهي كثيرة جداً — حديثه عن قول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾: ٩٠، يقول: ”إن قلت: كيف قال ذلك مع أن المرتد وإن ازداد ارتداده مقبول التوبة؟ قلت: الآية نزلت في قوم ارتدوا، ثم أظهروا التوبة بالقول، لستر

(١) فتح الرحمن: ١٥.

أحوالهم، والكفر في ضمائرهم“<sup>(١)</sup>.

من جانب آخر نجد أن الأنصاري اختصر مسائل كثيرة عند ابن جماعة<sup>(٢)</sup>.

٣— قام الأنصاري رحمه الله بعملية الترتيب في المسائل، فبعض الآيات المتشابهة فيها أكثر من موضع كتقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وذكر وحذف وهكذا، فنجد الأنصاري يضعها في عدة مسائل، بينما هي عند غيره مسألة واحدة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا...﴾ الآية: ٥٨، قسمها إلى ثلاث مسائل، الأولى: العطف بالفاء (فكلوا) في البقرة، وفي الأعراف بالواو، الثانية: تقديم (وادخلوا الباب سجداً) على (وقولوا حطة)، وجاء العكس في الأعراف، الثالثة: ذكر الواو في (وسنزيد المحسنين) في البقرة، وحذفها في الأعراف، وهو لم يأت بجديد وإنما رتب المسألة ونظمها<sup>(٣)</sup>.

ومن الأمور الملاحظة أن أبا يحيى الأنصاري يضع رموزاً في ترتيب أفكاره كالحروف الأبجدية، ومثال ذلك: أنه حين تناول آية آل عمران: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ...﴾ الآية: ١٢٦، ذكر ”أن هذه الآية تخالف آية الأنفال في ثلاثة أمور:

أ— لأنه ذكر في هذه (لكم) لتمام القصة قبلها، وتركها ثم إيجازاً أو اكتفاء بذكره له قبل في قوله: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ﴾.

ب — وقدم (قلوبكم) على (به) هنا، وعكس في الأنفال ليزاوج بين الخطابين هنا في (لكم) و(قلوبكم).

(١) المصدر السابق: ٧٠، وانظر مثل ذلك: ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣١، ٧١، ١٢٦، ١٧٦، ٢١٠، ٢٧٠...

(٢) انظر: فتح الرحمن: ٢٦، وفي كشف المعاني: ٩٤، وكذلك: ٢٧، وفي كشف المعاني: ٩٥—٩٦.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٢٧—٢٨، وكذلك: ٢٨—٢٩، وقد تم بحث هذه المسائل في مواطنها من البحث.

ج - وذكر هنا وصفي (العزیز) و(الحکیم)، تابعین وذلك في قوله: ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وثُمَّ ذَكَرَهُمَا فِي جُمْلَةٍ مُسْتَأْنَفَةٍ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، لِأَنَّهُ لَمَّا خَاطَبَهُمْ هُنَا حَسُنَ تَعَجُّيلَ بَشَارَتِهِمْ بِأَن نَّاصِرَهُمْ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، وَلِأَن مَا هُنَاكَ قِصَّةٌ بَدْرٌ، وَهِيَ سَابِقَةٌ عَلَى مَا هُنَا، فَإِنَّمَا فِي قِصَّةِ أَحَدٍ، فَأَخْبَرَ هُنَاكَ بِأَنَّهُ ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وَجَعَلَ ذَلِكَ هُنَا صِفَةً، لِأَن الْخَبَرَ قَدْ سَبَقَ<sup>(١)</sup>.

وبهذا أصل إلى نهاية حديثي عن هؤلاء العلماء الأجلاء، وهو في الحقيقة حديث موجز يوضح أبرز العناصر والأسس التي اعتمدها في مصنفاتهم، ويشمل ذلك ترجمة موجزة لأصحاب هذه المصنفات، وعرضاً موجزاً لكل كتاب من الكتب الخمسة التي تقوم عليها هذه الدراسة، وهذا الباب يعطي القارئ الكريم تصوّراً عاماً ومجملًا عن هذا العلم العظيم، وأبرز رجاله، وأهم مصنفاته، قبل أن يخوض في الآيات المتشابهة.

---

(١) فتح الرحمن: ٧١-٧٢، وقد تم بحث هذه المسائل في البابين الثاني والثالث.



## الباب الثاني

### الكلمة المفردة في المتشابه اللفظي

الفصل الأول: الاختلاف بين الآيات المتشابهة  
في اختيار الصيغة.

الفصل الثاني: الاختلاف بين الآيات المتشابهة  
في الإفراد والجمع.

الفصل الثالث: الاختلاف بين الآيات المتشابهة  
في التذكير والتأنيث.

الفصل الرابع: الاختلاف بين الآيات المتشابهة  
في التعريف والتنكير.

الفصل الخامس: الاختلاف بين الآيات المتشابهة  
في الحروف.

# الفصل الأول

الاختلاف بين الآيات المتشابهة  
في اختيار الصيغة

## الفصل الأول

### الاختلاف بين الآيات المتشابهة

#### في اختيار الصيغة

حين نتأمل اللفظة المفردة من حيث كونها اسماً أو فعلاً، وطرق استعمالاتها، وما تؤديه من معان جمة، نجد أن لهذا أهميته، حيث ينبني عليه فروق واضحة ودقيقة في دلالة الكلام على المعنى المراد والغرض المقصود. فكل من الاسم والفعل له دلالاته الخاصة التي لا تتحقق إلا به، فلا يمكن وضع أحدهما مكان الآخر، فلكل واحد منهما مقام يستدعيه وسياق يقتضيه، فالفروق بينهما فروق تمس الحاجة إليها في علم البلاغة.

فمثلاً لفظ (منطلق) في قولك: (زيد منطلق) يدل على الثبوت والاستمرار من غير إفادة التجدد والحدوث، أما لفظ (ينطلق) في قولك: (زيد ينطلق) فيدل على إفادة التجدد والحدوث دون الثبوت والاستمرار.

وقد اعتنى الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) بموضوع اختيار الصيغة عناية حسنة، ولا سيما الفروق بين الاسم والفعل، وكان حديثه ضمن موضوع (الفروق في الخبر)، حيث بيّن — رحمه الله — الفرق بين الخبر إذا كان اسماً، أو فعلاً، أو صفة مشبهة<sup>(١)</sup>، يقول: "فإذا قلت (زيد منطلق)، فقد أثبت الانطلاق فعلاً له، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئاً، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: (زيد طويل)، و(عمرو قصير)، فكما لا تقصد هاهنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث،

(١) انظر: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني: ١٧٣—١٩٨.



بل توجبهما وتثبتهما فقط، وتقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض في قولك: (زيد منطلق) لأكثر من إثباته لزيد.

وأما الفعل فإنه يقصد فيه إلى ذلك، فإذا قلت: (زيد هاهو ذا ينطلق)، فقد زعمت أن الانطلاق يقع جزءاً فجزءاً، وجعلته يزاوله ويُزجّيه..“<sup>(١)</sup>.  
وقد أخذ البلاغيون مقولة إمامهم، وبسطوا الحديث حولها في باب إيراد المسند اسماً أو فعلاً<sup>(٢)</sup>.

ولا يقف الحديث عن اختيار الصيغة عند هذا الحد، بل يتعداه إلى أمر آخر مهم وهو الحديث عن صيغ الأفعال، والفرق بينها في الدلالة المعنوية والزمنية، فكل من المضارع والماضي له دلالة وكذا ذلك موضعه الخاص به، فلا يقوم أحدهما مقام الآخر.

ومما يدخل ضمن اختيار الصيغة: مسألة التعبير عن المعنى بصيغة أخرى لغرض بلاغي، كالتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي، وكذلك العكس. وقد كان حديث البلاغيين عن هذا الأمر ضمن أحوال المسند، في تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، عند الحديث عن التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي<sup>(٣)</sup>.

ومن الحديث عن اختيار الصيغة الحديث عن أسرار التعبير في أبنية المشتقات، فقد ترد الآية بصيغة ثم تتغير الصيغة في موضع آخر إلى صيغة أخرى.

وستناول في هذا الفصل — بإذن الله — ما ورد في كتاب الله من آيات متشابهة في لفظها مختلفة من حيث الصيغة، وسيكون حديثنا حول أربعة

(١) المصدر السابق: ١٧٤.

(٢) انظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي ص: ١٠٦—١٠٧، ومفتاح العلوم للسكاكي: ٢٠٨—٢١٠، والإيضاح في علوم البلاغة للقزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي: ١١٣/٢، ١٣٣—١٣٤، والمطول لسعد الدين التفتازاني: ١٤٦—١٥١.

(٣) انظر: الإيضاح: ٩٦/٢، والمطول: ١٣٦، وبغية الإيضاح للصعدي: ١٨٣—١٨٤.

أمور، سائلاً المولى سبحانه العون والتوفيق:

أولاً: الاختلاف في الاسمية والفعلية.

ثانياً: الاختلاف في صيغة الماضي والمضارع.

ثالثاً: الاختلاف في صيغ الفعل الماضي.

رابعاً: الاختلاف في صيغ الاشتقاق.

## الاختلاف في الاسمية والفعلية:

تحدث علماء المتشابه اللفظي عن آيات متشابهة جاء الاختلاف فيها من حيث الاسمية والفعلية، وأول المواضع التي نطالعها في هذا الموضوع مقارنتهم بين لفظة (أنصح) و(ناصح)، وذلك في تحليلهم لقول الله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا لِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ نَصِيحٌ لَّكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف: ٦٢، مع قوله تعالى على لسان هود عليه السلام في السورة نفسها: ﴿..وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾: ٦٨، وقد تعددت أقوال العلماء في تخريج الآيتين، فالخطيب الإسكافي نظر إلى ما رُمي به نوح عليه السلام من قومه فرآهم اتهموه بأنه في ضلال، ثم نظر إلى ما اتهم به هود — عليه السلام — من قومه، فرآهم يقولون له: ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ الأعراف: ٦٦، والتهمتان مختلفتان، لأن الضلال فعل يفعله الضال، والسفاهة صفة من صفات النفس، والأفعال متعددة ومتجددة، وأوصاف النفس ثابتة، فجاء جواب نوح بصيغ الأفعال وقال: (أبلغكم)، و(أنصح لكم)، لتحدث الملاءمة الدقيقة بين قوله وقولهم، فهو ينفي عنه الضلال بأفعال مضادة، وهو أنصح وأجدد النصح وأكرره، أما جواب هود عليه السلام فكان بلفظ (ناصح) أي: ثابت على النصح مستمر فيه، وهذا ينقض قولهم: (إنا لنراك في سفاهة)، لأن النصح ضد السفاهة. يقول الإسكافي رحمه الله: ”إن قول نوح عليه السلام جواب من ضلل؛ لأنه قيل له: ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: ٦٠... والضلال من صفات الأفعال،

فكان جواب من عيب بفعل مذموم، نفيه بفعل محمود، بل بأفعال تنفي ما ادعوه عليه فنفي الضلال بالأفعال التي ذكرها في سياق الآيات. وهو عليه السلام قيل له: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾: ٦٦، والسفاهة من صفات النفس، وهي ضد الحلم، وهو معنى ثابت... فلما رمي بها وهي من الخصال المذمومة البطيئة، وليست من الأفعال التي ينتقل الإنسان عنها إلى أضرارها في الزمن القصير، فكان نفيها بصفات ثابتة تبطلها أولى كما كان في الفعل المذموم بالفعل المحمود أولى<sup>(١)</sup>.

أما الكرمانى فلم يتأمل الآيتين من حيث دلالتهما ومعانيهما كما نظر الإسكافي، وإنما نظر من زاوية مناسبات الصيغ، فجاء (أنصح) ليلائم ما عطف عليه وهو (أبلغكم)، وفي قصة هود جاء (ناصح) ليلائم (كاذب)، فنظرته لمسألة تناسق البناء اللغوي، وهو جانب جيد، لكنها ليست كنظرة الإسكافي، يقول الكرمانى — رحمه الله —: ”..﴿أَبْلَغُكُمْ﴾ بلفظ المستقبل، فعطف عليه ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ كما في الآية الأخرى ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾: ٩٣، فعطف الماضي على الماضي، لكن في قصة هود قابل باسم الفاعل قولهم له: ﴿وَأِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، ليقابل الاسم الاسم<sup>(٢)</sup>.

وقد أخذ ابن الزبير رأي الإسكافي وبسطه بوضوح، واستدل بآيات أخر، ومما قال رحمه الله: ”..وإنما قال: (وأنصح)، (وأعلم)، ليعلم بتماديه على النصح لهم، وهم لا يشعرون ولا يهتدون... فجمع — عليه السلام — فيما خاطبهم به رد مقالهم ورميهم بأكثر مما رموه به، ورد ذلك عليهم بالطف رد وأبينه... أما جواب هود عليه السلام، فلما رموه بخفة الحلم، وقلة الثبات، وكثرة الطيش، نفى — عليه السلام — ذلك عن نفسه، فرد قولهم ثم عرفهم برسالته.. فقال: (أبلغكم)، فجاء بالفعل المشعر بالتكرار والاستمرار

(١) درة التنزيل وغرة التأويل: ٨٤ بتصرف.

(٢) البرهان في متشابه القرآن: ١٨٩.



قياماً بإبلاغ رسالته وحفظاً لأمانتها، ثم قال: ﴿وَأَنَّا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، فعرفهم بصفتين جليلتين قد اكتنفته العصمة فيهما ... وإنما أتى بالاسم في إخبارهم بنصحه وأمانته، فقال: (ناصح)، ولم يقل: أنصح، ليحصل منه أن ذلك الوصف الجليل لازم له غير مفارق، ولم يكن الفعل ليعطي ذلك فجاء بالاسم. وذكر أن هذا الموضع مثل الوارد في سورة البقرة خبراً عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾: ١٤، فأخبر عن قولهم للمؤمنين بالفعل الماضي، وليس من وضعه إعطاء الدوام في الأكثر .. وأخبر عن قولهم لإخوانهم وشياطينهم بقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ فجاءوا بالاسم إعلالاً بصفتهم التي هم عليها مستمرين<sup>(١)</sup>.

كما وافق ابن جماعة الإسكافي واختصر كلامه<sup>(٢)</sup>. أما أبو يحيى زكريا الأنصاري فقد وافق الكرمانى ونقل نص كلامه<sup>(٣)</sup>.

ومما تقدم يتضح لنا أن تعليل العلماء قائم على أمرين: أحدهما نظر إلى سياق المعنى، وهو ما جاء به الإسكافي وابن الزبير وابن جماعة، والآخر نظر إلى سياق المبنى، وقد ذكره الكرمانى، والأنصاري، والجمع بينهما ممكن؛ لأن في ذلك تكثيراً للأسرار المستوحاة من الآية وهي لا تتزاحم.

أما حديث ابن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨ هـ) عن آية البقرة فقد تحدث عنها غيره من المفسرين ممن تقدمه، أو تأخر عنه، وعلى رأسهم الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، وكذلك البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ)، والشيخ زاده في حاشيته (ت ٩٥١ هـ)، وأبو السعود (ت ٩٥١ هـ)<sup>(٤)</sup>، وكان جل حديثهم يدور حول

(١) ملاك التأويل: ١/٥٢٧-٥٢٨ بتصرف.

(٢) انظر: كشف المعاني في التشابه من المثاني: ١٧٩.

(٣) انظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: ١٤٣.

(٤) انظر: الكشف: ١/١٨٥، وتفسير البيضاوي: ١/٢٨، وحاشية محيي الدين شيخ زاده على

تفسير القاضي البيضاوي: ١/١٤٦، وتفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم...): ١/٤٦.

سر التوكيد فيما قاله المنافقون لإخوانهم، وعدم التوكيد فيما خاطبوا به المؤمنين، ولهم في ذلك كلام جيد يراجع في مواضعه، وتوجيه هؤلاء العلماء للآية لا يتعارض مع كلام ابن الزبير، لأنه رحمه الله نظر إلى تجدد الدلالة في (آمنا)، وثبوتها في (إنّا معكم)، وأراد بذلك الاستشهاد لما ذهب إليه في الفرق بين أنصح وناصح.

ومن الآيات التي وقف عندها علماء المتشابه اللفظي في موضوع الاسمية والفعلية، تحليلهم لآية الأنعام: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ ۝٩٥﴾ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم: ٩٥-٩٦، فما سر التعبير بالاسم في هذا الموضع بـ(مخرج)، وقد تكررت الآية كثيراً في القرآن الكريم ولكن بصيغة الفعل (يخرج) أو (تخرج)؟<sup>(١)</sup>

فالإسكافي يعلل مجيء صيغة الاسم في آية الأنعام ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ وأنها خالفت أحوال ورودها من الآيات الأخرى التي جاءت بالفعل ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كما في آل عمران، ويونس، والروم، فيرى أن صيغة المضارع جاءت في صحبة نظائرها، كما ترى في آل عمران: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ... تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: ٢٦-٢٧، فتناسقت مع نظائرها في الصيغة وفي الطباق، والآيات تتحدث عن قدرة الله سبحانه وعجيب صنعه، والمضارع هنا يحضّر الصورة ويفيد التجدد، وذلك بخلاف سورة الأنعام، فقد سبقت بقوله: (فالق الحب والنوى) ثم أعقبها (فالق الإصباح) وأنها تواردت في العطف على فالق، ولم تعطف على يخرج الحي من الميت؛ لأن (يخرج الحي من الميت) كما نبه الزمخشري وقعت موقع

(١) سورة آل عمران: ٢٧، ويونس: ٣١، والروم: ١٩.

البيان من فالق الحب والنوى، وهي ليست جملة أساسية وإنما هي بيان للجملة الأولى التي هي (فالق الحب والنوى)، والتي عطف عليها (ومخرج الميت من الحي)، وكأن الإسكافي نظر إلى هذا التناسب الأسلوبي، ولا أظنه قد أغفل الدلالة هنا على الثبوت والاستمرار، وأن هذا شأن من شؤونه سبحانه وبيان أحواله في خلقه، ولهذا فإن آية آل عمران بدأت بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ وهو تسبيح الخلق للخالق فناسب ذكر تجدد النعم، وكذلك آية يونس: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: ٣١.

يقول الخطيب الإسكافي: "فأجرى على ما أجرى عليه أول الآية، وهو (فالق الحب والنوى)، وما بعده (فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً)، وعاد إلى لفظ الاسم وهو (مخرج الميت من الحي)، وعطفه على (فالق الحب)، وليس في الآي الأخر ما في هذه الآية قبلها وبعدها من الاسم، فذكر فيها على لفظ الفعل عاطفها ومعطوفها، فبان الفرق بينهما على ما بينت والسلام" (١).

وله توجيه آخر، لا يصل لقوة التوجيه الأول، يقول: "إن أول هذه الآية ذكر بلفظ الاسم، وهو (فالق الحب والنوى)، فكان اللائق به أن يقال: ومخرج الحي من الميت، ولكنه لما اجتمع ثلاثة حروف من حروف العلة دفعة واحدة، وهي الواو من (والنوى)، والياء من (النوى)، والواو من (ومخرج) واو العطف، نقل عن لفظ الاسم إلى لفظ الفعل" (٢).

وقد وافق الكرمانى الإسكافي واختصر كلامه (٣)، كما وافقهما كل من ابن جماعة (٤)، وأبي يحيى الأنصاري (٥).

(١) درة التنزيل: ٦٧.

(٢) درة التنزيل: ٦٨.

(٣) انظر: البرهان في متشابه القرآن: ١٧٣.

(٤) انظر: كشف المعاني: ١٦٣.

(٥) انظر: فتح الرحمن: ١٢٦.



أما ابن الزبير الغرناطي فقد أخذ رأي الإسكافي، كما أورد كلاماً للزمخشري عن سبب إيراد الاسم (مخرج) بعد الفعل (يخرج). يقول الزمخشري: ”..عطفه على (فالق الحب والنوى) لا على الفعل، (ويخرج الحي من الميت) موقعه موقع الجملة المبينة لقوله: (فالق الحب والنوى)، لأن فلق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت، لأن النامي - يعني: الحي - في حكم الحيوان، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الروم: ١٩“<sup>(١)</sup>. ثم عقب ابن الزبير على كلام الزمخشري بقوله: ”..وهذا من حسناته“<sup>(٢)</sup>.

وكلام الزمخشري قريب من كلام الإسكافي، لأنه يضم الجمل الاسمية بعضها إلى بعض، ويعد الجملة الفعلية بياناً للتي قبلها.

ولابن المنير في حاشيته على الكشف تحليل حسن، يقول: ”عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع في هذا الوصف وحده، وهو قوله: (يخرج الحي من الميت) إرادة لتصوير إخراج الحي من الميت، واستحضاره في ذهن السامع، وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن في أدائها الفعل المضارع دون اسم الفاعل والماضي“<sup>(٣)</sup>.

ويرى الفخر الرازي أن آية الأنعام تفيد شرف الحي على الميت، لذلك وقع التعبير في القسم الأول بصيغة الفعل، وعن الثاني بصيغة الاسم، تنبيهاً على أن الاعتناء بإيجاد الحي من الميت أكثر وأكمل<sup>(٤)</sup>. فالذي يخرج الحي من الميت قادر على أن يبعث الحياة في الميت، فالآية تشعر أن الذي يخرج الحي من الميت قادر على أن يحيي الموتى، فتبارك الله أحسن الخالقين. ولما ذكر ابن عاشور الأقوال وحلل آية الأنعام قال: ”..جيء بجملة،

(١) الكشف: ٣٧/٢.

(٢) ملاك التأويل: ٢٩٥/١ - ٢٩٦.

(٣) حاشية ابن المنير على الكشف: ٣٧/٢.

(٤) انظر: التفسير الكبير: ٧٧/١٣.

(يخرج الحي من الميت) فعلية للدلالة على أن هذا الفعل يتجدد ويتكرر في كل آن، فهو مراد معلوم.. ووجيء في قوله: (ومخرج الميت من الحي) اسماً للدلالة على الدوام والثبات، فحصل بمجموع ذلك أن كلا الفعلين متجدد وثابت، أي: كثير وذاتي، وذلك لأن أحد الإخراجين ليس أولى بالحكم من قرينه..<sup>(١)</sup> وهذا كلام جيد من الشيخ — رحمه الله —، وهذه الإشارة تدلنا على أن تحليلات القدرة العالية تظهر في إخراج الحي من الميت، فجاء المضارع ليؤكد على هذه الحياة التي تخرج من قلب الموت، وهذه آية عظيمة تورث القلوب خشية من الخالق سبحانه، ولكن يبقى السؤال الذي هو موضوع الكلام، وهو لماذا اختصت هذه السورة بصيغة الاسم، وغيرها بالفعل؟ ومن خلال ما تم عرضه من أقوال نرى أن تخريج الإسكافي ومن وافقه هو السائد والمعتبر، نظراً لشموليته وعرضه لبقية الآيات المتشابهة، كما أن التعليقات الأخرى لها قيمتها ولا يمكن إغفالها، لأن أسرار القرآن لا تتزاحم مهما تنوعت.

ومن الآيات المتشابهة التي تدخل في موضوع الاسمية والفعلية، قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْطَحُونَ﴾: ١١٧، مع قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَمَا كَانَتْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَارَ سُلُوسًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾: ٥٩، فقال في الأولى (ليهلك)، وفي الثانية (مهلك القرى).

فأما الخطيب الإسكافي فيرى أن صيغة الفعل جاءت في هود مضارعاً دخلت عليه لام الجحود التي تقع بعد كون منفي، وهذا أكد في النفي من وجوه: أولاً أنه يفيد النفي في الأزمنة كلها، فإذا قلت: (ما كان محمد ليقول هذا)، دل ذلك على أن هذا ليس من شأنه لا فيما مضى ولا الآن ولا المستقبل، وإنما احتاج البيان هنا إلى التوكيد، لأن الحديث

(١) التحرير والتنوير: ٣٨٨/٧ — ٣٨٩.

عن البقية الصالحة في الأرض، والتي تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ هود: ١١٦-١١٧، وقد نظر الإسكافي إلى الجار والمجرور (بظلم) الواقع حالاً من فاعل الفعل المنفي (ليهلك) والمعنى كما قال الزمخشري: "استحال في الحكمة أن يهلك الله القرى ظالماً لها.. تنزيهاً لذاته عن الظلم" (١)، وهذا بخلاف آية القصص فقد جاءت في سياق الهلاك: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فِتْلِكَ مَسَكْنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَتْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ..﴾ ٥٨-٥٩، وهو سياق مغاير للسياق الأول وعلى النقيض منه، ولهذا جاءت صيغة الاسم التي تدل على الثبات والدوام، وليس في الآية صريح لفظ ظلم ينسب إلى الله سبحانه كما في آية هود، وقد نبه الإسكافي بصورة أوضح على معنى التأكيد والجهود في آية هود من أجل الظلم المذكور فيها تنزيهاً للحق جل جلاله، وليس هذا مذكوراً في القصص فلم يحتج إلى هذا التأكيد.

يقول الخطيب الإسكافي عن الآيتين: "... إن لفظ الفعل يفيد التكرار بحسب ما يكون منهم من فساد.. فاختصت الآية الأولى بلفظ الفعل في خبر كان؛ لأنه مبالغة في نفي الفعل في الأزمنة كلها.. فالمعنى لم يكن فيما مضى يقع مني هذا الفعل، ولا يقع فيما يستقبل، ولا في الحال... أما الآية الأخرى فلم يكن فيها صريح ظلم ينسب إليه، ولم يكن منسوباً إليه، ولم يكن ملفوظاً به فيؤتى باللفظ الأبلغ في نفيه، كما في الآية الأولى" (٢).

ومقصود الإسكافي من قوله: "فيؤتى باللفظ الأبلغ في نفيه"، المبالغة في نفي الظلم؛ فالخطيب الإسكافي حينما تحدث عن الآية الأولى، أوضح

(١) الكشاف: ٢/٢٩٨.

(٢) درة التنزيل: ١٢٦-١٢٧ بتصرف.



أن للفظه (بظلم) أثراً استدعى الإتيان باللفظ الأبلغ في نفيه، وهو الفعل (ليهلك) بخلاف آية القصص. وهو يقصد أن الفعل (ليهلك) قد جاء مقروناً بلام الجحود، فتكون دلالته على النفي أقوى من دلالة الاسم المجرد. وإلا فإن الإتيان بالفعل للدلالة على التكرار والحدوث أنسب، وإذا أريد الثبات والاستمرار فالاسم أولى.

وقد أخذ الكرمانى رأي الإسكافى وقال: "إن الله سبحانه نفى الظلم عن نفسه بأبلغ لفظ مستعمل في النفي، لأن هذه اللام لام الجحد ولا يظهر بعده (أن)، ولا يقع بعده المصدر ويختص بكان<sup>(١)</sup> ولم يكن، ومعناه: ما فعلت فيما مضى، ولا أفعل في الحال، ولا في المستقبل، فكان الغاية في النفي.

وما في القصص لم يكن صريح ظلم فاكتفى بذكر اسم الفاعل، وهو لأحد الأزمنة غير معين ثم نفاه"<sup>(٢)</sup>، ووافقهما أبو حيان<sup>(٣)</sup>، وأبو يحيى الأنصارى<sup>(٤)</sup>.

أما ابن الزبير الغرناطي فأكد في تحليله للآيتين على مسألة دلالة الفعل على التجدد، يقول: "...وجيء بالفعل في قوله: (ليهلك) إشارة إلى التكرار بحسب ما يكون منهم، فلو كان في كل أمة وقرن بعد قرن من ينهى عن الفساد والظلم لما أخذوا بذوي الظلم منهم... ولكن تكرر الفساد وعم كل قرن، فتكرر عليهم الجزاء والأخذ، فأشار الفعل إلى التكرار، ولم يكن الاسم ليعطي ذلك، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الظَّالِمِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ الملك: ١٩، ولم يقل: قابضات لما قصده من معنى التكرار".

وعن الآية الأخرى يقول: "...ناسب هذا ذكر اسم الفاعل؛ لأنه قصد ذكر الاتصاف بهذا، ولم يقصد التكرار، ولم يكن حاصله..."<sup>(٥)</sup>.

(١) كذا في المطبوع من البرهان والأولى تقييدها بالمنفية.

(٢) البرهان: ٢٢٥.

(٣) انظر: البحر المحيط: ٢٧٢/٥.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ١٩٥—١٩٦.

(٥) ملاك التأويل: ٦٧١/٢—٦٧٢.

وقد جعل أبو القاسم السهيلي (ت ٥٨١هـ) آية سورة هود من قبيل آية الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾: ٣٣، فالفعل مقيد بزمن معين، وهو حال حياة النبي ﷺ فيهم، وأما اسم الفاعل فهو غير محدد بزمن، والقيد وارد عليه، وهو قيد الاستغفار<sup>(١)</sup>، فالسهيلي أراد مقابلة (وأنت فيهم) بقوله في هود (بظلم) وبذلك يكون القيد في الآيتين، كذلك أراد مقابلة جملة ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بجملة ﴿وَأَهْلُهُمْ مُصْلِحُونَ﴾. وقد نقل ابن القيم (ت ٧٥١هـ) كلام السهيلي كاملاً<sup>(٢)</sup>، وأشار إلى معناه الفيروز آبادي<sup>(٣)</sup>.

وأختم حديثي عن الاسمية والفعلية بتعليل علماء المتشابه لآية الانشقاق: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ﴾: ٢٢، مع آية البروج: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾: ١٩، فجاءت الأولى بالفعل (يكذبون)، بينما جاءت الآية الثانية بالمصدر (تكذيب). وقد علل الخطيب الإسكافي سبب الاختلاف لمراعاة الفواصل بين السورتين، مع صحة اللفظ وجودة المعنى<sup>(٤)</sup>، فهو توجيه نظر إلى جانب التلاؤم الصوتي بين الآيات وقد تبعه الكرمانى<sup>(٥)</sup>، ووافقهما الأنصارى<sup>(٦)</sup>. وجمهور العلماء قالوا إن هذا التوجيه ليس مرضياً؛ لأن مراعاة الفواصل لا تفسر الاختلاف في الصيغ، فهم يرفضون تفسير الأحوال البلاغية بمراعاة قوافي الشعر، أو أسجاع النثر، وتوافق رؤوس الآي في القرآن العظيم. والذي يظهر أنه توجيه مقبول، لأنه ينظر في سياق مبنى السورة، وقد

(١) انظر: نتائج الفكر: ١٣٩-١٤٠، وانظر: التفسير القرآني للقرآن لعبدالكريم الخطيب: ٦٠٣/٣.

(٢) انظر: بدائع الفوائد: ١٠٠/١.

(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز: ٢٥٣/١.

(٤) انظر: درة التنزيل: ٣٠١.

(٥) انظر: البرهان: ٣٥٩.

(٦) انظر: فتح الرحمن: ٤٥٤.

اعتبره الرماني في كتاب النكت أحد وجوه الإعجاز<sup>(١)</sup>، وهو لا يتعارض مع مناسبة سياق المعنى، وأنا أميل إلى تقديم السر المعنوي على السر اللفظي، لأنه الأصل في التعليل.

أما ابن الزبير الغرناطي فنظر للمسألة نظرة تختلف عن سابقه فآية الانشقاق تقدمها آيات تحكي الوعيد الأخروي يقول تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: ١٦-١٩، وهذا الإخبار الإلهي سيقع في مستقبل لا يعلمه إلا الله سبحانه، فناسب ذلك التعبير بلفظ ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ الذي يفيد الاستقبال، وبذلك يكون بين سياق الآيات تناسب وتلاؤم، لأن آيات هذه السورة تحكي واقعاً سيكون في المستقبل، أما الآيات التي تقدمت آية سورة البروج، فهي إخبار عن أمم مضت، وتمادت في تكذيب الرسل، واستمروا في عنادهم وتكذيبهم، فجاء اللفظ بالمصدر ﴿تَكْذِيبٍ﴾ ليحقق هذا المعنى المراد من الآيات التي تقدمت الآية، ولهذا قال ابن الزبير: "ليحرز تماديهم وأن ذلك شأنهم أبداً".

يقول رحمه الله: "...آية الانشقاق تقدمها وعيد أخروي كله لم يقع بعد، وهم مكذبون بجميعة، فجاء هنا باللفظ المقول على الاستقبال — وإن كان يصلح للحال — ليطابق الإخبار، لأنه عما يأتي ولم يقع بعد، فجاء بما يطابقه في استقباله. فأما آية البروج فقد تقدمها قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنُ وَثَمُودَ﴾: ١٧-١٨، وحديث هؤلاء وأخذهم بتكذيبهم قد تقدم ومضى زمانه، وهؤلاء مستمرون على تكذيبهم فقل: ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾، وجاء بالمصدر ليحرز تماديهم، وأن ذلك شأنهم أبداً فيما أخبرهم به، وفيما يدعوهم إليه وينهاهم عنه.."<sup>(٢)</sup>.

إذاً فهناك فرق كبير بين السورتين، فالانشقاق تحدثت عن وقائع

(١) انظر: النكت في إعجاز القرآن: ٨٩

(٢) ملاك التأويل: ١١٤٢/٢.



مستقبله، فابتدأت السورة بـ (إذا) التي للمستقبل، وكما تكرر هذا الشرط الذي يدل على المستقبل، أيضاً تكرر لفظ (سوف)، الذي يدل على المستقبل، بخلاف سورة البروج، التي تحكي وقائع قصة أصحاب الأخدود، فناسبها المصدر (تكذيب)، لأنهم أي أصحاب الأخدود غارقون في غيهم، ومنغمسون فيه، وتخرج ابن الزبير للآيتين مقدّم على توجيه غيره؛ لأنه رحمه الله نظر لسياق الآيات بتأمل وتدبر، فلحظ تلك الفوارق التي بين الآيتين، فجاء لنا بتلك المناسبة المبنية على السياق المتقدم، أما غيره فوقف عند مراعاة الفواصل.

## الاختلاف في صيغة الماضي والمضارع:

لصيغ الفعل المختلفة دلالتها وإيحائها في الجملة الفعلية، فبعد أن تحدثنا عن الآيات المتشابهة في ألفاظها المختلفة من حيث الاسمية والفعلية، نتحدث هنا عن المختلف من حيث صيغ الفعل، فربما يرد الفعل في آية بلفظ الماضي وفي آية أخرى بلفظ المضارع، وهذا في الغالب يتبع الزمن المراد في الجملة القرآنية، فالمضارع يدل على الزمن الحاضر، أو المستقبل، ويفيد تكرار الفعل وتجدده، أما الماضي فيدل على وقوع الحدث في الزمن الماضي، وربما يوضع أحدهما مكان الآخر لسر بلاغي مراد، أو نكتة بيانية مقصودة.

ولذلك قال ابن الأثير في المثل السائر: "...اعلم أن الفعل المستقبل إذا أتى به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة، حتى كأن السامع يشاهدها..."<sup>(١)</sup>.

وقبل ذكر مسائل هذا الموضوع التي تحدث عنها علماء المتشابه، نلاحظ أن كلام العلماء في المتشابه اللفظي في صيغ الفعل الماضي والمضارع يدور حول تلمس مقام المضارع ومقام الماضي، فيقومون بعملية التقاط الآيات

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٤٥/٢.

والإشارات الدالة على أن المعنى في المستقبل يكون مع صيغ المضارع، وهكذا المعنى في الماضي يكون مع صيغ الماضي.

فمن الآيات التي وردت في هذا الموضوع قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ...﴾: ٥٧، وقوله في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ...﴾: ٤٨.

أما عن مجيء الفعل مضارعاً للمستقبل في آية الأعراف؛ فـ”لأن قبلها قوله: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: ٥٥-٥٦، فكان في ذلك بعث على الدعاء والتضرع وتعليق الخوف والطمع بما يكون منه من الرحمة وصنوف ما رزق الله الخلق من النعمة، فكان لفظ المستقبل أشبه بموضع الخوف والطمع للداعين وأدعى لهم إلى الدعاء.

وأما في سورة الفرقان ومجيء هذا فيها بلفظ الماضي، فلأن قبل الآية: ﴿الْمُتَرِّ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ٤٥ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ٤٦ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ٤٧ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ...﴾: ٤٥-٤٧، فلما عدد أنواع ما أنعم به وكان إرسال الرياح في جملة عدّه بعد ما تقدمه وأخبر منه عما فعله وأوجده“ (١). وهذا هو توجيه الخطيب الإسكافي. وقد وافقه عليه الكرمانى، وأبو يحيى الأنصاري (٢).

فالآيات التي تقدمت آية الأعراف كلها أفعال إما طلب فعل في الحاضر أو المستقبل، أو كف عن فعل في الحال والاستقبال، بينما جاءت الآيات التي تقدمت آية الفرقان بأفعال ماضية، لأن سياق الآيات يحكي ذلك الواقع. أما تعليل ابن الزبير الغرناطي فقد جاء موافقاً لما ذكره الإسكافي في آية

(١) درة التنزيل: ٨٠-٨١.

(٢) انظر: البرهان: ١٨٦، وفتح الرحمن: ١٤١.

الفرقان، أما آية الأعراف فيرى أن المضارع على بابه من إفادة التجدد والحدوث، وهو المناسب لمعنى تجدد إرسال الرياح وإنزال الغيث<sup>(١)</sup>. وقد جمع ابن جماعة القولين باختصار شديد، وإن كان يميل لرأي الإسكافي<sup>(٢)</sup>. وكلا التخريجين مقبول، فالآية جاءت مستقبلاً لتتوافق مع ما ذكر قبله، كما قال الخطيب الإسكافي، وأيضاً تفيد التجدد والحدوث لمناسبة المعنى كما قال الغرناطي، والأسرار البلاغية لا تتزاحم.

ومن الآيات المتشابهة قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: ٣٢، وفي الأعراف: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: ١٦٩، أما في سورة يوسف: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: ١٠٩، فورد الفعل بلفظ المضارع في سورتين، والماضي في واحدة.

وقد انفرد ابن الزبير بتخريج ذلك، وهو قريب من تخريجه للموضع السابق، فلفظ (يتقون) ورد في السورتين على بابه، وهو إفادة التجدد. وعن آية يوسف يقول: "تقدم قبله قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، والحاصل منه أنهم ظلموا أنفسهم فأهلكوا، ولو اتقوا لنجوا، فناسب هذا المعنى المقدر ورود الماضي في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أوضح مناسبة"<sup>(٣)</sup>.

وإذا نظرنا إلى آية سورة يوسف وجدنا أنها تتحدث عن حال مضت ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: ١٠٩، فناسب ذلك التعبير بلفظ الماضي، وهذه نظرة في تناسب السياق، وتلاؤم الألفاظ.

ومما ورد في هذا الموضوع تخريج الكرمانى للفظي (أبلغكم) و(أبلغتكم) في الأعراف، حيث ورد لفظ المستقبل في قصة نوح وهود عليهما السلام، يقول الله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِي﴾: ٦٢ و٦٨، وفي قصة صالح وشعيب

(١) انظر: ملاك التأويل: ٤٩٨/١ - ٥٠١.

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٧٦ - ١٧٧.

(٣) ملاك التأويل: ٤٥٠/١.



بلفظ الماضي: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ...﴾: ٧٩ و ٩٣، يقول الكرمانى: "لأن ما في قصة نوح وهود وقع في ابتداء الرسالة، وفي قصة صالح وشعيب وقع في آخر الرسالة، ودنو العذاب، ألا تسمع قوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ في القصتين" (١). وقد وافقه الأنصارى، ونقل كلامه كعادته (٢).

والكرمانى رحمه الله في هذا التعليل الموجز يشير إلى سر دقيق اعتمد فيه على فهم سياق الآيات، ففي قصة نوح وهود عليهما السلام البلاغ لا زال في بدايته، فجاء التعبير بلفظ المستقبل في أول الرسالة، فلا زال هناك فسحة في البلاغ والدعوة والنصح، أما في قصة صالح وشعيب عليهما السلام، فالبلاغ جاء بعد قوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ وهذا يعني أنهما قد بلغا رسالة ربهما، وبلغ بهما الجهد في دعوة قومهما، وبلغا رسالة ربهما التي أمرا بتأديتها على أكمل وجه، حتى فرغا من البلاغ، ولهذا جاء الفعل الماضي ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾ بعد قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، وقوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَكُونُوا لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾، إنها إحدى الومضات الجيدة التي يقدمها لنا الكرمانى رحمه الله.

ومن وقفات علماء التشابه اللفظي في موضوع صيغة الماضي والمضارع وقفتهم عند قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾: ١١٧، وبيان سر التعبير بالمضارع (يضل)، بينما ورد الفعل بصيغة الماضي في آيات أخرى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ (٣).

ينظر الخطيب الإسكافي لآية الأنعام فيجد الآية التي قبلها قد بدأت بأداة الشرط (إن) وهي للمستقبل وفعلها وجوابها يفيدان التحذير من طاعة أكثر من في الأرض، لأنهم يضلون ولا يتبعون إلا الظن ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: ١١٦، وهذا ناسبه أن يقول:

(١) البرهان: ١٨٩—١٩٠.

(٢) انظر: فتح الرحمن: ١٤٣.

(٣) سورة النجم، آية: ٣٠، والقلم آية: ٧.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، يعني في المستقبل، كما هو سياق الآية، ثم جاء الأمر في قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾: ١١٨ وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾: ١١٩، وهو مستقبل، وهكذا جرى معنى الاستقبال في الآية وما قبلها وما بعدها، أما آية النجم فتعرض عقائد فاسدة كتسمية الملائكة بالأنثى، فيؤمر عليه السلام بالإعراض عنهم، وأن هذا مبلغهم من العلم ثم يجيء التعبير بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، وهكذا آية سورة القلم، فقبلها ﴿فَسَتْبَرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ ٥-٦، وهذا تعريض بهم وتهديد لهم على كذبهم وضلالهم، بعدها جاءت الآية كالتى وردت في النجم لتؤكد هذا المعنى. يقول الخطيب الإسكافي ”.. إنه عُبر بصيغة المضارع في آية الأنعام؛ لأن المعنى يقتضي ذلك... وما تقدم الآية وما تأخر عنها يستدعي الإتيان بالفعل المستقبل، فالذي قبلها ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: ١١٦، وبعدها: ﴿وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّوكَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾: ١١٩،... كما أن آيتي النجم والقلم بنيتا على ما تقدمهما، وما تأخر عنهما، فجاء الفعل ماضياً“ (١).

وقد وافق ابن الزبير، وابن جماعة (٢) الخطيب الإسكافي رحمهم الله تعالى. ومما انفرد به ابن الزبير: حديثه عن سبب إيراد الفعل بصيغة المضارع في آية الحجر: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾: ١٢، بينما جاء الفعل بصيغة الماضي في الشعراء: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾: ٢٠٠. وهو يؤكد دلالة الماضي والمضارع الزمنية، فقد نظر ابن الزبير الغرناطي للآيتين من خلال سياق السورتين، فسورة الحجر تناولت من أولها أخبار المكذبين من كفار قريش وما يحملونه من عداوة للرسول ﷺ، ورسالته، فجاء التعبير في الآية بلفظ المضارع المشعر باستمرار عداوتهم، أما آية الشعراء فتقدمها ذكر

(١) انظر: درة التنزيل: ٧٠ بتصرف.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ١/٤٧١-٤٧٢، وانظر: كشف المعاني: ١٦٦.

أحوال الأنبياء مع أقوامهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام، بعد ذلك جاء الحديث عن القرآن الكريم، وأنه تنزيل من رب العالمين، ثم جاء بعد ذلك قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾: ١٩٦، فالكتب السابقة تصدقه، وهو كائن فيها باسمه ووصفه، ثم جاءت الآية ﴿كَذَلِكَ سَلَكَهُ﴾، فلأجل ذلك ناسب ذكر الماضي في الآية.

يقول ابن الزبير: ”..تقدم في آية الحجر قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾: ٦، وهو قول العتاة من كفار قريش... ولم يتقدم في هذه السورة إخبار بحال غيرهم من مكذبي الأمم سوى التعريف بأن كل قرية أهلكت فبأجل معلوم... فورد هنا (نسلكه) بلفظ المبهم؛ لأن الإخبار عن كفار قريش ممن استمر على كفره، فهو حالهم وقت نزول القرآن وبعده، وقوله: (نسلكه) مشعر باستمرار حالهم وموافاتهم على ذلك، وقد تأكد هذا بوصفه بالإجرام، وتسجيل حالهم السيئ بقوله: (لا يؤمنون)، وأداة لا نافية للمستقبل فناسب هذا لفظ المبهم المضارع.

أما آية الشعراء فقد تقدمها ذكر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم من الأمم المكذبين، بعد سلوك ما ذكره سبحانه أنه في زبر الأولين — أي: القرآن — في قلوبهم، فلما تقدم أمرها أولاً، وانقطعت أزمانها، وقعت العبارة بالماضي، فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكَهُ﴾، ولم يناسب هنا غير الماضي..“<sup>(١)</sup>. ويرى ابن عاشور أن ”المعنى في الآيتين واحد، والمقصود واحد، وأن وجه اختيار المضارع في الحجر أنه دال على التجدد لئلا يتوهم أن المقصود إبلاغ مضي، وهو الذي أبلغ لشيخ الأولين لتقدم ذكرهم، فيتوهم أنهم المراد بالمجرمين مع أن المراد كفار قريش. وأما آية الشعراء فلم يتقدم فيها ذكر لغير كفار قريش فناسبها حكاية وقوع هذا الإبلاغ منذ زمن مضي..“<sup>(٢)</sup>.

(١) ملاك التأويل: ٧٢٣/٢ — ٧٢٥.

(٢) التحرير والتنوير: ١٩٤/١٩.



وهو قريب من تعليل ابن الزبير

ومما تحدث عنه علماء المتشابه وغيرهم: الحديث عن السور المفتحة  
بـ (سَبَّحَ لِلَّهِ)، و (يسبح لله)، وقد ورد لفظ الماضي في أول سورة الحديد،  
أما لفظ المضارع فورد في أول سورة التغابن والجمعة.

ويوضح ابن الزبير الفرق بأن دلالة (سَبَّحَ) هي الماضي، أما (يسبح)  
فالحال والاستقبال، وحين نضمهما معاً يحرزان الاستمرار والدوام والماضي  
والحاضر. يقول: "أن<sup>(١)</sup> لفظ الماضي في (سَبَّحَ)، ولفظ المضارع في (يُسَبِّحُ)  
يحرزان الاستمرار والدوام، ولا تحرز إحدى العبارتين ذلك<sup>(٢)</sup> بالتأويل  
والتقدير فكان الجمع بين محرزي ذلك أولى... وكان ورود أكثرها على  
التعبير بالماضي؛ لأنه أوضح في استحكام الثبات وامتداده"<sup>(٣)</sup>، ومع هذا لم  
يوضح لماذا اختصت هذه بالماضي، وتلك بالمضارع؟

وقد سبق الزمخشري والفخر الرازي<sup>(٤)</sup> ابن الزبير إلى هذا التخريج.  
أما الكرمانى فله رأي مختلف؛ إذ نظر إلى جميع صيغ الفعل (سَبَّحَ)،  
وذكر أن هذه الكلمة استأثر الله بها، فبدأ بالمصدر (سبحان) في سورة  
الإسراء؛ لأنه الأصل ثم بالماضي (سبح)؛ لأنه أسبق الزمانين، ثم بالمستقبل  
(يسبح)، ثم بالأمر في سورة الأعلى. فهذه الصيغ الأربع (المصدر  
والماضي والمضارع والأمر) تستوعب هذه الكلمة من جميع الجهات<sup>(٥)</sup>. وقد  
أخذ أبو يحيى الأنصاري كلام الكرمانى ونقله<sup>(٦)</sup>. أما ابن جماعة فقد أخذ

(١) وعبرة الغرناطي في «ملاك التأويل»: «والجواب .... أن».

(٢) كذا في الأصل من «ملاك التأويل» ولعله يعني «إلا بالتأويل».

(٣) ملك التأويل: ١٠٧٠/٢.

(٤) انظر: الكشاف: ٦٠/٤، وانظر: التفسير الكبير: ١٧٩/٢٩—١٨٠.

(٥) انظر: البرهان: ٣٤١.

(٦) انظر: فتح الرحمن: ٤١٢..

توجيه ابن الزبير واختصره<sup>(١)</sup>. ووافق كل من: أبي حيان، والألويسي، وابن عاشور، الزمخشري وابن الزبير<sup>(٢)</sup>.

وحين نتأمل سياق السور التي افتتحت بـ (سبح)، و(يسبح) نلاحظ أمراً ظاهراً في سياق مبنى السورة، فالآية التي ورد فيها اسم السورة تمثل الغرض الأساس منها، ولهذا نجد التناسب بين مطلع السور المفتحة بـ (سبح)، و(يسبح)، والآية التي ورد فيها اسم السورة من حيث الدلالة على الماضي والحال والاستقبال، فآية الجمعة: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ..﴾: ٩، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾: ١٠، ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا..﴾: ١١، فهذه أوامر تجري في المستقبل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أما آية التغابن فهي: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ..﴾: ٩، وهذا أمر مستقبل، فناسب السورتين الافتتاح بلفظ المستقبل (يسبح).

أما سورة الحديد التي افتتحت بلفظ الماضي، ففيها: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾: ٢٥، فالآية مؤسسة على الماضي فجاء المطلق به، وكذلك سورة الحشر جاءت بلفظ الماضي، لمناسبة قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ..﴾: ٢، والله تعالى أعلم.

## الاختلاف في صيغ الفعل الماضي:

إن الحديث عن الصيغ المشتقة من الفعل الماضي — وأقصد تنوع صيغ الفعل الماضي التي ترجع إلى مادة واحدة، كأنزل ونزل، وأنجى ونجى —

(١) انظر: كشف المعاني: ٣٥٠.

(٢) انظر: البحر المحيط: ٢١٧/٨، وروح المعاني: ١٦٦/١٤، والتحرير والتنوير: ٢٦٠/٢٨.

حديث يطول، نظراً لأن الآيات المتشابهة في هذا الموضوع كثيرة، فهذا الموضوع ليس كموضوع الاسم والفعل، أو صيغة الماضي والمضارع، فهو يحتوي على صيغ كثيرة، كل صيغة لها معناها ودلالاتها، والمتكلم حين يأتي بإحدى صيغ أبنية الاشتقاق الكثيرة في أثناء حديثه يؤكد معنى بيانياً يريد به وغرضاً بلاغياً يقصده..

وقد ورد في القرآن الكريم آيات متشابهة في ألفاظها مختلفة من حيث بناء الصيغة التي ترجع لمادة واحدة، وعددها أحد عشر موضعاً، تناولها علماء التشابه بالتحليل والتعليل، وسنتحدث عنها بالتفصيل إن شاء الله تعالى. فمن ذلك — وقد تكرر في عدة مواضع في القرآن الكريم — لفظ (أنزل)، و(نزل). وحديثهم حول اللفظين يدور حول أن (أنزل) يعني الإنزال جملة واحدة، و(نزل) تعني التنزيل المنجم، الذي يقتضي تفصيل المنزل وتنجيمة، وقد لاحظ العلماء أن أنزل تأتي بمعنى نزل وكذلك العكس، وذلك حين يذكر الكتاب مفرداً، أما حين تذكر الكتب المنزلة في سياق واحد فإن ذلك يتطلب اختلاف الصيغ، واستعمال كل واحد في معناه الخاص به، ويعد ابن الزبير أبرز من تتبع هذه المسألة وقام بتحليلها.

وسأبدأ بآية تحدث عنها كثير من العلماء، لتكون مدخلاً لنا إلى هذه المسألة، وفيها يظهر لنا المراد من اختلاف الصيغتين، يقول المولى سبحانه في أول سورة آل عمران: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾: ٣، فقد خصص الكتاب وهو القرآن الكريم بلفظ (نزل) بالتضعيف، بينما ورد الفعل مع التوراة والإنجيل بدون تضعيف.

فابن الزبير يرى أن لفظ (نزل) يقتضي التكرار لأجل التضعيف، تقول: (ضَرَبَ) لمن وقع عليه الضرب مرة واحدة، ويحتمل الزيادة، والتقليل أنسب وأقوى، أما (ضَرَّبَ) بتشديد الراء فلا يقال إلا لمن كثر ذلك منه.

فلفظ (نزل عليك الكتاب) في الآية يشير إلى تفصيل المنزل وتنجيمة حسب الدعاوي، وأنه لم ينزل دفعة واحدة، وأما لفظ (أنزل) فلا يعطي



ذلك، وإن كان ذلك محتملاً، وكذا جرى في أحوال هذه الكتب، فإن التوراة إنما أوتيها موسى عليه السلام جملة واحدة في وقت واحد. وأوضح أن هذه الآية مشابهة لآية النساء: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ءَوَالِكِتَبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَوَالِكِتَبِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾: ١٣٦، والمراد التوراة، ثم بيّن أنه إذا ذكر أحد هذه الكتب مفرداً عن غيره لم يُنكر وروده بلفظ (أنزل) أو (نزل) لأنهما يكونان بمعنى واحد، أما حين يجتمع ذكرهما مفصلاً باسم كل واحد أو بأداة العهد فلا يكون إلا على ما تقرر<sup>(١)</sup>.

ووافق ابن جماعة ابن الزبير واختصر رأيه، وله توجيه آخر هو: أن التنويع بين الصيغتين للاحتراز من كثرة التكرار<sup>(٢)</sup>، وهذا التوجيه بعيد، ولا يحمل الفروق بين الصيغتين، فليس بالقول المرضي، ووافقهما الأنصاري الذي نقل التوجيهين<sup>(٣)</sup>.

وقد سبق الزمخشري ابن الزبير إلى هذا التخريج، ولكن باختصار، يقول رحمه الله: "فإن قلت: لم قيل نزل الكتاب، وأنزل التوراة والإنجيل؟ قلت: لأن القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابان جملة"<sup>(٤)</sup>، وقام ببيانه وتوضيحه ابن المنير في حاشيته على الكشف فقال: "لأن فعل صيغة مبالغة وتكثير، فلما كان نزول القرآن منجماً كان أكثر تنزيلاً من غيره، لتفرقه في مرار عديدة، فعبر عنه بصيغة مطابقة لكثرة تنزيلاته، وعبر عن الكتابين بصيغة خلية عن المبالغة والتكثير، والله أعلم"<sup>(٥)</sup>.

والحق أن هذا الكلام المتقدم مؤسس على فروق الدلالة في اللغة، حيث خص المضعف بالمنجم، لأنه كثر تنزيله، أي أن مع كل نجم تنزيلاً،

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢٨٦/١—٢٨٨.

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٢٣—١٢٤.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٥٩.

(٤) الكشف: ٤١١/١.

(٥) حاشية ابن المنير على الكشف: ٤١١/١.

وصيغة فعل تدل على الكثرة. كما أشار إلى هذا التخريج الراغب الأصبهاني (ت ٥٠٢هـ)، وأبو حيان<sup>(١)</sup>.

ويرى ابن عاشور أن التضعيف يؤذن بقوة الفعل في كلفيته أو كميته<sup>(٢)</sup>، وهذه الإشارة فيها إضافة لمعنى (نزل)، زيادة على معنى التنجيم الذي ذكره العلماء، وهو أن القرآن الكريم قد استوعب الكتب التي بين يديه وزاد، فهو أكثرها علماً وأوسعها وأشملها، وصدق الله القائل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾.

ومن الآيات المتشابهة في مسألة (نزل) و(أنزل) ما جاء في سورة الأنعام يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ...﴾: ٣٧، بينما جاء الفعل بالهمزة في العنكبوت ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ...﴾: ٥٠.

ويوضح ابن الزبير سبب الاختلاف معتمداً على ما تقدم الآيتين فيقول: "لما تقدم قبل آية الأنعام ذكر دلائل من خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، والتنبيه بحال من كذب وعاند، إلى ما تبع ذلك من الآيات التي يحتاج فيها إلى النظر، وإعمال الفكر والاعتبار، وكان مظنة لتغيظ الجاحد، فطلبوا آية تبهر.. فافتتحوا فيما ذكره سبحانه عنهم بأداة لولا التحضيضية حرصاً على ما طلبوه، وأتوا بالفعل مضعفاً لما أرادوه من التأكيد، فقالوا: نزل، وأفردوا آية لما قصدوه من أنه عليه الصلاة والسلام جاءهم<sup>(٣)</sup> بآية واحدة من الضرب الذي طلبوه، وهذا مناسب.

أما آية العنكبوت... فلم يتقدمها من التهديد وشديد الوعيد ما تقدم آية الأنعام، فناسب ذلك ورود الفعل غير مضعف. أما جمع آيات فلأنه تقدمها ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا...﴾: ٤٩، وتأخر

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن: ٧٤٥، وانظر: البحر المحيط: ٣٧٨/٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ١٤٧/٣—١٤٨.

(٣) كذا في «ملاك التأويل» ولعل السياق يقتضي "ما جاءهم".

بعدها: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، فلم يكن ليناسب بعد اكتناف هذه الجموع توحيد آية..“ (١).

وهذا التوجيه من ابن الزبير توجيه يختلف عن توجيه الموضع السابق، فمع أنه ربط آية الأنعام بسياق السورة من أولها، إلا أنه استخرج فائدة من صيغة (نزل) غير معنى التنجيم والتكرار الذي تقتضيه الصيغة، فقد لاحظ رحمه الله عظمة الآية المنزلة التي طلبوها أن تكون باهرة، ولفظ التوكيد الذي ذكره، أراد به توكيد التنزيل، وهو وإن اتجه إلى توكيد الفعل، فإنه لا محالة يجري عليه توكيد الآية الباهرة التي طلبوها، ولهذا قال: ”فطلبوا آية تبهر.. فافتتحوا فيما ذكره سبحانه عنهم بأداة لولا التحضيضية حرصاً على ما طلبوه، وأتوا بالفعل مضعفاً لما أرادوه من التأكيد“، فهم أرادوا الآية الباهرة، التي لا يحتاج في إدراكها إلى نظر، واستدلال، وكأنهم أرادوا الآية الملجئة، والتي تظل أعناقهم لها خاضعين، كما قال تعالى في الشعراء: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾: ٤، وقد ورد في السور آيات عن هذا الأمر، كقوله في أول السورة: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾: ٨، وقوله في آخرها: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾: ١٥٨، وبهذا يتضح لنا مرادهم من الآية التي طلبوا في الأنعام، كما يتضح لنا فطنة ابن الزبير رحمه الله لهذا المعنى.

أما آية العنكبوت فليس فيها شيء من ذلك، فالسياق قبل الآية وبعدها يشير إلى القرآن الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ...﴾: ٤٧، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ...﴾: ٥١، ومرادهم واضح وهو أن القرآن ليس بآيات، وأنه أساطير الأولين، تعالى عما يقولون.

وقد كان توضيح من تقدم ابن الزبير ومن تأخر عنه مقتصرًا على كون

(١) ملاك التأويل: ٤٥٠—٤٥٢ بتصرف.



نزل بمعنى أنزل، أو أن التنزيل بمعنى الإنزال مثل تعليل الزمخشري الذي يقول: "نزل بمعنى أنزل، وإنما قالوا ذلك مع تكاثر ما أنزل من الآيات على رسول الله ﷺ لتركهم الاعتداد بما أنزل عليه، كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات عناداً منهم"<sup>(١)</sup>، ومثله تعليل أبي السعود: "والتنزيل بمعنى الإنزال كما ينبى عنه القراءة بالتخفيف"<sup>(٢)</sup>.

ومما أشار إليه الكرماني في هذه المسألة التشابه بين قوله تعالى: ﴿..فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ الأعراف: ٧١، وقوله في سورة يوسف، والنجم: ﴿..أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ..﴾<sup>(٣)</sup>، فيوضح أن (أفعل) للتعدي، و(فعل) للتعدي والتكثير، فذكر في الموضع الأول بلفظ المبالغة ليجري مجرى ذكر الجملة والتفصيل وذكر الجنس والنوع، فيكون الأول كالجنس وما سواه كالنوع<sup>(٤)</sup>.

كما تكرر حديث ابن الزبير حول هذه المسألة (كون الفعل متعدياً بالهمزة أو بالتضعيف)، وذلك حول الفعل نزل وأنزل، وذلك حين تحدث عن آيتين متشابهتين في سورة محمد ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ فَأَخْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ﴾: ٩، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾: ٢٦.

وابن الزبير يبيّن هذا الاختلاف على ما تضمنته السورة من أولها فيقول: "المتقدم من أول هذه السورة إلى قوله بعد الآية المتكلم فيها: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾: ١١، يقصد ممن تضمنته هذه الآية من الكفار غير مشركي العرب من قريش وغيرهم، ولا شك أن كفرهم منسحب على كل المنزّل من القرآن وما تقدم نزوله من التوراة وغيرها من الكتب. فلم يكن

(١) الكشف: ١٦/٢.

(٢) تفسير أبي السعود: ١٣٠/٢.

(٣) سورة يوسف، آية: ٤٠، والنجم: ٢٣.

(٤) انظر: البرهان في متشابه القرآن: ١٩١—١٩٢.

ليلائم ذلك عبارة (نزل) المبينة عن تنجيم المنزل، ولم ينزل كذلك غير القرآن، وهم ينكرون كل الكتب المترلة ويكرهونها...

أما الآية الثانية فالمراد بها ذوو النفاق والمرتدون على أدبارهم، ويبين ذلك ما تقدمها من قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ...﴾: ٢٠، وهؤلاء هم المنافقون... إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾: ٢٥، وإنما هؤلاء قوم كفروا بعد إسلامهم... ول هؤلاء إطلاع على المنزل من القرآن، وخصوص كراهية له، وهي المهيجة لنفاقهم، فهو الذي كرهوه حقيقة، فقل هنا: ﴿كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ بلفظ التضعيف...<sup>(١)</sup>.

ففي هذه المسألة ربط ابن الزبير رحمه الله بين الآيتين و سياق السورة كاملة، ثم بين أن صيغة (نزل) جاءت مع ذكر أهل النفاق والريب، فهم كفروا بعد إسلامهم، وهم قد عرفوا الحق، وعلموا القرآن، وهذه الصيغة تعني بيان المنزل، أما الآية الثانية، وهي في شأن الكفار عموماً غير مشركي العرب وكفار قريش، فناسب ذلك صيغة (أنزل)، لأنهم ينكرون كل الكتب المنزلة ويكرهونها.

وحين ننظر لما سبق بسطه من آيات متشابهة حول لفظي (نزل) و(أنزل) نجد أن جهد ابن الزبير كان واضحاً ومتميزاً، سواء من حيث حصره للآيات في هذه المسألة، أو من حيث تحليله لكل آية.

ومن الآيات المتشابهة في هذا الموضوع: قوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: ٥٣، مع قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: ١٨، فيرى الكرمان أن (أنجينا) و(نجينا) بمعنى واحد، ولكن خصت آية النمل بأنجينا موافقة لما بعده، وهو: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾: ٥٧، وبعدها: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾: ٥٨، و﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ﴾: ٦٠، وكلها

(١) ملاك التأويل: ١٠٢٢/٢ - ١٠٢٣ بتصرف.

من لفظ (أفعل). وخص آية فصلت بـ(نجينا) موافقة لما قبله، وهو ﴿وَزَيَّاتُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا﴾: ١٢، وبعده ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾: ٢٥، وكله على لفظ (فعل)<sup>(١)</sup>.

إذاً نظرة الكرمانى للآية تعتمد على الملاءمة في النظم، والنظر لما تقدم الآية وما تأخر عنها، هذا نظرة منه رحمه الله في السياق الأسلوبى، وهذا ضرب من التلاؤم والتوافق، وكأن الإمام الكرمانى يرى أن هذا السياق الخاص بأحوال البناء لا يقتضى صيغاً معينة، كما لا يقتضى المعنى ألفاظاً معينة، وهو هنا يعطى المناسبة اللفظية أهمية كبيرة دون البحث عن المناسبة المعنوية، فهو في توجيهه للآيتين يغفل الفروق في الدلالة اللغوية لصيغة (أفعل)، و صيغة الفعل المضعّف (فعل) التي سبق الإشارة إليها في المواضع السابقة. وقد وافقه أبو يحيى الأنصارى الذي نقل نص كلامه<sup>(٢)</sup>.

أما ابن الزبير الغرناطى فتحدث عن الصيغتين (نجينا، وأنجينا) في موضع آخر، ففي آية سورة البقرة جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: ٤٩، وفي آية الأعراف: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: ١٤١، فأكد أن الوارد في سورة البقرة مقصود به تعدد الإنعام على بني إسرائيل وتوالي الامتنان عليهم لبيان شنيع مرتكبهم في مقابلة ذلك الإنعام بالكفر، فلما كان موضع تعداد نعم وآلاء ذكرها ليزدجروا عن المخالفة والعناد، ناسبه التضعيف لإثباته الكثرة... وأيضاً فإن التضعيف في نجيناكم يناسب التضعيف الوارد بعده في قوله: (يذبّحون)..<sup>(٣)</sup>.

فالإمام الكرمانى، والأنصارى يريان أن اللفظين (نجينا وأنجينا) بمعنى واحد، بينما الصواب أن التضعيف يفيد الكثير، ولذلك فإن ابن الزبير لما بيّن الفرق، لم يغفل أيضاً احتمال موافقة اللفظ لما بعده، أو قبله إلا أنه احتمال لا يركن

(١) انظر: البرهان: ٢٨٨.

(٢) انظر: فتح الرحمن: ٣١٠.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ١/١٩٨-١٩٩ بتصرّف.



إليه دائماً، ولأنه يأتي بعد المطابقة.

ولهذا نرى علماء اللغة يفرقون بين صيغتي (أفعل وفعل)، يقول سيبويه: "...وقالوا: أغلقت الباب، وغلّقت الأبواب حين كثّروا العمل.. وكان أبو عمرو أيضاً يفرق بين نزلت وأنزلت.. وتقول: كسرتها وقطعتها، فإذا أردت كثرة العمل قلت: كسّرتها وقطّعتها ومزّقتها.." (١).

ويؤكد ابن قتيبة ذلك فيقول: "وتدخل فعّلت على أفعلت إذا أردت تكثير العمل والمبالغة، تقول: أجّدت وجوّدت وأغلّقت وغلّقت.." (٢).

ومن الصيغ التي وردت في التشابه القرآني: صيغة (فعل) و(افتعل)، فجاء في البقرة: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ...﴾: ٣٨، وفي سورة طه: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾: ١٢٣.

خرّج علماء التشابه الآيتين، فذكر الكرمانى أن اللفظين بمعنى واحد، وإنما اختار في طه لفظ (اتبع) موافقة لما قبله في قوله: ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَأَعْوَجَ لَهُ﴾: ١٠٨ (٣)، واكتفى بذلك، مع أن ما بين الآيتين أكثر من عشر آيات، وهو تخريج بعيد، وإن كان يدل ظاهراً على عناية الكرمانى بسياق بناء السورة، الذي أوضحته في الموضوع السابق. وقد وافقه الأنصاري كما هي عادته (٤).

أما ابن الزبير فقد كان تعليله أفضل من سابقه، حيث نظر للفرق المعنوي بين الآيتين، معتمداً على السياق الوارد في السورتين فذكر أن السبب في تنويع الفعل مع اتحاد القصتين هو: أن (تبع) و(اتبع) محصلان لمعنى واحد، وأن الأول (تبع) هو الأصل، والثاني فرع عنه لأنه يزيد عليه، وهو مبني على

(١) الكتاب: ٦٣/٤—٦٤.

(٢) أدب الكاتب: ٤٦٠، وانظر أيضاً: الشافية لابن الحاجب: ٩٢/١، والمغني في تصريف الأفعال لمحمد عبد الخالق عضيمة: ١٠١—١٠٧.

(٣) انظر: البرهان: ١٠٨.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ٢٦.

زيادة في معنى فعل بمقتضى صيغة افتعل، فعلى هذا ورد تبع من غير تعمّل ولا تكلف ولا مشقة، أما صيغة (افتعل) فتنبئ عن تعمّل وتحميل للنفس، فقدم ما لا تعمّل فيه، وأخر اتباع لما يقتضيه من الزيادة، فقدم الأصل على الفرع. وهذا وجه من وجوه التعليل، وهو جيد، وإن كان لم يحدد السر في اقتضاء الأول للأصل، والثاني للفرع.

وقد أشار إلى ذلك من وجه آخر، فنظر للآيات التي قبلها، وأوضح أن سورة البقرة لم يرد فيها مما كان من إبليس لعنه الله إلا بما أخبر به الله تعالى عنه في قوله: ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾: ٣٦ من غير تعرض لكيفية تناوله ما فعل، ولا إبداء علة ولا كبير معالجة، فناسب هذا (تبع). وهذا هو الكلام المرضي.

ولما ورد في آية طه ذكر طريقة إغوائه بقوله له: ﴿هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى﴾: ١٢٠، فأفهمت الآية قوة كيد اللعين واستحكام حيلته، حتى احتك الكثير من الذرية، وحملهم على عبادة الطواغيت، فصار تمييز الحق لا يحصل إلا بمعالجة وتعمل فناسبه (اتبع). فورد كل على ما يناسب معنى ونظماً وإيجازاً بإيجاز، وإطالة بإطالة<sup>(١)</sup>.

وفي ختام حديثه عن الآيتين قال: "... ثم إذا لحظ الترتيب فالجاري على رعيه تقديم ما هو الأصل، وتأخير ما هو الفرع، فقل في آية البقرة: (فمن تبع) وفي آية طه: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ﴾..."<sup>(٢)</sup>، وابن الزبير أراد بذلك أن كل صيغة وقعت في موقعها المطابق لمعناها، ثم كان تقديم الأصل على الفرع شيئاً جاء تابِعاً، وليس هو الأصل في التعليل والبحث عن السر، ولذلك ذكره في آخر كلامه.

أما ابن جماعة فقد اطلع على ما ذكره ابن الزبير، ولم يقف عنده بل

(١) انظر: ملاك التأويل: ١/١٩٠-١٩٤.

(٢) ملاك التأويل: ١/١٩٤.

زاد في توضيحه، فنظر لفعل آدم عليه السلام في السورتين، فذكر أن صيغة (افتعل) تشعر بالتجديد، ولهذا جاء بعد آية طه: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾: ١١٥، وقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾: ١٢١، فناسب (من اتبع) أي: جدد قصد الاتباع<sup>(١)</sup>. فلا بن الزبير فضل السبق، لأنه فتح الباب لابن جماعة، ولا بن جماعة فضل حسن التآسي، لأنه أفاد وزاد.

وقد أوضح علماء اللغة أن من معاني صيغة افتعل التصرف والطلب والاجتهاد بمنزلة الاضطراب في تحصيل أصل الفعل<sup>(٢)</sup>.

وقريب مما سبق ما جاء في سورة الكهف؛ إذ ورد فيها موضعان لصيغة (استطاع)، أولهما قوله تعالى في خبر يأجوج ومأجوج: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾: ٩٧، والموضع الآخر قوله تعالى على لسان الخضر عليه السلام في ختام قصته مع موسى عليه السلام: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾: ٧٨، مع قوله بعد التأويل: ﴿... ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾: ٨٢.

وقد تحدث عن الموضع الأول علماء المتشابه، فنظر الخطيب الإسكافي للآية من ناحية اللفظ، فلفظة ﴿اسْتَطَاعُوا﴾ الثانية في آية (٧٩) تعدت إلى اسم وهو (نقبا) وهذا أخف فجاءت تامة. أما اللفظة الأولى في الآية (استطاعوا) فتعدت إلى أن وما دخلت عليه (أن يظهره) من فعل وفاعل ومفعول، وهذا أثقل، فناسب أن يخفف الفعل بحذف التاء.

يقول الإسكافي: "الجواب أن يقال: الثانية تعدت إلى اسم وهو قوله: (نقبا) فخفف متعلقها فاحتملت أن يتم لفظها، أما الأولى فإنها تعلق مكان مفعولها بأن والفعل بعدها، وهي أربعة أشياء: أن، والفعل، والفاعل، والمفعول الذي هو الهاء، فثقل لفظ (استطاعوا)، وكان يجوز تحقيقه حيث

(١) انظر: كشف المعاني: ٩٣.

(٢) انظر: الكتاب لسيبويه: ٧٤/٤، وشرح الشافية للرضي: ١١٠/١.



لا يقارنه ما يزيده ثقلًا، فلما اجتمع الثقلان، واحتملت الأولى التخفيف ألزم الأول دون الثاني الذي خف متعلقه واحتمل<sup>(١)</sup>.

وتعليل الإسكافي يدور حول خفة اللفظ، وسهولة نطقه، وسلاسة جريانه، وكراهية أن يجمع ثقلان على اللسان، فلو قلنا: فما استطاعوا أن يظهروه، لكنا قد جمعنا الكلمة التامة (استطاعوا) مع المفعول به المصدر المؤول، وهو مكون من فعل وفاعل ومفعول، ولذلك حذف من الكلمة الأولى ما يجعلها خفيفة فقال: (استطاعوا)، حتى يأتي اللسان إلى قوله: (أن يظهروه) وهو موفور النشاط لم يبذل جهداً، وذلك بخلاف الجملة الثانية التي لم يحذف منها شيء ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾. وقد وافقه الكرمانى ونقل كلامه مختصراً<sup>(٢)</sup>.

كما وافقهما ابن جماعة<sup>(٣)</sup>، والأنصاري<sup>(٤)</sup>.

وأما ابن الزبير فنظر للفظ والمعنى فذكر أن لفظ (استطاع) هو الأصل، وقد تحذف التاء، أو الطاء تخفيفاً. "فجيء أولاً بالفعل مخففاً عند إرادة نفي قدرتهم على الظهور على السد والصعود فوقه، ثم جيء بأصل الفعل مستوفى الحروف عند نفي قدرتهم على نقبه وخرقه، ولا شك أن الظهور أيسر من النقب، والنقب أشد عليهم وأثقل فجيء بالفعل مخففاً مع الأخف، وجيء به تاماً مستوفى مع الأثقل فتناسب... وأيضاً فإن الثاني في محل التأكيد لنفي قدرتهم على الاستيلاء على السد وتمكنهم منه، فناسب ذلك الإطالة، وهذا يفتقر إلى بسط وبيان، مع أن الأول أولى..<sup>(٥)</sup>".

وابن الزبير في تعليله يلائم بين اللفظ والمعنى، فالمعنى الأثقل وهو النقب

(١) درة التنزيل: ١٥٨.

(٢) انظر: البرهان: ٢٥٨.

(٣) انظر: كشف المعاني: ٢٤٤.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ٢٤٩.

(٥) ملاك التأويل: ٧٩١/٢.

يأتي مع اللفظ الأثقل وهو استطاعوا، بينما جاء معنى الظهور وهو الأخف مع لفظ استطاعوا، فابن الزبير استفاد من توجيه الإسكافي في مسألة الخفة والثقل، وربطه بالمعنى، وهذا أمر في غاية الدقة.

وقد أشار الزمخشري إلى أن حذف التاء في (استطاعوا) للتخفيف<sup>(١)</sup>، وتابعه الفخر الرازي<sup>(٢)</sup>. ووافقهم الألوسي وذكر أن ذلك حذراً من تلاقي المتقاربين في المخرج، وهما الطاء والتاء<sup>(٣)</sup>، وهذا تعليل عام لا ينظر إلى موقع اللفظ ومعناه المؤمل، والذي سبق أن أوضحته في توجيه الخطيب الإسكافي، وابن الزبير الغرناطي.

وأشار ابن عاشور إلى أن المخالفة بين الصيغتين هي للتفنن تجنباً لإعادة لفظ بعينه مع وجود مرادفه، وابتدئ بأشهرهما استعمالاً، وجيء بالثانية بالفعل المخفف؛ لأن التخفيف أولى به إذا كرر. وهذا كلام لا يعتد به بل لا يحسن الإقرار به. أما إشارته التي تستحق الذكر حول هذه الآية، وإن كانت مستفادة من تخريج ابن الزبير فهي قوله: "ومن خصائص مخالفة مقتضى الظاهر هنا إيثار فعل ذي زيادة في المبنى بموقع فيه زيادة في المعنى، لأن استطاعة نقب السد أقوى من استطاعة تسلقه، فهذا من مواضع دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى"<sup>(٤)</sup>، وهذا معنى كلام ابن الزبير.

أما الموضع الآخر في سورة الكهف، وهو ما سبق أن أشرت إليه، في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾: ٧٨، والآية الثانية قوله بعد التأويل: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾: ٨٢، فقد ذكر الإمام الكرماني أن سبب مجيء الفعل (تستطع) في الأول، لأنه الأصل،

(١) انظر: الكشاف: ٤٩٩/٢.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ١٤٦/٢١.

(٣) انظر: روح المعاني: ٣٣٧/٨.

(٤) التحرير والتنوير: ٣٨/١٦.

وجاء في ختام القصة (تسطع) على التخفيف، لأنه الفرع، وقال: "جاء به في الأول على الأصل، وفي الثاني (تسطع) على التخفيف، لأنه الفرع" (١)، ووافقه ابن جماعة الذي نقل نص كلامه وتابعهما أبو يحيى الأنصاري رحمهما الله تعالى (٢).

وقد ذكر الألوسي أن الحذف للتخفيف لما تكرر في القصة فناسبه ذلك، وذكر تعليلاً آخر للفظ (تسطع) وهو: أنه لما خفّ على موسى عليه السلام ما لقيه ببيان سببه، خص بذلك (٣). وهذا توجيه فيه تأمل وبعد نظر؛ لأنه بني على هذه الملاحظة اللطيفة، وهي أن موسى عليه السلام لما فسّر له الخضر ما كان مبهماً، لا يعرف له وجهاً خفّ عنه ما كان يعانيه من أفعال غريبة عليه.

وشيء آخر يهدينا إليه تعليل الألوسي، وهو أن اللفظ المخفف وقع عليه النفي، يعني نفى عنه الاستطاعة المخففة، أي هو لم يصبر ولم يتحمل أي قدر من التحمل، لأنه عليه السلام كان يبادر الخضر بالاستنكار والتعجب ﴿أَخْرَقَتَهَا تَغْرِقَ أَهْلَهَا...﴾، ﴿أَقَلَّتْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ...﴾، ﴿لَوْ شِئْتُ لَتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا...﴾، والخضر قد اشترط عليه إن صاحبه ألا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكراً، فيقول له في المرة الأولى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا...﴾، وفي المرة الثانية: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا...﴾، وفي هذه المرة زاد حرف اللام للتوكيد، وهو فيها يكرر نفي الاستطاعة، وفي النهاية ذكر أنه لم يستطع أي قدر من الاستطاعة.

أما ابن عاشور فذكر أن المخالفة بين اللفظين تفيد التفنن تجنباً للإعادة (٤)، وهو توجيه كما بينت سابقاً لا يعتد به، لأنه يتعارض مع ذكر

(١) البرهان: ٢٥٨.

(٢) انظر: كشف المعاني: ٢٤٤، وفتح الرحمن: ٢٤٩.

(٣) انظر: روح المعاني: ٣٣٧/٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير: ١٥/١٦.



المكرر في كتاب الله تعالى.

ولي وقفة مع ابن عاشور رحمه الله في هذا التوجيه، لأنه يكرر ذلك في تفسيره القيم، ويعد هذا الأمر مقصداً بلاغياً، وأنه أحد أسرار كتاب الله تعالى، وهذا يخالف رأي المحققين البلاغيين؛ فكل لفظة، وكل حال من أحوال اللفظ له سره ومغزاه، وله دلالة، والمولى سبحانه يفتح على من يشاء أبواب المعرفة، فما يجهله هذا العالم قد يأتي به عالم آخر.

ومسألة التفنن لا تقبل في نقد الأديب المقتدر والشاعر المتميز، فكيف بكتاب الله تعالى الذي حوى الإعجاز، وملك البلاغة؟ ونحن حين نحكم بذلك نؤكد خلو النص من الأسرار، والدقائق البلاغية والبيانية، إلا أن الصواب هو أن وراء هذا التفنن أمراً قد خفي علينا، وقد يهين الله من يخرج، ويبرزه في صورته التي تليق به.

ومن الآيات المتشابهة في مسألة الاختلاف بين صيغ الفعل في الآيات التي وردت فيها أفعال أدغمت بعض حروفها، وفي أخرى فك الإدغام منها، وهو ما عبر عنه ابن الزبير بـ (المضارعة اللفظية)، وفيها حقيقة عناية بتشاكل الألفاظ وتقاربها، وقد كان لعلماء التشابه اللفظي وقفات محمودة تشرى البحث في إعجاز القرآن الكريم.

فمن الآيات المتشابهة في هذا قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿فَاخَذْنَهُمْ بِالْبِاسِ أَلْهَمَ لُطُفَتِهِمْ لَعْنَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: ٤٢، فورد لفظ (يتضرعون) بدون إدغام لتاء الافتعال في الضاد، بينما جاء الفعل في آية سورة الأعراف مدغماً: ﴿...إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِاسِ أَلْهَمَ لُطُفَتِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: ٩٤.

تناول هذا الموضع الإمام الكرمانى بطريقة موجزة، فذكر أن السبب في فك الإدغام في الأولى هو موافقة ما بعدها وهو قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾: ٤٣، ومستقبل (تضرعوا) يتضرعون<sup>(١)</sup>،

(١) انظر: البرهان: ١٧١.

وهذه الإشارة من الكرمانى تؤكد شدة عنايته بالتلاؤم اللفظى، واستخراج المناسبة اللفظية من النص، وأن هذا التلاؤم ممتد فى السورة كلها، ويرى هذا وجهاً من وجوه البلاغة وأحد أسرارها.

وقد أخذ ابن الزبير هذه الإشارة وبسطها فى كتابه فقال: "العرب تراعى مجاورة الألفاظ فتحمل اللفظ على مجاوره لمجرد المضارعة اللفظية وإن اختلف المعنى، ومنه الإتياع فى (ينوءك ويسوءك)، ثم نقل كلاماً لسيبويه حول (ينوءك ويسوءك)، قال: "قال سيبويه — رحمه الله —: وقد ذكر بعض ما تُتبع فيه العرب، وتحمل اللفظ على ما قرن به، ولو أفرد عنه لم ينطق به كذلك فقال: "كما أن ينوءك يتبع يسوءك"<sup>(١)</sup>، يريد أنك تقول: يُنيئك بضم الياء وكسر النون متعدياً على مثال يزيلك... فإذا ذكرته بعد يسوءك أتبعته إياه فقلت: يسوءك وينوءك مع اختلاف المعنى، فهم فيما اتفق معناه من هذا أحرى أن يفعلوا ذلك".

ثم قال ابن الزبير: "...وماضى الفعل من الضراعة لا إدغام فيه، إنما تقول: تضرّع إذ لا حرف مضارعة فيه يسوِّغ الإدغام، فلما ورد الماضى (تضرعوا).. ورد الأول مفكوكاً غير مدغم، فقل: يتضرعون، رعيّاً للمناسبة، أما آية الأعراف فلم يرد فيها ما يستدعى هذه المناسبة، فجاء مدغماً على الوجه الأنحف"<sup>(٢)</sup>.

وقد وافق أبو يحيى الأنصارى الكرمانى ونقل كلامه<sup>(٣)</sup>.

ويمكن أن نلاحظ فى الآيتين أمراً معنوياً، فلا يقف التعليل عند الجانب اللفظى، لأن تعليلهم قائم على النظر فى المناسبة اللفظية فقط كما بينوا، ولكننا حين نتأمل السياق المتقدم للآيتين نجد أن استعمال الكلمة من غير

(١) الكتاب: ٣٣٢/١.

(٢) ملاك التأويل: ٤٥٥/١ — ٤٥٦.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ١٢٢.

إدغام جاء في وصف أمم، وبالإدغام في وصف قرية واحدة، فناسبه الإدغام الذي يعد أحد وجوه اختصار اللفظ. وآية الأنعام تتحدث عن الأمم الذين كذبوا أنبياءهم، فهي تعم وتشمل تلك الأمم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾: ٤٢، فمرجع الضمير في (فأخذناهم)، و(لعلهم) يعود إلى الأمم التي كذبت، كما أشارت إلى ذلك آية أخرى تقدمت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا...﴾: ٣٤، فلما كان الحديث عن تلك الأمم، وهم أعداد كثيرة جاء الفعل (يتضرعون) بعدم الإدغام للدلالة على ذلك. أما آية الأعراف وهي قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾: ٩٤، والضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يعود للقرية، وهذه الآية أيضاً تقدمتها قصة مدين، ومدين قرية من القرى، فلما كان الحديث في هذه الآية مع أهل القرية وهو أقل، جاء التعبير بالكلمة المدغمة (يضرعون)، وفرق بين تضرع الأمم، وتضرع القرية. ومن المواضع أيضاً ما ورد في سورة الأنفال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: ١٣، حيث فك الإدغام في لفظ (يشاقق)، بينما جاء في سورة الحشر مدغماً: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: ٤، فما تعليل ذلك؟ يرى الخطيب الإسكافي أن الأصل في هذه المسألة إذا قويت الحركة في القاف أن تدغم؛ لأن ثاني المثليين إذا تحرك بحركة لازمة وجب إدغام الحرف الأول في الثاني، فتقول: (اردد) بالإظهار، ولا يجوز اردداً، وارددوا، وارددي، وإنما يقال: رداً، ردوا، وردي، وهذا ما حصل في آية الحشر، حيث تحركت القاف بحركة لازمة، والألف واللام في لفظ الجلالة لازمان، فوجب الإدغام. أما آية الأنفال فكان لانضمام لفظ (ورسوله) عطفاً على لفظ الجلالة أثر في فك الإدغام، فتقدير العطف: ومن يشاقق رسول الله، لأن العطف على نية تكرار العامل<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٧٣.



وعلى هذا نفهم أن القاف الثانية إذا كانت حركتها لازمة وجب الإدغام، وهي في الحشر لازمة، لأن بعدها لفظ الجلالة، والألف واللام في لفظ الجلالة لازمة، وهذا يعني السكون الناشئ عن اجتماع لام التعريف مع اللام التي هي في لفظ إله، وبما أن السكون في اللام المشددة لازم فالحركة في القاف قبلها كذلك لازمة، فوجب الإدغام، أما آية الأنفال فالأصل أن تكون الحركة أيضاً لازمة، لأن القاف الثانية بعدها لفظ الجلالة، ولكن وجود عطف (رسوله) جعل الفعل (يشاقق) كأنه واقع على المعطوف، مثل ما هو واقع على المعطوف عليه، فتقول: ومن يشاقق رسوله، وبذلك لا تكون حركة القاف الثانية لازمة، لأن لزومها كان تفادياً من التقاء الساكنين، وهو غير قائم في هذه الآية، نظراً للمعطوف.

وقد وافق الكرمانى الخطيب الإسكافى، واختصر توجيهه كعادته<sup>(١)</sup>. كما تابعهما الأنصارى<sup>(٢)</sup>.

أما ابن الزبير فذكر تعليل الإسكافى عن آية الأنفال، أما آية الحشر فذكر أن الفعل فيها ماضٍ، ولم يسمع في الماضي إلا تلك اللغة<sup>(٣)</sup>.

ويرى أبو حيان أن الإدغام وعدمه وجهان جائزان في العربية، ولم يزد على ذلك يقول: "أجمعوا على الفك في يشاقق إتباعاً لخط المصحف وهي لغة الحجاز، والإدغام لغة تميم كما جاء في الآية الأخرى ومن يشاقق.."<sup>(٤)</sup>. وتابعه ابن عاشور، ونقل كلامه<sup>(٥)</sup>. وكل هذه التوجيهات تنظر للفك والإدغام من الناحية اللفظية.

ولكن حين نتأمل سياق الآيتين، ونربط ذلك بسبب النزول نلاحظ

(١) انظر: البرهان: ١٥٧.

(٢) انظر: فتح الرحمن: ٩١.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٣٥٣/١.

(٤) البحر المحيط: ٤٧١/٤.

(٥) انظر: التحرير والتنوير: ٧٥/٢٨.

فرقاً معنوياً، وهو أن آية الأنفال صورت المواجهة الأولى في تاريخ الإسلام بين المسلمين والمشرّكين، وجاء فيها أنه سبحانه أمد المؤمنين بالملائكة ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾: ٩ الآيات، وأنه سبحانه أمر الملائكة بضرب أعناق المشرّكين، وضرب كل بنان، ثم علل ذلك بالمشاقّة، فناسب الآية فك الإدغام الدال على وفرة هذه المسألة، أما آية الحشر فهي في بني النضير من يهود المدينة، الذين يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، ثم كتب الله عليهم الجلاء، وهؤلاء لم تكن مشاقّتهم كمشاقّة أهل مكة سواء في العداء أو العدة أيضاً، ولذلك ناسب الآية الإدغام والله تعالى أعلم.

وأختم صيغ الفعل الماضي التي ترجع لمادة واحدة بذكر مسألة تفرّد بذكرها - حسب علمي - ابن الزبير، وهذه المسألة وإن كانت داخلة ضمن الآيات المتشابهة التي سبقتها في موضوع اختلاف صيغة الفعل، إلا أن فيها عناية بالحرف القرآني على أساس التفرقة بين صفات الحروف من حيث الشدة والرخاوة.

وقد كان حديثه عن التشابه بين قوله تعالى في إبراهيم: ﴿وَلْيَذَكِّرُوا آلَآلِبِ﴾: ٥٢، حيث جاء الفعل مدغماً، وفي ص: ﴿وَلْيَتَذَكِّرُوا آلَآلِبِ﴾: ٩٢، بفك الإدغام.

يقول ابن الزبير في حديثه عن الحرف في الآيتين: "كلا الموضعين حاصل فيه التناسب، أما آية ص ففي قوله: (ليدبروا) حرفان من الحروف الشديدة وهما الباء والدال، وثانيهما مضعّف، فنسق عليهما قوله: (وليتذكر) وفيه أيضاً حرفان من حروف الشدة وهما الكاف والتاء، وثانيهما مضعّف، والتناسب بهذا واضح.

وأما آية إبراهيم فورد فيها: (ولينذروا به وليعلموا)، وقد عريت الكلمتان من حروف الشدة، وإنما جميعها من الرخوة وهي ضد الشديدة، فناسبها عطفاً

عليها قوله: (وليذكر)، إذ ليس من الحروف الشديدة غير الكاف<sup>(١)</sup>.  
وأرى أن هذه النظرة من ابن الزبير تستحق الاهتمام ولا سيما عند  
تطبيقها على آيات القرآن الكريم، لأنها تتناول أسرار الحرف القرآني على  
أساس صفات الحروف، وبيان الفروق الدقيقة بينها، كما في علم التجويد  
والقراءات، وسيكون لنا حديث بإذن الله في الفصل الخامس من هذا الباب  
عن الاختلاف في الحرف القرآني.

أما توجيهه للإدغام في آية إبراهيم ولفكه في سورة ص فيقول: "...إن  
(يذكر) و(يتذكر) معناهما واحد، والأصل للمدغم مفكوكه، فلفظ يذكر ثان  
عن يتذكر، وهو أكثر استعمالاً، وأخف لفظاً، فقدم في سورة إبراهيم، وآخر  
الأثقل في سورة ص على الترتيب المقرر"<sup>(٢)</sup>، يقصد ترتيب الآيات في القرآن.

## الاختلاف في صيغ الاشتقاق:

حديثنا عن هذا الموضوع يتناول الآيات المتشابهة التي جاء التعبير في  
أحدها باسم الفاعل، وفي الأخرى باسم آخر من ألفاظ صيغ الاشتقاق،  
ومادة هذا الموضوع تعد قليلة بين موضوعات هذا الفصل فلا تتجاوز ثلاث  
مسائل، وإن كانت في الحقيقة ذات صلة بالموضوع المتقدم وهو صيغ  
الفعل الماضي، وإنما قمت بوضعها في قالب واحد، مراعاة لتنظيم المسائل  
فيجمع النظير مع النظير، فتترتب الأفكار كما تترتب المادة العلمية.

فمن المسائل التي تطالعنا في هذا الموضوع الحديث عن قول الله تعالى  
في سورة هود: ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَسِرُونَ﴾: ٢٢، حيث جاء التعبير  
باسم التفضيل في هذه الآية، وعدل عنه إلى اسم الفاعل في سورة النحل:  
﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾: ١٠٩.

(١) ملاك التأويل: ٧٢٠/٢-٧٢١.

(٢) ملاك التأويل: ٧٢١/٢.



يذكر الخطيب الإسكافي طريقين لسبب الاختلاف بين الآيتين، أولهما من ناحية المعنى، وهو أن آية هود تقدمها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَعِّفُ لَهُمُ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾: ٢٠، فصعدوا عن السبيل وصدوا غيرهم عنه صداً استحقوا تضعيف العذاب؛ لأنهم ضلوا وأضلوا فهذا موجب الأخسرين دون الخاسرين من طريق المعنى، أما آية النحل فإنه لم يخبر فيها عن الكفار بأنهم مع ضلالهم أضلوا من سواهم، فلم يذكر ما يوجب مضاعفة العذاب.

أما الوجه الآخر فهو عن طريق اللفظ وهو موافقة الفواصل ففي هود قبل قوله: (الأخسرون) قوله: (يبصرون) و(يفترون)، فما قبل الواو والنون متحركان لا يعتمدان على ألف قبلها، بخلاف (الخاسرين) في آية النحل فإنها موافقة لما تقدمها كـ: (الكافرين والغافلين)<sup>(١)</sup>.

وقد أخذ الكرمانى تخرج الإسكافي وأشار إليه<sup>(٢)</sup>.

أما ابن الزبير فقد وافق الإسكافي في مسألة توافق الفواصل، وبسط الحديث حولها واكتفى بذلك<sup>(٣)</sup>.

بينما أخذ الأنصاري توجيه الإسكافي الأول وهو التوجيه المعنوي واختصره، فقال: "لأن ما هنا — يقصد آية هود — نزل في قوم صدوا عن سبيل الله، وصدوا غيرهم، فضلوا وأضلوا، وما هناك نزل في قوم صدوا عن سبيل الله، فناسب في الأول (الأخسرون)، وفي الثاني (الخاسرون)"<sup>(٤)</sup>، وما ذهب إليه الأنصاري من اختيار هو الاختيار الأنسب والأولى لبلاغة القرآن الكريم، كما أن الوجه الثاني مقبول أيضاً، ويمكن أن يكون للآية علتان، لأن التوجيه اللفظي ينظر إلى جانب التلاؤم الصوتي، الذي عدّه الرمانى أحد

(١) انظر: درة التنزيل: ١١٩.

(٢) انظر: البرهان: ٢٢٠.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٦٥٠/١ — ٦٥١.

(٤) فتح الرحمن: ١٨٨.

وجوه الإعجاز، كما ذكره الرافعي في "إعجاز القرآن" (١).

ومن الآيات المتشابهة قوله تعالى في الأعراف: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَجِرٍ عَلِيمٍ﴾: ١١٢، بينما جاء في الشعراء على وزن (فعّال): ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾: ٣٧. يقول الكرمانى في توجيه هذا الموضع: "لأنه راعى في هذه السورة — يقصد آية سورة الأعراف — ما قبله وهو قوله: ﴿إِنَّ هَذَا السَّحَرُ عَلِيمٌ﴾: ١٠٩، وراعى في الشعراء الإمام — يقصد: المصحف الإمام المعتمد رسمه في كتابة المصحف — فإن فيه ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾، وقرأ في هذه السورة — يقصد سورة الأعراف — ﴿سَحَّارٍ﴾ أيضاً طلباً للمبالغة، وموافقة لما في الشعراء" (٢). وقد وافقه الأنصارى ونقل توجيهه (٣).

فالكرمانى نظر للمناسبة اللفظية في آية الأعراف، حيث تقدم الآية قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَجِرٍ عَلِيمٍ﴾: ١١٢، فجاء لفظ (ساحر) في هذه الآية موافقاً للفظ في الآية التي تقدمتها هذا من جهة، ومن جهة أخرى نظر الكرمانى في اختلاف القراءة فلاحظ أن آية الأعراف قد جاءت بقراءة أخرى ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ وهي قراءة حمزة والكسائي، بينما آية الشعراء اتفق القراء عليها فكانت أصلاً، وبذلك وافقت آية الأعراف آية الشعراء، ثم وضح أن صيغة (فعّال) تفيد المبالغة للدلالة على قوة المعرفة بالسحر، ولذلك قال البيضاوي: "قرأ حمزة والكسائي ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ — أي في آية الأعراف —، ويؤيده اتفاقهم عليه في الشعراء" (٤).

أما ابن عاشور فاكفى بالحديث عن صيغة (فعّال)، حين تحدث عن

---

(١) انظر: النكت في إعجاز القرآن للرماني (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ٩٦، وإعجاز القرآن للرافعي: ٢١٧، والإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم للدكتور أبي موسى: ١٣٩.

(٢) البرهان: ١٩٧.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ١٤٨.

(٤) أنوار التنزيل: ٢١٧/١.

آية الأعراف، ومعقباتاً على قراءة حمزة والكسائي للآية، فبين أن (سحر) على المبالغة في معرفة السحر، فيكون وصف (عليم) تأكيداً لمعنى المبالغة؛ لأن وصف (عليم) هو من أمثلة المبالغة للدلالة على قوة المعرفة بالسحر<sup>(١)</sup>، وهو معنى كلام الكرمانى.

ومن الآيات المتشابهة المختلفة من حيث الاشتقاق ما ورد في سورة الأنعام بين آيتين في الأولى (مشتبه) والأخرى (متشابه)، يقول تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ...﴾: ٩٩، وفي آية أخرى بعدها: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ...﴾: ١٤١. يوضح الكرمانى: "أن أكثر ما جاء في القرآن الكريم من هاتين الكلمتين جاء بلفظ التشابه نحو قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾: ٢٥، و﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾: ٧٠، و﴿تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُنَّ﴾: ١١٨ سورة البقرة، و﴿وَأُخْرُ مُتَشَبِهَتْ﴾ آل عمران: ٧، فجاء: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ في الآية الأولى، و: ﴿مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ في الآية الأخرى على تلك القاعدة.

ثم كان لقوله: ﴿تَشَبَهَ﴾ معنيان أحدهما: التبس، والثاني: تساوى، وما في البقرة معناه: التبس فحسب، فبين بقوله: (مشتبهاً) ومعناه ملتبساً أن ما بعده من باب الالتباس أيضاً لا من باب التساوي والله أعلم<sup>(٢)</sup>.

فالكرمانى يرى أن أكثر ما جاء في القرآن من هذه الصيغة جاء بلفظ (تشابه، ومتشابه)، وعد ذلك أصلاً، وبذلك جاءت الآية الثانية ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾، أما الآية الأولى فورد فيها (مشتبهاً)، ومعناه ملتبساً، ويوضح ذلك الكلمة الثانية التي وردت في الآية نفسها ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾.

أما تعليل ابن الزبير فيختلف عن تعليل الكرمانى حيث نظر لميزان الخفة والثقل بين الالفاظ إذ يقول: "لا فرق بينهما إلا ما لا يعد فارقاً، إذ الافتعال

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٤٥/٩.

(٢) البرهان: ١٧٥-١٧٦.



والتفاعل متقاربان، أصولهما الشين والباء والهاء من قوله: أشبه هذا هذا إذا قاربه ومثله، ورد في أولى الآيتين على أخف البناء، وفي الثانية على أثقلهما رعيًا للترتيب المقرر<sup>(١)</sup> أي: ترتيب الآيات في المصحف.

وحديثه هذا عن تقديم الأخف على الأثقل سبق أن تحدث عنه عند حديثه عن لفظي (يذكر) و (يتذكر)، وهي قاعدة سار عليها المؤلف كثيراً. وقد أشار الزمخشري إلى ذلك إشارة موجزة، ولعل ابن الزبير استفاد من إشارة الزمخشري، وعرضها بصورة أفضل، يقول الزمخشري في تفسيره: ”يقال: اشتبه الشيئان وتشابها، كقولك: استويا وتساويا، والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً“<sup>(٢)</sup>.

وقد أخذ بهذا القول الفخر الرازي، وأبو حيان، والألوسي<sup>(٣)</sup>. ولابن عاشور تعقيب جيد سبق أن تحدثنا عنه، فبعد أن أشار إلى كلام الزمخشري المتقدم، قال: ”والجمع بينهما في الآية للتفنن وكراهية إعادة اللفظ، ولأن اسم الفاعل من التشابه أسعد بالوقف لما فيه من مد الصوت بخلاف (مشتبه) وهذا من بديع الفصاحة“<sup>(٤)</sup>.

---

(١) ملاك التأويل: ٤٦٦/١.

(٢) الكشف: ٤٠/٢.

(٣) انظر: التفسير الكبير: ٩٠/١٣، البحر المحيط: ١٩١/٤، وروح المعاني: ٢٢٧/٧.

(٤) التحرير والتنوير: ٤٠٢/٧.

## الفصل الثاني

الاختلاف بين الآيات المتشابهة  
في الأفراد والجمع

## الفصل الثاني

### الاختلاف بين الآيات المتشابهة

### في الإفراد والجمع

حديثنا في هذا الفصل سيتناول بإذن الله تعالى موضوع الإفراد والجمع في الآيات المتشابهة في ألفاظها، وهو يمثل أحد الجوانب التي تثري بحث الكلمة المفردة فيما تشابه في كتاب الله العزيز، وقد كان لعلماء المتشابهة عناية بهذا الموضوع، وجهدهم فيه واضح. فالكلمة في كتاب الله تعالى تجيء مفردة لغرض بلاغي يستدعيه السياق القرآني، أو لتحقيق معنى مراد، أو لمناسبة ما جاورها من ألفاظ، وكذلك الحال في جمعها، فلأجل ذلك نلاحظ التنوع الحاصل بين الآيات المتشابهة في ألفاظها، المختلفة من حيث الإفراد والجمع. ولا يقف الحديث عند الأسماء الظاهرة، فهناك الجمع والإفراد في الضمائر، لها أسرارها ومقاصدها البيانية. كما أن الحديث يصل لمسألة الاختلاف في الجموع، فتأتي اللفظة مجموعة جمع تكسير في موضع وفي موضع آخر تجمع جمع تصحيح.

جدير بالذكر أن علماء البلاغة لم تكن لهم عناية بتطبيق هذا الموضوع كعنايتهم بتطبيق موضوع الذكر والحذف، أو التقديم والتأخير، أو التعريف والتنكير مثلاً، وقد ذكروا في أحوال المسند (الإفراد) في مقابلة (الجملة)، وليس في مقابلة (الجمع) الذي هو ميدان بحثي، يقول الخطيب القزويني: "وأما إفراده — أي: المسند —، فلكونه غير سببي<sup>(١)</sup> مع عدم إفادة تقوي

---

(١) أي: جعل المسند غير جملة.



الحكم كقولك: زيد منطلق، وقام عمرو، والمراد بالسيبي نحو: (زيد أبوه منطلق)، ثم ذكر كلام السكاكي<sup>(١)</sup>.

ومما ينبغي الإشارة إليه في مطلع هذا الفصل كتاب قيم ألفه الدكتور محمد الأمين الخضري، وهو بعنوان (الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن الكريم).

وحتى يكون حديثي في هذا الفصل مرتباً ومنظماً، سأحدث أولاً عن الجمع والإفراد في الأسماء الظاهرة، بعد ذلك أتحدث عن الإفراد والجمع في الضمائر، ثم أتناول الاختلاف في الجموع.

### الجمع والإفراد في الأسماء الظاهرة:

تحدث العلماء الذين عنوا بالمتشابه اللفظي عن عدد من الآيات المتشابهة في هذا الموضوع، وبينوا أسرار الإفراد والجمع في الأسماء الظاهرة، فقد وقف علماء المتشابه عند لفظي (آية وآيات) التي وردت في أكثر من موضع في كتاب الله تعالى، كما تحدثوا عن لفظي (رسالة ورسالات)، و(دار وديار)، و(معدودة ومعدودات)، وجمع السماء وإفرادها، وجمع الصلاة وإفرادها، وإفراد لفظ الرسول وتثنيته، وهذه الوقفات تمثل ما جاء في كتاب الله تعالى عن هذه الجزئية من هذا الفصل.

وفي بداية حديثي أوضح أصلاً ذكره علماء المتشابه في مسألة جمع الاسم الظاهر وإفراده، وهو أن سياق الآية إذا كان يعود على أمور كثيرة، ومطالب متعددة فالأنسب الجمع، وإذا كان السياق لا يعود على متعدد فالإفراد أولى من الجمع، ومما يطالعنا في ذلك ما تشابه في الأعراف في قصة صالح، وشعيب عليهما السلام مع قومهما، ففي قصة صالح أفرد لفظ الرسالة ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْمٍ لَقَدْ أَتَلَّغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي﴾: ٧٩، وفي قصة شعيب جمع

(١) الإيضاح: ١١١/٢-١١٢، وانظر أيضاً: التلخيص للقزويني: ١٠٦، والمختصر لسعد الدين: ٣٢٥/١، وبغية الإيضاح: ١٨٢/١.

اللفظ: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي﴾: ٩٣.

يرى الخطيب الإسكافي أن السر في جمع لفظ (الرسالة) في قصة شعيب عليه السلام هو: أنه عليه السلام أمر قومه بأشياء كثيرة من التوحيد، وإيفاء الكيل، والنهي عن القعود، وإقامة الوزن بالقسط، فهذه أشياء كثيرة لم يؤمر بمثلها صالح عليه السلام في الكثرة، فلهذا جمع الرسالة مع شعيب وأفرد مع صالح.

وله تعليل آخر ليس في قوة التوجيه الأول وهو: أن أصحاب الأيكة غير مدين، فبعث شعيب إلى أمتين فجمع، أما صالح فبعث إلى أمة واحدة فأفرد. يقول الإسكافي: "إن الذي نطق به القرآن من تحذير صالح عليه السلام قومه بعد أن أمرهم باتقاء الله تعالى وطاعته، هو أمر الناقة والمنع من التعرض لها، فجعل الرسالة جملة لما لم يفصل ما أتى به شعيب حين نهاهم عن عبادة الأوثان، بدلالة قوله: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتَّركَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ هود: ٨٧، ثم قال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْأَلُ الْمُسْتَغْفِرِينَ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ الشعراء: ١٧٨—١٨٣.. فهذه التي أمر شعيب بها قومه أشياء كثيرة ليس ما أمر به صالح قومه مثلها كثرة، فلهذا جمع الرسالة فقال: ﴿رِسَالَتِي رَبِّي﴾، وقال في قصة صالح عليه السلام: ﴿رِسَالَةَ رَبِّي﴾...“<sup>(١)</sup>، ثم ذكر الجواب الثاني الذي أشرت إليه.

وقد ذكر الكرمانى توجيه الإسكافي الأول، واختصره<sup>(٢)</sup>. وتابعه ابن جماعة، والأنصارى<sup>(٣)</sup>.

(١) درة التنزيل: ٨٨.

(٢) انظر: البرهان: ١٩٠.

(٣) انظر: كشف المعاني: ١٨٠، فتح الرحمن: ١٤٤.

أما ابن الزبير فذكر أن العرب تراعى في أجوبتها ما نيتها عليه من سؤال أو غيره، إن كان إطالة فإطالة أو إيجاز فإيجاز، وربما أتت باللفظ موجزاً وتحت معان كثيرة فأجوبتها مراعى فيها المعنى.. فلما ورد في دعاء شعيب التفصيل في الأمر والنهي... ناسب ذلك الجمع. أما قصة صالح فلم يقع فيها بعد أمرهم بالعبادة غير تعريفهم بأمر الناقة<sup>(١)</sup>. وهذا هو تعليل الإسكافي الأول.

ومن الألفاظ التي تكررت في القرآن الكريم والتي تأتي تارة بلفظ الجمع وأخرى بلفظ الأفراد، لفظ (آية) و(آيات)، وقد سبق أن عرضت لموضع منها بصورة موجزة حين تناولت في الفصل الأول لفظ (نزل) و(أنزل) في الأنعام في قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾: ٣٧، وفي العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾: ٥٠، حيث أوضح ابن الزبير أن الآية الأولى جاء التعبير فيها بالأفراد، لما قصدوه من أنه عليه السلام جاءهم<sup>(٢)</sup> بآية واحدة من الضرب الذي طلبوه، أما آية العنكبوت فجاء الجمع مناسباً لما تقدمها من قوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾، وما جاء بعدها: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

وبنظرة للآيتين المتشابهتين نجد أن الجواب جاء من جنس الطلب من حيث الأفراد والجمع، ففي آية الأنعام تقدمها طلبهم أن تنزل عليه آية: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، فجاء الجواب بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾، أما آية العنكبوت فقد طلبوا آيات كثيرة: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ فجاء الجواب من جنس الطلب: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

وفي موضع آخر من كتاب الله تعالى من هذه الكلمة (آية) و(آيات) نرى وقفة أخرى لعلماء المتشابه اللفظي حول ما ورد في سورة النحل من آيات: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي

(١) انظر: ملاك التأويل: ٥٣٧/١ - ٥٣٨.

(٢) كذا في «ملاك التأويل» ولعل الصواب: ما جاءهم.



ذَلِكَ لآيَةٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ  
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا  
أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾: يقول الخطيب الإسكافي:  
للسائل أن يسأل عن توحيد الآية أولاً وآخرها، وعن جمعها في المتوسطة...؟  
ويعلل الإسكافي سبب الإفراد في الآية الأولى فيرى أن جميع ما أخبر  
عنه أنه خلقه إنما هو في جنس من صنعه ونوع من خلقه، وهو كل ما نجم  
من الأرض، مما فيه قوت الخلق، فكان ذكر الآية أحق، لأنه فيما يطلع من  
الأرض بالماء، وكأنه جمع وجميعها شيء واحد. وجاء الإفراد أيضاً في الآية  
الثالثة، لأن المعنى جميع جواهر الأرض كالذهب والفضة والحديد وغيرها،  
وهي كالشيء الواحد، فلذلك أفرد.

أما الآية الثانية فجاءت بالجمع، لأنها خلاف ما سبق، فذكر فيها الليل  
والنهار، والشمس والقمر، والنجوم، وفي كل واحد منها آيات كثيرة، فكان  
الجمع أولى.

يقول الإسكافي: ”إنما وُحِدَ في الأول، لأن جميع ما أخبر عنه أنه خلقه  
إنما هو في جنس من صنعه ونوع من خلقه، وهو كل ما نجم من الأرض مما فيه  
قوت الخلق. والذي ذكر فيه الآيات الليل والنهار وهو إظلام الجو لغروب  
الشمس إلى طلوع الفجر، وبُذِيَ الضياء مقدمة طلوع الشمس إلى غروبها،  
والشمس والقمر النيران اللذان في كل واحد منهما آيات كثيرة، ثم النجوم  
السيارة، وغيرها على ما جعل الله تعالى لكل واحد منها من مسير في فلك، ثم ما  
أجرى العادة به من إحداث ريح، أو مطر عند انتهاء أحدها إلى بعض المجاري.  
فكان ذكر الآيات هنا أولى، وذكر الآية في الأولى أحق، لأن الأولى فيما يطلع  
من الأرض بالماء، وكأنه جمع وجميعها شيء واحد، والثانية بخلافها ولذلك  
اختلفا. وأما الآية الثالثة فهي: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾،  
المعنى... جميع جواهر الأرض، كالذهب، والفضة، والحديد، وغيرها..

ذَلِكَ لآيَةٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ  
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا  
أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ يقول الخطيب الإسكافي:  
للسائل أن يسأل عن توحيد الآية أولاً وآخرها، وعن جمعها في المتوسطة...؟  
ويعلل الإسكافي سبب الإفراد في الآية الأولى فيرى أن جميع ما أخبر  
عنه أنه خلقه إنما هو في جنس من صنعه ونوع من خلقه، وهو كل ما نجم  
من الأرض، مما فيه قوت الخلق، فكان ذكر الآية أحق، لأنه فيما يطلع من  
الأرض بالماء، وكأنه جمع وجميعها شيء واحد. وجاء الإفراد أيضاً في الآية  
الثالثة، لأن المعنى جميع جواهر الأرض كالذهب والفضة والحديد وغيرها،  
وهي كالشيء الواحد، فلذلك أفرد.

أما الآية الثانية فجاءت بالجمع، لأنها خلاف ما سبق، فذكر فيها الليل  
والنهار، والشمس والقمر، والنجوم، وفي كل واحد منها آيات كثيرة، فكان  
الجمع أولى.

يقول الإسكافي: ”إنما وُحِدَ في الأول، لأن جميع ما أخبر عنه أنه خلقه  
إنما هو في جنس من صنعه ونوع من خلقه، وهو كل ما نجم من الأرض مما فيه  
قوت الخلق. والذي ذكر فيه الآيات الليل والنهار وهو إظلام الجو لغروب  
الشمس إلى طلوع الفجر، وبُدُو الضياء مقدمة طلوع الشمس إلى غروبها،  
والشمس والقمر النيران اللذان في كل واحد منهما آيات كثيرة، ثم النجوم  
السيارة، وغيرها على ما جعل الله تعالى لكل واحد منها من مسير في فلك، ثم ما  
أجرى العادة به من إحداث ريح، أو مطر عند انتهاء أحدها إلى بعض المجاري.  
فكان ذكر الآيات هنا أولى، وذكر الآية في الأولى أحق، لأن الأولى فيما يطلع  
من الأرض بالماء، وكأنه جمع وجميعها شيء واحد، والثانية بخلافها ولذلك  
اختلفا. وأما الآية الثالثة فهي: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾،  
المعنى... جميع جواهر الأرض، كالذهب، والفضة، والحديد، وغيرها..

والتنبيه على ما جعل فيها من المنافع للخلائق، وهي كلها كالشيء الواحد في أنها عروق جارية مختلفة في شيء واحد، هو أمها، وهي الأرض“ (١).

وقد جاء الكرمانى بتعليل آخر يختلف عما ذكره الإسكافى، حيث عمد للمطابقة اللفظية فيرى أن ”الجمع في آيات لموافقة قوله: (مسخرات) لتقع الموافقة في اللفظ والمعنى، وأما التوحيد — أي: إفراد آية — فلتوحد المدلول عليه..“ (٢). وإشارته الأخيرة تدل على موافقته لمضمون كلام الإسكافى عن إفراد (آية) في الآية الأولى والثالثة.

أما ابن الزبير الغرناطى فذكر توجيه الإسكافى السابق (٣)، ووافقهم ابن جماعة واختصر التخريج (٤). أما الأنصارى فقد نقل تخريج الكرمانى برمته (٥). وذكر الزمخشري أن الجمع في الآية الثانية جاء ”لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة“ (٦). وهو توجيه مقبول.

وفي سورة النحل أيضاً ومثل الموضع الذي سبق تحدث الإسكافى وابن الزبير عن سر إفراد (آية) في قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: ٦٧. فقد أوضح الإسكافى أنه ”لما كان المذكور في كل آية صنفاً واحداً جعل كل ما دل منه على الصانع آية واحدة...“ فقله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ثمرات النخيل والأعناب، فخلصت للصنف الواحد من ثمر الشجر، فلذلك قال: (آية)...“ (٧).

وقد أخذ ابن الزبير الغرناطى رحمه الله هذا التوجيه، وقام بتوضيحه

(١) درة التنزيل: ١٤٣.

(٢) البرهان: ٢٤١.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٧٣١/١ — ٧٣٣.

(٤) انظر: كشف المعاني: ٢٢٥.

(٥) انظر: فتح الرحمن: ٢١٧.

(٦) الكشف: ٤٠٤/٢.

(٧) درة التنزيل: ١٤٩.



أكثر من الخطيب الإسكافي<sup>(١)</sup>.

ومن المتشابه في هذه المسألة ما جاء في سورة العنكبوت حيث ورد الجمع والإفراد فقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: ٢٤ فجمع لفظ (آية) في إنجاء إبراهيم عليه السلام من النار، بينما أفرد اللفظ عند ذكر خلق السموات والأرض فقال تعالى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: ٤٤، والآية في خلق السموات والأرض أعظم.

أوضح الخطيب الإسكافي أن آية إبراهيم عليه السلام آية لقومه، وللأمة من بعده، فناسب الآية الجمع: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، ولهذا قال: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فجعل الفعل مضارعاً ليدل على تجدد الإيمان، وأما إفراد ﴿لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلأن المراد أمة محمد ﷺ، وهي آخر الأمم، فجاءت الآية واحدة لأمة واحدة، وهذا توجيه دقيق.

يقول الإسكافي رحمه الله: "والجواب أن يقال: إذا أخبر الله تعالى عن المؤمنين في كتابه فهو متناول من كان في عصر النبي — صلى الله عليه وسلم — محدودين، وإذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فهو لأقوام لم يتناهوا، فكل من يؤمن إلى يوم القيامة منهم، وداخل فيهم، ولكل دلالة وأمانة بيّنة، فجمعت لعدّتهم التي لم تتناه، ولما قال في خلق السموات والأرض ﴿لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم جماعة واحدة محصور عددهم، والآية الواحدة تجمعهم، باين الخبر عنهم الخبر عمن وجد وعمن لم يوجد أكثرهم، فاختلفت بهم الدلالات وجمعت لهم الآيات لانتشار أعدادهم وتباين أمدادهم فاختلف الموضوعان لذلك"<sup>(٢)</sup>.

وقد ذكر ابن الزبير تعليل الإسكافي المتقدم، وقام بتفصيله، وربطه بسياق

(١) انظر: ملاك التأويل: ٧٤٦/٢

(٢) درة التنزيل: ١٩٦.

الآيات المتقدمة، فأوضح أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ ليس راجعاً لحال إبراهيم عليه السلام وإنجائه من النار فحسب، وإنما هو راجع إلى القصص قبله بل الإشارة لمجموع معتبرات، منها لبث نوح عليه السلام، وأخذهم بالطوفان، وإنجاء أهل السفينة وجعلها آية للعالمين.. فلما تقدم تفصيل الآيات ورد التنبيه بالإشارة إلى جميعها، فجاء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾، أما قوله (إن في ذلك) فالإشارة إلى المصدر وهو الخلق المفهوم من قوله: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾<sup>(١)</sup>. ووافقهما ابن جماعة الذي اختصر كلامهما<sup>(٢)</sup>. وذكر الكرمانى تعليلاً آخر للآية وهو أن الآية "الأولى إشارة إلى إثبات النبوة، وفي النبيين — صلوات الله وسلامه عليهم — كثرة فجمع، والآية الثانية إشارة إلى التوحيد، وهو سبحانه واحد لا شريك له"<sup>(٣)</sup>. ووافقهُ الأنصاري الذي نقل كلامه برمته<sup>(٤)</sup>.

وجعل ابن عاشور الإشارة في الآية الأولى إلى الإنجاء المأخوذ من ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾، وعلل الجمع لأنه آية لكل من شهدته من قومه، ولأنه يدل على قدرة الله، وكرامة رسوله، وتصديق وعده، وإهانة عدوه<sup>(٥)</sup>، وهو مراد الكرمانى.

وهذه التوجيهات كلها مقبولة، ولا يمنع بعضها بعضاً، والأسرار فيها لا تتزاحم.

ومن المواضع التي تحدث عنها علماء المتشابه في مسألة الأفراد والجمع في الأسماء الظاهرة حديثهم عن كلمة (دار) و(ديار) في قول الله تعالى في الأعراف في قصة صالح: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾: ٧٨، وفي قصة شعيب: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾: ٩١، وفي سورة هود جاء التعبير بالجمع

(١) انظر: ملاك التأويل: ٩١٨/٢.

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٩٠.

(٣) البرهان: ٢٩٥.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ٣٢١.

(٥) انظر: التحرير والتنوير: ٢٣٤/٢٠ — ٢٣٥.

في قصة شعيب: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِمِينَ﴾: ٩٤.

أوضح الإسكافي أن كل موضع ذكر فيه النبي وقومه بوصف أنه أخوهم، كما قال ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، جاء أفراد الدار، لأنهم أبناء أب واحد، وديارهم دار واحدة، بشرط ألا يذكر إخراج النبي والذين آمنوا معه، كما قال في الأعراف: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾: ٧٣، إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِمِينَ﴾: ٧٨ من دون أن يذكر إخراج النبي والذين آمنوا معه. وقوله سبحانه في قصة شعيب في سورة الأعراف أيضاً: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: ٨٥، إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِمِينَ﴾: ٩١.

أما إذا ذكر إخراج النبي والذين آمنوا معه فإن ذلك يقتضي الجمع، لأن الكفر فرق بينهم، فنجا من نجا وهلك من هلك، فلم يكونوا أهل دار واحدة، ولهذا لما قال سبحانه في سورة هود في قصة صالح — عليه السلام —: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾، جاء بعده ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِمِينَ﴾: ٦٧، بجمع لفظ (ديار)، وكذلك ورد الجمع في قصة شعيب: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِمِينَ﴾.

يقول الإسكافي: ”إن الله تعالى وحده في كل مكان ذكر في ابتدائه ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ولم يذكر إخراج النبي ومن آمن معه من بينهم، فجعلهم بني أب واحد، وجعلهم كذلك أهل دار واحدة، ورجاء أيضاً أن يصيروا بالإيمان فرقة واحدة.

وكل موضع أخبر عن تفريقه بينهم وإخراج النبي ومن آمن منهم معه أخبر عنهم بالإخبار الدال على تفرق شملهم وتشتت أمرهم وذهاب المعنى الذي كان يجمعهم لأب واحد ودار واحدة، وأن يصيروا مع المؤمنين فرقة واحدة“<sup>(١)</sup>.

(١) درة التنزيل: ٨٦—٨٧.



وبتطبيق هذه القاعدة التي ذكرها الإسكافي على كتاب الله تعالى، نجد الأمر كما قال، ففي سورة العنكبوت جاءت الآية التي في قصة شعيب بالإفراد، لأنه لم يذكر إخراج النبي والذين آمنوا معه، يقول تعالى: ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: ٣٦، وفي الآية التي تليها ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾: ٣٧.

أما الكرمانى فقد علل الإفراد والجمع بتعليل آخر يختلف عن الإسكافي، وهو رأي مبني على فهم الدلالة المعنوية للألفاظ، وربط تلك الدلالة بسياق النظم القرآنى، فقد لاحظ أن الجمع في الدار جاء مع الصيحة، لأنها رفع الصوت، ويصحبها فرع والإفراد جاء مع الرجفة التي في أصلها اللغوي تعني الاضطراب الشديد<sup>(١)</sup>. ولما كانت من جهة السماء، كان بلوغها أعظم وأثرها أشد، فوافق ذلك جمع لفظ (الديار)، لأن الجمع يدل على الكثرة وعلى المبالغة، كما ناسب سياق الآية الثانية الإفراد لمناسبة لفظ (الرجفة)، ولما يفيد الإفراد من الخصوص والتقييد.

يقول الكرمانى: "حيث ذكر الرجفة وهي الزلزلة وحث الدار، وحيث ذكر الصيحة جمع؛ لأن الصيحة كانت من السماء فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة، فاتصل كل واحد بما هو أليق به"<sup>(٢)</sup>.

وبتطبيق هذه النظرة الدقيقة من الكرمانى على ما ورد في كتاب الله نجد أن الإفراد مع الرجفة جاء في ثلاثة مواضع: موضعان منها في سورة الأعراف، ففي قصة صالح: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾: ٧٨، وفي قصة شعيب: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾: ٩١، وموضع في العنكبوت في قصة شعيب أيضاً: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾، وكأنه رحمه الله قد حصر ما في القرآن، وجاء بهذا التعليل.

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب: ٤٢٦، ٢٧٦، ولسان العرب: ٥٢١/٢، ١١٢/٩.

(٢) البرهان: ١٩١.

وقد وافق ابن الزبير الكرمانى فيما ذكره، وأوضح أن الصيغة فيها إطلاق دون تقييد، أما الرجفة ففيها خصوص يقول: "...وجه اختيار لفظ الجمع في الآية من سورة هود مناسبة ما اقترن به من لفظ الصيغة، وهي عبارة هنا عن العذاب مطلقاً دون تقييد بصفة، وهو من الألفاظ الكلية، فإن لم يكن عاماً، فانتشار موقعه من حيث الكلية حاصلة.."<sup>(١)</sup>. ثم تحدث عن الفرق بين الرجفة والصيغة.

أما ابن جماعة<sup>(٢)</sup>، والأنصارى<sup>(٣)</sup> فقد تابعا الكرمانى، ونقلوا نص كلامه. وعلى هذا فيمكن أن تحمل الآية على توجيه الإسكافى، كما يمكن أن تحمل على توجيه الكرمانى، لأن الأسرار البلاغية لا تتزاحم مهما كثرت. ومن الآيات المتشابهة في هذا الموضوع قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾: ٨٠، فقد جاءت لفظة (معدودة) وصفاً مفرداً لأيام، وفي آل عمران جاءت جمعاً: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾: ٢٤، فالموصوف في المكانين واحد وهو (أيام) فما سر الاختلاف؟

يذكر الإسكافى أن الفرق بين الآيتين في الأفراد والجمع إشارة إلى الجمع بين الأصل والفرع، فيرى أن "الجمع بالألف والتاء أصله للمؤنث نحو: مسلمة ومسلمات، وصفحة وصفحات، ومكسورة ومكسورات، ولا يكاد يجيء الجمع الذي واحده مذكر هذا المجيء إلا ألفاظاً معدودة... فلما كان لفظ (معدودة) من المطرد المستمر استعمل لفظها في الأول...

ولما كان الجمع بالألف والتاء في الأصل قد يكون فيما واحده مذكر، وإن قل وكان على سبيل من سبل المجاز استعمل ذلك فيه، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ البقرة: ٢٠٣، والأيام جمع يوم وهو مذكر،

(١) ملاك التأويل: ٥٣٣/١ - ٥٣٤.

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٨٠.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ١٤٣.

فيكون على أحد وجهين: إما أن يكون المراد من اذكروا الله في ساعات أيام معلومات ومعدودات... وإما أن يكون الحق بما في واحده علامة التأنيث في الجمع ودخولها في الفرعية التي يكتسب بها لفظ المؤنث<sup>(١)</sup>.

فالخطيب الإسكافي لم يبين لنا سبب الإفراد في آية البقرة والجمع في آية آل عمران، وإنما اقتصر تعليله على بيان الوجه النحوي في هذه المسألة، فالأصل في الجمع إذا كان واحده مذكراً أن يقتصر في الوصف على التأنيث، كقوله في سورة الغاشية: ﴿فِيهَا سُرُورٌ مَّرْفُوعَةٌ ۖ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۖ وَنَارٌ مَّصْفُوعَةٌ ۖ وَزَرَأِي مَبْثُوثَةٌ ۖ﴾: ١٣—١٦، ويجوز لك أن تقول: سرر مرفوعات، على تقدير: ثلاثة سرر مرفوعة، وتسعة سرر مرفوعات، لكن هذا ليس بالأصل، وعلى هذا جاء في آية البقرة على الأصل، وفي آل عمران على الفرع، واكتفى الإسكافي بذلك ولم يوضح سر الإفراد في آية البقرة وسر الجمع في آية آل عمران.

وقد أخذ الكرمانى تعليل الإسكافي واختصره<sup>(٢)</sup>، ووافقه الأنصاري<sup>(٣)</sup>، كما ذكره السيوطي، وعده قولاً لابن جماعة<sup>(٤)</sup>.

أما ابن الزبير الغرناطي فمع موافقته لكلام الإسكافي إلا أنه لم يتوقف عنده، فقد جاء بتوجيه آخر فيه تأمل لقراءة الآية، فيرى أن آية البقرة مبنية على الإيجاز، بخلاف آية آل عمران: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ﴾، فأية البقرة بدأت بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾، أما آية آل عمران فجاء في أولها: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾، وفي هذا زيادة عن الآية الأولى، أيضاً ختمت آية آل عمران بذكر اغترار أهل الكتاب، — وافترائهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم، أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً<sup>(٥)</sup> —

(١) درة التنزيل: ١٢ بتصرف.

(٢) انظر: البرهان: ١٢٧.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٣١—٣٢.

(٤) انظر: معترك الأقران: ٨٩/١.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١١٣/١، ٣٣٦.



﴿وَعَرَّهٖمۡ فِي دِينِهِمۡ مَا كَانُوا يَفۡتَرُونَ﴾، وهذا فيه بسط لحالهم الحامل على سوء مرتكبهم، فناسب الإفراد الإيجاز، وناسب الجمع الإسهاب<sup>(١)</sup>، ووافقه صاحب الدر المصون، وذكر وجهاً آخر هو التفنن في البلاغة، وهو توجيه دون الأول والله أعلم<sup>(٢)</sup>.

كما وافق الفخر الرازي الإسكافي واختصر توجيهه<sup>(٣)</sup>، كما أشار ابن عاشور إلى ذلك فذكر أنه كثر في صفة الجمع إذا أنشوها أن يأتوا بها بصيغة الإفراد إلا إذا أرادوا تأويل الجمع بالجماعات<sup>(٤)</sup>.

ومما يندرج تحت هذا الموضوع الحديث عن سبب إفراد لفظ (السماء) في سورة يونس: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَٱلْأَرۡضِ﴾: ٣١، وفي سورة سبأ جمع اللفظ يقول تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرۡضِ﴾: ٢٤، مع اتحاد المعنى وتساوي الألفاظ في الآيتين؟

وقد انفرد ابن الزبير الغرناطي بتوجيه هذا الموضع من بين علماء المتشابه، ففي تعليقه لسر الجمع في آية سبأ ربط بين الآية وما تقدمها من قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَدۡعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّنۡ دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۭ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِنۡ شَرِكٍ﴾: ٢٢، ووجد بين الآيتين مناسبة، فقد جاء الجمع في قوله: ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۭ فِي السَّمَوَاتِ...﴾، فناسب الجمع في الآية المتقدمة، هذا من جهة اللفظ، أما من ناحية المعنى، فإن القضية في الآيتين واحدة، وهي نفي الشركاء والأنداد، فجاء الجمع مراعاة لذلك.

يقول ابن الزبير "إن الإفراد الوارد في سورة يونس محصل للمعنى مع الإيجاز، فورد هنا على ما يجب، وأما الوارد في سورة سبأ على الجمع فروعى فيه ما تقدم من قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَدۡعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّنۡ دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۭ فِي السَّمَوَاتِ

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢٢٤/١-٢٢٦.

(٢) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٥٢/٢.

(٣) انظر: التفسير الكبير: ١٣٠/٣.

(٤) انظر: التحرير والتنوير: ٥٨٠/١.

وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَالَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾، والمراد بذلك نفي الشركاء له تعالى، ثم عاد الكلام إلى ذلك أيضاً، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على الجمع مناسبة، إذ الآية قبل وهذه في قضية واحدة، وهي نفي الشركاء والأنداد، فجاءت على ما يناسب التي قبلها... ولم يكن في آية يونس ما يستدعي ذلك فجاء كل على ما يجب ويناسب<sup>(١)</sup>.

وقبل ابن الزبير تحدث أبو القاسم السهيلي (ت ٥٨١هـ) عن الآيتين بوجه خاص، وعن السر في إفراد الأرض، وجمع وإفراد السماء في القرآن الكريم بوجه عام. وقد كان حديثه عن الفرق بين السماء والأرض من جهة اللفظ، وهو فرق لغوي نحوي يدور حول أن الأرض على وزن المصادر الثلاثية، وأن السماء من أبنية الأسماء<sup>(٢)</sup>.

أما من جهة المعنى فيذكر أن الكلام متى اعتمد به على السماء المحسوسة التي هي السقف، وقصد به إلى ذاتها دون معنى الوصف صح جمعها جمع السلامة؛ لأن العدد قليل، وجمع السلامة بالقليل أولى لقربه من التثنية، فإذا اعتمد الكلام على الوصف استتراد معنى العلا والرفعة. أما الأرض فلم تجيء في القرآن مقصوداً إلى ذاتها، ولا معبراً عنها إلا بما هو بمعنى السفلى والتحت، تنبيهاً من الله تعالى على ذمها، وإعراضاً عن ذكرها وترك الاعتناء بها إذ كانت دار الحياة الدنيا، بخلاف السماء المشرقة المقدسة المطهرة، التي هي مقر ملائكته، ومحمل أنوار جلاله وعظمته. فإذا اعتمد ذكر ذاتها مع ما فوقها جمع، وإذا اعتمد الوصف الشامل لسمواته وهو معنى العلو أفرد، وذلك حسب ما يتصل به من كلام<sup>(٣)</sup>.

(١) ملاك التأويل: ٦١٤/١.

(٢) انظر: نتائج الفكر: ١٥٩، وانظر: الكتاب لسيويه: ٤/٤٥، وانظر: رسالة: (البحث البلاغي

عند السهيلي) ص: ٩٩-١٠١.

(٣) نتائج الفكر: ١٥٩-١٦١. (بتصرف).

ونقل ابن القيم كلام السهيلي دون أي إشارة له مع تقديم وتأخير<sup>(١)</sup>، وتابعه الزركشي<sup>(٢)</sup>. وللمفسرين أقوال أخرى تؤكد ما ذكره الإمام السهيلي عن سبب إفراد الأرض وجمع السماء وإفرادها في القرآن الكريم<sup>(٣)</sup>. أما ما ذكره السهيلي عن السر في جمع السماء في سبأ، وإفرادها في يونس، وهو مجال بحثي ودراسي، فيقول: “..قد يرد لفظ السماء عبارة عن كل ما علا من السموات فما فوقها إلى العرش، وغير ذلك من المعاني العلوية المختصة بالربوبية، فيكون اللفظ بصيغة الإفراد كالوصف المعبر به عن الموصوف... وقد يكون السماء عبارة عن السماء الدنيا عُرفاً، ويكون عبارة عن السحاب الذي ينزل منه الماء، وكان المخاطبون بهذه الآية — أعني: التي في يونس — مقرّين بنزول الرزق من السماء — أعني: الرزق المحسوس —، كالغيث ونحوه. وقد قال في آخر الآية: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، فلما انتظم هذا الكلام بما قبله لم يصلح في النظم إلا ذكر السماء مفردة؛ لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الرزق المعقول والرحمة بالعباد كالوحي الذي به حياة الأرواح والأجساد، بل ينكرون ذلك، فوردت السماء فيها بلفظ الإفراد، بخلاف الآية الأخرى، فإنه لم ينتظم بها إقرارهم بما ينزل من الرزق، لكنه تعالى قال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ﴾، فأمر نبيه بهذا القول الذي هو تصديق لنزول الرزق والخير الذي هو الحكمة والعلم — وهو أفضل الرزق — من فوق سبع سموات، وأما الرزق من الأرض فيصلح ذكره في الاثنين جميعاً، إذ لا ينكر رزق الأرض وما ينزل من الغيث من هذه السماء برّاً ولا فاجر، بل يعترف به المؤمن والكافر<sup>(٤)</sup>. وفي ختام حديثه أوضح أن هذه المسألة جديدة فريدة، وفقه الله إليها،

(١) انظر: بدائع الفوائد: ١/١١٣—١١٥، والتفسير القيم: ٣٠٦—٣٠٧.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي: ٤/٦—٧.

(٣) انظر: البحر المحيط: ١/٤٦٤، وروح المعاني: ١/٤٢٩، والمثل السائر لابن الأثير: ١/٢٩٩.

(٤) نتائج الفكر: ١٦١—١٦٢.



ولم يتقدمه أحد إليها يقول: ”..فتأمل ما ذكرته من هذه النكت، فإنها أنف<sup>(١)</sup> لم أراحم عليها، ولا وجدتها لأحد تقدمني إليها، والله الموفق لشكر يقتضي المزيد من فضله، وهو حسبنا ونعم الوكيل“.

فالسهيلى وضّح موضعاً من أدق المواضع وأغمضها، فأية يونس وردت في سياق الاحتجاج عليهم بما أقروا به، ولم يمكنهم إنكاره من أنه سبحانه هو رازقهم، ومالكهم، ومدبر أمورهم، فلما كانوا مقرين بهذا كله حين الاحتجاج عليهم، فكيف يعبدون معه غيره، ويجعلون له شركاء من دونه، ولهذا قال بعد ذلك ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، والمخاطبون بهذه الآية كانوا مقرين بنزول الرزق من السماء التي يشاهدونها، ولم يكونوا مقرين بنزوله من سماء إلى سماء حتى ينهي الأمر إليهم، ولم يكونوا مقرين بنزول الأرزاق العظيمة على القلوب والأرواح، وأعظمها الوحي، فأفرد لفظ السماء في هذه الآية، فهم لا ينكرون مجيء الرزق منها، لا سيما والرزق ها هنا إن كان هو المطر، فمجيئه من السماء التي هي السحاب، فذلك يسمى سماء لعلوه، فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم لم يصلح فيه إلا أفراد السماء.

أما آية سبأ فالأمر فيها مختلف، ولهذا أرى سبحانه نبيه أن يتولى الجواب فيها، فلم ينتظم ذكر إقرارهم بما ينزل من السموات، ولهذا قال في الجواب ﴿قُلِ اللَّهُ﴾، ولم يقل: سيقولون الله، كما في آية يونس، فالله سبحانه هو وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السموات السبع.

وقد اختصر الزركشي كلام السهيلى ودوّنه في كتابه مع الإشارة إلى السهيلى، وبناء على ذلك فرّق بين الأفراد في يونس ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾: ١٦ والجمع في سورة سبأ: ﴿عَلِمِ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: ٣، فقال: ”فإن قبلها

---

(١) الأنف: الجديدة، والروضة الأنف: الأرض البكر التي لم يرعها أحد، انظر: لسان العرب: ١٤/٩، ونتائج الفكر: ١٦٢.

— يقصد آية سبأ — ذكر الله سبحانه سعة علمه، وأن له ما في السموات وما في الأرض، فاقترضى السياق أن يذكر سعة علمه، وتعلقه بمعلومات ملكه، وهو السموات كلها والأرض. ولما لم يكن في سورة يونس ما يقتضي ذلك أفردتها إرادة للجنس<sup>(١)</sup>. قال: وقال السهيلي: ”لأن المخاطبين بالإفراد مقرّون بأن الرزق ينزل من السحاب، وهو سماء، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، وهم لا يقرّون بما نزل من فوق ذلك من الرحمة والرحمن<sup>(٢)</sup> وغيرها، ولهذا قال في آية سبأ: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾، أمر نبيه ﷺ بهذا القول ليعلم بحقيقته“<sup>(٣)</sup>.

ويتكرر حديث ابن الزبير الذي انفرد به عن علماء المتشابه اللفظي، حول الآيات المتشابهة، فيقف عند جمع لفظ (الصلاة) في أول سورة المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾: ٩، أما في سورة المعارج فجاء اللفظ بالإفراد: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾: ٣٤.

يقول: ”إن ذلك مناسب لما اكتنف هذا الوصف في آية سورة المؤمنين، لما كان ذكر محافظتهم على صلاتهم قد اكتنفه ما تقدمه وما تأخر عنه من تفخيم الوصف في المتقدم وتفخيم الجزاء في المتأخر ناسب ذلك تفخيم العبارة عن فعلهم، فورد بلفظ الجمع في قراءة الأكثرين ف قيل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. أما تفخيم الوصف المتقدم فذكرهم بالفلاح وهو الظفر بالمراد، والبقاء في الخير، وذكرهم بالخشوع في صلاتهم وإعراضهم عن اللغو، ولم يقع في متقدم وصفهم في سورة المعارج ما يوازن هذه الأوصاف... وأما نعتهم الوارد في جزائهم فوصفهم بأنهم الوارثون، ثم تخصيصهم بإرث الفردوس، وهو أعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار

(١) البرهان: ٧/٤. وتحدث علماء المتشابه عن الآيتين اللتين ذكرهما الزركشي في موضوع التقديم والتأخير، وستحدث عن ذلك في الباب الثالث بإذن الله تعالى.

(٢) في نتائج الفكر ١٢٤: ”من الرزق المعقول والرحمة بالعباد كالوحي“.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ٨/٤.

الجنة، ووصفهم بالخلود فيها، ولا يوازن هذا بقوله عقب آية المعارج: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ﴾: ٣٥<sup>(١)</sup>. فالجمع يفيد التفخيم، فجاء مع الآيات التي فيها تفصيل في فضائلهم، والجزاء الذي أعد لهم.

وللزمخشري توجيه آخر لجمع الصلاة في آية المؤمنين، يقول عن ذلك: "...وجمعت آخرأ — يعني: جمعت في آخر صفات المؤمنين —، لتفاد المحافظة على أعدادها، وهي الصلوات الخمس، والوتر، والسنن المرتبة مع كل صلاة، وصلاة الجمعة، والعيدين، والجنائز، والاستسقاء، والكسوف... وغيرها من النوافل..."<sup>(٢)</sup>.

ونقل أبو حيان توجيه الزمخشري<sup>(٣)</sup>، ووافقهما ابن عاشور واختصر<sup>(٤)</sup>. وتوجيه الزمخشري أولى؛ لأنه تقدم ذكر الصلاة والمحافظة على خشوعها في أول السورة بصيغة الإفراد ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾: ٢، فالمراد منها جنس الصلاة، فلما تكرر ذكر الصلاة والتأكيد على المحافظة عليها جاء اللفظ بصيغة الجمع، ولهذا عقب ابن عاشور على ذلك بقوله: "وإنما ذكر هذا مع ما تقدم من قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾؛ لأن ذكر الصلاة هنالك جاء تبعاً للخشوع، فأريد ختم صفات مدحهم بصفة محافظتهم على الصلوات ليكون لهذه الخصلة كمال الاستقرار في الذهن، لأنها آخر ما قرع السمع من هذه الصفات. وقد حصل بذلك تكرير ذكر الصلاة تنوياً بها... لتزداد النفس قبولاً لسماعها ووعياً فتتأسى بها"<sup>(٥)</sup>.

أما توجيه ابن الزبير فيأتي بعد توجيه الزمخشري وهو مقبول أيضاً، لأن الموصوفين في آية المعارج قد وعدوا بل قد حكم لهم بدخول الجنة، كما

(١) ملاك التأويل: ٤٦٠/١ — ٤٦١.

(٢) الكشف: ٢٧/٣.

(٣) انظر: البحر المحيط: ٣٩٧/٦.

(٤) انظر: التحرير والتنوير: ١٨/١٨.

(٥) التحرير والتنوير: ١٨/١٨.



هو حالهم في آية المؤمنين، فالحال واحد، فلا وجه لتفخيم الجزاء في آيات سورة المؤمنون فقط، ولهذا نلاحظ أن ابن الزبير حاول الاستدراك بأن الجميع قد وعد بالجنة، إلا أن وصف الجنة في آيات سورة (المؤمنون) أعظم، فقد تميزت الآيات بوصفهم بالإرث، وأنه إرث لأعظم ما في الجنة وهو الفردوس، ثم ختم بوصفهم بالخلود فيها.

ويمكن أن يعلل الجمع بما ذكره الزمخشري، وكذلك بما ذكره ابن الزبير، لأن ذلك أشبه بما تدل عليه وتحمله بلاغة القرآن الكريم، وكثرة أسرارها، والله أعلم.

ومن الملاحظ في كتاب الله تعالى أن الصلاة لم تأت جمعاً، وهي بمعنى الصلوات الشرعية إلا في هذا الموضع، وفي آية ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ البقرة: ٢٣٨، كما جاء الجمع في القرآن بمعنى الثناء والعطاء ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ البقرة: ١٥٧، وبمعنى الدعاء ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ التوبة: ٩٩، وبمعنى أماكن العبادة: ﴿لَهُدِمَتْ صَوْمِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ الحج: ٤٠.

وأختتم موضوع الإفراد والجمع في الأسماء الظاهرة بإشارة علماء المتشابهة لآية سورة طه: ﴿فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾: ٤٧، فورد لفظ (رسول) بالثنائية، بينما جاء في سورة الشعراء بالإفراد: ﴿فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: ١٦. يذكر الكرمانى توجيهين أحدهما: أن لفظ (الرسول) مصدر سمي به، فحيث وُحِدَ حمل على المصدر، وحيث ثُنِيَ حمل على الاسم.

والثاني: إذا جاء اللفظ مفرداً أراد به الرسالة، لأنهما أرسلتا لشيء واحد، وإذا ثُنِيَ حمل على الشخصين<sup>(١)</sup>.

أما ابن الزبير الغرناطي فيرى أن الثنية في سورة طه على اللغة المشهورة،

(١) انظر: البرهان: ٢٦٥.

أما الآية الثانية فعلى لغة من يقول: رسول للواحد والاثنين والجمع، والمذكر والمؤنث، وعلى ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي:

أَلَكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرَ الرِّسُولِ  
لِأَعْلَمَهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرِ<sup>(١)</sup>

فالشاعر أراد بالرسول الرُّسُل، فوضع الواحد موضع الجمع، ولهذا فإن فَعُولاً وفَعِيلًا يستوي فيهما المذكر والمؤنث والواحد والجمع<sup>(٢)</sup>.

ونقل أبو يحيى الأنصاري توجيه الكرماني، وزاد أن الأفراد في سورة الشعراء نظراً إلى موسى؛ لأنه الأصل وهارون تبع له<sup>(٣)</sup>.

وهذا كل ما في الآية، فقد بيّن الكرماني وابن الزبير علة الجواز، وليس في توجيههما بيان للسر البلاغي من هذا الاختلاف بين الآيتين والله أعلم.

### الجمع والأفراد في الضمائر:

بعد أن تحدثت عن الأفراد والجمع في الأسماء الظاهرة، أنقل الكلام إلى الأفراد والجمع في الضمائر، أو الأفعال المتصلة بالضمائر، وقد وقفت على ثلاثة مواضع تحدث عنها علماء التشابه، وهي تمثل ما جاء في كتاب الله تعالى من التشابه اللفظي.

فمن المواضع البارزة التي أطلعها في ثنايا حديثهم عن الآيات المتشابهة، وقفتم عند قول الله عزّ وجل في سورة الأنعام: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾: ٢٥، حيث ورد الفعل مسنداً للمفرد، بينما جاء الفعل مسنداً لضمير الجمع في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾: ٤٢.

وقد بيّن الخطيب الإسكافي أن آية الأنعام نزلت في قوم من الكفار كانوا يستمعون إلى النبي صلى الله عليه وسلم منهم: أبو سفيان، والنضر بن الحارث، وعتبة، وشيبة، وغيرهم، وكانوا قليلي العدد. أما آية يونس فهي في

(١) انظر: ملاك التأويل: ٨٢١/٢، وانظر: المفردات في غريب القرآن للراغب: ٢٨٤.

(٢) انظر: لسان العرب: ٢٨٣/١١.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٢٩٧.

كل الكفار الذين يستمعون القرآن الكريم وهو حجة عليهم.  
يقول رحمه الله: ”فلما كانت (مَنْ) تصلح للواحد فما فوقه، ويجوز  
أن يعود الضمير إلى لفظه، وهو لفظ الواحد، وإلى معناه وهو ما يراد به  
واحد أو اثنان أو ثلاثة، واختلف هذان المكانان في القلة والكثرة، فحملت  
في موضع القلة على حكم اللفظ، وعاد الضمير إليها بلفظ الواحد فقال:  
﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، وفي موضع الكثرة على حكم المعنى، وعاد الضمير  
إليها بلفظ الجمع فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، ليفاد بالاختلاف هذا المعنى،  
فلم يصبح في كل مكان إلا اللفظ الذي خصّه مع القصد الذي ذكرت..“<sup>(١)</sup>.  
ووافقه الكرمانى الذي اختصر توجيهه، فقال: ”لأن ما في هذه السورة  
— الأنعام — نزل في أبي سفيان، والنضر بن الحارث، وعتبة، وشيبة، وأمّية  
وأبي ابني خلف، فلم يكثروا كثرة من في يونس، لأن المراد بهم جميع الكفار،  
فحملها هنا مرة على لفظ (من)، فوحد لقلتهم، ومرة على المعنى فجمع،  
لأنهم وإن قلوا جماعة، وجمع ما في يونس ليوافق اللفظ المعنى“<sup>(٢)</sup>، وتبعه  
الأنصاري<sup>(٣)</sup>، وكذلك ابن جماعة، وزاد وجهاً آخر، وهو التفنن في الخطاب<sup>(٤)</sup>،  
وهو توجيه يأتي بعد التوجيه الأول.

كما وافقهم أبو حيان، فقال عن آية الأنعام بعد أن ذكر سبب النزول:  
”والضمير في (ومنهم) عائد على الذين أشركوا، ووحد الضمير في (يستمع)  
حملاً على لفظ (من)، وجمعه في (على قلوبهم) حملاً على معناها، والجملة  
من قوله (وجعلنا) معطوفة على الجملة قبله عطفاً فعلية على اسمية، فيكون  
إخباراً من الله تعالى أنه جعل كذا“<sup>(٥)</sup>. ويقول عن آية الأنعام بعد أن ذكر سبب

(١) درة التنزيل: ٦٣.

(٢) البرهان: ١٦٧—١٦٨.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ١١٩.

(٤) انظر: كشف المعاني: ١٥٩.

(٥) البحر المحيط: ٩٧/٤، وانظر أيضاً: ٣٥٢/١.



النزول أيضاً: ”والضمير في (يستمعون) عائد على معنى (من)، والعود على اللفظ في الكثرة، وهو كقوله: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوِيكَ لَهُ﴾ الأنبياء: ٨٢، والمعنى من يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع“<sup>(١)</sup>، وتابعه الألوسي<sup>(٢)</sup>.

أما ابن الزبير فجاء بحديث مفصل، فتحدث أولاً عن لفظ (مَنْ) وأنه يصلح للمفرد والجمع، وأنه في كلام العرب يحمل أولاً على الأفراد اعتماداً على لفظه، فلهذا ترد صلته إن كان موصولاً، أو صفته إن كان موصوفاً، أو خبره إن كان شرطاً، أو استفهاماً كصلة (الذي) الواقع على المفرد... ثم قد يكون فيما اتصل بالكلام بعد ضمير أو غيره يراعى فيه معنى من حيث يراد أكثر من واحد فيأتون على معنى (مَنْ) لا على لفظها، وعلى هذا كلام العرب في الكثير المطرد، وعليه جاء في القرآن: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، ثم قال: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾: ٨، فعاد الضمير مجموعاً.

ثم أوضح أن آية الأنعام وردت على الأكثر المطرد، وقد ورد فيما انتظم بالآية بيان كون المستمعين جماعة، وذلك في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾: ٢٥، فبيّن أن المراد جماعة، وارتفع الاحتمال. ولما لم يرد مع آية سورة يونس ضمير ولا غير ذلك مما يبين المستمعين جماعة، وكان بيان ذلك مراداً مقصوداً، أتى الضمير أولاً ضمير جمع حملاً على معنى (من) ولم يحمل على لفظها فيفرد لئلا يوهم أن المستمع واحد، وذلك غير مقصود، فقل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، إذ ليس في الكلام بعد ما يبين ذلك<sup>(٣)</sup>.

ويرى السهيلي أن الحمل على اللفظ إنما يكون بالقرب من لفظ (من)،

(١) البحر المحيط: ١٦١/٥

(٢) انظر: روح المعاني: ٣٥٩/١، ١١٨/٤، ١١٩/٦.

(٣) ملاك التأويل: ٤٣٦/١—٤٣٨ بتصرف.

والحمل على المعنى يكون بالبعد، واستشهد بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، فأفرد حملاً على لفظ (من)، وقال في آخر الآية: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: ١١٢، فجمع حملاً على المعنى لما بعد عن اللفظ<sup>(١)</sup>.

وقد وافق البقاعي ابن الزبير في تخريج آية يونس<sup>(٢)</sup>.  
وبالنظر لجميع هذه الأقوال نلاحظ أمراً مهماً يقوم على تأمل الآيات التي تقدمت الآيتين المتشابهتين، فسورة يونس تناولت أصناف كفرهم، مثل قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ﴾، ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: ٣٥—٣٩، فالآيات تتحدث عن جماعات كفرت، ولذلك جاء بعدها قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِءٍ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِءٍ﴾: ٤٠، ثم جاء بعد الآية مباشرة قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾، وهذا فيه إشارة مهمة إلى وضوح الآيات وتظاهر الحجج، فجاء الأول: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ بالجمع لكثرتهم، وجاء الثاني بالإفراد ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾، لقلة من ينظر إليه، بالمقارنة مع من يستمع، كما أن النظر يقتضي القرب وعدم وجود المانع والساتر بخلاف السماع، فقد تستمع إلى من لا تراه.

أما سورة الأنعام فليس فيها ما جاء في سورة يونس، فالآيات التي تقدمت الآية تتحدث عن قدرة المولى جل جلاله، وعن أحوال الآخرة، وبعد ذلك جاءت الآية التي بينت أمر أبي سفيان ومن معه، والله تعالى أعلم. وأرى أن الاستئناس بأقوال العلماء أمر حسن، وهو يدل على عظم بلاغة القرآن وكثرة أسرارها التي لا تتراحم.

ومن الآيات المتشابهة في مسألة الإفراد والجمع في الضمائر قوله تعالى في سورة غافر: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾: ٢٢، فجمع الضمير هنا،

(١) انظر: الروض الأنف: ٢١٧/٣.

(٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي: ١٢٧/٩.

وفي التغابن جاء الضمير مفرداً: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: ٦، وهذا تشابه في الظاهر، لأن أحد الضميرين ضمير الشأن، ومرجعه الجملة بعده، وليس راجعاً على مذكورين.

فقد ذكر الكرماني أن آية غافر خصّت بالجمع، "لأن هاء الكناية إنما زیدت لامتناع (أن) عن الدخول على كان، فخصت هذه السورة بكناية المتقدم ذكرهم موافقة لقوله: ﴿كَانُواهُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وخصّت سورة التغابن بضمير الأمر والشأن توصلاً إلى كان" (١).

وقد وافقه أبو يحيى الأنصاري الذي نقل نص كلامه (٢).

وضمير الشأن في الكلام يكسبه نبلاً وفخامة، لأنه يفسره ما بعده، فيتمكن في ذهن السامع ما يعقبه، فالسامع إذا لم يفهم من الضمير معنى، بقي منتظراً لعقبى الكلام كيف يكون، فيتمكن المسموع بعده في ذهنه أفضل تمكن، ولذلك ذكر عبدالقاهر الجرجاني أن من خصائص (أن) أنك ترى في ضمير الأمر والشأن معها من الحسن واللفظ ما لا تراه إذا هي لم تدخل عليه، بل تراه لا يصلح حيث يصلح إلا بها (٣).

ومن المواضع التي فيها شيء من اللطافة والظرافة ما جاء في سورة الكهف حيث جاء الضمير مرة مجموعاً ومرة مفرداً كل ذلك مع فعل واحد هو (أراد) والآيات الثلاث في قصة واحدة، هي قصة الخضر مع موسى عليهما السلام، ففي قصة خرق السفينة جاء الضمير مسنداً للخضر: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾: ٧٩، وفي تفسير قصته مع الغلام جاء الجمع: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ﴾: ٨١، أما في قصة الجدار فجاء الإسناد لله عز وجل ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾: ٨٢.

(١) البرهان: ٣٢٤.

(٢) انظر: فتح الرحمن: ٣٧١.

(٣) انظر: دلائل الإعجاز: ٣١٧، والإيضاح: ٨١/٢، والبغية: ١٤٧/١.



يرى الكرمانى أن الظاهر فى الآية الأولى إفساد، فأسنده إلى نفسه ،  
والثانى إفساد من حيث القتل، وإنعام من حيث التبديل فأسنده إلى نفسه  
وإلى الله سبحانه، والثالث إنعام محض فأسنده إلى الله عزّ وجل. وجاء  
بتوجيه آخر للجمع فى الآية الثانية وهو أن القتل كان منه، وإزهاق الروح  
كان من أمر الله<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه ابن جماعة وزاد بأن هذا حسن أدب من الخضر مع الله  
تعالى<sup>(٢)</sup>، ونقل الأنصارى نص كلام الكرمانى، وذكر تخريجاً آخر للجمع،  
يرى أنه الأولى وهو: أنه لما ذكر القتل عبّر عن نفسه بلفظ الجمع، تنبيهاً  
على أنه من العظام فى علوم الحكمة، فلم يقدم على القتل إلا لحكمة  
عالية<sup>(٣)</sup>. وأصل هذا الرأى عند الفخر الرازى ونقله الأنصارى بنصه<sup>(٤)</sup>.

إذاً مردُّ الإفساد المحض، والإنعام المحض واضح، فلما ذكر العيب أضافه  
إلى إرادة نفسه، فقال: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين  
لأجل صلاح أبويهما أضافه إلى الله تعالى، لأن المتكفل بمصالح الأبناء لرعاية  
حق الآباء هو الله سبحانه وتعالى، وهذا متفق عليه، ولما ذكر قتل الغلام، والقتل  
من الأفعال العظيمة، والقتل فى ظاهره إفساد لكنه نعمة حين أخبر المولى  
سبحانه أن قتل الغلام جاء، لأن أبويه صالحان، وسيفسد عليهما صلاحهما،  
فجاء اللطف بإبداهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً، فلذلك جاء الفعل العظيم  
مسنداً إلى ضمير المعظم الدال على التفخيم فقال: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾،  
واكتفى الفخر الرازى بأن الجمع يدل على عظام الأمور ولم يوضح دلالة  
الجمع، كما وضحها الكرمانى.

وقبل أن أنتقل للحديث عن صيغ الجمع، أود أن أذكر مسألة تختلف

(١) انظر: البرهان: ٢٥٨.

(٢) انظر: كشف المعاني: ٢٤٣.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٢٤٩—٢٥٠.

(٤) انظر: التفسير الكبير: ١٣٨/٢١.

عن المسائل السابقة، ألا وهي الإفراد والجمع في الضمير المضاف إلى اسم الإشارة، فقد وقف علماء المتشابه اللفظي عند قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: ٢٣٢، فورد الضمير المضاف إلى اسم الإشارة مفرداً، بينما في سورة الطلاق ورد مجموعاً: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: ٢، فهل من اختلاف جوهري بينهما؟ ذكر الخطيب لهذه المسألة وجهين: الأول أن الكاف من (ذلك) لمجرد الخطاب، فيجوز التوحيد، كما يجوز أن يجرى على عدد من المخاطبين، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ البقرة: ٥٢، أما التوجيه الثاني فيرى أن كل موضع في القرآن الكريم أفردت فيه الكاف والخطاب لجماعة، فإنما قصد بالكاف المفردة مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم العدول عنها إلى مخاطبة أمته، فكذلك قوله: (ذلك يوعظ به)، تكون الكاف في (ذلك) لخطاب النبي ﷺ، والكاف في (منكم) خطاب لأمته<sup>(١)</sup>. واكتفى بذلك، ووافقه الكرمانى الذي اختصر توجيهه<sup>(٢)</sup>.

أما ابن جماعة فوافق الشيخين في التعليل الثاني وزاد أن الإفراد فيه تشریف للنبي ﷺ، ثم عمم بـ ﴿ذَلِكَ أَرْكَى لَكُمْ﴾، والجمع خطاب له ولأمته، وقدم تشریفه في أول الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾<sup>(٣)</sup>.

أما ابن الزبير فقد وافق الخطيب الإسكافي، وكان أكثر تفصيلاً للمسألة، إذ تناول السياق المتقدم للآيتين، فأوضح أن آية البقرة جاءت بعد تعنيف المضرين بالزوجات، واحتياهم على أخذ أموالهن بغير حق ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾: ٢٢٩، ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾، وقد بالغت الآية في زجرهم حين قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾: ٢٣١،

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٨—٢٩.

(٢) انظر: البرهان: ١٤٠.

(٣) انظر: كشف المعاني: ١١٤.

وهذا فيه تعنيف شديد للمضربين بهنّ، ثم نهى سبحانه عن عضل النساء، فعضلها ظلم لها، ولهذا جاءت الآية بالإفراد، والخطاب وإن عم، فإن الممثلين والمستجيبين لذلك قلة، ولذلك قال سبحانه ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾، وفي هذا إشعار بالتبعض.

أما آية الطلاق فالذي قبلها وبعدها أحكام متعلقة بالطلاق، وهي تقتضي العموم، فالخطاب للجميع، ولذلك جاء قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ﴾، ولم يقل: منكم. يقول: "فحصل من مجموع هذا أن المنهي المتوعد عليه في سورة البقرة أبلغ من<sup>(١)</sup> التعدي، وأسوأ في المرتكب من الواقع عليه الزجر في آية الطلاق، ومن المعلوم أن المطلب إذا اعتاص كانت السلامة فيه أعز، وسالك طريق النجاة فيه أقل.

والخطاب وإن عم فأولى المخاطبين بأهليته، والذين هم كأنهم هم المعنيون به على الخصوص، إنما هم الممثلون، وكأن غير الممثل غير داخل تحت الخطاب، فعلى رعي هذا ورد أفراد الخطاب في البقرة فقل: (ذلك) بحرف الخطاب الذي للواحد إشارة لتقليل المستجيبين المتورعين عن الطمع في أموال الزوجات والإضرار بهن عضلاً أو احتيلاً على ما لديهن، وعلى هذا الرعي ورد في هذه الآية (منكم)، يشعر أن المستجيبين ليسوا الكل بما يعطيه مفهوم (منكم). ولما كان الوارد في سورة الطلاق أخف في المطلب وأيسر في التكليف... ناسب ذلك ورود الخطاب بالحرف الذي يخاطب به الجميع، ويشملهم فقل: (ذلكم)، وقيل: (من كان يؤمن) ولم يرد هنا: من كان منكم، لم يرد هنا إشعار بتبعض وهو الذي يعطيه المفهوم...<sup>(٢)</sup>.

ولهذا نرى الآيات التي تقدمت آية البقرة من لدن قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ...﴾: ٢٢٢، إلى أحكام

(١) كذا في ملاك التأويل، والأنسب: «في».

(٢) ملاك التأويل: ٢٧٠/١ - ٢٧١ (بتصرف).



الرضاعة في قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ...﴾: ٢٣٣، كلها آيات تزخر بالأوامر والنواهي.

وقد ذكر الفخر الرازي أن الأفراد والجمع للكاف جائز في اللغة، والقرآن نزل باللغتين جميعاً، ولم يعلل سبب ورود الجمع هنا، والأفراد هناك<sup>(١)</sup>، وهذا توجيه الإسكافي الأول.

أما أبو حيان فقد وافق الخطيب الإسكافي في التوجيهين، واختصر التعليل<sup>(٢)</sup>.

## الاختلاف في صيغ الجمع:

بعد أن تحدثت عن الأفراد والجمع في الأسماء الظاهرة والضمائر، بقي أن أذكر ما أورده علماء المتشابه اللفظي من آيات مختلفة في صيغة الجمع، فتارة يكون الجمع جمع تصحيح، وفي آية أخرى جمع تكسير وهكذا... وقد بينوا الأسرار والفوائد المترتبة على هذا الفرق بين الآيات، وقد جاء الاختلاف بين صيغ الجمع في كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع، وسأقف مع كل موضع لأرى ماذا قال علماؤنا رحمهم الله؟.

وأول الآيات التي وقفوا عندها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: ٥٨، وفي الأعراف: ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾: ١٦١.

وقد أوضح الإسكافي أن السر في استعمال جمع الكثرة في آية البقرة، أن صدر الآية جاء بإخبار الله عن نفسه، وهذا تعظيم فناسبه ذلك، يقول: "أما الكلام في (الخطايا) واختيارها في سورة البقرة، فلأنها موضوع للجمع الأكثر، والخطيئات جمع سلامة، وهي الأقل... فاستعمل لفظ الكثير في الموضع الذي جعل الإخبار فيه عن نفسه بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا﴾، وشرط لمن قام بهذه الطاعة ما يشرطه الكريم إذا وعد من مغفرة الخطايا كلها... فأتى

(١) انظر: التفسير الكبير: ٩٨/٦.

(٢) انظر: البحر المحيط: ٢١٠/٢-٢١١.

باللفظ الموضوع للشمول فيصير كالتوكيد بالعموم... ولما لم يسند الفعل في سورة الأعراف إلى نفسه عز اسمه، وإنما قال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا﴾، فلم يسم الفاعل، أتى بلفظ الخطيئات، وإن كان المراد بها الكثرة كالمراد بالخطايا، إلا أنه أتى في الأول لما ذكر الفاعل بما هو لائق..<sup>(١)</sup>، ووافقه الكرمانى موجزاً كلامه.<sup>(٢)</sup> كما وافقهما الفخر الرازي<sup>(٣)</sup>.

أما ابن الزبير فقد خالف الإسكافي في توجيهه للجمع، فذكر أن الجمع ورد في البقرة مكسراً ليناسب ما بنيت عليه آيات البقرة من تعداد النعم والآلاء على بني إسرائيل، لأن جموع التكسير ترد في الغالب للكثرة، فطابق ما ورد في البقرة من قصد تكثير الآلاء والنعم.

وأما الجمع بالألف والتاء فبابه القلة في الغالب ما لم يقترن به ما يبين أن المراد به الكثرة، فناسب ما ورد في الأعراف إذ لم تبنيها من قصد تعداد النعم<sup>(٤)</sup>.

وقد وافقه ابن جماعة الذي اختصر توجيهه<sup>(٥)</sup>.

ويرى الألوسي أن الاختلاف إنما هو من باب التفنن في التعبير، الذي هو من دأب البلغاء، وفيه دلالة على رفعة شأن المتكلم<sup>(٦)</sup>.

وقد أوضح الدكتور الخضري أن تكثير الخطايا في سورة البقرة راجع إلى كثرة ما حكاه الله تعالى قبل الآية من جرائم بني إسرائيل، أما الأعراف فقد توارت فيها هذه الخطايا وسط ظلال نعم الله على بني إسرائيل<sup>(٧)</sup>.

(١) درة التنزيل: ٨.

(٢) انظر: البرهان: ١٢٣—١٢٤.

(٣) انظر: التفسير الكبير: ٨٦/٣.

(٤) انظر: ملك التأويل: ٢٠٧/١.

(٥) انظر: كشف المعاني: ٩٧.

(٦) انظر: روح المعاني: ٢٦٩/١.

(٧) انظر: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ للدكتور محمد الأمين الخضري: ١٤٣.

ومن المتشابه في مسألة صيغ الجمع، الحديث عن لفظ (النبين) و(الأنبياء)، فقد ورد في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: ٦١، وفي آل عمران: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: ١١٢. فجاءت الأولى بصيغة جمع السلامة، بينما جاءت الثانية بغير صيغة جمع التصحيح.

أجاب الكرمانى عن ذلك إجابة مقتضبة لآية البقرة فذكر أن جمع النبيين جمع سلامة في آية البقرة لموافقة ما بعده من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّاتِ﴾ آية: ٦٢<sup>(١)</sup>، واكتفى بذلك، ومثل هذا التوجيه يكاد يكون أصلاً عند الكرمانى حيث يعول كثيراً على التلاؤم في بناء الألفاظ وتوافقها في السياق. وقد وافقه الفيروزابادي الذي نقل توجيهه<sup>(٢)</sup>.

أما ابن الزبير الغرناطي فيرى أن جمع التكسير يشمل أولي العلم وغيرهم، أما جمع السلامة فيختص في أصل الوضع بأولي العلم، وإذا تقرر هذا فورود جمع السلامة في سورة البقرة مناسب من جهتين: إحداهما: شرف الجمع لشرف المجموع، والثانية: مناسبة زيادة المد لزيادة أداة التعريف في لفظ الحق..

ولما لم يكن في الآية الثانية سوى شرف المجموع، وكانت العرب تتسع في جموع التكسير فتوقعها على أولي العلم وغيرهم، أتى بالجمع هنا مكسراً لتحصل اللغتان حتى لا يبقى لمن تُحدي بالقرآن حجة إذ هم مخاطبون بما في لغاتهم<sup>(٣)</sup>.

ويرى أبو حيان أنه لا فرق في الدلالة بين النبيين والأنبياء، لأن الجمعين إذا دخلت عليهما (أل) تساويا، بخلاف حالهما إذا كانا نكرتين، لأن جمع

(١) انظر: البرهان: ١٢٦.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ١/١٤٤.

(٣) ملاك التأويل: ١/٢١٧—٢١٨ بتصرف.



السلامة إذ ذاك ظاهر في القلة، وجمع التكسير على (أفعلاء) ظاهر في الكثرة. وأوضح أن نافعاً قرأ بالهمز (النبئين) وحده ، أما غيره فقرأ بالتسهيل<sup>(١)</sup>. ووافقه الألوسي<sup>(٢)</sup>.

وفي إشارته الأخيرة ردُّ على ابن الزبير حين قال: ”مناسبة زيادة المد لزيادة أداة التعريف في لفظ الحق“، لأن التعليل يعتمد على قراءة نافع التي تمد اللفظ مدّاً متصلاً نظراً لإثبات الهمز، فإذا جاءت قراءة أخرى غير قراءة نافع اختفى المد، وبه يختفي التعليل، وعلى هذا فإن التوجيهات متقاربة، وإن كان أقربها ما ذكره الكرمانى، فقد أكد تعليله بآية مشابهة وهي ما ورد في سورة آل عمران ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: ٢١، فلفظ (النبين) جُمع جمع سلامة لموافقة ما بعده، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾: ٢٢، وفي الآية التي تليها ﴿... ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَمَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾: ٢٣، فوافق اللفظ قوله: (الذين) و(ناصرين) و(معرضون).

ومن نافلة القول أن لفظ (النبين) لم يقع في القرآن الكريم بعد فعل القتل إلا في آيتي البقرة: (٦١)، وآل عمران (٢١)، بينما وقع لفظ (الأنبياء) بعد فعل القتل في ثلاثة مواضع: موضعين في آل عمران (١١٢، ١٨١)، وموضع في النساء (١٥٥).

ومما يلحق بهذا الباب، وبه أختتم هذا الفصل الفرق بين (فواكه) و(فاكهة) حيث ورد التشابه بين آيتين إحداهما في سورة المؤمنين يقول الله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: ١٩، وفي سورة الزحرف: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ...﴾: ٧٣.

وقد انفرد بتعليل ذلك الكرمانى وكان توجيهه حول المناسبة اللفظية،

(١) انظر: البحر المحيط: ٢٣٧/١.

(٢) انظر: روح المعاني: ٢٧٧/١.

حيث نظر لسياق الآيتين فقال: "راعى في السورتين لفظ الجنة، وكانت في هذه السورة (أي: سورة المؤمنون) جنات بالجمع، فقال: (فواكه) بالجمع، وفي الزخرف ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ بلفظ الواحدة، وإن كانت هذه جنة الخلد، لكن راعى اللفظ فقال: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾"<sup>(١)</sup>. ووافقه الأنصاري الذي نقل نص كلامه<sup>(٢)</sup>.

---

(١) البرهان: ٢٧٥.

(٢) انظر: فتح الرحمن: ٢٨١.

## الفصل الثالث

الاختلاف بين الآيات المتشابهة  
في التذكير والتأنيث





## الفصل الثالث

### الاختلاف بين الآيات المتشابهة في التذكير والتأنيث

تناول علماء اللغة موضوع التذكير والتأنيث، وبينوا أسرارَه وأغراضه في منظوم كلام العرب ومنثوره، وجهدهم في ذلك مدوّن في علم اللغة والنحو<sup>(١)</sup>. أما ميدان بحثي في هذا الفصل فهو بسط ما ذكره علماء المتشابه اللفظي في القرآن الكريم من تذكير اللفظة القرآنية وتأنيثها في الآيات المتشابهة، فالسياق القرآني يختار تذكير اللفظة في آية، مع أنه من الممكن وضع لفظة مؤنثة مكان المذكّر، وكذلك العكس، وعلى هذا يجتهد علماء المتشابه في بيان أسرار هذا الاختلاف.

وقد قلّت الآيات المتشابهة في هذا الموضوع، ولم يتعرض له علماء البلاغة إلا في جزء يسير من حديثهم عن صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر<sup>(٢)</sup>.

وقد اجتهد علماء المتشابه رحمهم الله في هذا الصدد، وأبرزوا لنا صورة حسنة من عنايتهم بالمفردة القرآنية من حيث التذكير والتأنيث، ولا سيما أن

---

(١) انظر: التذكير والتأنيث في اللغة لرمضان عبد التواب، ومعه رسالة أبي موسى الحامض في التذكير والتأنيث. وانظر: تدميث التذكير والتأنيث في التأنيث والتذكير لإبراهيم الجعبري، وانظر: الجمل في النحو للزجاجي: ٢٩٠—٢٩٦، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام: ٢٨٦/٤ وما بعدها.

(٢) انظر: الإيضاح: ٨٢/٢، وخصائص التراكيب للدكتور أبو موسى: ١٨٧—١٩٣، وأساليب بلاغية لأحمد مطلوب: ٢٤٨.

عناية البلاغيين لا تكاد تذكر.

وستكون الطريقة في بسط الآيات والأقوال مشابهة للفصل السابق،  
فأتحدث أولاً عن التذكير والتأنيث في الأسماء الظاهرة، ثم في الضمائر، بعد  
ذلك أتحدث عن الأفعال المسندة إلى ضمير المذكر والمؤنث.

## التذكير والتأنيث في الأسماء الظاهرة:

أقصد بالأسماء ما ورد من المتشابه في التذكير والتأنيث في الأسماء الظاهرة،  
أو الاسم الموصول أو اسم الإشارة، وسأتحدث عن ثلاث آيات متشابهات  
في هذه المسألة، وهي تمثل ما جاء من المتشابه في هذا الخصوص، فلم يرد في  
القرآن الكريم من المتشابه في هذه المسألة إلا في هذه المواضع الثلاثة.

الموضع الأول ما أشار إليه ابن الزبير الغرناطي وابن جماعة حيث ورد في  
سورة النساء قول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ  
غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ﴾: ٢٥، فجاء الوصفان بالتأنيث، بينما في سورة المائدة ورد  
الوصفان بالتذكير: ﴿إِذَا عَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ﴾: ٥، فما سر  
الاختلاف؟

يرى ابن الزبير الغرناطي أنه لا إشكال في الآيتين، لأن مصرف الوصف في  
آية النساء للإماء المتزوجات عند عدم الطول، أما في المائدة فمصرف الوصف  
للمتزوجين من الرجال<sup>(١)</sup>. وهو أمر واضح، ولذلك جاء في الآية التي قبل آية  
النساء ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ﴾: ٢٤، فجاء  
الوصف بالتذكير، لأن مصرفه للرجال، ولم يرد في القرآن الكريم من المتشابه  
في هذه المسألة إلا في هذه المواضع الثلاثة.

أما ابن جماعة فقد وافق ابن الزبير، وزاد في توضيحه أن آية النساء في  
نكاح الإماء، وكان كثير منهن مسافحات، فناسب جمع المؤنث بالإحصان،

(١) انظر: ملاك التأويل: ٣٤١/١.



وآية المائدة فيمن يحل للرجال من النساء فناسب وصف الرجال بالإحصان<sup>(١)</sup>.  
الموضع الآخر قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾: ٩٠،  
فأنت قوله: (ذكرى)، بينما في سورة يوسف آية (١٠٤) والتكوير آية (٢٧)  
ذكر اللفظ: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

يرى الكرمانى أن اللفظ في الأنعام جاء مؤثراً، لأنه تقدم الآية قوله:  
﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: ٦٨، وقوله: ﴿وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَّعَلَّهُمْ  
يَتَّقُونَ﴾: ٦٩، فكان لفظ (ذكرى) أليق بها<sup>(٢)</sup>، واكتفى بذلك، ولم يعلل  
سبب التذكير في آية يوسف التي ذكرها في مقابل آية الأنعام.

وإشارة الكرمانى في هذا الموضع تتكرر كثيراً، وهي تدلنا على المذهب  
الذي سار عليه في توجيه الآيات المتشابهة، وهو ملاحظة السياق الأسلوبى،  
فجل توجيهاته تقوم على ذلك، وهذا في الحقيقة باب جليل ومذهب نفيس  
في دراسة كلام المولى عز وجل، وهذا المذهب يمكن أن ينقل إلى دراسة  
الأدب، وتحليل النصوص، فينظر في السياق الأسلوبى للنص، أو الوحدة  
الأسلوبية، ومدى ملائمة العناصر بعضها لبعض. ووافقه ابن جماعة الذي  
نقل نص كلامه<sup>(٣)</sup>، وتابعهما الأنصارى<sup>(٤)</sup>.

وكأنى بالكرمانى في ضوء تعليله يرى أن التذكير هو الأصل، وبه  
وردت آية سورة يوسف فلم تحتج إلى تعليل، ولم يتقدمها ما يجعلها تحمل  
على التأنيث كما في آية الأنعام، ومن الملاحظ أيضاً على تعليل الكرمانى  
لآية الأنعام، أن بين الآية التي ورد فيها لفظ (الذكرى) وبين ما تقدمها من  
الآيات أكثر من عشرين آية، وهذا يؤكد ما ذهب إليه في ملاحظة البناء  
الأسلوبى، والنظر في سياق النص، دون الأخذ بمسألة بعد النص أو قربيه. إذاً

(١) انظر: كشف المعاني: ١٣٧.

(٢) انظر: البرهان: ١٧٢.

(٣) انظر: كشف المعاني: ١٦٣.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ١٢٤.

وجود العلة المقتضية للتأنيث كان سبباً في بيان التذكير في الآية الأخرى، فلم يتقدم الذكر في سورة يوسف ما يستوجب التأنيث.

وقد جاء توجيه ابن الزبير الغرناطي مختلفاً عن الآخرين، فقد تحدث عن آية سورة التكوير، وجعلها في مقابل آية الأنعام، فيرى "أن آية التكوير لما تقدمها القسم على القرآن بقوله: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْخَنَسِ﴾: ١٥، إلى ما وقع القسم به، ثم ورد ضمير المقسم عليه في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: ١٩، أي أن القرآن لقول رسول كريم، والمراد به جبريل عليه السلام، ثم أتبع بوصفه إلى قوله: ﴿ثُمَّ آمِينَ﴾: ٢١، ثم قيل ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾... ثم أعقب بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: وما القرآن ﴿يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾: ٢٥، فجرت هذه الضمائر على التذكير على ما يجب... ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، والضمير للقرآن، ولا يمكن وروده على خلاف هذا لمنافرة التناسب ومباعدة التلاؤم.

وأما آية الأنعام فتقدمها قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾: ٨٩، فنوسب بين قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾، وبين ما تقدم، فكأن التقدير: إن هو أي الأمر أو المراد المقصود، أو ما ذكر من الكتاب والحكم والنبوة إلا ذكرى، فناسبه (ذكرى) هنا لما تقدم بيانه، ولم يتقدم هنا ما يستدعي لفظ التذكير ويناسبه، فجاء كل على ما يجب<sup>(١)</sup>.

وتوجيه ابن الزبير توجيه حسن، ولا سيما وقفاته عند الآيات التي تقدمت آية التكوير، حتى إنه يرى أنه لا يمكن وروده على خلاف هذا لمنافرة التناسب، ومباعدة التلاؤم، وهذا التوجيه مع ما فيه من تفصيل طيب، إلا أنه من باب كلام الكرمانى؛ لأنه راجع إلى الملاءمة الأسلوبية وتوافق الجزئيات الواردة في النص، والله تعالى أعلم.

أما الموضع الثالث فهو وقفة علماء المتشابه عند قوله تعالى في سورة

(١) ملاك التأويل: ٤٥٨/١ — ٤٦٠.

السجدة: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾: ٢٠، فورد الضمير المتصل (به) والاسم الموصول بالتذكير، بينما في سورة سبأ وردا بالتأنيث يقول تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾: ٤٢.

يعلل الخطيب الإسكافي أن سبب الاختلاف بين الآيتين هو أن لفظ (النار) في آية السجدة اسم ظاهر وقع موقع الضمير، والضمير لا يوصف فوصف العذاب، فحسن التذكير يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾: ٢٠. أما في آية سورة سبأ فإنه لم يتقدم ذكر النار في الآية، فحسن وصف النار، فجاءت الآية بالتأنيث، يقول تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾: ٤٢.

يقول الخطيب الإسكافي "إن (النار) في قوله في سورة السجدة ظاهر موضع المضمرة، لتقدم ذكره في قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ فأضمرت ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ ثم أظهرت ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾، أي عذابها، فوقعت مظهرة مكان المضمرة... فلما كان الضمير لا يوصف، بعد عن الوصف ما حل محله، لأنه سد مسدده، فوصف ما أضيف إليه وهو العذاب فجاء ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾: "...".

أما آية سبأ "فلم تجئ هذا المجيء، لأنها في مكانها مظهرة... ولما لم يتقدمها ما منزلته منزلة الضمير، صحّ فصّح الوصف له، فأجري عليه وجاء: ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، ألا ترى أن أوله ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ...﴾" (١).

وقد وافقه الكرمانى الذي اختصر توجيهه (٢)، كما تابعهما الأنصارى (٣).

(١) درة التنزيل: ٢١٢.

(٢) انظر: البرهان: ٣٠٤.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٣٣٦.



أما ابن الزبير الغرناطي فيرى "أن آية السجدة اقترن بها ما يستدعي أن يناسب، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾: ٢١، فلما تفصل ذكر العذاب إعلاماً بإلحاق ضريبة الأدنى والأكبر بمن جرى الوعيد لهم، والعذاب مذكر، وقد تكرر، فتأكد رعيه، فناسبه عودة الضمير قبله إلى العذاب المضاف إلى النار مذكراً ليجري ذلك كله مجرى واحداً. ولما لم يكن يتلو آية سورة سبأ ولا قبلها ما يستدعي ذلك، أعيد الضمير إلى النار مؤثلاً.."<sup>(١)</sup>.

فابن الزبير رحمه الله تأمل الآيات المتقدمة لآية السجدة ولاحظ أن هناك عناية بالعذاب وتفصيله إلى أكبر وأدنى، وهذا هو معقد الكلام، فعاد الضمير عليه، وقد تكرر اللفظ تأكيداً له، وعناية بشأنه، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾، فناسب عود الضمير في الآية إلى العذاب المضاف إلى النار فقال فيها: ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ﴾، أما التأنيث فمرجعه لفظ (النار)، وهو توجيه حسن، مبني على تأمل دقيق لسياق الآيتين. ولنا أن نتساءل: كيف استدل بالآية التي ورد فيها ذكر العذاب مرتين، وهي متأخرة عن الآية التي عليها مدار الحديث، ومن المعلوم أن الضمير لا يعود على متأخر وإنما على متقدم؟

ولكن حين نتأمل حديثه السابق في توجيه الآية نجد الجواب، فالضمير لم يعد إلى ذلك، وإنما عاد على ما تقدمه كما هو مقرر في اللغة وهو قوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾، وابن الزبير الغرناطي إنما ذكر ذلك قصداً لتقوية عود الضمير إلى لفظ «العذاب» في الآية نفسها، ولهذا عبّر بقوله: «اقترن بها» ولم يقل: «تقدمها»، كما أن في حديثه دلالة على ملاحظة السياق، وبناء الأسلوب، التي نلاحظها عند الكرمانى<sup>(٢)</sup>.

(١) ملاك التأويل: ٩٤٥/٢—٩٤٦.

(٢) انظر: البلاغة القرآنية في ملاك التأويل: ١٠٣—١٠٤.

ويرى ابن عاشور أن التكذيب في آية سبأ عُلّق بنفس النار فجيء باسم الموصول المناسب لها، ولم يعلق بالعذاب كما في سورة السجدة، لأن القول المخبر عنه هو قول الله تعالى وحكمه، وقد أذن بهم إلى جهنم وشاهدوها، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾: ٣٣. وأما القول المحكي في سورة السجدة فهو قول ملائكة العذاب بدليل قوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾: (١).

## التذكير والتأنيث في الضمائر:

الحديث عن التذكير والتأنيث في الضمائر في الآيات المتشابهة يُعد أبرز موضوعات هذا الفصل وأكثرها من حيث عدد الآيات المتشابهة، وسنتحدث بإذن الله تعالى عن خمس مسائل ورد فيها تشابه لفظي، وهي تمثل كل ما جاء في كتاب الله تعالى من التشابه في مسألة تذكير الضمائر وتأنيثها.

وأول ما نطالع من آيات متشابهة ورد فيها تذكير الضمير قوله في آل عمران: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: ٤٩، فجاء الضمير المجرور في قوله: (فيه) مذكراً، وفي المائدة ورد الضمير مؤنثاً يقول تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾: ١١٠.

وقد تساءل الإسكافي رحمه الله عن سر عود الضمير على مذكر في الأولى، وعلى مؤنث في الأخرى، أي عن وجه التخصيص في الآيتين؟

ويقوم توجيهه على أن مقام التذكير في آية آل عمران يناسب مقام ذكر الآيات، وأول ما يَصُور من الطين كهية الطير، وهو واحد، فيلزم به الحجة عليهم، أما آية المائدة، فناسب التأنيث ذكر النعم وتعددتها، وهذا جمع، والتأنيث به أولى.

يقول رحمه الله: "...إن الأول الذي ذكر الضمير فيه إنما هو في

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٢٢٠/٢٢.

إخبار الله عز وجلّ به عن عيسى عليه السلام، وقوله لبني إسرائيل: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وعدد الآيات كلها عليهم، منها: أني آخذ من الطين ما أصور منه صورة على هيئة الطير في تركيبه، فأنفخ فيه فينقلب حيواناً لحمياً، قد ركب فيه عظم وخالط دماً واكتسى ريشاً وجناحاً كالطائر الحي، والقصد في هذا المكان إلى ذكر ما تقوم به حجته عليهم، وذا أول ما يصور من الطين على هيئة الطير، ويكون واحداً يلزم به الحجة، فالتذكير أولى به.

والتي في سورة المائدة المخصوصة بتأنيث الضمير العائد إلى ما يلحقه، هي في ذكر ما عدّد الله من النعم على عيسى عليه السلام، وما أصبح به إياه من المعجزات، وما أظهر على يده من الآيات، وابتدأوها: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرٌ نِّعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾: ١١٠، والإشارة في هذه الآية ليست إلى أول ما يديه لبني إسرائيل من ذلك محتجاً به عليهم، وإنما هي إلى جميع ما أذن الله تعالى في كونه دلالة على صدقه من قلب الصور التي يصورها من الطين على هيئة الطير، وذلك جمع والتأنيث به أولى<sup>(١)</sup>.

وقد اطلع الكرمانى على توجيه الإسكافي، وقام باختصاره فقال: ”الجواب أن يقال: في هذه السورة — آل عمران — إخبار قبل الفعل فوحّده. وفي المائدة خطاب من الله له يوم القيامة، وقد سبق من عيسى — عليه السلام — ذلك الفعل ثلاث مرات، والطير صالح للواحد وصالح للجمع“<sup>(٢)</sup>. وقد وافقه ابن جماعة، ونقل نص كلامه<sup>(٣)</sup>. ووافقهما الأنصاري الذي زاد أن الاختلاف من باب التفنن في الكلام على عادة العرب في كلامهم<sup>(٤)</sup>.

أما ابن الزبير الغرناطي فقد أشار في بداية حديثه إلى مسألة أن عودة

(١) درة التنزيل: ٣٤—٣٥.

(٢) البرهان: ١٤٥.

(٣) انظر: كشف المعاني: ١٢٩.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ٦٧.



الضمير على اللفظ وما يرجع إليه أولى، وأن عودته على المعنى ثان عن ذلك،  
وبين أن كلا الرعين عال فصيح، فعاد في آية آل عمران على الكاف  
— في (كهية) —، لأنها تعاقب (مثل) — أي تحل محله —، وهو مذكّر فهذا  
لحظ لفظي. ثم عاد في آية المائدة إلى الكاف من حيث هي في المعنى  
صفة، لأن المثل صفة في التقدير المعنوي فحصل مراعاة اللفظ أولاً، ومراعاة  
المعنى ثانياً، على ما يجب، وقال موضحاً كلامه: ”كما ورد في قوله تعالى:  
﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الأحزاب: ٣١، بعودة الضمير من (يقنت) مذكراً  
رعياً للفظ (من)، ثم قال ﴿وَتَعْمَلْ﴾ بالتاء رعياً للمعنى وهو كثير“<sup>(١)</sup>.

وقد نقل ابن الزبير هذه الإشارة من الزمخشري وعزاها إليه، يقول  
الزمخشري عن ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾: ”الضمير للكاف، أي في ذلك الشيء المماثل  
لهيئة الطير“. وعن ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ يقول: ”الضمير للكاف لأنها صفة الهيئة  
التي كان يخلقها عيسى عليه السلام وينفخ فيها، ولا يرجع إلى الهيئة  
المضاف إليها؛ لأنها ليست من خلقه، ولا من نفخه في شيء وكذلك الضمير  
في فتكون“<sup>(٢)</sup>.

كما نقل توجيه جار الله الزمخشري كل من: الفخر الرازي في التفسير  
الكبير<sup>(٣)</sup>، وأبي حيان<sup>(٤)</sup>، والألوسي<sup>(٥)</sup>، وابن عاشور<sup>(٦)</sup>.  
أما عن وجه التخصيص في الآيتين، وهو ما لم يتحدث عنه الزمخشري،  
فقد نظر ابن الزبير إلى السياق المتقدم، وإلى بناء الأسلوب، وهو منهج  
الكرماني الذي سبق أن أشرت إليه، يقول ابن الزبير: ”..وجواب ثان:

(١) ملاك التأويل: ٣٠٢/١.

(٢) الكشف: ٤٣١/١، ٦٥٣.

(٣) انظر: التفسير الكبير: ١٠٥/١٢.

(٤) انظر: البحر المحيط: ٤٦٦/٢، ٥١/٤—٥٢.

(٥) انظر: روح المعاني: ١٦١/٢.

(٦) انظر: التحرير والتنوير: ١٠٢/٧.

وهو أنه قد ورد قبل ضمير آية آل عمران من لادن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ﴾: ٤٤، إلى قوله: ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ نحو من عشرين ضميراً من ضمائر المذكر، فورد الضمير في قوله: (فأنفخ فيه) ضمير مذكر ليناسب ما تقدمه ويشاكل الأكثر الوارد قبله.

أما آية العقود فمفتحة بقوله تعالى: ﴿أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾.. فناسب ذلك تأنيث الضمير، ولم تكثر الضمائر هنا ككثرها هناك...“<sup>(١)</sup>.

ومن الآيات المتشابهة قوله تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾: ٨٢، فجاء الضمير المجرور بعلى في ﴿عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ مؤنثاً، بينما في سورة الحجر ورد مذكراً مجموعاً: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾: ٧٤، فما وجه اختلاف الضمير مع اتحاد المقصود؟

يعلل الكرمانى سر تذكير الضمير في آية الحجر بأنه عائد على أول قصة أصحاب الحجر وهو قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾: ٥٨، فذكر قوم لوط موصوفين بالإجرام الموجب لهلاكهم، وردّ قول بعض المفسرين، ومنهم ابن كثير الذي ذكر أن الضمير يعود على أهل القرية، وكذلك ما رواه ابن كثير عن السّدي أن الضمير يعود على من شذّ من أهل القرية<sup>(٢)</sup>، واكتفى بذلك دون أن يوجه آية هود. يقول: ”..قال بعض المفسرين: (عليهم) أي على أهلها، وقال بعضهم على من شذ من القرية منهم، قلت: وليس في القولين ما يوجب تخصيص هذه السورة بقوله (عليهم)، بل هو يعود على أول القصة وهو ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾، ثم قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾: ٧٤“<sup>(٣)</sup>.

(١) ملاك التأويل: ٣٠٣/١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤٣٦/٢.

(٣) البرهان: ٢٤٠.

أما ابن الزبير فقد ذكر أن كلا الموضعين مراعى فيه مناسبة ما تقدمه ثم ذكر تخريج الكرماني لآية الحجر، وزاد بقوله: ”..ونظير هذا قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَجَرٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ لَمْ نَرْسِلْ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ﴾: ٣٣، فقليل (عليهم) لما تقدم قوله: ﴿إِلَى قَوْمٍ مَّجْرَمِينَ﴾، وأما آية هود فلم يتقدم فيها مثل هذا فاكتفى بضمير القرية قليل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾، وأغنى ذلك عن ذكر المهلكين إذ هم المقصودون بالعذاب فورد كل على ما يناسب“<sup>(١)</sup>.

ومما يندرج تحت موضوع التذكير والتأنيث في الضمائر، الحديث عن الاختلاف بين قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾: ٦٦، فقال: (بطونه) بالتذكير، ولم يقل: (بطونها) بالتأنيث، كما ورد في سورة المؤمنون: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾: ٢١. يرى الإسكافي أن التذكير في آية النحل عائد إلى معنى الآية، أما آية المؤمنون فإن التأنيث راجع إلى اللفظ، فقد أوضح أن الضمير في آية النحل يعود إلى البعض وهو الإناث، ولذلك خصت الآية باللبن، وهو في الإناث خاصة، يقول تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾: ٦٦، فاللبن لا يكون لكل الأنعام، فهو مقتصر على البعض، فيكون التقدير: وإن لكم في بعض الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه، إذاً فالتذكير مناسب لهذا المعنى. أما في سورة المؤمنون فإن السياق يختلف يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: ٢١، وعليها وعلى الفلك تحمّلون: ٢٢، فقد جاء بعد الضمير المؤنث ﴿بُطُونِهَا﴾ جمل عطفت على ما تقدم، فلما عطف عليه ما يعود على الكل ولا يقتصر على البعض أنث حملاً على الأنعام، ولذلك قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ..﴾، وهذا عام للجميع. يقول رحمه الله: ”إن الأنعام في سورة النحل، وإن أطلق لفظ جميعها، فإن المراد به بعضها، ألا ترى أن الدر لا يكون لجميعها،

(١) ملاك التأويل: ٢/٦٦٦-٦٦٧.



وأن اللبن لبعض إناثها، فكأنه قال: وإن لكم في بعض الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها... وليس كذلك ذكرها في سورة المؤمنون، لأنه قال: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢﴾ فأخبر عن النعم التي في أصناف النعم إناثها وذكرها فلم يحتمل أن يراد بها البعض (١).

وقد نقل الكرمانى توجيه الخطيب الإسكافى لكنه اختصره (٢)، وتابعه ابن جماعة (٣)، وهو توجيه جيد.

أما ابن الزبير فقد نحى منحى آخر في توجيه الآيتين فيقول: "قوله: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ بإفراد الضمير وتذكيره مراد به الجنس. وقد حكى سيبويه رحمه الله أن من العرب من يقول: هو الأنعام، وعليه حمل آية الأنعام في تذكير الضمير (٤). وورد في سورة المؤمنين على التأنيث والجمع لما بني على ذلك من قوله: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٥) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٦﴾: ٢١—٢٢، فنوسب بضمير الأنعام ما أتبع به من الضمائر في قوله: (فيها، ومنها، وعليها) فورد بصورة التأنيث والجمع (٥).

وابن الزبير يقصد من قوله: (وعليه حمل آية الأنعام)، الآية التي في سورة النحل، فهي تسمى بسورة (النعم)، أو (الأنعام الصغرى) (٦).

وقد سبق الكرمانى ابن الزبير في ذكر توجيه سيبويه وقال عنه إنه "حسن، إلا أن الكلام وقع في التخصيص، والوجه ما ذكرت" (٧)، فقدّم

(١) درة التنزيل: ١٤٩—١٥٠.

(٢) انظر: البرهان: ٢٤٦—٢٤٧.

(٣) انظر: كشف المعاني: ٢٢٩.

(٤) انظر: الكتاب لسيبويه: ٢٣٠/٣.

(٥) ملاك التأويل: ٧٤٨/٢.

(٦) انظر: فتح القدير للإمام الشوكاني: ١٤٦/٣.

(٧) البرهان: ٢٤٧.

رأي الإسكافي عليه.

هذا وقد ذكر الزمخشري رأي سيبويه المتقدم، وأوضح أن لفظ (أنعام) اسم مفرد، فيعود الضمير إليه مفرداً بالتذكير، ويعود إلى معناه بالتأنيث<sup>(١)</sup>. ونقل كلامه الأنصاري، وأوضح أنه اعتمد على كلام سيبويه<sup>(٢)</sup>. ووافق كثير من المفسرين الزمخشري كالرازي<sup>(٣)</sup>، وأبي حيان<sup>(٤)</sup>، والألوسي<sup>(٥)</sup>.

والحق أنه يمكن أن نستأنس بالقولين جميعاً، فما ذكره الإسكافي مقبول، وما ذكره ابن الزبير عن تجانس الضمائر في آية سورة المؤمنين مقبول أيضاً، ولا تراحم بين الأسرار البلاغية مهما تعددت.

ومن الآيات التي تحدث عنها علماء المتشابه اللفظي، قوله تعالى في قصة مريم عليها السلام في سورة الأنبياء: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾: ٩١، فجاء الضمير المجرور بفي مؤنثاً، وورد في سورة التحريم بالتذكير: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾: ١٢.

يرى الخطيب الإسكافي أن آية سورة التحريم جاءت على الأصل لعدم قصد التعجب، فالمقصود ذكر إحصائها وتصديقها بكلمات ربها، وكان النفخ قد أصابها فخصت بالتذكير. أما آية سورة الأنبياء فالفرد هو التعجب من حالها، وما آل إليه أمرها حتى حصل منها ما حصل، فصارت هي وابنها آية، فاختصت الآية بالتأنيث.

يقول رحمه الله: ”الجواب أن يقال: لما كان القصد في سورة الأنبياء إلى الإخبار عن حال مريم وابنها، وأنهما جعلوا آية للناس، وكان النفخ فيها

(١) انظر: الكشف: ٤١٦/٢.

(٢) انظر: فتح الرحمن: ٢٢٢.

(٣) انظر: التفسير الكبير: ٥٢/٢٠.

(٤) انظر: البحر المحيط: ٥٠٨/٥—٥٠٩.

(٥) انظر: روح المعاني: ٤١٤/٧—٤١٥.

مما جعلها حاملاً، والحامل صفة الجملة، فكأنه قال: والتي أحصنت فرجها فصيرها النفخ حاملاً حتى ولدت، والعادة جارية ألاّ تحمل إلا من فحل، ولا يولد الولد من غير أب، فلما كان القصد التعجب من حالتها، وأنها بالنفخ صارت حاملاً رد الضمير إلى جملتها، إذ كان النفخ في فرجها نفخاً فيها أوجب القصد إلى وصفها بعد النفخ بصفة ترجع إلى جملتها دون بعضها، كان قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أولى من قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾.

وأما قوله في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾: ١٢، فلما لم يكن القصد فيه إلى التعجب من حالها بالحمل عن النفخ وولادتها لا عن ضراب الفحل، لم يكن ثم من القصد إلى وصف جملتها بغير الصفة التي كانت عليه قبلها ما كان في الآية الأولى، فجاء اللفظ على أصله، والمعنى فنفخنا في فرجها<sup>(١)</sup>. ووافقه الكرمانى الذي اختصر كلامه<sup>(٢)</sup>.

أما ابن الزبير الغرناطي فيرى أن القصد في الأولى التشریف فلذلك أنث الضمير، يقول: "إن الضمير في الأولى عائد إلى ما أشير إليه بالموصول الذي هو (التي) وهي مريم ابنة عمران المفتوح باسمها في آية التحريم، أعيد الضمير هنا إليها من حيث إن ذلك تخصيص وتكريم جليل وآية باهرة، وقد قصدنا هنا تشریفها وتشریف ابنها عليهما السلام بالذكر في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً﴾، ولم يقع في آية التحريم ذكر ابنها، فلما اتسع المقصود هنا بذكر من لم يذكر هناك، وقصد من التشریف ما هو أكثر، ناسبه التوسعة في عودة الضمير، فأعيد إلى الذات المطهرة بجملتها، ف قيل: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾، وأفهم ذلك ما أفهمه الضمير الخاص بمحل النفخ من غير إشكال. وقيل في آية التحريم: (فيه) لعوده إلى الموضع المخصوص

(١) درة التنزيل: ١٦٨.

(٢) انظر: البرهان: ٢٧٠-٢٧١.



على ما يجب، لم يقصد هنا من توسع المدح ما قصد في الأولى، وإنما قصد بآية التحريم تخصيصها في ذاتها بعظيم إيمانها، وتصديقها، وإثباتها في القانتين<sup>(١)</sup>. وتوجيه ابن الزبير ليس ببعيد عن توجيه الخطيب الإسكافي، إلا أن ابن الزبير قام بتفصيله وبسطه.

وعن وجه تخصيص آية الأنبياء بالتشريف دون الآية الأخرى يقول ابن الزبير: ”آية الأنبياء وردت منسوقة على آيات تضمنت ذكر جملة من الرسل موصوفين بخصائص عليّة وآيات نبوية، أولهم إبراهيم عليه السلام، ثم ابنه إسحاق ثم ابنه يعقوب، ثم نوح ولوط وداود... فلما ذكر هؤلاء العلية عليهم السلام بخصائص ومنح ناسب ذلك ذكر مريم وابنها بما مُنح عليهما السلام...“<sup>(٢)</sup>. وهذا جيّد، فقد ربط رحمه الله آية الأنبياء بسياق السورة كاملة، وربط بينها وبين الغرض الذي جاءت به السورة، فكلها حديث عن الأنبياء عليهم السلام، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾: ٧، ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا...﴾: ٨، ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾: ٩، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ...﴾: ٢٥، إلى غيرها من الآيات، بعد ذلك يأتي سرد قصصهم، فأول السورة عن محمد ﷺ مع قومه، ثم موسى وهارون وإبراهيم وبنيه، ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب، وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وأيوب، وزكريا، ثم مريم وابنها، فهذا مقام يقتضي التشريف وعلو الشأن.

وانفرد ابن جماعة بتوجيه آخر يختلف عن سابقه، فيرى أن ”لفظ التذكير أخف من التأنيث، فجاء في سورة الأنبياء بالتأنيث لعدم تكرره. أما في التحريم فتكرر لفظ التأنيث بقوله: (مريم)، و(ابنة)، و(أحصنت)، و(فرجها) فناسب التذكير تخفيفاً من تكرار التأنيث“<sup>(٣)</sup>.

وتخرج ابن جماعة للآيتين تخرج حسن، والذي يظهر لي أنه استفاد

(١) ملاك التأويل: ٨٤٥/٢ — ٨٤٦.

(٢) المصدر السابق: ٨٤٧/٢.

(٣) كشف المعاني: ٢٥٧ بتصرف.

من قول الإسكافي في آخر كلامه عن آية التحريم: "جاء اللفظ على أصله"، والتخفيف المقصود به (التذكير) هو الأصل. إلا أنه لم يوضح سبب خفة التذكير، وثقل التأنيث، فالتذكير لا يحتاج إلى علامات، فاستحق أن يكون خفيفاً، بخلاف التأنيث، ولهذا كان التأنيث فرعاً عن التذكير، وكما يقول سيبويه: الأصل في جميع الأشياء التذكير، بدليل أنه يطلق على كل مذكر أو مؤنث لفظ (شيء)، وهذا اللفظ مذكر، وأيضاً: فهو لا يحتاج إلى زيادة<sup>(١)</sup>.

أما توجيه ابن الزبير فهو عندي أولى من توجيه الإسكافي، لأن قصد التشريف مقدم على قصد التعجب، وهذا لا يمنع أن يكونا معاً مرادين، فالأسرار البلاغية مهما تعددت وتنوعت لا تتزاحم، ولا تتنازع والله أعلم. وأختم مسألة التذكير والتأنيث في الضمائر بالحديث عن ثلاث آيات متشابهات، الآية الأولى قوله تعالى في سورة المدثر ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ﴾: ٥٤ حيث ورد الضمير مذكراً، والآية الثانية في سورة عبس بالتأنيث، يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذَكَّرٌ﴾: ١١، أما الآية الثالثة ففي سورة الإنسان، وجاء التعبير فيها باسم الإشارة المؤنث دون الضمير، يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكَّرٌ﴾: ٢٩، فهل من فروق بينها؟

تناول الكرمانى آية المدثر وعبس، وذكر أن تقدير آية المدثر: أن القرآن تذكرة، فمن شاء ذكره، وتقدير آية عبس: أن آيات القرآن تذكرة فمن شاء ذكر القرآن. وأوضح أن لفظ التذكرة يمكن أن يحمل على التذكير، لأنها بمعناه<sup>(٢)</sup>.

أما ابن الزبير الغرناطي فكان حديثه عن آية المدثر والإنسان، وتحليله مطابق لما ذكره الكرمانى إلا أنه زاد في التوضيح فقال: "هذا مما لا إشكال فيه، لأن المذكر به عظة أو موعظة، وهو أيضاً وعظ وتنبية. فتارة تراعي

(١) انظر: الكتاب لسيبويه: ٢٤١/٣، وانظر: ضياء السالك إلى أوضح المسالك لمحمد النجار:

١٤٢/٤

(٢) انظر: البرهان: ٣٥٢.

العرب في مثل هذا جهة التذكير وتارة تراعي جهة التأنيث، فتحمل الضمير على ما تقدره من تأنيث وتذكير، وهذا كثير، ومنه قول بعض العرب: فلان جاءته كتابي فمزقها، فيسأل عن التأنيث في قوله: جاءته، وفي قوله: فمزقها، فيقال: أليست بصحيفة، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾ البقرة: ٢٧٥..“<sup>(١)</sup>.

وابن الزبير حين تناول الآيتين يعلم أن التذكير في الأولى للضمير، أما الآية الثانية فالتأنيث واقع على اسم الإشارة، ومع ذلك لم يفصل القول، واتجه للتعميم.

وقد وافقه ابن جماعة<sup>(٢)</sup>، والأنصاري<sup>(٣)</sup>، وكانت إشارتهما مختصرة. وأشار الفخر الرازي إلى معنى كلام الكرماني فقال: ”الجواب فيه وجهان: الأول: أن قوله: (إنها) ضمير المؤنث، قال مقاتل: يعني آيات القرآن، وقال الكلبي: يعني هذه السورة، وهو قول الأخفش، والضمير في قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ عبس: ١٢، عائد إلى التذكرة أيضاً، لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ، والثاني: قال صاحب النظم: إنها تذكرة يعني بها القرآن، والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة أخرجه على لفظ التذكرة، ولو ذكره لجاز كما قال في موضع آخر: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾ المدثر: ٥٤، والدليل على أن قوله ﴿إِنَّهَا تَذَكُّرٌ﴾ المراد به القرآن قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾: ١٢“<sup>(٤)</sup>، وقال الألوسي مثل ذلك<sup>(٥)</sup>، ووافقهما ابن عاشور الذي أوضح أن تأنيث الضمير في سورة عبس له خصوصية لتحميل الكلام عدة معان منها: أن الضمير عائد إلى الدعوة التي تضمنها قوله: ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾، أو إلى الآيات التي قرأها النبي

(١) ملاك التأويل: ١١١٨/٢—١١١٩.

(٢) انظر: كشف المعاني: ٣٧١.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٤٤٩.

(٤) انظر: التفسير الكبير: ٥٢/٣١.

(٥) انظر: روح المعاني: ١٤٩/١٥، ٢٤٤.



صلى الله عليه وسلم عليهم في ذلك المجلس، ثم أعيد عليها الضمير بالتذكير للتنبيه على أن المراد آيات القرآن<sup>(١)</sup>.

## التذكير والتأنيث في الأفعال المسندة للضمائر:

تحدث علماء المتشابه عن موضعين، وهي تمثل ما في القرآن الكريم فيما يختص بإسناد الفعل لضمير المذكر والمؤنث، والمقصود بذلك إلحاق علامة التأنيث بالفعل.

وأول الموضعين ما انفرد بذكره ابن الزبير الغرناطي، حيث وقف عند قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾: ١٨٤، فقد أسند الفعل (كُذِّبَ) لضمير المذكر، وفي سورة فاطر جاء الفعل مسنداً لضمير المؤنث: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾: ٤.

وقد بين رحمه الله أن المفعول المقام مقام الفاعل في الآيتين، وهو (رسل) ورد جمع تكسير، والاسم المجموع جمع تكسير يجوز فيه التذكير والتأنيث، فورد في الأولى: (فقد كُذِّبَ) على رعي التذكير، ولم يقرأ بغيره، وفي الثانية: (فقد كذبت) على معنى التأنيث لزوماً أيضاً مع وحدة اللفظ في المرفوع المفعول، وما يجوز فيه من التذكير والتأنيث.

وأوضح أن كلتا الآيتين مراعى فيهما ما وقع بعد جمع التكسير وهو تابع له، فأما الآية الأولى فقد جاء قوله تعالى: ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وصفاً للجمع، ولا يمكن هنا إلا هذا فجرى على ما هو الأصل في جمع المذكر المكسر من التذكير، فلم تلحق الفعل علامة التأنيث. وأما آية فاطر فلحقت التاء الفعل رعياً لما عطف على الآية من قوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، فليس في هذا إلا التأنيث سواء بني الفعل للفاعل أو للمفعول، فنوسب بين الآيتين فقل: (كذبت) على الجائز الفصيح في تأنيث المجموع المكسر ليحصل التناسب..<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: التحرير والتنوير: ١١٥/٣٠.

(٢) ملاك التأويل: ٣٢٥/١—٣٢٦. بتصرف.

ومما يلحظ أن بين الآيتين موافقة فعلية في التذكير والتأنيث فالآية الأولى جاء بعد الفعل (كذب) فعل مذكر، وهو (جاءوا) فوافق آخر الآية أولها فناسب الفعل التذكير، أما الثانية فجاء بعد الفعل (كذبت) فعل مؤنث هو (ترجع) فناسبه التأنيث.

الموضع الآخر حديث علماء المتشابه عن قول الله تعالى في سورة هود: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾: ٦٧، فورد الفعل (أخذ) في قصة نبي الله صالح عليه السلام بدون تاء التأنيث، بينما جاء في السورة نفسها في قصة شعيب عليه السلام بالتأنيث، يقول تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾: ٩٤، جدير بالذكر أن الفعل (أخذ) مع لفظ (الصيحة) لم يرد في القرآن الكريم إلا ملحقاً به تاء التأنيث<sup>(١)</sup>، ويستثنى من ذلك آية سورة هود السابقة.

وقد أجاب الخطيب الإسكافي بجوابين الأول عن حكم اتصال علامة التأنيث وسقوطها من الفعل مع أن الفاعل في الموضعين شيء واحد وهو الصيحة، ومع أن الحاجز بين الفعل والفاعل في المكانين واحد، والثاني، وهو المهم عن سر تخصيص كل آية بما ورد. أما الأول فيرى أنه معلوم في كلام العرب وهو جائز، يقول: (..إن مثل هذا جاء في كلام العرب سهل الكلام فيه، لأنه يقال حمل على المعنى، والصيحة بمعنى الصياح، كما أن قول الشاعر:

يا أيها الراكب المزجي مَطِيَّتَهُ      سائلُ بني أسد ما هذه الصوتُ

حمل على المعنى إذ الصوت بمعنى الصيحة<sup>(٢)</sup>.

وفي لسان العرب: ذُكِرَ الفعل لأن الصيحة مصدر أريد به الصياح، ولو قيل: (وأخذت) بالتأنيث كان جائزاً، يذهب به إلى لفظ الصيحة<sup>(٣)</sup>.

أما التوجيه الآخر للخطيب الإسكافي فهو عن سر تخصيص كل

(١) انظر: سورة الحجر: ٨٣، ٧٣، العنكبوت: ٤٠.

(٢) درة التنزيل: ١٢٢.

(٣) انظر: لسان العرب لابن منظور: ٥٢٢/٢.

قصة بالفعل الذي ورد فيها، يقول الإسكافي: ”الجواب عن هذا الموضع، هو أن يقال: إن الله تعالى أخبر عن العذاب الذي أهلك به قوم شعيب عليه السلام بثلاثة ألفاظ منها (الرجفة) في سورة الأعراف في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ...﴾: ٧٨.. ومنها (الصيحة) في سورة هود في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ...﴾: ٩٤، ومنها الظلة في سورة الشعراء في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾: ١٨٩، وفي التفسير أن هذه الثلاث جمعت لهم لإهلاكهم واحدة بعد أخرى، لأن الرجفة بدأت بهم فانزعجوا لها عن الكن — أي الستر — إلى البراح، فلما أصبحوا نال منهم حر الشمس وظهرت لهم ظلة تبادروا إليها، وهي سحابة سكنوا إلى روح تحت ظلها، فجاءتهم الصيحة فهمدوا لها، فلما اجتمعت ثلاثة أشياء مؤنثة الألفاظ في العبارة عن العذاب الذي أهلكوا به، غلب التأنيث في هذا المكان على المكان الذي لم تتوال فيه هذه المؤنثات..“<sup>(١)</sup>.

وقد وافق الكرمانى الإسكافي في التوجيه الثاني وصرّح باسمه، وذكر توجيهاً آخر دونه، وهو أن التذكير والتأنيث حسنان، لكن التذكير أخف في الأولى لحذف حرف منه وأحسن للحائل — أي: الاسم الموصول — فاختار التذكير. وفي الآية الأخرى وافق ما بعدها وهو ﴿كَمَا بَعِثْتُ نُوحًا﴾ هود: ٩٥<sup>(٢)</sup>. أما ابن الزبير الغرناطي فذكر التوجيه الأول للإسكافي وقام بتوضيحه، يقول: ”.. وأما التأنيث غير الحقيقي فالحذف فيه مع الفصل حسن، قال تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾ البقرة: ٢٧٥، وهو كثير، فإن كثر الفصل ازداد حسناً، ومنه: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾: ٦٧، فالحذف والإثبات هنا جائزان والحذف أحسن، فجاء الفعل في الآية الأولى على الأول، ثم ورد في قصة شعيب بإثبات علامة التأنيث على الوجه الثاني جمعاً بين

(١) درة التنزيل: ١٢٢.

(٢) انظر: البرهان: ٢٢٤-٢٢٥.



الوجهين“<sup>(١)</sup>. فلم يوضح الوجه البلاغي الذي يبحث في خصوصية المعنى في كل آية، حيث اختصت قصة شعيب بالتأنيث، وقصة صالح بالتذكير، وقد وافقه الرازي<sup>(٢)</sup>. أما الأنصاري فذكر كلام الإسكافي ولكن بإيجاز<sup>(٣)</sup>.

ويرى السهيلي ”أن الصيحة في قوم صالح في معنى العذاب والحزي، إذ كانت منتظمة بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ خِزْيَ يَوْمٍ إِذْ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾: ٦٦، فصارت الصيحة عبارة عن ذلك الحزي، وعن العذاب المذكور في الآية، فقوي التذكير بخلاف الآية الأخرى والله أعلم“<sup>(٤)</sup>.

أما ابن القيم (ت ٧٥١هـ) فبعد أن أورد كلام السهيلي، ذكر توجيه الإسكافي الثاني، ولم يصرح باسمه وقال: ”هذا جواب السهيلي، وعندي فيه جواب أحسن من هذا، إن شاء الله، وهو: أن الصيحة يراد بها المصدر بمعنى الصياح، فيحسن فيها التذكير، ويراد بها الواحدة من المصدر، فيكون التأنيث أحسن، وقد أخبر تعالى عن العذاب الذي أصاب به قوم شعيب بثلاثة أمور كلها مؤنثة...“، ثم نقل باقي كلام الخطيب الإسكافي الذي ذكرته في أول المسألة<sup>(٥)</sup>.

وقد استحسن الزركشي (ت ٧٩٤هـ) كلام السهيلي ونقله وجعله أولاً، ثم ذكر توجيه الإسكافي<sup>(٦)</sup>.

والذي يتضح لي أن التوجيه الثاني الذي ذكره الخطيب الإسكافي بشأن تخصيص الفعل في كل آية من حيث تذكيره وتأنيثه، وتأکید ابن القيم عليه هو الأولى والأقرب لمقاصد الآيات؛ لأنه قام على تأمل قصة شعيب عليه

(١) ملاك التأويل: ٦٦١/٢.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ١٨/١٨.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ١٩٢—١٩٣.

(٤) نتائج الفكر: ١٧٠.

(٥) بدائع الفوائد: ١٢٦/١.

(٦) انظر: البرهان في علوم القرآن: ٣٦٨/٣.

السلام مع قومه في القرآن الكريم، لأن التعبير عن العذاب الذي أخذوا به جاء بألفاظ مؤنثة (الصيحة، الرجفة، الظلة)، فناسب ذلك إلحاق الفعل بتاء التأنيث، وهذا لم يقع في قصة صالح عليه السلام مع قومه فناسب عدم تأنيث الفعل، وهذا لا يجعلنا نغفل التوجيهات الأخرى، فلها قيمتها البلاغية في توجيه الآيات المتشابهة، وأسرار التنزيل لا تحصى، ولا يمنع بعضها بعضاً، والله تعالى أعلم.

## الفصل الرابع

الاختلاف بين الآيات المتشابهة  
في التعريف والتنكير





## الفصل الرابع

### الاختلاف بين الآيات المتشابهة

### في التعريف والتنكير

يعد موضوع التعريف والتنكير من الموضوعات التي برز فيها جهد علماء المتشابه اللفظي رحمهم الله في حديثهم عن اللفظة المفردة في القرآن الكريم، ويتمثل جهدهم في بيان المغزى من تعريف المفردة القرآنية أو تنكيرها في الآيات المتشابهة.

وبما أن للتعريف طرقاً وأساليب مختلفة، فقد بين العلماء تلك الطرق والأساليب من خلال الآيات المتشابهة في ألفاظها، فتحدثوا عن التعريف بالألف واللام وإفادتها للعهد، ودلالاتها على العموم واستغراق الجنس، وكذلك بعض الدلالات الأخرى كإفادة التشريف.

كما تحدثوا عن التعريف بالاسم الموصول لاسيما لفظ (الذي)، لأنه أصل الموصولات، وبيّنوا الفرق بين الموصولات مثل: (الذي)، و(ما)، و(من)، كما تناول علماء المتشابه اللفظي آيات متشابهة جاء الاختلاف فيها في نوع التعرف، كالتعريف بالألف واللام والتعريف بالإضافة، كل ذلك في ضوء الآيات المتشابهة التي عرضوا لها.

وقد نال موضوع التعريف والتنكير عناية علماء النحو أمثال سيبويه وابن جني والزجاجي وغيرهم<sup>(١)</sup>، كما حاز على عناية علماء البلاغة الأوائل

---

(١) انظر مثلاً: الكتاب لسيبويه: ٢/٥-٨، ٣/٢٤١-٢٤٢، سر صناعة الإعراب لابن جني: ١/٣٣٢ وما بعدها، والجمل للزجاجي: ١٧٨/١٨١، والنحو الوافي لعباس حسن: ١/٢٠٦ وما بعدها.

وعلى رأسهم الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي كانت له وقفات وتأملات حسنة عن التعريف والتنكير في كتابه دلائل الإعجاز، تحت عنوان (الفروق في الخبر)، فقد ذكر فوائد وفرائد متنوعة لتعريف الخبر وتنكيره، كما فرّق بين الخبر المعروف بالألف واللام والخبر المعروف بالموصولية، وبسط القول بسطاً نفيساً<sup>(١)</sup>. كما فصل القول في التعريف بالموصول، وركز حديثه على (الذي)، وأفرد الحديث عنها في فصل، وقال في مقدمته: ”اعلم أن لك في (الذي) علماً كثيراً، وأسراراً جمة، وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس، وتثلج الصدر، بما يُفضي بك إليه من اليقين، ويُؤديه إليك من حسن التبيين..“<sup>(٢)</sup>.

وجاء من بعده فدوّنوا ما ذكره الجرجاني، وقاموا بعملية الترتيب والشرح والزيادة<sup>(٣)</sup>، ويندرج هذا الموضوع بصورته الاصطلاحية عند البلاغيين تحت باب (أحوال المسند إليه)، و(أحوال المسند)، فتحدثوا عن التعريف وصوره المختلفة، كالتعريف بالإضمار وبالعلمية وبالموصولية وبالإشارة وبالألف واللام والإضافة، وبينوا أغراض كل صورة، كما تناولوا أغراض التنكير وفصلوا القول فيها<sup>(٤)</sup>.

هذا وقد اجتهدت في تنظيم ما تحدث عنه علماء المتشابه اللفظي في القرآن الكريم في هذا الموضوع وترتيبه، وسوف أتحدث أولاً عن التعريف بالألف واللام، وبعد ذلك التعريف بالموصول، كل ذلك على حسب ما يمليه

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز: ١٧٧—٢٠١.

(٢) دلائل الإعجاز: ١٩٩.

(٣) انظر: التبيان في علوم القرآن المطلع على إعجاز القرآن لابن الزملكاني: ٥٠—٥٤، وكذلك: البرهان الكاشف في إعجاز القرآن لابن الزملكاني أيضاً: ١٣٣، وكتاب الطراز ليحيى العلوي: ١١/٢—٢٤.

(٤) انظر: مفتاح العلوم: ٢١٢، ١٧٨، والإيضاح في علوم البلاغة: ٩/٢—١٢٩، ١٣٣/٣٩، والمطول: ٧٠—٩٠، وشروح التلخيص: ٢/١، ٢٨٧، ٩١، وأساليب بلاغية لأحمد مطلوب: ١٤٣—١٥٨.



عليّ منهجهم التحليلي لآيات المتشابه اللفظي، وأسأل الله العون والتوفيق.

## التعريف بالألف واللام:

ذكرت كتب المتشابه اللفظي التي بين أيدينا تسعة مواضع متشابهة، وهي تمثل كل ما جاء في كتاب الله تعالى في موضوع المتشابه في التعريف والتنكير بالألف واللام، وسأتحدث عن كل موضع بشكل مفصل، حتى نقف على أسرار كل موضع.

وأول المواضع التي تطالعنا في هذا الموضوع توجيه علماء المتشابه لقوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: ١٢٦، حيث ورد لفظ (بلداً) بالتنكير في دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام، وفي سورة إبراهيم جاء اللفظ معرّفاً بالألف واللام، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾: ٣٥.

تحدث الخطيب الإسكافي عن هذه المسألة وخرج بتعليقين لتوجيه الآيتين، أما الأول وهو الأشهر فيرى أن الإشارة في آية البقرة كانت قبل الاستقرار، فلفظ (هذا) في هذه الآية إشارة للمذكور في قوله تعالى: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إبراهيم: ٣٧، وكان ذلك عند ترك إسماعيل وأمه هاجر في الوادي قبل بناء مكة والبيت الحرام، فاكتمى عن ذكر الموضوع بالإشارة إليه.

أما في آية إبراهيم فالحال مختلف فقد كانت الإشارة إلى البلد بعد الاستقرار، وبعد البناء، وبعد عودته عليه السلام إلى مكة، وبذلك يكون لفظ (بلداً) في البقرة هو المفعول الثاني، و(آمناً) صفة له، أما لفظ (البلد) في إبراهيم فهو المفعول الأول، و(آمناً) المفعول الثاني.

يقول الإسكافي رحمه الله: "الدعوة الأولى — التي في سورة البقرة — وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلداً، فكأنه قال: اجعل هذا الوادي بلداً آمناً، لأن الله تعالى حكى أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾،

بعد قوله: ﴿أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا﴾، ووجه الكلام فيه تنكير الذي هو مفعول ثان، وهذا مفعول أول. والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلداً، فكأنه قال: اجعل هذا المكان الذي صيرته كما أردت ومصّرتَه كما سألت، ذا أمن على من أوى إليه، فيكون البلد عطف بيان على مذهب سيبويه، وصفة علي مذهب أبي العباس المبرد، وآمناً مفعولاً ثانياً، فعرّف حين عرّف بالبلدية، ونكر حيث كان مكاناً من الأمكنة غير مشهور بالتمييز عنها بخصوصية من عمارة وسكنى..“<sup>(١)</sup>.

أما تعليله الثاني فيرى أن تقدير آية البقرة: اجعل هذا البلد بلداً آمناً، فحذف البلد اكتفاء بالإشارة، يقول: ”والجواب الثاني أن تكون الدعوتان واقعيتين بعدما صار المكان بلداً، وإنما طلب من الله أن يجعله آمناً... فيجوز — في آية البقرة — أن يكون المراد اجعل هذا البلد بلداً آمناً، فتدعوه له بالأمن بعدما صار بلداً... ويكون مثل قوله: ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ وتكون الدعوة واحدة قد أخبر الله عنها في الموضعين..“<sup>(٢)</sup>، وهذا ملائم للسياق.

و حين نتأمل تعليل الإسكافي الأول ونطبقه على الآيات التي تقدمت  
آية البقرة والتي تأخرت عنها، نلاحظ أن البيت كان موجوداً، ولك أن  
تقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾،  
﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾.

وقد أخذ الكرمانى تعليل الخطيب الإسكافى ولخص كلامه<sup>(٣)</sup>، كما أخذ مجموعة من العلماء توجيه الإسكافى الأول ومنهم ابن جماعة<sup>(٤)</sup>، والأنصارى<sup>(٥)</sup>، وممن وافقه أيضاً في توجيهه الأول: الفخر الرازى<sup>(٦)</sup>، والإمام

(١) درة التنزيل: ١٦.

(٢) المصدر السابق: ١٦.

(٣) انظر: البرهان: ١٣٠-١٣١.

(٤) انظر: كشف المعاني: ١٠٥—١٠٦.

(۵) انظر: فتح الرحمن: ۳۶.

(٦) انظر: التفسير الكبير: ٥٠/٤.

الشوكاني<sup>(١)</sup>، وأبو حيان<sup>(٢)</sup>، وأبو السعود<sup>(٣)</sup>، وجلال الدين السيوطي<sup>(٤)</sup>.  
أما ابن الزبير الغرناطي فقد ذكر توجيهاً آخر أقوى مما ذكره الخطيب الإسكافي في الوجه الأول، حيث أوضح أن اسم الإشارة في آية البقرة لم يقصد أن يكون له تابع يوضحه ويبينه، لأنه واضح غير مفتقر إلى التابع المبين جنسه اكتفاء بالواقع قبله كقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾: ١٢٥، وقوله: ﴿أَن طَهَّرَ ابْنَتِي لِلطَّائِفِينَ﴾: ٢٥١، وتعريف البيت حاصل منه تعريف البلد.

ثم قال موضحاً: "ولو تعرّف لفظ بلد بالألف واللام وجرى على اسم الإشارة لم يكن ليحرز بياناً زائداً على ما تحصل مما تقدم، بل كان يكون كالتكرار، فورد الكلام على ما هو أحرز للإيجاز وأبلغ في المقصود. وأما آية سورة إبراهيم فلم يتقدم فيها ما يقوم لاسم الإشارة مقام التابع المعروف بجنس ما يشار إليه، فلم يكن بد من إجراء البلد عليه تابعاً له بالألف واللام على المعهود الجاري في أسماء الإشارة.." <sup>(٥)</sup>.

بعد ذلك ذكر رأي الخطيب الإسكافي الأول مصرحاً باسمه، وعلق عليه بقوله: "قاله صاحب كتاب الدرة، وهو عندي بعيد، إذ ليس بمفهوم من لفظ الآي.."، ثم عقب بقوله: "وهو بعد ممكن، والله أعلم" <sup>(٦)</sup>.

وأشار أبو القاسم السهيلي (ت ٥٨١هـ) إلى أن معنى الكلام في الآيتين دعاء، ففي إبراهيم الدعاء للبيت والآية مكية، كما أن قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ مكية أيضاً، وأما الدعاء في آية البقرة فللبلد، فجاء اللفظ مشاكلاً للمعنى في الآيتين <sup>(٧)</sup>، وهذا كلام مختصر ومفيد أيضاً.

(١) انظر: فتح القدير: ١١٢/٣.

(٢) انظر: البحر المحيط: ٣٨٣/١.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود: ٥٠/٥.

(٤) انظر: الإتيان في علوم القرآن: ٣٤٣/٣.

(٥) ملاك التأويل: ٢٣٤/١—٢٣٥.

(٦) المصدر السابق: ٢٣٥/١.

(٧) انظر: التعريف والإعلام: ١٥٤—١٥٥.



وهناك من وافق الغرناطي في توجيهه وهو أحمد خلف الله الذي حقق كتاب الكرمانى، فقد علق على رأى الكرمانى المأخوذ أصلاً من الإسكافى فقال: "لم يخرج ما ذكره السيوطى عن هذا"<sup>(١)</sup>، وهو ما ذكره الخطيب فى درة التنزيل، وهو بعيد، وليس بمفهوم من لفظ الآى إلا بتوجيه ضعيف، وما ذكره الإمام أحمد بن إبراهيم الغرناطى فى ملاك التأويل أقوى". ثم ساق كلام ابن الزبير، ثم قال: "وهذا التوجيه أولى من توجيه المصنّف"، يقصد بالمصنّف الكرمانى، الذى أخذ توجيه الإسكافى، وختم تعليقه بذكر تنبيه قال فيه: "تنبيه: سورة إبراهيم نزلت فى مكة قبل نزول سورة البقرة التى نزلت فى المدينة"<sup>(٢)</sup>. والمحقق فى تنبيهه هذا يريد أن يقوى ما ذهب إليه، فتوجيه الإسكافى الأول يعتمد على تقدّم آية البقرة على آية إبراهيم، ولكن بالنظر لترتيب النزول، فإن سورة إبراهيم متقدمة على سورة البقرة<sup>(٣)</sup>. أما مسألة أن المراد بالترتيب ترتيب المصحف فالبقرة متقدمة على إبراهيم، وهذه مسألة لا تصح؛ لأن توجيه الإسكافى قائم على أن آية البقرة كانت قبل الاستقرار، وآية إبراهيم بعد الاستقرار حسب تعليقه، وهذا ترتيب زمانى يناسب ترتيب النزول لا ترتيب المصحف الذى لا يتناسب مع الترتيب الزمانى.

وفى ختام هذه المسألة يتضح لنا أن كلتا الآيتين تذكران ما كان من إبراهيم عليه السلام، وهذه دعوة قبل نزول القرآن بآلاف السنين، فترتيب نزولها ليس له أصل فى الترجيح، لأن القرآن الكريم لم يحك ما كان من إبراهيم عليه السلام على أساس ترتيب حدوثه من إبراهيم، وإنما أنزله الله على محمد ﷺ منجّماً حسب الحوادث التى كانت فى زمنه، وعلى هذا فإن

(١) انظر: الإتيان فى علوم القرآن: ١١٦/٢.

(٢) البرهان: ١٣١، الحاشية (٢).

(٣) انظر: البرهان فى علوم القرآن للزركشى، فقد رتب نزول الآيات المكية والمدنية: ١٩٣/١—١٩٤، وانظر: كتاب التعريف والإعلام فيما أهم من الأسماء والأعلام فى القرآن الكريم للسهيلى: ١٥٤—١٥٥، وانظر: بصائر ذوى التمييز للفيروزابادى: ٩٨/١—٩٩.

الأقرب والأولى ما دونه ابن الزبير الغرناطي؛ لأنه ربط توجيهه بالسياق السابق للآية الكريمة، ومع هذا لا تغفل التوجيهات الأخرى، فأسرار كتاب الله لا تنفذ، والله تعالى أعلم.

ومن الآيات التي تحدث عنها علماء المتشابه، حديثهم عن ثلاث آيات، الأولى في سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: ٦١، والثانية والثالثة في سورة آل عمران يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: ٢١، وقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: ١١٢، فقد أوضحوا السر في تنكير لفظ (حق) في آيتي آل عمران، كما بينوا سر التعريف في آية البقرة.

يعلل الخطيب الإسكافي سبب التعريف في آية البقرة فيرى أن الآية وردت في سياق الحديث عن قصة وقعت لقوم كانوا في عصر موسى — عليه السلام —، فقال لهم: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾، فهذه الآية من هذه السورة مع الآيات التي قبلها والتي بعدها تحكي قصة موسى عليه السلام مع اليهود، أما آيتا آل عمران اللتان ورد فيهما اللفظ منكراً فقد نزلتا في اليهود الذين كانوا في عصر نبينا محمد ﷺ، وهم أشد عداً وأعظم بأساً، فمع معرفتهم بصدق نبوته كانوا حرصاء على قتله، كما وضعوا السم في أكله عليه السلام، لكن الله سبحانه عصمه منهم، ولهذا جاء اللفظ منكراً توبيخاً لهم ولشناعة فعلهم، فأفاد اللفظ العموم.

يقول الإسكافي رحمه الله: ”.. فأما قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ فهو خبر عن قوم كانوا في عصر النبي ﷺ فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فكان خبراً عن اعتقادهم، لأنه لا يجوز أن يعاقبوا ويضرب

عليهم الذلة والمسكنة بذنوب وقعت من آبائهم لا منهم، فيصرون مثل الأولين، الذين أخبر عنهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، في تمييزه عن القوم الذين كانوا في عصر موسى ﷺ فقال لهم: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾، فاختر لفظ المعرفة في القصة التي وقعت ووقع الإخبار عنها، ولفظ النكرة في القصة التي وقع التهديد مقارناً لها ليمنع من وقوعها، وما كان في حيز ما لم يقع فالذنب في حيز المذكور والعقاب عليه مثله كالمنكور<sup>(١)</sup>.

أما الكرمانى فقد اقتصر تعليله على أن آية البقرة تدل على القتل بغير الحق المأذون به في شريعتهم<sup>(٢)</sup>، واكتفى بذلك، وهو تعليل موجز.

وقد وافقه الأنصاري<sup>(٣)</sup> والفخر الرازي<sup>(٤)</sup>، وأبو حيان<sup>(٥)</sup>، والألوسي<sup>(٦)</sup>.

أما ابن الزبير الغرناطي فقد أخذ إشارة الخطيب الإسكافي وقام بتوضيحها فذكر أن الآيات الثلاث في بني إسرائيل الذين اجتمعوا في الكفر والاعتداء، والآية الأخيرة — آية: ١١٢ في آل عمران — فيمن شاهد النبي ﷺ وعان أدلة نبوته التي أخبر بها موسى وغيره من الأنبياء عليهم السلام، فناسب أن يوصف كفرهم بأنهم ارتكبوه بغير شبهة ولا سبب، فجاء قوله: (بغير حق) نكرة، أي بغير أدنى سبب أو شبهة، وكذلك الآية التي قبلها، فقد دلت على التمرد والتمادي في الضلال فناسب التنكير، وأما آية البقرة فهي في سلفهم ممن لم يشاهد أمر محمد ﷺ، وقد وقع الإفصاح فيها بكفرهم بعد تعريفهم بذكر آلاء ونعم، وقد ورد فيها أن بعض تلك المرتكبات أو أكثرها قد عفي

(١) درة التنزيل: ١٠.

(٢) انظر: البرهان: ١٢٥.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٢٩—٣٠.

(٤) انظر: التفسير الكبير: ٩٦/٣.

(٥) انظر: البحر المحيط: ٢٣٧/١.

(٦) انظر: روح المعاني: ٢٧٧/١.



عنهم فيها، فناسب حال أولئك الذين لم يشاهدوه ما وقع التعبير به من قوله: (بغير الحق) إذ ليس المعرف في قوة المنكر المرادف لقولك: بغير سبب. وأوضح أن معنى (بغير الحق) أي: بغير وجه الحق المبيح للقتل فالألف واللام للعهد في المسوغ المقرر في شريعتهم<sup>(١)</sup>.

ووافقهما ابن جماعة واختصر توجيههما ورتبه، وزاد أن ما يدل على أن آية البقرة نزلت في قدماء اليهود قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، كما أن الذي يدل على أن آية آل عمران نزلت في الموجودين في زمن النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ﴾، ودليل الآية الثانية في هذه السورة قوله: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾<sup>(٢)</sup>. كما وافقهم البيضاوي رحمه الله في توجيه آية آل عمران<sup>(٣)</sup>.

وإذا تتبعنا التوجيهات السابقة لحظنا أن الألف واللام في لفظ (الحق) تفيد العهد، وأن تنكير اللفظ يفيد العموم.

ومن مواضع التعريف والتنكير في الآيات المتشابهة قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: ٢٣٤، حيث عرف قوله: (بالمعروف) بالألف واللام، وفي آية أخرى من هذه السورة جاء اللفظ بالتنكير يقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: ٢٤٠.

يعلل الخطيب الإسكافي رحمه الله هذا الاختلاف بين الآيتين بأن المراد في الآية الأولى ما أقره الشرع المطهر للمرأة من الزواج بعد انقضاء العدة، وهي أربعة أشهر وعشرة أيام، فورد اللفظ معرفاً بالألف واللام التي هي للعهد، على أن ذلك إحالة على أمر معلوم وهو الشرع، أما الآية الثانية فجاءت عقب الآية الأولى والمراد جملة الأفعال التي يجوز للمرأة فعلها من تزين وتعرض للخطاب

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢١٥/١-٢١٧.

(٢) انظر: كشف المعاني: ٩٩-١٠٠.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ١٥٣/١.

مما يقره الشرع، فأفاد التنكير التفصيل والعموم في الأمور المباحة شرعاً. يقول رحمه الله: "إن الأول تعلق بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا...﴾ أي لا جناح عليكم في أن يفعلن في أنفسهن بأمر الله، وهو ما أباحه لهن من التزوج بعد انقضاء العدة، فالمعروف ههنا أمر الله المشهور، وهو فعله وشرعه الذي شرعه وبعث عليه عباده، والثاني المراد به فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أن يفعلن، من تزوج، أو قعود، فالمعروف هاهنا فعل من أفعالهن يعرف في الدين جوازه وهو بعض ما لهن أن يفعلنه، ولهذا المعنى خص بلفظة (من) ونكر، فجاء المعروف في الأول معرّفاً لما أشرت إليه..."<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه الكرمانى<sup>(٢)</sup>، وابن جماعة<sup>(٣)</sup>، والأنصارى<sup>(٤)</sup>، وزاد الكرمانى وجهاً آخر، يقول: "إن النكرة إذا تكررت صارت معرفة، فإن قلت: كيف يصح ما قلت، والأول معرفة والثاني نكرة؟ وما ذهبت إليه يقتضي ضد هذا بدليل قوله سبحانه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ المزمّل: ١٥—١٦؟

فالجواب أن هذه الآية بإجماع من المفسرين مقدمة على الآية الأولى في النزول، وإن وقعت في التلاوة متأخرة، ولهذا نظير في القرآن في موضع آخر، أو في موضعين، وقد سبق بيانه، وأجمعوا أيضاً على أن هذه الآية منسوخة بتلك الآية، والمنسوخ سابق على الناسخ ضرورة، فصح ما ذكرت أن قوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾، هو ما ذكرت في قوله: ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾، فتأمل فيه فإن هذا دليل على إعجاز القرآن"<sup>(٥)</sup>. ووافقه أبو حيان في هذا الرأي<sup>(٦)</sup>.

(١) درة التنزيل: ٢٩.

(٢) انظر: البرهان: ١٤٠.

(٣) انظر: كشف المعاني: ١١٦.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ٤٩.

(٥) البرهان: ١٤١.

(٦) انظر: البحر المحيط: ٢/٢٤٦.

أما ابن الزبير الغرناطي فقد وافق الإسكافي في توجيهه وجعله جواباً ثانياً، أما الجواب الأول فيرى أن قوله: (فإذا بلغن أجلهن) أي: باستيفائهن العدة التي بينها الآية، وكون الشرط منعقداً بـ(إذا) التي تقتضي إحراز أمد محدود، معلوم القدر معروف الغاية يتقيد به خروجهن فناسبه التعريف.

أما الآية الأخرى فقال: (فإن خرجن) ولم يذكر بلوغ الأجل كما في الآية الأولى، لأن الشرط جاء بـ(إن) وهي ليست مثل (إذا)، لأنه يحصل بها التقيد بالاستقبال، ولكن دون اقتضاء التعقيب والاتصال<sup>(١)</sup>.

فالتعريف يفيد إحراز المعنى وتحديد الأمد والمقدار، وهذا غير متحقق في التنكير، كما أن الألف واللام تدل على العهد، والتنكير يفيد العموم والتفصيل.

ويوضح علماء المشابه وجه الاختلاف بين قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: ٢٠٠، وقوله تعالى في سورة فصلت: ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: ٣٦، حيث ورد لفظ (سميع عليم) بالتنكير في الأولى، بينما جاء اللفظ بالتعريف في الآية الثانية، فما سر ذلك؟

يبني الخطيب الإسكافي سبب التعريف في فصلت على ما تقدم الآية من آيات يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾: ٣٤، فالحسنة لا تستوي مع السيئة وكذلك العكس، فالإيمان لا يساوى بالكفر، والتقوى لا تساوى بالفجور، وكذا العدل لا يساوى بالظلم، فما يشق على الإنسان فعله هو أن يدفع السيئة بالحسنة، ويقابل غلظة عدوه بالملاينة، استنكافاً لشره وأذاه، حتى يعود إلى اللطف في المقال الجميل من الفعل، فيصير وإن كان عدواً كأنه صديق قريب القربى، وهذه لا تكون إلا لذوي الأخلاق الفاضلة والنفوس

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢٧٢/١ - ٢٧٤.



الكاملة الشريفة، فلما كان هذا الأمر من الأمور الشاقة العسيرة قال: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾، فناسب الآية التوكيد بالضمير المنفصل والتعريف بالألف واللام، فقال: ﴿... إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أما آية الأعراف فلم يتقدمها مثل ما تقدم آية فصلت، فقبلها قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾: ١٩٩، ففيها الحث على أحسن الأخلاق التي أمر بها الشرع، ولم يكن فيها من المشاق ما في السورة الأخرى فجاء اللفظ على الأصل ولم تحصل المبالغة<sup>(١)</sup>. وهذا تعليل حسن، مبني على تدبر السياق المتقدم.

وله توجيه آخر ذكره عند حديثه عن آيات سورة الأعراف وهو أن التنكير في آية الأعراف ورد لمراعاة الفاصلة، لأن ما قبلها من الفواصل أفعال جماعية، أو أسماء مأخوذة من أفعال كقوله: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وبعده ﴿يُخْلَقُونَ﴾ و﴿يَنْصُرُونَ﴾... والنكرة في الأسماء أقرب الألفاظ التي تؤدي معنى الفعل، أما آية فصلت فقبلها فواصل يسلك بها طريق الأسماء<sup>(٢)</sup>. وهذا التعليل لا يتنافى مع التعليل الأول ويمكن أن يجتمعا، لأن الثاني ينظر في التوافق اللفظي، والأول ينظر في التوافق المعنوي.

وقد وافقه الكرمانى في التوجيه الأول واختصر<sup>(٣)</sup>، وتابعه الأنصارى كعادته<sup>(٤)</sup>.

ويرى ابن الزبير أن السياق هو الدافع للتعريف، وهو ما أراده الإسكافي إلا أننا إذا تتبعنا تعليل الغرناطي نرى فرقاً في توضيح المسألة، فيذكر أن

(١) درة التنزيل: ٢٣٧—٢٣٨. بتصرف.

(٢) انظر: المصدر السابق: ١٠٢.

(٣) انظر: البرهان: ٣٢٧.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ٣٧٥.

آية فصلت تقدمها قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾: ٢٢، وقوله: ﴿وَقِضْنَا لَهُمْ قُرْنَائَ فَرِيقًا هُم مَّابَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: ٢٥، وقوله: ﴿أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾: ٢٩، فمضلوهم هم من عالم الإنس والجن، وكلاهما موصوف بالسمع والبصر والعلم، أما ما جاء في آية الأعراف فالحديث عن آلهة الكفار الجامدة الصماء فجاءت الآية بالتنكير. فلما تقدمه في فصلت ما يمكن أن يسمع ويبصر ويعلم ناسبه التعريف في الصفة ليعطي نفي ذلك عن غير الموصوف بهما تعالى، ثم أكد ذلك بضمير الفصل المقتضي للتخصيص<sup>(١)</sup>.

ولابن جماعة تعليل لا يصل لقوة توجيه الإسكافي الأول، أو توجيه ابن الزبير، فيرى أن آية الأعراف نزلت أولاً وآية فصلت نزلت ثانياً فحسن التعريف<sup>(٢)</sup>.

وهذه التعليقات التي كشفت لنا أسرار الآيتين المتشابهتين، كلها تتلاقى وتجتمع، ويكمل بعضها بعضاً، وليس بينها تعارض، لأن كل وجه يكشف سراً من أسرار الآية الكريمة، فلنا أن نعلل التعريف بما ذكره الإسكافي، أو بما قال به ابن الزبير، أو بتعليل ابن جماعة، عليهم جميعاً رحمة الله.

ومن المواضع التي ورد فيها تعريف اللفظ بالألف واللام في آية، وجاء تنكيره في آية أخرى ما ذكره علماء التشابه في تحليلهم لآيتين كريمتين في سورة مريم عليها السلام، الأولى عند ذكر نبي الله يحيى عليه السلام، جاء لفظ (السلام) بالتنكير يقول تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾: ١٥، وفي قصة عيسى عليه السلام ورد اللفظ بالتعريف يقول تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾: ٣٣، فهل من فرق بين الموضعين؟

(١) انظر: ملاك التأويل: ٥٧٩/١ - ٥٨٠.

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٨٩.

هذا وقد انفرد الإمام الكرمانى رحمه الله بتعليل هذه المسألة، وذكر عدداً من التوجيهات أبرزها وأهمها أن اللفظ في الآية الأولى جاء بالتنكير، لأنه من المولى سبحانه وسلام منه كاف عن كل سلام.

يقول: "نكر في الأول وعرف في الثاني، لأن الأول من الله عز وجل والقليل منه كثير كما قيل:

قليلٌ منك يكفيك ولكن قليلٌ لك لا يُقال له قليلٌ

ولهذا قرأ الحسن (اهدنا صراطاً مستقيماً) أي: نحن راضون منك بالقليل، ومثل هذا في الشعر كثير... والثاني من عيسى عليه السلام، والألف واللام لاستغراق الجنس، ولو أدخل عليه التسعة والعشرون والفروع المستحسنة والمستقبحة لم يكن يبلغ عشر معشار سلام الله تعالى عليه"<sup>(١)</sup>، ويقصد بقوله: (التسعة والعشرون) حروف الهجاء.

ثم ذكر التعليقات الأخرى بشكل موجز إلا أن المعول في الحقيقة على ما ذكره أولاً، يقول: "ويجوز أن يكون ذلك من وحي الله عز وجل عليه، فيقرب من سلام يحيى.

وقيل: إنما أدخل الألف واللام لأن النكرة إذا تكررت تعرّفت، وقيل: نكرة الجنس ومعرفة الجنس سواء، تقول: لا أشرب ماء، ولا أشرب الماء فهما سواء"<sup>(٢)</sup>.

ووافقه أبو يحيى الأنصاري الذي نقل نص كلامه<sup>(٣)</sup>، كما وافقه الفخر الرازي في توجيهه الأول، وزاد أن التنكير أكمل، لأنه يفيد الكمال والمبالغة والتمام، أما التعريف فلا يفيد إلا الماهية<sup>(٤)</sup>.

ولأبي القاسم السهيلي وقفة حسنة عند مسألة تعريف لفظ السلام

(١) البرهان: ٢٥٩—٢٦٠.

(٢) المصدر السابق: ٢٦٠.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٢٥٤.

(٤) انظر: التفسير الكبير: ٢٠/١٨.



وتنكيره في القرآن الكريم وكلام العرب، وتُعد من وقفاته الرائعة في كتابه (نتائج الفكر)، فهو يرى أن إدخال الألف واللام على (سلام) تفيد ثلاثة أمور:

١— أن يقصد به التبرك بذكر الاسم الذي هو السلام، فهو يشعر بذكر الله سبحانه، لأن السلام اسم من أسمائه.

٢— أن يقصد به طلب معنى السلامة منه، لأنك متى ذكرت اسماً من أسمائه، فقد تعرّضت لطلب المعنى الذي اشتق ذلك الاسم منه.

٣— أن يقصد عموم التحية منه سبحانه، ومن غيره، فأنت ترى أنه ليس قولك: (سلام عليك) أي: سلام مني، بمنزلة قولك: (السلام) في العموم<sup>(١)</sup>.

أما سر تنكير اللفظ في قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ﴾، فلأنه مستغن عن الفوائد الثلاث، يقول رحمه الله: "...لأن المتكلم ههنا هو الله تعالى فلم يقصد تبركاً بذكر الاسم الذي هو السلام، ولا تعرضاً وطلباً كما يقصده العبد، ولا عمومًا في التحية منه ومن غيره؛ لأن سلاماً منه سبحانه كاف عن كل سلام، ومغن عن كل تحية ومُرَبٍ على كل أمنية، فلم يكن لذكر الألف واللام معنى ههنا...".

أما قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾ في قصة عيسى عليه السلام، فإن للألف واللام معنى ومقصداً: "...لأن هذا العبد الصالح — أي: عيسى بن مريم — يحتاج كلامه إلى هذه الفوائد الثلاث، وأوكدها كلها العموم، لأنه مستحيل أن يقع سلامه على نفسه خاصة، ويبعد أيضاً رغبته عن ذكر مولاه، وتركه التعرض لمعنى الاسم ومقتضاه"<sup>(٢)</sup>.

وقد نقل ابن الزملكاني ما ذكره السهيلي من فروق دون أن يشير إليه<sup>(٣)</sup>.

---

(١) انظر: نتائج الفكر: ٤١٥. وانظر: رسالة الماجستير للباحث بعنوان: (البحث البلاغي عند

السهيلي) حيث تمت مناقشة جميع جوانب ما ذكره السهيلي: ١١٨—١٢٣، ٣٤٠—٣٤٢.

(٢) المصدر السابق: ٤١٦.

(٣) انظر: التبيان في علوم البيان: ٥٣، وانظر: أبو القاسم السهيلي ومذهبه النجوي لمحمد البنا: ١٩٧.

وفعل ذلك أيضاً ابن القيم<sup>(١)</sup>، الذي ذكر أن هذا التوجيه هو الأصح والأتم معنى، وأنكر - رحمه الله - علي من قال: إن سلام يحيى جرى مجرى ابتداء السلام في الرسالة والمكاتبة فنكر، وسلام المسيح جرى مجرى السلام في آخر المكاتبة فعرف، لأن السورة كالقصة الواحدة، يقول: "ولا يخفى فساد هذا الفرق، فإنهما سلامان متغايران من مسلمين، أحدهما سلام الله تعالى على عباده، والثاني سلام العبد على نفسه، فكيف يبنى أحدهما على الآخر.

وكذلك قول من قال: إن الثاني عُرِفَ لتقدم ذكره في اللفظ، فكانت الألف واللام فيه للعهد، وهذا أقرب من الأول لإمكان أن يكون المسيح أشار إلى السلام الذي سلمه الله على يحيى، فأراد أن لي من السلام في مثل هذه المواطن الثلاثة مثل ما حصل له والله أعلم"<sup>(٢)</sup>.

وعند تطبيق ما ذكره السهيلي على ما جاء في كتاب الله تعالى، نجد ذلك موافقاً لقوله، وكأنه رحمه الله استقصى ما في القرآن فذكر ما ذكر، ولذلك نجد أن تسليم المولى جلّ جلاله على أنبيائه جاء بلفظ التنكير كما في الصافات: ﴿سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾: ٧٩ ﴿سَلِّمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾: ١٠٩ ﴿سَلِّمْ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾: ١٢٠، ﴿سَلِّمْ عَلَى إِيْلَ يَاسِينَ﴾: ١٣٠، ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾: ١٨١، وكذلك تحيته لأهل الجنة ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾: يونس: ١٠، ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾: ق: ٣٤، ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾: الأحزاب: ٤٤، وغير ذلك كثير في القرآن الكريم، بينما جاء السلام معروفاً في تسليم الأنبياء والرسل كقول موسى وهارون لفرعون: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ طه: ٤٧.

ومن الآيات المتشابهة التي وقف عندها علماء المتشابهة في هذا الموضوع، حديثهم عن آيتين في سورة المؤمنون، يقول سبحانه:

(١) انظر: بدائع الفوائد: ١٦٦/٢ - ١٦٧.

(٢) المرجع السابق: ١٦٧/٢.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُرُثًا فَبَعَدَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: ٤١، فورد لفظ (القوم) معرّفاً بالألف واللام، بينما في آية بعدها جاء اللفظ بدونها: ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَدَ الْقَوْمَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: ٤٤.

يرى الخطيب الإسكافي رحمه الله أن التعريف في الآية الأولى جاء في قصة معلومة، وهي قصة قوم صالح عليه السلام، فاقتضى ذلك التعريف بالألف واللام، أما الآية الأخرى فالقصة غير معلومة، ولم تختص بأقوام محددين، فناسب ذلك التنكير، وقد بنى توجيهه رحمه الله على السياق المتقدم للآيتين، فقال: "والجواب أن يقال: إن القصة الأولى، وإن خرجت عن لفظ التنكير فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (٢١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾: ١٣—٢٣، فإنه معلوم من المراد بالرسول والمرسل إليهم، فدلّ على ذلك بأن قال: أهلكتهم الصيحة، وهم قوم صالح عليه الصلاة والسلام، فلما كان في أقوام معلومين أتى بذكرهم معرفة فقليل ﴿بَعْدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وخصّ وصفهم بالظلم، لأنه شيء عاملوا به غيرهم وعاملوا به أنفسهم لتكذيبهم الرسل... وأما قوله تعالى: ﴿فَبَعَدَ الْقَوْمَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فإنه جاء بعد خاتمة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾: ٤٢، فلم يبين من المراد، كما بين في الأولى، وكانوا منكورين للمسلمين، فلما أمرهم بلفظ الدعاء عليهم استعمل فيهم ما استعمل فيمن لم يتعين ولم يشتهر فنكر اللفظ فقال: ﴿لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أهلك الله كل قوم لا يؤمنون عند ظهور آيات الله لهم ووجوب حجة الله تعالى عليهم<sup>(١)</sup>. وقد وافقه الكرمانى<sup>(٢)</sup>، وابن جماعة<sup>(٣)</sup>، وأبو يحيى الأنصاري<sup>(٤)</sup>.

وإذا نظرت للآيتين تجد أنهما تحكيان نهاية أولئك الأقوام، وما آل إليه حالهم من تكذيب الرسل، ولهذا قال: ﴿فَبَعْدًا﴾، والبعد هو اللعن والطرْد،

(١) درة التنزيل: ١٧٦.

(٢) انظر: البرهان: ٢٧٧.

(٣) انظر: كشف المعاني: ٢٦٧.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ٢٨٢.



وإذا تتبعنا ما جاء في كتاب الله تعالى لاحظت أن ما جاء بعد لفظ (بعداً) جاء بالتعريف، وفي قصص معلومة أيضاً، والآيات وردت في سورة هود، ففي قوم نوح: ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: ٤٤، وقوله: ﴿الْأَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾: ٦٠، ﴿الْأَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودٍ﴾: ٦٨، ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّلْمَدِينِ كَمَا بَعِثْتُ ثَمُودَ﴾: ٩٥، بينما لم يرد التنكير بعد (بعداً) إلا في موضع واحد، وهو الذي بين أيدينا في هذه المسألة والله أعلم.

ومن المواضع قوله تعالى في سورة النور: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: ٥٨، حيث ورد لفظ الآيات بالالف واللام، وفي الآية التي بعدها جاء اللفظ بالإضافة للضمير، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: ٥٩.

ابن الزبير الغرناطي يرى أن سبب الاختلاف بين الآيتين المتجاورتين في التعريف والتنكير هو أن العرب لا تكرر اللفظ الواحد، لكرهه استثقال اللفظ، ما لم يحمل على معنى من المعاني، وهو ضرب من التفنن في لغتهم. واكتفى بهذا التوجيه. يقول: "لما تقارب اللفظ الواحد عدل عن تكراره بلفظ واحد فيما تقارب، على عادة العرب في استثقالها تكرار اللفظ الواحد بعينه في بيت واحد من الشعر أو ما تقارب من الكلام، ما لم يحمل على ذلك حامل من المعنى، فجاء بالآيات في الأولى معرّفاً بالالف واللام للعهد فيما تقدم من المعتبرات الواضحة الدلالة، وفي الآية الثانية مضافاً إلى الضمير المتصل، لتحصل نسبة الآيات لمن هي له تعالى، وكانت الثانية هي المضافة، لأنها مع ما تعطيه من النسبة مبينة للأولى بياناً تأكيداً"<sup>(١)</sup>، ووافقه ابن عاشور<sup>(٢)</sup>.

(١) ملاك التأويل: ٨٨٧/٢

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ٣٩٥/١٨.

وقد أورد ابن جماعة تعليل الغرناطي السابق، لكنه ذكر رأياً آخر يستند إلى سياق الآية فيرى أن الآية الأولى جاء فيها ذكر الأوقات التي يستأذن فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ النور: ٥٨، فلما قدم الأوقات التي يستأذن فيها، والاستئذان من أفعال العباد، ورد اللفظ بالتعريف فقال (الآيات) أي العلامات على أحكامه تعالى، أما الآية الثانية فجاء فيها ذكر بلوغ الأطفال ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهو من فعله تعالى وأمره لا من فعل العبد فناسب ذلك مجيء اللفظ بالإضافة لاختصاص المولى به<sup>(١)</sup>.

وأرى والله أعلم أن هذا التوجيه هو الأولى، لأنه مبني على تأمل السياق الوارد في الآية، كما ينبغي ألا نغفل توجيه ابن الزبير، لأنه قائم على مسألة التلاؤم الصوتي، والنظر في مسألة الخفة والثقل في كلام العرب.

ومن الألفاظ التي تحدث عنها علماء المتشابه اللفظي في القرآن الكريم حديثهم عن لفظ (الكذب) حيث ورد بالتعريف في آية الصف فقط، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: ٧، بينما جاءت هذه اللفظة بالتنكير في سائر الآيات المشابهة لآية الصف<sup>(٢)</sup>، فما سر انفراد آية الصف بالتعريف دون غيرها؟

ذكر الإسكافي أن الكذب مصدر، والمصدر إذا عرّف قصد به الجنس، وفي كلام العرب جاء استعمال النكرة مع المصدر أكثر من المعرفة، ولهذا ورد كثيراً في القرآن الكريم، أما اختيار التنكير فيكون إذا اقترن به لفظ يقتضيه، أو كلام متقدم عليه يوجب له ذلك، وكل ما ورد في القرآن من ذلك قارنه ما يقتضي التنكير.

(١) انظر: كشف المعاني: ٢٧٣.

(٢) في الأنعام: آية: ٢١، ٩٣، ١٤٤، وهود: ١٨ والعنكبوت: ٦٨، والأعراف: ٣٧، ويونس: ١٧.



يقول رحمه الله في توضيح هذه المسألة: "الكذب مصدر يسمى به الكلام المكذوب فيه، وهو في قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ على أصله مصدر غير منقول، والمصدر إذا عرّف قصد به الجنس، والفرق بين معرفته ونكرته، إذا قال القائل: قلت كذباً، أي: قلت نوعاً من أنواع الكذب التي هي كثيرة، وإذا قال: قلت الكذب، فكأنه قال: قلت القول الذي يشهد بالكذب، ويشار إليه به، وليس يراد به الجنس كله، كما لا يراد — إذا قال: شربت الماء — كل الماء، وإنما يراد بعضه بدلالة العرف، وإنما يختار التنكير إذا قارنه لفظ يقتضيه، أو كلام متقدم عليه يوجب له ذلك. ومما قارنه لفظ يقتضي له التنكير كل موضع جاء فيه ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ﴾، فقوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ﴾ يقتضي أحد كذابين، وإذا ضُم إلى الكذب الأول كذباً ثانياً يثني به الأول المذكور، وما يكون له أمثال يتنكر بعضها ببعض، كما كان ذلك يقع على واحد من أمة شائع فيها فيكون فيها نكرة، فإذا جاءت بعد كذب قرينة تقتضي له التنكير، فأكثر ما جاء منكرأ معها وهو ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الأنعام: ٢١، ﴿أَوْ قَالَ أُوْحَىٰ إِلَىٰ وَلَمَّ يُوحِ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾: ٩٣، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يونس: ١٧، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ العنكبوت: ٦٨، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾، فهذه خمسة مواضع تقدمها قوله في الأعراف: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: ٣٧، وكانت مقارنة تقتضي التنكير في لفظها.

وأما قوله في سورة الأنعام: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: ١٤٤ فإنما معناه ومن أظلم لنفسه ممن يخلق كذباً يقصد به الضلال للناس، فكل من ضل منهم بكذبه فقد أضله كذب خلقه، ففيه دليل أمثال له يقتضي تنكيره، وكذلك قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: ١٨، فكانت لفظة من افتري على الله كذباً لفظة واحدة، والمعنى كل كاذب كذباً، فمُضَامَّةُ أنواع الكذب لِمُضَامَّةِ الكاذبين لهم، يقتضي تنكير لفظه، إذ صار واحداً



من جماعة شائعاً فيها“<sup>(١)</sup>.

وعن سر تعريف آية الصف يقول: ”وأما تعريفه في سورة الصف، فلأن القصد الإشارة إلى ذلك الكذب وهو تكذيب اليهود بآيات الله، وتكذيب النصارى بها، وقد تقدمت قصتهما في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَكُونُ لَكُمْ تَوْذُونِي﴾: ٥، وبعده: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا...﴾: ٦—٧، أي ومن أظلم ممن يكذب الكذب الذي تشير إليه الأمم من المسلمين والنصارى واليهود على اختلاف اعتقادهم، فقد صح أنه الكذب المعروف عند المسلمين، وعند علماء الطائفتين من أهل الكتاب، فالتعريف في هذا المكان فائدته التي تخصه ما ذكرنا، كما أن ما جاء منكراً اقتضاه مكانه على ما بينا“<sup>(٢)</sup>.

وعلى هذا فإن الآيات التي ورد فيها تنكير اللفظ على نوعين: إما آيات اقترن بها ما يدعو إلى تنكير اللفظ، حين عطف على الجملة الأولى بقوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ...﴾، فتعدد الكذب، فلما تعدد ضم الكذب الثاني للكذب الأول، فاقضى ذلك تنكير الكذب، وقد حصل ذلك في خمس آيات أوردها الإسكافي. وإما أن يتقدم سياق الآية ما يدعو للتنكير، وقد حصل ذلك في آية الأنعام (١٤٤)، وآية هود، كما بين الخطيب الإسكافي رحمه الله تعالى.

وبعد مراجعة الآيات في كتاب الله تعالى، وقفت على آية ثالثة لم يتحدث عنها الإسكافي، ومن جاء بعده، وهي آية الكهف ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: ١٥، وتنكير الكذب هنا جاء، لأنه تقدم في أول الآية ما يدعو لذلك، وهو قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾، فهؤلاء القوم كل منهم يكذب كذباً، فلما تعدد الكذب ناسبه التنكير بناء على قاعدة الإسكافي، وهناك أمر آخر يدعو للتنكير، وهو شناعة ظلمهم لأنفسهم، ولغيرهم، وافتراءهم الكذب على الله، فضللوا، وأضلوا، وهذا من أعظم الظلم، فجاء

(١) درة التنزيل: ٢٧٦.

(٢) درة التنزيل: ٢٧٦—٢٧٧.

تنكير اللفظ لشناعة هذا الفعل، وذلك العمل.

وقد أخذ الكرمانى توجيه الخطيب الإسكافى وعرضه على شكل لمحة موجزة<sup>(١)</sup>، أما ابن الزبير الغرناطى فقد سار على نهج صاحبيه لكنه كان أكثر توضيحاً، فقد ذكر أن آية الصف انفردت بذكر تعيين المفترى فيه الكذب منطقاً به من غير الإجمال الوارد فى الآيات الأخرى، بل ورد على التفصيل والتعيين<sup>(٢)</sup>.

أما ابن جماعة<sup>(٣)</sup>، والأنصارى<sup>(٤)</sup> فقد تابعا الكرمانى ونقلّا كلامه. وعلى ضوء ما ذكره نلاحظ دلالة الألف واللام على العهد، فالكلمة التى ترد فيها الألف واللام التى للعهد تقوم مقام الوصف.

وأختم موضوع التعريف بالألف واللام فى المتشابه اللفظى بحديث علماء المتشابه عن آيتين متشابهتين مختلفتين فى نوع التعريف، أولاهما فى سورة الحجر يقول تعالى مخاطباً إبليس لعنه الله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾: ٣٥، فورد لفظ (اللجنة) بالتعريف بالألف واللام، بينما فى سورة (ص) خلا اللفظ من الألف واللام، وجاء بالإضافة يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾: ٧٨. يعلل الإسكافى سبب مجيء التعريف بالألف واللام فى آية الحجر بأن أول القصة فى هذه السورة جرى على اسم الجنس المعرف بالألف واللام، فذكر الإنسان، والجن والملائكة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ..﴾: ٢٦، وقوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْتُهُ﴾: ٢٧، وقوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾: ٣٠. أما آية (ص) فلم يتقدم مثل ذلك، وإنما تقدم قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾: ٧٥، فخصصه بالإضافة إليه، فأجرى اللفظ على ذلك فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾.

يقول رحمه الله: "القصة فى سورة الحجر ابتدأت بالذكر وهو خلق

(١) انظر: البرهان: ٣٤٥.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٤٣٥/١.

(٣) انظر: كشف المعاني: ٣٥٦.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ٤٢١.

الإنسان، والجن باسم الجنس المعرف بالألف واللام... وكان ما استحقه إبليس بترك السجود من الجزاء ما أطلق عليه اللفظ الذي ابتدأت بمثله القصة، وهو الجنس المعرف بالألف واللام. وكان الأمر في سورة ص بخلاف ذلك... فلم تفتح بذكر الصنفين من الجن والإنس باللفظ المعروف بالألف واللام كما كان في سورة الحجر، ولما كان موضع ﴿مَالِكَ الْأَتَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ جاء بدله ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾، ثم قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ أَتَّكَبَرْتَ﴾ فجعل بدل الساجدين أن تسجد، ثم قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ فخصصه بالإضافة إليه دون واسطة يأمره بفعله أجرى لفظ ما استحقه من العقاب على لفظ بالإضافة، كما قال بيدي، فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾، فكان الاختيار في التوفقة بين الألفاظ الذي افتتحت بها الآية واستمرت إلى آخرها هذا<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه الكرمانى وأشار إلى توجيهه بإيجاز شديد<sup>(٢)</sup>، وتابعه ابن الزبير<sup>(٣)</sup>، والأنصارى<sup>(٤)</sup>، كما وافقه ابن جماعة وأوضح أنه لما أضاف خلق آدم إليه تشریفاً له عليه السلام، أضاف طرد عدوه إليه زيادة في كرامته عليه السلام<sup>(٥)</sup>.

وهذا التعليل الذي جاء به الإسكافي ووافقه عليه العلماء يعود إلى تلاؤم اللغة، وتوافق أحوال الكلمات، فلم تتم مناقشة السر المعنوي، فأصبح لكل كلمة مع صاحبها، وما جاورها مقام، فلفظة (لعتي) مقامها مع صاحبها (بيدي)، ولفظة (اللعنة) مقامها مع صواحبها (الإنسان)، و(الجان)، و(الملائكة)، وكما أن المعاني تتلاءم وتتقارب، فإن أحوال المباني تتلاءم وتتقارب، فكان الألف واللام في الإنسان، والجان والملائكة نادى الألف

(١) درة التنزيل: ١٤١.

(٢) انظر: البرهان: ٢٣٩.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٧٢٥/٢.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ٢١٤.

(٥) انظر: كشف المعاني: ٢٢٣.



واللام في اللعنة، وكذلك ياء الإضافة في (يدي) نادت ياء الإضافة في (لعنتي)، وهذا توجيه فيه اهتمام ظاهر بمسألة تناسب اللفظ.

## التعريف بالاسم الموصول:

سبق أن ذكرت في أول هذا الفصل عناية علماء البلاغة بالتعريف بالاسم الموصول، وعلى الخصوص لفظ (الذي)، فقد أفرد الإمام عبد القاهر الجرجاني فصلاً خاصاً بهذا اللفظ<sup>(١)</sup>.

أما علماء التشابه اللفظي فلهم وقفة أيضاً عند هذا اللفظ، فالخطيب الإسكافي يذكر أن لفظ (الذي) أعم وأشمل من لفظ (ما) الموصولة، فإذا قلت: رأيت ما عندك، لم يدخل تحتها المميزون، وإذا قلت: رأيت الذي عندك دخل، فإنه يصلح للمميزين والبهائم والجماد، كما أن للذي ميزة عن (ما) و(من) حيث يحسن حذف المبتدأ من صلة الذي إذا كان ضميرها كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَيْنَا مُوسَىٰ أَلَكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ﴾ الأنعام: ١٥٤، والمعنى على الذي هو أحسن، ومن تميزها عليهما وقوعها على الجنس<sup>(٢)</sup>. ويرى ابن الزبير أن لفظ (الذي) هو الأصل في الموصولات؛ لأنه لا يخرج إلى غير ذلك، يقول: "اعلم أيضاً أن لفظ (الذي) وما تصرف منه للمثنى والمجموع أصل في الموصولات، إذ لا يخرج لفظ (الذي) عن الموصولية، أما (مَنْ) فإنها تخرج إلى الاستفهام، والشرط، وغيرهما"<sup>(٣)</sup>.

وفي موضع آخر يقول: "... (ما) وإن كانت موصولة، فليس فيها من العهد ما في (الذي) وفي الألف واللام... وهذا فرق واضح؛ لأن (ما) تفارق الموصولية فتخرج إلى الإبهام، فلا تكون فيها عهديّة، أما (الذي) فلا تفارق

(١) انظر: دلائل الإعجاز: ١٩٩ وما بعدها.

(٢) انظر: درة التتريل: ٢٢٦—٢٢٧.

(٣) ملاك التأويل: ٥٣٠/١.

ولا تخرج، فالعهدية فيها لازمة<sup>(١)</sup>.

وقد جاء حديث علماء المتشابه عن الاسم الموصول في أربعة مواضع متشابهة في القرآن الكريم، وهي تمثل ما ورد في كتاب الله في هذا الخصوص، اثنان منها عن الاختلاف بين (الذي) و(ما)، واثنان عن الاختلاف بين (من) و(ما)، وسيكون حديثي أولاً عن الفرق بين (الذي) و(ما) في الآيات المتشابهة، وهذه المواضع جاء الاختلاف فيها بين الموصولات.

أما أول المواضع التي سنتحدث عنها في هذا الموضوع فهو ما ورد في سورة النحل، يقول تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ٩٦، فجاء التعبير بالموصول في هذه الآية بلفظ (ما) دون الذي، أما في سورة الزمر فجاء بلفظ الذي، يقول تعالى: ﴿لِيَكْفِرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ٣٥، فما سر الاختلاف بين الآيتين في التعبير بالاسم الموصول؟

ينظر الخطيب الإسكافي إلى مناسبة اللفظ للسياق في الآيتين، فيرى أن إيراد كل واحد من الموصولين في مكانه راجع لمناسبة ما تقدمه من الموصولات، وبالنظر للآيات التي تقدمت الآيتين نلاحظ ذلك إلا أنه اقتصر على ذكر مناسبة اللفظ، ولم يذكر شيئاً عن المناسبة المعنوية.

يقول: "...وقوله في سورة الزمر: ﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ و﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، إنما هو للبناء على ما تقدم وهو قوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾: ٣٣، فافتتحت الآية التي قبلها بالذي ووصلت بفعل تعلق به قوله: ﴿لِيَكْفِرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، وقصد جنس عملهم السيئ وجنس عملهم الحسن، فكان استعمال الذي في هذا المكان أولى ليلتئم اللفظان المتعلق أحدهما بالآخر كما التأم معناه.

وأما الآية التي في سورة النحل فإن الأمر فيها على مثل ما في سورة

(١) المصدر السابق: ٢٨٨/١.

الزمر من حمل اللفظ على نظيره مع مطابقة المعنى له، وذلك أن أول الآية: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ فقال: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾... فلما جاء ذكر الجزاء وهو ما عند الله، كان استعمال اللفظ الذي يرجع إلى ما تقدم أولى من استعمال غيره فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾... ثم قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ٩٧، فاستعمل (من) وهي للمميزين عامة فيهم وبإزائها في غيرهم (ما)، فلما استعملت (من) هنا شرطاً كان استعمال (ما) التي هي قرينتها فيما يتعلق بجزاء شرطها أولى مما لا يلائمها..“ (١).

وقد وافقه الكرمانى واختصر تعليله (٢)، وتابعه أبو يحيى الأنصارى (٣). أما ابن الزبير الغرناطى فوافق الإسكافى في توجيه المناسبة اللفظية، كما بيّن وجه المناسبة المعنوية للآيتين، فقد ذكر أن المراد من آية النحل التي افتتحت بـ (ما) في قوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ الإطلاق والعموم، فكانت في هذا الموضع أولى من (الذي)، فالإطلاق أملك بها وهو المقصود هنا، وتكررت في قوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ ومعنى الحصر والتعميم فيهما واحد، ثم ناسبها ووافقها ورودها في قوله: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. أما آية الزمر فواردة في معنى الخصوص المقصود به طائفة بعينها ألا ترى ما قبلها ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾: ٣٣ والمراد بالذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والذي صدّق به هم متقدمو الصحابة ممن سبق وحسن تصديقه، وهؤلاء مخصوصون، وترجع إليهم الضمائر في قوله: ﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، وقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: ٣٤، فلم يكن ليصلح هنا غير الأداة العهدية،

(١) درة التنزيل: ٢٢٧.

(٢) انظر: البرهان: ٣٢٢.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٢٢٦.



فجاء بالذي في الموضعين في الآية ﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، و﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

إذا أفادت (الذي) التخصيص ومناسبتها للمخصوصين المذكورين في الآية، أما (ما) في الآية الأخرى فأفادت العموم والشمول المذكور في الآية. ومثل الموضع السابق في الفرق بين لفظي (الذي) و (من) في الدلالة على الموصولية ما ذكره الكرمانى وابن الزبير الغرناطي، في توجيه قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: ٦٤، مع قوله تعالى في سورة يونس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: ٧٣.

يرى الإمام الكرمانى أن لفظة (من) وهي اسم موصول تفيد الكثرة والمبالغة، ولهذا فهي تصلح للواحد والتثنية والجمع والمذكر والمؤنث، أما لفظة (الذين) فهي لجمع المذكر فحسب، وتفيد العهد، وأوضح أن (من) جاءت مع الفعل المشدد الذي يفيد المبالغة والكثرة أيضاً فناسب ذلك. يقول: ”أنجيناه ونجيناه للتعدي، لكن التشديد يدل على الكثرة والمبالغة، فكان في يونس ﴿وَمَنْ مَّعَهُ﴾ ولفظ (من) يقع على أكثر مما يقع عليه (الذين) لأن (من) تصلح للواحد والتثنية والجمع، والمذكر والمؤنث، بخلاف (الذين) فإنه لجمع المذكر فحسب، فكان التشديد مع (مَنْ) أليق“<sup>(٢)</sup>.

وقد سبق أن تحدثت عن الفرق بين الصيغتين في موضوع الاختلاف بين صيغ الفعل الماضي في الفصل الأول من حيث الدلالة على الكثرة والمبالغة. أما ابن الزبير الغرناطي فيرى أن لفظ (الذي) هو الأصل في الموصولات، وقد كرر ذلك في كتابه، كما ذكرت في أول الفصل، يقول: ”...اعلم أيضاً أن لفظ (الذي) وما تصرف منه للمثنى والمجموع أصل في الموصولات،

(١) انظر: ملاك التأويل: ٧٦٢/٢ — ٧٦٤.

(٢) البرهان: ١٩٠.

إذ لا يخرج لفظ (الذي) عن الموصولية، أما (مَنْ) فإنها تخرج إلى الاستفهام والشرط وغيرهما، والأصل في النقل أيضاً يكون بالهمزة، وأما النقل بالتضعيف والباء وغيرهما فثان عن الأصل..“<sup>(١)</sup>، كما بنى الاختلاف على قاعدة تتكرر في توجيهاته للآيات المتشابهة وهي: ”أن ترتيب السور أصل مراعى وترتيب الآي في هذا الحكم أولى وأبين“<sup>(٢)</sup>، وله رحمه الله كتاب أسماء (البرهان في ترتيب سور القرآن)، أوضح فيه مناسبة كل سورة لما قبلها، وهو يحيل عليه في بعض توجيهاته للآيات المتشابهة في هذا الكتاب<sup>(٣)</sup>.

وبناء على ذلك جاء تعليله لهذا الموضع، فيقول: ”..فإذا قرر ما ذكرناه فنقول: إن سورة الأعراف ورد فيها قوله: ﴿فَأُنْجِيْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، كل منهما على الأصل في نقل الفعل وفي الموصول، فقليل: (فأنجينا)، وقيل: (والذين معه)، وورد ذلك في سورة يونس على ما هو ثان عن الأصل في النقل وفي الموصول رعيّاً للترتيب، ولا يمكن العكس على هذا“<sup>(٤)</sup>.

ثم ذكر أن كل آية لها مناسبة لفظية، فالآية الأولى لما كان فيها زيادة الهمزة في (أنجينا) ناسبه لفظ (الذين) لزيادة حروفه عن لفظ (من)، يقول: ”ثم انجر مع ذلك رعي تناسب التقارن لما ورد في الأولى، فأنجينا بزيادة همزة النقل المثبت لها صورة الألف في الخط ونطق يخصها بحركة الهمزة، فطالت الكلمة بالألف خطأ وبالنطق بحركة الهمزة لفظاً ناسبها الموصول الذي هو (الذين) بزيادة حروفه على حروف (مَنْ)، ولما قيل في الثانية: (فنجينا) فجيء بما هو أخصر في الخط، ناسبه من الموصولات (مَنْ) المفرد في معنى الذي، وهو أخصر“<sup>(٥)</sup>. وفي مقابل الموضعين السابقين يتحدث علماء المتشابه اللفظي عن سر

(١) ملاك التأويل: ٥٣٠/١.

(٢) المصدر السابق: ٥٣٠/١.

(٣) انظر: البرهان في ترتيب سور القرآن، تحقيق: محمد شعباني، الرباط، وانظر: ملاك التأويل: ٥٣٠/١.

(٤) ملاك التأويل: ٥٣١/١.

(٥) ملاك التأويل: ٥٣١/١.

الاختلاف بين لفظي (من) و(ما) في الآيات المتشابهة، ففي سورة يونس يقول المولى سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ٥٥، وفي آية أخرى من السورة نفسها جيء بلفظ (من)، يقول تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۖ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: ٦٦، فهل من فرق بينهما؟ يرى الإسكافي أن مناسبة السياق اقتضت لفظ (ما) في الأولى، فقبل الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾: ٥٤، والمقصود بذلك المآل والمأخذ، فلفظ (ما) هو لغير العقلاء.

أما الآية الأخرى فجاء التعبير فيها بلفظ (من) والآية نزلت في قوم آذوا رسول الله ﷺ، فنزلت فيهم: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: ٥٦، فأنسه ربه وثبته، فهم لن يضره بشيء، مما يتوعدونه من القتل، وأنواع المكروه، ثم أخبره أن العزة لله وحده، وأنه يعز عباده المؤمنين بعزه، فالملك له وحده سبحانه، له من في السموات ومن في الأرض، وعلى هذا جاء لفظ (من) لأن المراد العقلاء الذين يعزون دينهم وينصرون نبيهم<sup>(١)</sup>. وقد وافقه الإمام الكرمانى<sup>(٢)</sup>، وابن جماعة<sup>(٣)</sup>، وأبو يحيى الأنصارى<sup>(٤)</sup>، وشهاب الدين الألوسى<sup>(٥)</sup>.

أما ابن الزبير الغرناطي فذكر توجيه الآية الثانية فقط<sup>(٦)</sup>، كما ذكره الفخر الرازى<sup>(٧)</sup>، وأبو حيان<sup>(٨)</sup>.

(١) انظر: درة التنزيل: ١١٥—١١٦.

(٢) انظر: البرهان: ٢١٦—٢١٧.

(٣) انظر: كشف المعاني: ٢٠٥.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ١٧٩.

(٥) انظر: روح المعاني: ١٣٠/٦، ١٤٥.

(٦) انظر: ملاك التأويل: ٦٢٠/١—٦٢١.

(٧) انظر: التفسير الكبير: ١٧/١٠٥.

(٨) انظر: البحر المحيط: ١٧٦/٥.



ولجار الله الزمخشري تعليل آخر للآية الثانية التي ورد فيها التعبير بـ (من) دون (ما) وهو توجيه يختلف عن توجيه الإسكافي ومن وافقه، يقول: "قوله: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يونس: ٦٦ يعني العقلاء المميزين وهم الملائكة والثقلان، وإنما خصهم ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكته فهم عبيد كلهم، وهو سبحانه وتعالى ربهم ولا يصلح أحد منهم للربوبية ولا أن يكون شريكاً له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له ندّاً وشريكاً...<sup>(١)</sup>. وقد نقل هذا التوجيه الفخر الرازي<sup>(٢)</sup>، وكذلك أبو حيان مع التوجيه السابق<sup>(٣)</sup>.

وأرى — والله تعالى أعلم — أن توجيه الزمخشري أقرب من توجيه الإسكافي والغرناطي ومن وافقهما؛ لأن سياق الآية كاملة يتطلب ذلك، فحين نتأمل كلام الزمخشري ونربطه بآخر الآية وهو قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يونس: ٦٦، نرى التناسب المعنوي لسياق الآية كاملة دون النظر لما تقدمها من آيات، وهذا فيه وضوح أكثر من التوجيه السابق، ومع ذلك لا نغفل ذلك التوجيه، فهو أحد وجوه تعليل المسألة.

ومثل الموضع الذي سبق الحديث عنه، توجيه علماء المتشابه لقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا إِنَّهُمْ بِالْغُدُوقِ الْأَصَالِ﴾: ١٥، فجاء التعبير في هذه الآية بلفظ (من)، وفي سورة النحل جاء التعبير بلفظ (ما) يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: ٤٩.

الإمام الكرمانى يربط بين كل آية وما تقدمها من آيات، فإراعى مسألة السياق بين الآيات، فالآية الأولى التي في سورة الرعد تقدمها ذكر

(١) الكشاف: ٢/٢٤٤.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ١٧/١٠٥.

(٣) انظر: البحر المحيط: ٥/١٧٦.

آيات الله في كونه من برق ورعد وسحاب وصواعق، ثم ذكر الملائكة وتسبيحهم، ثم أتبع ذلك بذكر الأصنام والكفار وما هم فيه من ضلال ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ۝١٣ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبْسٌ كَفَّيْنَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝١٤﴾، أما آية النحل فما تقدمها يفيد العموم، وهو ما خلق الله، وهو عام لجميع المخلوقات، وما لا يعقل فيها هو الأكثر فناسب التعبير بـ (ما) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝٤٨﴾.

يقول: "في هذه السورة — الرعد — تقدم آية السجدة ذكر العلويات من البرق والرعد والسحاب والصواعق، ثم ذكر الملائكة وتسبيحهم، وذكر بآخره الأصنام والكفار، فبدأ في آية السجدة بذكر ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ لذلك، وذكر الأرض تبعاً، ولم يذكر (من) فيها استخفافاً بالكفار والأصنام... وأما في النحل فقد تقدم ذكر ما خلق الله على العموم، ولم يكن فيه ذكر الملائكة، ولا الإنس بالصریح، فاقتضى سياق الآية ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، فقد قال في كل آية ما لاق بها" (١).

وقد وافقه ابن جماعة وذكر معنى كلامه (٢)، أما الأنصاري فنقل توجيه الكرمانی (٣).

أما ابن الزبير الغرناطي فكان توجيهه أكثر وضوحاً من توجيه الكرمانی، وإن كان قريباً من تعليقه يقول: "إن ورود (من) في سورة الرعد لا سؤال فيه، فإن قبول الأوامر وامتنال الطاعات بالقصد والاختيار بمشيئة الله سبحانه

(١) البرهان: ٢٣٢—٢٣٣.

(٢) انظر: كشف المعاني: ٢١٧—٢١٨.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٢٠٥، ٢٢٠.

إنما يكون من أصحاب العقول وهم الملائكة والإنس والجن، وهم المقصودون في الآية، فوردت بـ (مَنْ) الواقعة على العقلاء، لهذا قيل: (طوعاً وكرهاً)، لأن ذلك إنما يكون ويستوضح من العاقل، فالآية واردة على ما ينبغي. وأما آية النحل فمراعى فيها لفظ (دابة) الوارد فيها إذ هو عام للعاقل وغيره، فوردت الآية بـ (ما) الواقعة على الأنواع والأجناس مناسبة لما تقدم من الإطلاق والعموم<sup>(١)</sup>.

وما ذكره ابن الزبير نجد له إشارة عند الزمخشري في كشافه، يقول: "فإن قلت: فهلاً جيء بـ (من) دون (ما) — وهذا في آية النحل — تغليباً للعقلاء من الدواب على غيرهم؟ قلت: لأنه لو جيء بـ (من) لم يكن فيه دليل على التغليب، فكان متناولاً للعقلاء خاصة، فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم إرادة العموم"<sup>(٢)</sup>.

---

(١) ملاك التأويل: ٧٠٠/٢

(٢) الكشاف: ٤١٢/٢



## الفصل الخامس

الاختلاف بين الآيات المتشابهة  
في اختيار الحروف



## الفصل الخامس

### الاختلاف في اختيار الحرف

إن بناء اللفظة يبدأ أولاً من اختيار الحروف وتركيبها، حيث يمكن إنشاء الكلمات والجمل التي يقوم عليها الكلام البليغ، ولهذا فإن عملية إجادة وتحسين الكلام حتى يكون بليغاً ومقبولاً تبدأ من اختيار الحروف، وعلى هذا كان للحروف أهميتها وأثرها في بناء الألفاظ والجمل.

والحروف في كلام العرب على نوعين، حروف المباني، وهي التي يقوم على أساسها بناء الكلمة، وهي الحروف الهجائية، وسميت بذلك لأن منها بناء الكلمة، وحروف المعاني وهي عبارة عن حروف تجري في كلام العرب، وتعطي دلالات مختلفة، فمنها ما يفيد العطف، ومنها ما يفيد الجر، ومنها ما يفيد النفي، وكذلك الشرط وهكذا<sup>(١)</sup>، ولكل من النوعين أهميته كما ذكرنا.

وعن أهمية هذا الموضوع يقول الشيخ العلامة محمود شاكر في مقدمة كتاب الشيخ محمد عبد الخالق عزيمة (ت ١٤٠٤هـ): ”وحروف المعاني التي يتناولها هذا القسم الأول من جمهرة علم القرآن العظيم، أصعب أبواب هذه الجمهرة؛ لكثرتها، وتداخل معانيها، فقل أن تخلو آية من القرآن العظيم من حرف من حروف المعاني.

أما المشقة العظيمة، فهي في وجوه اختلاف مواقع هذه الحروف من الجمل، ثم اختلاف معانيها باختلاف مواقعها، ثم ملاحظة الفروق الدقيقة

---

(١) انظر: حروف المعاني للدكتور: عبد الحي حسن كمال: ١٩، ٢٥.



التي يقتضيها هذا الاختلاف في دلالة المؤثرة في معاني الآيات، وهذا وحده أساس علم جليل من علوم القرآن العظيم<sup>(١)</sup>.

وحدثني في هذا الفصل عن حروف المعاني التي لها صلة وثيقة بالمتشابه اللفظي في القرآن الكريم، فأيات كثيرة من المتشابه لا فرق بينها إلا في حروف المعانسي، كحروف العطف أو الجر... وهذه الحروف يُفهم بها كثير من خصائص الأساليب البلاغية، ويُدرك بها ما في اللغة من روعة وبيان، وجمال في العبارة والأسلوب.

وقد كان اهتمام النحويين بهذه الحروف واضحاً، فقد أفردوا لها مؤلفات خاصة، لما لها من أثر في دلالة الكلام وربط أجزائه ووضوح معناه، ومن أبرز المؤلفين: الزجاجي (ت ٣٤٠هـ)<sup>(٢)</sup>، والرماني (ت ٣٨٦هـ)<sup>(٣)</sup>، والهروي (ت ٤١٥هـ)<sup>(٤)</sup>، والمرادي (ت ٧٤٩هـ)<sup>(٥)</sup>.

أما البلاغيون فلم يصل اهتمامهم بهذه الحروف إلى أن يفردوا لها دراسات مستقلة، كما صنع علماء النحو، وأمر آخر يجب التنبيه عليه وهو أن ما ذكره من مسائل يعد من باب الحديث العرضي الذي يمليه المقام، ومن أراد الزيادة في هذا الأمر فليرجع لبحث الدكتور هادي الهلالي الذي بحث الحروف العاملة بين النحويين والبلاغيين، وأخرجه في كتابين قيّمين<sup>(٦)</sup>، ومما يشار إليه في هذا المقام كتاب الدكتور محمد الأمين الخضري (من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم)، اعتنى فيه المؤلف بدراسة أنواع حروف الجر في كتاب الله تعالى.

---

(١) مقدمة (دراسات لأسلوب القرآن الكريم) القسم الأول/ الجزء الأول للشيخ محمد عزيمة.

(٢) انظر: كتاب: حروف المعاني للزجاجي، تحقيق: د. علي الحمد.

(٣) انظر: كتاب: معاني الحروف للرماني، تحقيق: د. عبد الفتاح سبكي.

(٤) انظر: كتاب: الأزهية في علم الحروف للهروي، تحقيق: عبد المعين الملوحي.

(٥) انظر: كتاب: الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، تحقيق: د. فخر قباوة، ومحمد فاضل.

(٦) انظر: الحروف العاملة في القرآن الكريم، ونظرية الحروف العاملة وطبيعة استعمالها القرآني بلاغياً.

وإذا نظرت إلى جهد علماء المتشابه في هذا الموضوع وجدت لهم وقفات وتأملات في غاية الأهمية، حيث تظهر أسرار الإعجاز القرآني في أعلى صورها، وقد كان لحروف العطف النصيب الأوفر، فأغلب الآيات المتشابهة التي تحدثوا عنها يكون الاختلاف فيها لحرف العطف، يأتي بعد ذلك حروف الجر، ثم تأتي حروف أخرى نذكرها في موضعها، والآيات التي سأحدث عنها تمثل كل ما جاء في كتاب الله تعالى من المتشابه في هذا الموضوع، وسأحدث أولاً عن الاختلاف في حروف العطف.

## حروف العطف:

من المعلوم أن طريقة علماء المتشابه في ذكر الآيات وتوجيهها هي أنهم التزموا ترتيب المصحف في السور والآيات، ولهذا كان حديثهم عن الحروف متفرقاً حسب ما يمليه عليهم النص القرآني، كما فرضت عليهم دراستهم للمتشابهات أن يتحدثوا عن أكثر من حرف في الموضع الواحد، فيبينوا مناسبة الحرفين جميعاً، فيصعب معه فصل كل حرف بحديث مستقل، ولهذا سيكون الحديث عن حروف العطف على قسمين، الأول: الحديث عن مواضع (الواو والفاء)، والثاني: عن مواضع (ثم) مع (الواو والفاء)، سائلاً المولى عونته وتوفيقه.

## (الواو والفاء):

تعد الآيات المتشابهة التي ورد الاختلاف فيها بين الواو والفاء أكثر من غيرها سواء في حروف العطف نفسها، أو حروف الجر، أو الحروف الأخرى التي سنذكرها في آخر الفصل، ولهذا بدأنا بها لكثرتها وغزارتها.

وأول المواضع التي بين أيدينا في هذا الموضوع، قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: ٣٥، فعطف لفظ (كلا) بالواو دون الفاء، بينما جاء اللفظ في سورة الأعراف بالفاء دون

الواو، يقول تعالى: ﴿وَيَتَادَمُّ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: ١٩، ومعلوم أن العطف بالواو لا يقتضي ترتيباً ما لم يفهم من غيرها، وأن العطف بالفاء يقتضي الترتيب والتعقيب، كما سيتضح لنا بإذن الله، ولكن ما وجه التخصيص في الآيتين مع أن القصة واحدة؟

يرى الإسكافي رحمه الله أن لفظ (اسكن) في البقرة معناه الإقامة والاستقرار، وهي المقام وطول اللبث، فالمراد الجمع بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها، ولو كان العطف بالفاء لتأخر الأكل إلى حين الفراغ من الإقامة، ولذلك فإن من يدخل بستاناً قد يأكل منه وإن كان مجتازاً، فلم يتعلق المعطوف بالمعطوف عليه تعلق الجواب بالابتداء، فعطف بالواو، وعليه فالواو تفيد تلبس المعطوف بالمعطوف عليه، أما ما ورد في سورة الأعراف فإنه من السكنى المراد بها اتخاذ الموضع سكناً، فالله سبحانه أخرج إبليس من الجنة فقال: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَذَّةً وَمَأْمَدَ حُورًا﴾: ١٨، ثم خاطب آدم عليه السلام باتخاذ السكنى له ولزوجه. فجاء التعبير في البقرة بعد أن كان آدم في الجنة، فالمراد اللبث والاستقرار، وفي الأعراف ورد قبل دخول الجنة فالمراد الدخول، إذاً فالفاء تفيد تعلق الأكل بالدخول، كتعلق الجزاء بالشرط.

ومثل هذا الموضع أيضاً قوله تعالى في البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾: ٥٨، مع قوله في الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾: ١٦١. فعطف في الأولى بالفاء، لأن وجود الأكل متعلق بالدخول فارتبط بالفاء، أما الآية الثانية فإن السكنى تعني طول اللبث، والأكل لا يختص بوجود السكنى فجاء العطف بالواو. يقول الإسكافي رحمه الله: "الأصل في ذلك أن كل فعل عطف عليه ما يتعلق به تعلق الجواب بالابتداء، وكان الأول مع الثاني بمعنى الشرط والجزاء، فالأصل فيه عطف الثاني على الأول بالفاء دون الواو، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا﴾ البقرة: ٥٨، فعطف ﴿فَكُلُوا﴾ على



﴿أَدْخُلُوا﴾ بالفاء لما كان وجود الأكل منها متعلقاً بدخولها، فكأنه قال: إن دخلتموها أكلتم منها، فالدخول موصل إلى الأكل متعلق وجوده بوجوده، يبين ذلك قوله تعالى في مثل هذه الآية من سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا﴾: ١٦١، وعطف ﴿كُلُوا﴾ على قوله ﴿اسْكُنُوا﴾ بالواو دون الفاء، لأن اسكنوا من السكنى وهي المقام مع طول اللبث، والأكل لا يختص وجوده بوجوده، لأن من يدخل بستاناً قد يأكل منه وإن كان مجتازاً، فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجواب بالابتداء وجب العطف بالواو دون الفاء، وعلى هذا قوله تعالى في الآية التي بدأت بذكرها: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا﴾ البقرة: ٣٥.

وبقي أن أبيّن<sup>(١)</sup> المراد بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ من سورة الأعراف، مع عطفه على قوله ﴿اسْكُنْ﴾، وهو أن (اسكن) يقال لمن دخل مكاناً، ويراد به الزم المكان الذي دخلته ولا تنتقل عنه، ويقال أيضاً لمن لم يدخله: اسكن هذا المكان، يعني ادخله واسكنه، كما تقوله لمن تعرض عليه داراً ينزلها سكنى فتقول: اسكن هذه الدار، واصنع ما شئت فيها من الصناعات، معناه ادخلها ساكناً لها، فافعل فيها كذا كذا، فعلى هذا الوجه قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَيَقَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا﴾: ١٩ بالفاء الحمل على هذا المعنى في هذه الآية أولى، لأنه عزّ من قائل لما قال إبليس: ﴿أُخْرِجْ مِنْهَا مَذَّةً وَمَا مَدْحُورًا﴾ الأعراف: ١٨ فكأنه قال لآدم: ادخل أنت وزوجك الجنة، فقال: ﴿اسْكُنْ﴾، يعني ادخل ساكناً، ليوافق الدخول الخروج، ويكون أحد الخطابين لهما قبل الدخول والآخر بعده مبالغة في الإعذار وتوكيداً للإنذار وتحقيقاً لقوله عزّ وجل ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٢)</sup>. وقد نقل الفخر الرازي توجيه الإسكافي برمته دون أن يشير إليه<sup>(٣)</sup>.

(١) الحديث للخطيب الإسكافي.

(٢) درة التنزيل: ٥.

(٣) انظر: التفسير الكبير: ٥/٣.

وقد جاء توجيه الكرماني قريباً مما ذكره الإسكافي، إلا أن العلة عنده في الزمان، فالدخول سريع الانقضاء فيعقبه الأكل، والسكنى طويلة فيجمع بينهما، يقول: في البقرة: ”(فكلوا منها) بالفاء، وفي الأعراف (وكلوا) بالواو؛ لأن الدخول سريع الانقضاء فيعقبه الأكل، وفي الأعراف (اسكنوا) ، والمعنى أقيموا فيها، وذلك ممتد، فذكر بالواو أي: اجمعوا بين السكنى والأكل“<sup>(١)</sup>. وقد وافقه في هذا التعليل أبو يحيى الأنصاري<sup>(٢)</sup>، وابن عاشور<sup>(٣)</sup>.

أما ابن الزبير الغرناطي فقد نظر للسياق المتقدم للآيتين وبنى عليه التوجيه ففي الموضع الأول في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا مِنْهَا رَغَدًا﴾، و﴿فَكُلًّا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، أوضح أن المراد في البقرة مجرد الإخبار لرسول الله ﷺ بما جرى في قصة آدم عليه السلام من أحداث من غير ترتيب زمني أو مكاني، أو تحديد غاية فناسبه الواو.

أما آية الأعراف فمقصودها وغايتها تعداد نعم المولى جل جلاله على آدم وذريته ابتداء بتسخير الأرض لهم، وما يتبع ذلك من الخلق والتصوير، ثم أمر الملائكة بالسجود لآدم، ثم إخراج إبليس، ثم أمر آدم بالهبوط، ثم تأنيسه وتوصيته لذريته، فناسب هذا التفصيل والتعداد للنعم العطف بالفاء المقتضية الترتيب<sup>(٤)</sup>. أما توجيهه للموضع الآخر: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ و﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾ فهو موافق لمعنى كلام الإسكافي<sup>(٥)</sup>.

أما ابن جماعة فبعد أن ذكر أن السكنى في آية البقرة تعني الإقامة، وفي الأعراف اتخاذ المسكن، ذكر مناسبة لطيفة، يقول فيها: ”فلما نسب القول إليه تعالى: (وقلنا يا آدم) ناسب زيادة الإكرام بالواو الدالة على الجمع بين

(١) البرهان: ١٢٣، وانظر أيضاً: ١١٩.

(٢) انظر: فتح الرحمن: ٢٧—٢٨.

(٣) انظر: التحرير والتنوير: ٥٤/٨.

(٤) انظر: ملاك التأويل: ١٨٦/١—١٨٨.

(٥) المصدر السابق: ٢٠٢/١.

السكنى والأكل، ولذلك قال: (رغداً) وقال: (حيث شئتما) لأنه أعم<sup>(١)</sup>.  
 إذا المسألة تحمل على أحد أمرين وكلاهما مقبول، إما النظر لمناسبة  
 المبنى، لأن سياق البقرة إخبار بتفضيل آدم وبيان ما أنعم الله به عليه من  
 السكنى والأكل، والثانية تقدمها أمره سبحانه لإبليس بالخروج، فالأمر  
 بالسكنى مقدم على الأمر بالأكل. وإما النظر لسياق المعنى فالسكنى في  
 البقرة يراد بها الإقامة، والسكنى في الأعراف معناها الدخول، فالمعنى الأول  
 يقصد به الجمع بين السكنى والأكل، والثاني يراد به الترتيب، لأن الأكل  
 يكون عقب الدخول، وكل التوجيهات مقبولة، ولا يمنع بعضها بعضاً،  
 فأسرار كتاب الله لا تنفذ ولا تتراحم.

وفي موضع آخر يطبق الخطيب الإسكافي الأصل الذي ذكره في الموضع  
 السابق، وهو أن كل فعل عطف عليه ما يتعلق به تعلق الجواب بالابتداء،  
 وكان الأول مع الثاني بمعنى الشرط والجزاء، فالأصل فيه عطف الثاني على  
 الأول بالفاء دون الواو. ففي قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ  
 عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾: ٢١، فالعطف هنا بالواو، وفي سورة يونس جاء العطف  
 بالفاء، يقول تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾: ١٧.

فالإسكافي يرى أن سياق الآيات التي قبل آية الأنعام تتطلب العطف  
 بالواو دون الفاء، لأنها جمل عطف بعضها على بعض، فلم تكن تلك الجمل  
 سبباً لما بعدها، أما الآية الأخرى فما قبلها سبب لما بعدها، فجاءت بالفاء  
 المؤذنة بالسببية، فأشراكهم سبب في ظلمهم، ولبثه ﷺ فيهم عمراً وعلمهم  
 بحاله سبب لكونهم أظلم.

يقول: "إن ما تقدم من قوله: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾  
 جمل عطف صدور بعضها على بعض بالواو، ولم تعلق الثانية بالأولى تعليق ما  
 هو من سببها، فأجرى قوله: (ومن أظلم) مجراها وعطف بالواو عليها، ألا ترى

(١) كشف المعاني: ٩٢-٩٣.



قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنِ لِأَنَّذَرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ وبعده: ﴿وَإِنِّي بِرِيٍّ مِّمَّا تَشْرِكُونَ﴾: ١٩،  
وأما الثانية فإن ما قبلها عطف بعضها على بعض بالفاء كقوله: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ وَعَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾،  
فتعلق كل ما بعد الفاء بما قبله تعلق المسبب بسببه، ثم قال: ”وكل موضع  
في القرآن يكون بعد هاتين الآيتين بالواو والفاء، فاعتبره بما بينته لك“<sup>(١)</sup>.  
وقد وافقه الكرمانى الذي اختصر كلامه<sup>(٢)</sup>، وابن جماعة<sup>(٣)</sup>، والأنصارى<sup>(٤)</sup>.  
وقد وقفت على آيتين لم يذكرهما علماء المتشابه، الأولى في الأعراف  
﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ...﴾: ٣٧، والأخرى في العنكبوت  
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ...﴾: ٦٨، وحين نتأمل سياق  
الآيتين، ونطبق تعليل الإسكافي السابق، نجد مناسبة اختصاص كل آية بما  
اختصت به من العطف، فالعطف بالفاء في آية الأعراف أفاد تعلق ما بعدها  
بما قبلها فقبل الآية قوله: ﴿يَبْنِيءَ آدَمَ إِمَامًا يَتَّبِعُكُمْ رَسُولٌ مِّنكُمْ يَتَّبِعُونَ عَلَىٰكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ  
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(٥)</sup> والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها  
خالدون﴾: ٣٥-٣٦، وآية العنكبوت ناسبها العطف بالواو، لأن ما قبلها  
وما بعدها جمل عطف بعضها على بعض ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِّنَّا وَيَتَّخِطُّ  
النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾: ٦٧، وبعدها قوله:  
﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾: ٦٩.

ودلالة الفاء العاطفة على السببية أمر معلوم، فكما تدل على الترتيب،  
وعلى التعقيب، تدل على السببية، يقول ابن هشام (ت ٧٦١هـ): ”الأمر  
الثالث: السببية، وذلك غالب في العاطفة جملة أو صفة“<sup>(٥)</sup>. ويقول المالقي:

(١) درة التنزيل: ٦١-٦٢.

(٢) انظر: البرهان: ١٦٦-١٦٧.

(٣) انظر: كشف المعاني: ١٥٨.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ١١٨.

(٥) مغني اللبيب، لابن هشام: ١/١٨٥، وانظر: النحو الوافي: ٣/٥٧٤.

”فإذا كانت — الفاء — للعطف، فمعناها الترتيب، والتعقيب، وقد يلزمهما التسبيب“ (١).

وعندما أتأمل القصص القرآني ألحظ تكرار العطف بالفاء أو الواو لا سيما مع (لما) و(ما)، فمن الآيات المتشابهة في ذلك قوله تعالى في الأعراف في قصة لوط عليه السلام مع قومه: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾: ٨٢، فعطف في هذه الآية بالواو، وما في سواها بالفاء ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ في سورة النمل، وسورة العنكبوت في موضعين (٢). ينظر الخطيب الإسكافي رحمه الله إلى ما تقدم آية الأعراف فيجد أن قبل الآية اسماً هو (مسرفون) في قوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: ٨١، والاسم لا يناسبه التعقيب فجاء العطف بالواو، أما العطف بالفاء، ففيه تقدير معنى السببية، فالأصل الذي وضعت الفاء له أنها توجب ما بعدها لوجود ما قبلها وهو الفعل، ولهذا فقد تقدم الآيات التي ورد فيها العطف بالفاء أفعال أو جمل فعلية، فأية النمل تقدمها قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ بُصُورٌ﴾ (٥٤) ﴿أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهَلُونَ﴾: ٥٤—٥٥، ففيها ﴿بُصُورٌ﴾ وقوله: ﴿بَجَهَلُونَ﴾، وآية العنكبوت تقدمها قوله تعالى: ﴿أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ العنكبوت: ٢٩، والجمل فعلية.

يقول الإسكافي: ”اختصت آية الأعراف بالواو لأن قبلها ﴿مُسْرِفُونَ﴾، وهو اسم، وإن أدى معنى الفعل، و﴿بَجَهَلُونَ﴾ صريح لفظ الفعل، والأجوبة التي تتعلق بالأول المبتدأ به إنما أصلها في الأفعال التي تقع وتوجد لوجود غيرها، والواو والفاء جائزتان في الموضعين، إلا أنه يختار حيث جاء الأصل الذي

(١) رصف المباني للمالقي، تحقيق: الدكتور أحمد الخراط: ٤٤٠.

(٢) وردت هذه الآية في سورة النمل، آية: ٥٦، في قصة لوط مع قومه، وكذلك في العنكبوت آية: ٢٤، في قصة إبراهيم مع قومه، والموضع الآخر في السورة في قصة لوط أيضاً آية: ٢٩.



وضعت الفاء فيه، لتوجب ما بعدها لوجود ما قبلها وهو الفعل، واختيرت الواو حيث كان الملفوظ به الاسم لتفرق بين الموضعين فتختار لكل ما به أليق إذ ليس الاسم أصلاً فيما جعلت الفاء الجواب فيه“<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه الكرمانى<sup>(٢)</sup>، وابن الزبير الغرناطى<sup>(٣)</sup>، والأنصارى<sup>(٤)</sup>.

ومما جاء في القصص القرآني أيضاً توجيه علماء المتشابه اللفظي لما ورد في سورة هود من اختلاف في حروف العطف، فقد جاء العطف بالواو في قصتي هود وشعيب عليهما السلام في قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا﴾<sup>(٥)</sup>، بينما جاء العطف في قصتي صالح ولوط عليهما السلام بالفاء: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا...﴾<sup>(٦)</sup>.

يعلل الخطيب الإسكافي سبب العطف بالواو في قصة هود وشعيب بأن العذاب الذي حذرهم منه نبههم قد تأخر عن وقت الوعيد، فلم يتقدم الآية تخويف يدل على قرب ما حذرهم منه، وهذا يقتضي الواو دون الفاء، فليس المراد اتصال الثاني بالأول، وإنما الجمع بين الخبرين، فقبل قصة هود عليه السلام قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾: ٥٧، وفي قصة شعيب أخبر الله عنه أنه قال لقومه: ﴿وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: ٩٣، فدعاهم للارتقاب، ولهذا قرن التخويف بسوف الدالة على التسويف، ولم يتوعدهم باقتراب العذاب. أما قصة صالح ولوط عليهما السلام فإن ما قبل الفاء يقتضي ما بعدها، فالوعد بقرب العذاب منصوص عليه، ففي قصة صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾

(١) درة التنزيل: ٩٠.

(٢) انظر: البرهان: ١٩٣—١٩٤.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ١/٥٥٣—٥٥٤.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ١٤٥.

(٥) سورة هود، آية: ٥٨، ٩٤.

(٦) سورة هود، آية: ٦٦، ٨٢.



ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ»، وفي قصة لوط: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾. يقول الخطيب عن قصة هود عليه السلام: ”لم يتقدم تخويف بقرب ما أوعدوا به ليدل على اتصال الثاني بالأول واقتضاء العطف بالفاء، فكان الموضع موضع الواو لأن المراد الجمع بين خبرين، من دون ذكر ما يقلل الزمان بين الفعلين، وكذلك قصة شعيب لم يدل فيها على أنهم أوعدوا بعذاب قد أظلمهم وقرب منهم، فلم يتوعدهم بالاقتراب بل دعاهم إلى الارتقاب، فالتخويف قارنه التسويف لقوله تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فكان الموضع موضع الواو لخروج ما قبله عما يقتضي اتصال الثاني به.

وليس كذلك الموضعان اللذان نسقا على الأول بالفاء، وهما قوله تعالى في قصة صالح: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾<sup>(٦٥)</sup> فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا صَالِحًا هود: ٦٥—٦٦، وقوله في قصة لوط: ﴿فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾<sup>(٨١)</sup> فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا هود: ٨١—٨٢، فكان بعقبه غير متراخ عنه، فاقتضى الفاء التي تدل على التعقيب واتصال ما بعدها بما قبلها من غير مهلة بينهما“<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه الكرمانى وذكر تعليله موجزاً، وتابعه ابن جماعة أيضاً<sup>(٢)</sup>. أما ابن الزبير فقد ذكر معنى كلام الإسكافي في توجيه الفاء في قصتي صالح ولوط<sup>(٣)</sup>.

أما البيضاوي فقد ذكر أن الفاء هنا للسببية بسبب تقدم ذكر الوعد في الآيتين، ولم يرد هذا في بقية القصص<sup>(٤)</sup>، ووافقه الشهاب الخفاجي<sup>(٥)</sup>. ومع

(١) درة التنزيل: ١٢٨.

(٢) انظر: البرهان: ٢٢٣، وكشف المعاني: ٢١٤، ٢١٢.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٦٥٧/٢—٦٥٨.

(٤) انظر: تفسير البيضاوي: ٤٦٨/١.

(٥) انظر: حاشية الشهاب على البيضاوي: ١٣٢/٥.

هذا فقد اعترض الخفاجي على رأي الإسكافي في توجيه ذكر الفاء في الآيتين فقال: "وما قيل في جوابه: أن ما ذكر محمول على العذاب الدنيوي، أو أنه ذكر الفاء في الموضعين لقرب عذاب قوم صالح ولوط للوعد المذكور من غير فصل بعيد فلا يخفى" (١).

والحق أن ذكر الوعد يدل على قرب وقوع العذاب؛ ففي قصة صالح قال تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾، وفي قصة لوط قال تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ وهذا وعد قريب.

ومثل ما تقدم من التشابه في قصص القرآن ما ورد في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته حين دخلوا عليه: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَيْكُمُ﴾ يوسف: ٥٩، وفي وسط القصة جاء العطف بالفاء: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾: ٧٠.

الكرماني يرى أن الآية الأولى حين دخلوا عليه أول مرة، فناسبه الواو الدالة على الاستئناف، والآية الثانية حين انصرفوا عنه، فتكون عطفاً على قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾: ٦٩، فتدل على الترتيب والتعقيب. يقول: "الأول حكاية عن تجهيزه إياهم أول ما دخلوا عليه، والثاني حين أرادوا الانصراف من مصر ومن عنده في المرة الثانية. وذكر الأول بالواو لأنه أول قصتهم معه حين جاء إخوة يوسف، والثاني بالفاء عطفاً على (ولما دخلوا) وتعقباً له" (٢). ووافقه الأنصاري الذي نقل نص كلامه (٣).

ولعلماء التشابه وقفات مع الآيات المتشابهة التي تبدأ بـ: ﴿أَفَلَمْ﴾ و﴿أَوَلَمْ﴾، فمنها الآيات الآمرة بالسير في أرض الله للتفكر والاعتبار، والتي

(١) حاشية الشهاب على البيضاوي: ٤٦٨/١.

(٢) البرهان: ٢٢٨.

(٣) وانظر: فتح الرحمن: ٢٠٠.

بدأت بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾<sup>(١)</sup>، أو بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾<sup>(٢)</sup>، وقد جاء الاختلاف في سبعة مواضع من كتاب الله تعالى، فما وجه اختيار حرف العطف في كل من الآيتين؟

يؤكد الخطيب الإسكافي رأيه السابق الذي أوضحه في أول مسألة تحدثت عنها، وهو أن العطف بالفاء يكون إذا تعلق ما بعدها بما قبلها تعلق الجزاء بالابتداء، وتعلق الجزاء بالشرط، فيكون كالجواب عنه، ففي آية يوسف تقدم الفاء قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾، ومعنى الآية: لم يكونوا إلا رجالاً أرسلوا إليهم فخالفوهم فاعتبروا أنتم بآثارهم ومشاهدة ديارهم حتى لا يحل بكم ما حل بهم، وكذلك آية الحج فقد تقدمها قوله: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُؤُا مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾: ٤٥، أي كذبوا الرسل فحل العقاب، فإذا كان ذلك فسيروا في الأرض واعتبروا، وهكذا كل آية جاء التعبير فيها بـ (أفلم) فإنه جرى قبلها ذكر حال أمة من الأمم خالفت نبيها، فعوقبت على فعلها، فصار ما بعد الفاء جواباً لما قبلها.

أما العطف بالواو فعلى خلاف ذلك، فإذا نظرنا للآيات التي ورد فيها العطف بالواو لاحظنا أنه لم يتقدم الواو ما يفيد تعلق ما بعدها بما قبلها تعلق الجواب بالشرط، كما أن ما قبلها لم يكن وصفاً لقوم عوقبوا على مخالفة نبيهم، ففي الروم جاء قبلها قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: ٨، وكذلك الحال في آية فاطر، وغافر، فلزم العطف بالواو، عطف جملة على أخرى.

يقول الإسكافي رحمه الله: "كل موضع تقدم قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾

(١) وردت هذه الآية في السور التالية: يوسف: ١٠٩، والحج: ٤٦ مع بعض الاختلاف فيها، وغافر: ٨٢، ومحمد: ١٠.

(٢) وردت في السور التالية: الروم: ٩، وفاطر: ٤٤، وغافر: ٢١.



فإنه في موضع يقتضي الأول وقوع ما بعده بالفاء، وكل موضع تقدم ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ فإنه في المواضع التي لا تقتضي الدعاء إلى السير والبعث على الاعتبار، فيكون ذاك مؤدياً إليه، وإنما يكون بالواو عطف جملة على جملة، وإن كانت الثانية أجنبية من الأولى، فقوله في سورة يوسف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ...﴾: ١٠٩ الآية، أي: لم يكونوا إلا رجالاً أرسلوا إليهم فخالفوه فاعتبروا أنتم بآثارهم ومشاهدة ديارهم لتجتنبوا ما يجلب عليكم مثل حالهم، وكذلك قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: ٤٦ هو بعد قوله: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ...﴾: ٤٥ فكانه قال: إذا كان كذا فسيروا في الأرض واعتبروا.

فأما قوله في الروم: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا...﴾: ٩ فإنه لم يتقدمه ما يصير هذا كالجواب عنه، إذ لم يجر ذكر حال أمة من الأمم خالفت نبيها فعوقبت على فعلها، بل الآية التي قبلها قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾: ٨، فكان الموضع موضع الواو، وهذا مع أنه معطوف على قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ وهو بالواو، فكان حمله على ذلك مع اقتضاء المعنى للواو وهو الواجب، وكذلك ما جاء في سورة الملائكة، وسورة المؤمن... فالآيات التي تقدمت هذا ليس فيها ما يقتضي أو يكون هذا كالجواب له، فلذلك جاء بالواو...<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه الكرماني، وأشار للتعليل بإيجاز شديد<sup>(٢)</sup>، كما وافقه ابن الزبير الغرناطي الذي رتب الآيات ونظم التعليقات التي ذكرها الإسكافي<sup>(٣)</sup>، وتابع ابن جماعة الكرماني في إشارته الموجزة<sup>(٤)</sup>.

أما أبو يحيى الأنصاري فذهب إلى علة لفظية قائمة على مبدأ المماثلة،

(١) درة التنزيل: ١٣٣—١٣٤.

(٢) انظر: البرهان: ٢٣٠.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٦٨١/٢—٦٨٤.

(٤) انظر: كشف المعاني: ٢١٦.

ففي يوسف تقدم قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ﴾: ١٠٧، وفي الحج تقدم قوله: ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾، وفي آخر غافر تقدم قوله: ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾: ٨١. وكذلك الحال في العطف بالواو، ففي الروم تقدم قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾، وفي فاطر تقدم قوله: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾: ٣٧، وفي أول غافر تقدم قوله: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ﴾: ١٨، و﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: ١٩، و﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾: ٢٠<sup>(١)</sup>.

وما ذكره الإسكافي ووافقه عليه من بعده أولى، لما فيه من تأمل للسياق القرآني ونظر في دلالات الحرف فجمع بين الداليتين الأسلوبية والمعنوية، وهو لا يمنع ما ذكره الأنصاري في توجيهه، لأنه تعليل ينظر لمناسبة المبنى. ومثل الموضع السابق ما ورد في سورة طه حيث جاء العطف بالفاء، يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِنِهِمْ﴾: ١٢٨، وفي السجدة جاء العطف بالواو: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِنِهِمْ﴾: ٢٦.

وسبب العطف كما يراه الإسكافي أن ما بعد الفاء متعلق بما قبلها، وهو قوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾<sup>(١٢٥)</sup> قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى طه: ١٢٥—١٢٦، فالتقدير: من تأتته آياتنا فعليه الاهتداء بها، وأنتم أتتكم آياتنا فلم توفوها حقها، فهل فعلتم ما لزمكم فيها، أما آية السجدة فلم تكن كذلك من تعلق ما بعدها بما قبلها، وإنما قبله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِيَّ وَجَعَلَنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾<sup>(١٢٦)</sup> وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ<sup>(١٢٧)</sup> إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: ٢٣—٢٥، فلما انفصل جاء بالواو، وإنما جاء بالواو لأنه لم يكن من شروطها تركيب جملتين يكونان كلاماً واحداً<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: فتح الرحمن: ٢٠٣—٢٠٤.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١٦٣—١٦٤.

و كلام الإسكافي موافق لسياق الآيتين، ففي الأعراف جاءت آية مماثلة لآية السجدة، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُوكَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾: ١٠٠، حيث جاء العطف فيها بالواو، لأن الآيات التي قبلها جمل عطف بعضها على بعض، من لدن قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾: ٩٤، إلى قوله: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾: ٩٨.

أما ابن الزبير فيرى أن الفاء في آية طه تدل على الاستئناف، لأنه لم يتقدمها ما يدل على أن ما بعدها معطوف على ما قبلها، وإنما هو كلام مستأنف، فالموضع للفاء، أما آية السجدة فالواو عاطفة، وذكر إشارة الزمخشري: "الواو في (أو لم يهد) للعطف على معطوف عليه منوي من جنس المعطوف، والضمير في (لهم) لأهل مكة" (١).

يقول ابن الزبير: "قوله في الآية الأولى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ كلام لم يتقدمه ما يكون هذا معطوفاً عليه، وإنما هو كلام مستأنف مبتدأ، ألا ترى ما تقدم قبله من قوله تعالى إخباراً عما عرض عما جاءت به الرسل فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾، إلى قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾: ١٢٤—١٢٧، هذا إخبار عن جزاء من أعرض ولم يؤمن، ثم ورد ما بعد مستأنفاً وارداً مورد ما يرد من الكلام التفاتاً...، ثم ابتداء توبيخهم وتذكيرهم فقال: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾...

وأما آية السجدة فالواو فيها عاطفة على مقدر لما قاله الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾: ٢٢، كأن قد قيل: أفلا تذكروا ولم يعرضوا" (٢)، فالواو هنا للعطف، ثم ذكر كلام الزمخشري المتقدم. وقد أيد المالقي دلالة الفاء على الاستئناف، فقال: "وإذا أردت الاستئناف بعدها من غير تشريك بجملتين كانت حرف ابتداء.." (٣).

(١) الكشف: ٢٤٦/٣.

(٢) ملك التأويل: ٨٢٧/٢—٨٢٩.

(٣) رصف المباني: ٤٤١.



أما ابن هشام فيرى أنها لا تكون استثنائية بل تبقى عاطفة، وتكون عاطفة للجمل<sup>(١)</sup>.

ومما ذكره علماء التشابه في مسألة الفرق بين الواو والفاء حديثهم عن قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَارِجُوتٍ﴾: ٩٣، ففي هذه الآية ورد العطف بالواو، أما في سورة المؤمنون فجاء العطف بالفاء يقول تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾: ٥٣.

يرى الخطيب الإسكافي أن ما بعد الواو في آية الأنبياء لم يكن جواباً لما قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾: ٩٢، فالخطاب للفرق التي تفرقت في طرق الباطل، ولم تخلص العبادة لله، فأمرهم بالعبادة (فاعبدون) التي هي توحيد الله، ثم جاء التعبير بقوله: (وتقطعوا) بالعطف بالواو، لأن التقطع كان منهم قبل أن يخاطبوا بهذا القول، فيكون ما بعد الواو خبراً غير متعلق بما قبلها، وإنما الذي تعلق به هو قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾: ٩٤، فجاء العطف فيها بالفاء دون الواو.

أما آية سورة المؤمنون فالخطاب للرسول عليهم السلام بدليل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: ٥١، والأنبياء والمؤمنون مأمورون بالتقوى فقال: ﴿فَاتَّقُونَ﴾، ثم قال: ﴿فَتَقَطَّعُوا﴾ بالعطف بالفاء، لأن التقطع ظهر منهم بعد هذا القول، فلما كان ما قبل الفاء خطاباً للرسول وأمرهم صار المعنى: أمرهم بالائتلاف والاتفاق في الدين فتقطعوا أمرهم فيه قطعاً، وافترقوا فيه فرقاً، فما بعد الفاء متعلق بما قبلها تعلق الجواب بالابتداء.

يقول الخطيب: ”..وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ﴾ جاء بالواو، لأنه لم يكن ما بعد الواو كالجواب لما قبلها، كما كان ذلك في الفاء، لأنه يجوز أن يكون تقطعهم أمرهم قبل أن خوطبوا بقوله: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾، ألا ترى أن

(١) انظر: مغني اللبيب: ١/١٩٠.

تفرّقهم فرقاً وتقطّعهم أمرهم قطعاً كان قبل إخبار الله جميع الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أن هذه الأمم أممهم جماعة واحدة غير جماعة متفرقة، وإذا كان كذلك كان قوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ خبراً غير متعلق بما قبله تعلق الجواب بالابتداء، بل ذلك هو ما بعد الفاء في عقيب هذه الآية: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾، واختصت بقوله: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ لأنه خطاب للفرق التي تفرقت في طرق الباطل ولم تخلص العبادة لله فنبأهم إلى أن يعبدوه. والذي في سورة المؤمنون إنما هو خطاب للرسل عليهم السلام لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ...﴾ الآية، وقد جاء في خطاب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم والمؤمنون والصالحين بقوله: ﴿اتَّقُوا...﴾ فكان هذا موضع ﴿فَاتَّقُونِ﴾، وفي الأولى موضع ﴿فَاعْبُدُونِ﴾. وأما الفاء في سورة المؤمنين في قوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا﴾، فلأنه ذكر الذين صار قوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا﴾ كالجواب لما قبله؛ لأنهم قطعوا أمر دينهم كتباً منزلة من الله عز وجل اسمه، فمنهم من دان بالتوراة وكفر بما سواها من الإنجيل والقرآن، ومنهم من دان بالإنجيل، وكفر بالتوراة والقرآن، فلما كان ما قبل الفاء خطاباً للرسل وأممهم، وقال: كونوا جماعة واحدة ذات دين واحد، صار كأنه قال: أمرتهم بالائتلاف والاتفاق في الدين فتقطعوا أمرهم فيه قطعاً وافترقوا فيه فرقاً، وكل يقدر أنه على الصواب ومتمسك بما في الكتاب، فهو فرح بما لديه ومعول عليه، فكان ما بعد الفاء هنا في تعلقه بالأول تعلق الجواب بالمبتدأ كما بعد الفاء في قوله في الآية الأولى وهو: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في أنه متعلق بما قبله تعلق الجواب دون قوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا﴾<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه الكرمانى موجزاً كلامه<sup>(٢)</sup>، وتابعه ابن جماعة<sup>(٣)</sup>،

(١) درة التنزيل: ١٦٩-١٧٠.

(٢) انظر: البرهان: ٢٧٠.

(٣) انظر: كشف المعاني: ٢٥٨.

أما ابن الزبير فيرى أن الذي ورد في آي الأنبياء قبل هذه الآية هو تأنيس لنبينا ﷺ وتذكير بالصبر على قومه، فجرى الكلام على ذلك بعد الواو، وكأن الكلام وارد مورد التعجب من أمرهم، ولم يشبه شدة الوعيد ليبقى رجاءه عليه الصلاة والسلام في استجابتهم، فلم يخل معنى الكلام — مع الإخبار بتفرقهم — عن بعض إبقاء تأنيس مناسباً لما تقدمه. أما قوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ فمنزل على ما قبله، وفيه وعيد شديد، فهذه الآية أشد في التخويف والترهيب من الأخرى فجاء العطف بالفاء الدالة على التعقيب وكل يناسب ما قبله<sup>(٢)</sup>.

ومثل الموضع السابق الحديث عن آيتين في سورة التوبة الأولى منهما عطفت بالفاء، والثانية عطفت بالواو، يقول تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾: ٥٥، والآية الثانية: ﴿وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾: ٨٥.

يقول الإسكافي: "الجواب: أن قبل الفاء قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ فأخبر عن المنافقين بما يقصدونه بأفعالهم التي يوقعونها في حالهم واستقبالهم.. فلما كان الفعل الذي قبل الفاء بمعنى الشرط صار ما بعدها في موضع الجزاء فخصت بالفاء لذلك. أما الآية التي دخلتها الواو فإن قبلها أفعالا ماضية، كقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾، وهذه الأفعال بمضيتها وانقطاعها لا تكون شرطاً فتعقب بالفاء التي تدل على الجزاء، فعطفت الآية بعدها على ما قبلها بالواو لبطلان المعنى الذي يقتضي الفاء"<sup>(٣)</sup>.

فالإسكافي رحمه الله أضاف إلى قاعدته التي اعتمد عليها في الفرق بين الواو والفاء في هذه المسألة، أمراً آخر هو نظرته للسياق المتقدم، فالآيات التي تقدمت الآية التي عطفت بالفاء، جاءت بأفعال تدل على الاستقبال:

(١) انظر: فتح الرحمن: ٢٧١.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٨٥٢/٢ — ٨٥٣.

(٣) درة التنزيل: ١٠٩.



﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنْذَنْ لِي﴾ ، ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا﴾ ، ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ ، ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ ، ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ ، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ...﴾  
 التوبة: ٤٩-٥٤ ، فاقضى ذلك مجيء العطف بالفاء، أما الآية الأخرى فلم تكن كذلك كما بين. وقد وافقه على ذلك كل من الكرمانى، وابن الزبير، وابن جماعة، والأنصارى<sup>(١)</sup>.

وأختم موضوع العطف بالفاء والواو بالحديث عن قول الله تعالى في سورة (ص): ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾: ٤، حيث ورد العطف بالواو، بينما جاء العطف في سورة (ق) بالفاء يقول تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾: ٢.

يرى الخطيب الإسكافى أن آخر آية (ق) مرتبط بأولها لفظاً ومعنى، فجاء العطف بالفاء، أما آية (ص) فنخبر عن عجبهم قولاً وفعلاً، فبدأت الآية بقوله: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ﴾ ، وختمت بقولهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ ، فما بعد الواو لا يرجع إلى أول الآية، فاقضى الواو. يقول: "والجواب أن يقال: إن التي في (ق) خبر عن عجبهم في أنفسهم واتصال قولهم به فقال: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ...﴾ الآية، فكان آخر الكلام راجعاً إلى أوله الذي هو خبر عن ضميرهم من حصول العجب فيه، وقولهم عقيب: ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ، وليس كذلك ما في سورة (ص)، لأن قوله هنا ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ خبر عن عجبهم قولاً وفعلاً، وقولهم بعد ذلك ليس هو راجعاً إلى قوله: ﴿وَعَجِبُوا﴾ رجوع ما في سورة (ق) إليه، لأنه أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ وفي (ق) قالوا: ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ، فيقع عقيبهم ويقتضى الفاء اقتضاه، إذ لم يكن قولهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ من مقتضى عجبوا، كما كان قولهم هذا شيء عجيب منه"<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: البرهان: ٢٠٨، وملاك التأويل: ٥٩٦/١، وكشف المعاني: ١٩٦، وفتح الرحمن: ١٦٦.

(٢) درة التنزيل: ٢٢٣.

أما الكرمانى فيرى أن اتصال العاطف فى (صّ) معنوي فقط، وفى (قّ) لفظي ومعنوي، وهو تفسير قريب من توجيه الإسكافي، يقول: (فى سورة (صّ) اتصال العاطف بما قبله "معنوي فحسب، وهو أنهم عجبوا من مجيء المنذر، وقالوا: هذا المنذر ساحر كذاب. واتصاله فى (قّ) معنوي ولفظي، وهو أنهم عجبوا فقالوا: (هذا شيء عجيب) فراعى المطابقة بالعجز والصدر وختم بما بدأ به" <sup>(١)</sup>، ووافقه الأنصارى <sup>(٢)</sup>.

ويتأمل ابن الزبير سياق السورتين من أولهما ويربطه بحرف العطف، فيقول: "آية (صّ) وردت مورد الإخبار بمرتكبات من أفعال كفار العرب وأقوالهم، فجاء بتلك الجمل منسوقاً بعضها على بعض، فأخبر تعالى أنهم فى عزة وشقاق، وأنهم عجبوا أن جاءهم منذر منهم، فلما قصد هنا الإخبار بجملة مرتكباتهم جاءت منسوقاً بعضها على بعض بالواو التى لا تقتضى ترتيباً ولا تعقيباً.

وأما آية (قّ) فمقصود بها التعريف بتعجبهم من البعث الأخرى واستبعادهم إياه، ولم يقصد هناك غير ما قصده، ألا ترى إقامة الدلالة عليهم باعتبار خلق السموات وتزيينها بالنجوم وإحكام صنعها، ومد الأرض وإرسائها بالجبال وإخراج أصناف النبات، وإنزال الماء من السماء... فلما كان قولهم: ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ مبنياً على ما جاءهم به عليه السلام، وأعلمهم من البعث بعد الموت جعل الأول — أعني: مجيئه عليه السلام، مخبراً بذلك — سبباً فى تعجيزهم <sup>(٣)</sup> فربط فيه بالفاء... <sup>(٤)</sup>.

أما ابن جماعة فذكر أن ما فى آية (قّ) يصلح سبباً لما قالوا بعده فجاء بالفاء، وما قبل آية (صّ) لا يصلح أن يكون سبباً لقولهم: ﴿سَجَرٌ كَذَابٌ﴾

(١) البرهان: ٣١٩.

(٢) انظر: فتح الرحمن: ٣٦٠.

(٣) كذا فى ملك التأويل، ولعله «تعجبهم».

(٤) ملك التأويل: ٩٦٤/٢ — ٩٦٥.

فجاء بالواو العاطفة<sup>(١)</sup>. وهذا موافق لرأي الإسكافي، وتوجيه ابن الزبير ينظر لمناسبة المبنى، وهو مكمل لتوجيه الإسكافي، ويمكن أن نعلل الآيتين بهما معاً.

### (ثم مع (الفاء أو الواو):

تفيد (ثم) الترتيب مع التراخي، ومعناه: انقضاء مدة زمنية بين وقوع المعنى على المعطوف عليه، ووقوعه على المعطوف<sup>(٢)</sup>. يقول ابن الزبير الغرناطي: "إن (ثم) للتباين والتراخي في الزمان، ويعبر النحويون عن ذلك بالملهة، وتكون للتباين في الصفات والأحكام.." <sup>(٣)</sup>، والآيات المتشابهة في القرآن الكريم في هذا الموضوع قليلة فقد وقفت على خمسة مواضع، تحدث عنها علماء التشابه في مصنفاتهم.

وأول موضع نتحدث عنه في هذه المسألة توجيه علماء التشابه لقوله تعالى في الأنعام: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾: ١١، فورد العطف بـ(ثم)، بينما جاء العطف في آيات مشابهة لها بالفاء: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾، وقد ذكر علماء التشابه ثلاث آيات متشابهة<sup>(٤)</sup>، ووقفت على آية واحدة في سورة النحل: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾: ٣٦.

الخطيب الإسكافي أوضح أن جميع الآيات التي ورد العطف فيها بالفاء فيها أمر بأن يعقبوا سيرهم بالتدبر والاعتبار، فالسير يؤدي إلى النظر فيقع بوقوعه، فوقعت الفاء الدالة على التعقيب في الجزاء، وفي هذا اتصال بين السير والنظر، وهو ما ورد في آية النحل أيضاً، فأول الآية ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ

(١) كشف المعاني: ٣١٠.

(٢) انظر: مغني اللبيب لابن هشام: ١٣٥/١، النحو الوافي: ٥٧٦/٣—٥٧٩.

(٣) ملاك التأويل: ٥٧٤/١.

(٤) سورة النمل، آية: ٦٩، والعنكبوت: ٢٠، والروم: ٤٢.



وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴿٣٦٠﴾. أما آية الأنعام فجاء العطف فيها بـ(ثم) الدالة على التباعد الزمني بين السير والنظر، يدل على ذلك ما تقدم الآية، فقد جاء ذكر القرون السابقة وما حل بها، ففيها حث على النظر في تلك البلاد، وما صنع الله بمنازل أهل الفساد، وبين لهم أن يستكثروا من ذلك ليروا آثارهم وما عمها من دمار وخراب: ﴿الْمَيْرُوا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّثُوهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَا مَنِذُورُهُمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾: ٦، فهذه دعوة للسير في البلاد ومشاهدة الآثار، وفي هذا ذهاب أزمنة كثيرة ومدد طويلة تمنع النظر من ملاصقة السير، فجاء اللفظ على تراخي المهلة بين الفعلين، فجاء كل على حدة.

يقول: ”الجواب عن ذلك، أن يقال: إن قوله ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ يدل على أن السير يؤدي إلى النظر فيقع بوقوعه وليس كذلك (ثم)، ألا ترى أن الفاء وقعت في الجزاء ولم تقع فيه (ثم)، فقوله في سورة الأنعام: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا﴾ لم يجعل النظر فيه واقعاً عقيب السير، متعلقاً وجوده بوجوده، لأنه بعث على سير بعد سير لما تقدم من الآية التي تدل على أنه تعالى حداهم على استقراء البلاد ومنازل أهل الفساد، وأن يستكثروا من ذلك ليروا أثراً بعد أثر في ديار بعد ديار قد عم أهلها بدمار، لقوله تعالى: ﴿الْمَيْرُوا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّثُوهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَّكُمْ﴾ ثم قال: ﴿فَأَهْلَكْنَا مَنِذُورُهُمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾... فدعا إلى العلم بذلك بالسير في البلاد ومشاهدة هذه الآثار، وفي ذلك ذهاب أزمنة، ومدد طويلة، تمنع النظر من ملاصقة السير، كما قال في المواضع الأخر التي دخلتها الفاء، لما قصد من معنى التعقيب، واتصال النظر بالسير، إذ ليس في شيء من الأماكن التي استعملت فيها الفاء ما في هذا المكان من البعث على استقراء الديار وتأمل الآثار، فجعل السير في الأرض في هذا الموضع مأموراً به على حدة، والنظر بعده مأموراً به على حدة، وسائر الأماكن التي دخلتها الفاء

علق فيها وقوع النظر بوقوع السير، لأنه لم يتقدم الآية ما يحدو على السير الذي حدا عليه فيما قبل هذه الآية فلذلك خصت بـ(ثم) التي تفيد تراخي المهلة بين الفعلين“<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه الكرمانى<sup>(٢)</sup>، وتابعه ابن جماعة<sup>(٣)</sup>، والأنصارى<sup>(٤)</sup>.

أما ابن الزبير الغرناطي فمع موافقته لكلام الإسكافي في توجيه الآيتين إلا أنه ربط آية الأنعام بأول السورة، وهي سمة تلحظ على ابن الزبير، فنراه كثيراً يعود للسياق المتقدم فينظر للسورة من أولها حتى يصل للآية المراد توجيهها، يقول رحمه الله في توجيه الآية: ”وأما آية الأنعام فإنها افتتحت بذكر خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وإنما ذكر هذا من الخلق الأكبر ليعتبر بذلك، فإنه أعظم معتبر وأوسع، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ غافر: ٥٧، فكأن الآية في قوة أن لو قيل: سيروا في الأرض فاعتبروا لخالقها، وكيف دحاها... وجعل فيها رواسي وأهواراً... ثم انظروا عاقبة من كذب ونبه فلم يعتبر، فعطف هذا بـ (ثم) المقتضية مهلة الزمان حيث يراد ذلك..“<sup>(٥)</sup>، ولم يتحدث عن الآية التي ذكرها الخطيب، وهي: ﴿الْمَيُورُوا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ الآية، وهي أقرب لسياق الآية التي ورد فيها العطف بـ(ثم).

وقد وافق الزمخشري الإسكافي في توجيه العطف بالفاء، أما آية الأنعام فخرّجها من ناحية الاختلاف في الرتبة، فقال: ”فإن قلت: أي فرق بين قوله: ﴿فَانْظُرُوا﴾، وبين قوله: ﴿ثُمَّ انْظُرُوا﴾؟ قلت: جعل النظر مسبباً عن السير في قوله ﴿فَانْظُرُوا﴾، فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير

(١) درة التنزيل: ٥٩—٦٠.

(٢) انظر: البرهان: ١٦٥—١٦٦.

(٣) انظر: كشف المعاني: ١٥٦.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ١١٧.

(٥) ملاك التأويل: ١/٤٢٣—٤٢٤.

الغافلين. وأما قوله: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا﴾ فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك بـ(ثم)، لتباعد ما بين الواجب والمباح<sup>(١)</sup>.

ووافقه الفخر الرازي الذي نقل كلامه<sup>(٢)</sup>، كما ذكره الألوسي الذي ذكر أيضاً رأي الإسكافي واختاره عن غيره<sup>(٣)</sup>.

ونحن إذا تأملنا هذه التوجيهات، وجدناها أقوالاً مقبولة، ويمكن الاعتماد عليها في توجيه الآيتين، إلا أن ما ذكره الإسكافي يعد الأقرب والأوضح، وسبب ذلك أن التعليل ربط بين سياق الآية وما تقدمها، فتأمل رحمه الله ما تقدم آية الأنعام وربط بين الآيتين فخرج بالدلالة المعنوية، مع نظره للسياق، وتلاؤم اللفظ، وهو لا يمنع التوجيهات الأخرى، فكل هذه التوجيهات تبرز أسرار كتاب الله التي لا تنفذ.

ومثل الموضوع السابق ما ذكره علماء المتشابه اللفظي في توجيه قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾: ٥٧، وفي السجدة جاء العطف بـ(ثم): ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾: ٢٢.

يرى الإسكافي أن (ثم) تدل على التراخي الزمني فتكون على الأصل الذي وضعت له، وعلى هذا فتكون آية الكهف في الأحياء من الكفار فأعرضوا عقب التذكير، فجاءت بالفاء الدالة على التعقيب، أما آية السجدة فهي في الكفار بعد موتهم وقد تطاول عليهم التذكير، ثم أعرضوا عنه فناسبه (ثم) الدالة على التراخي.

يقول رحمه الله: "إن الفاء وثم مشتركان في أن ما بعدهما في اللفظ متأخر عما قبلهما في المعنى، ومختلفان في أن الفاء قرب ما بعدها مما

(١) الكشاف: ٧/٢.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ١٢/١٣٥-١٣٦.

(٣) انظر: روح المعاني: ٩٨/٤.



قبلها وفي ثم تراخياً عنه وبعداً، فكان استعمال الفاء في سورة الكهف أولى، واستعمال ثم هناك أحق وأحرى، وذلك أن ما في الكهف في ذكر قوم يستدعون إلى الإيمان ولم تختم أعمالهم بالكفر لقوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُولاً﴾: ٥٦، فكأنهم عقبوا التذكير بآيات الله الإعراض وقبولهم للدين وإقبالهم عليه مرجوان منهم. وليس كذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا...﴾ الآية، في وصف الكفار بعد موافاتهم القيامة لقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو أُرُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: ١٢، إلى قوله: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾<sup>(١)</sup> وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: ذكر مدة عمره بآيات ربه وتطاول الأمر بزجره ووعظه<sup>(٢)</sup>. ووافقه الكرمانى<sup>(٣)</sup>، وأبو يحيى الأنصارى<sup>(٤)</sup> واختصراً توجيهاً، كما ذكره ابن الزبير وجعله جواباً ثانياً<sup>(٥)</sup>.

أما الجواب الأول لابن الزبير فيرى أن الخطاب في سورة الكهف من أولها إلى هذه الآية خاص بالعرب، فالمراد بقوله: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ القرآن ودلائله الواضحة، وإن كان اللفظ مقتضياً كل ما يسمى آية، فورد بالفاء المقتضية التعقيب على ما يجب.

أما آية السجدة فهي عامة في حق العرب وغيرهم، والإخبار فيها عن جميع من شاهد آية بينة وكذب، ودليل هذا ما تقدمه من قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾: ١٨، فالمراد بالآيات كل ما قامت به الدلالة ووضح منه الشاهد، فلما انطوت الآيات في قوله: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ من التعميم بحسب الشاهد مما اقترن بها، على ما لا يتوقف فيه ذو عقل عظم مرتكب

(١) درة التنزيل: ١٥٧.

(٢) انظر: البرهان: ٢٥٦—٢٥٧.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٢٤٨.

(٤) انظر: ملاك التأويل: ٧٨٦/٢—٧٨٧.

المعرض فعطف بـ(ثم) استبعاداً للتوقف عن الإيمان والتصديق عند مشاهدة ما لا غبار عليه من الدلائل<sup>(١)</sup>.

أما حديثه عن آية السجدة وأن (ثم) تفيد الاستبعاد، فقد أخذه من الزمخشري، ونقل كلامه، يقول الزمخشري: "ثم في قوله: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ للاستبعاد، والمعنى: أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها، وإنارتها، وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل"<sup>(٢)</sup>.

وقد أخذ البيضاوي هذا التوجيه من الزمخشري<sup>(٣)</sup>، وتابعه الشهاب الخفاجي<sup>(٤)</sup>. وللشيخ عضيمة — رحمه الله — حديث طويل عن معنى الاستبعاد والتفاوت الذي تفيده (ثم)، وجمع الآيات التي تدخل تحت هذا المعنى في القرآن الكريم<sup>(٥)</sup>. ومن مواضع العطف بالواو وثم في الآيات المتشابهة قول المولى سبحانه وتعالى في سورة التوبة: ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ يُتْرَدُونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: ٩٤، حيث جاء العطف بـ(ثم) في ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾، وفي هذه السورة أيضاً: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: ١٠٥، فعطف بالواو وزاد السين في: (وستردون)، فما وجه ذلك؟

أوضح الخطيب الإسكافي أن بين الآيتين فرقاً استوجب الاختلاف في حرف العطف، فالأولى نزلت في المنافقين الذين لا يطلع على ما في ضمائرهم إلا الله ثم رسوله بإطلاع الله إياه، فبين المولى سبحانه في هذه الآية أنهم يعتذرون، وأن اعتذارهم قول باللسان يخالفه ما في ضمائرهم، ففي الآية

(١) ملاك التأويل: ٧٨٣/٢ — ٧٨٥ بتصرف.

(٢) الكشف: ٢٤٦/٣.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ٢٣٦/٢.

(٤) انظر: حاشية الشهاب على البيضاوي: ١٥٤/٧.

(٥) انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم: القسم الأول، الجزء الثاني: ١٠٤ — ١١٥.

وعيد لهم على ما فعلوا، فما بين ظاهر كلامهم وبين الجزاء الأخروي بعد زمي، فلذلك جاء العطف بثم المؤذنة بالتراخي، أما الآية الأخرى فهي وعد للمؤمنين الصادقين، فأول الآية حث على عمل الخير، وأعمالهم ظاهرة لله ورسوله والمؤمنين، ولذلك جاء الجزاء مقترناً به فقال: (فسيرى) وبعده: (وستردون) فالواو والسين تؤذنان بقرب الجزاء والثواب.

يقول رحمه الله: "...معنى قوله للمنافقين: ﴿قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي سيعلم الله حقيقة عملكم، وأنه من غير صحة اعتقاد منكم، وأن اعتذاركم قول بلسانكم لا يطابقه منطوق ضميركم، وهذا ظاهر بكون الجزاء عليه خلافه ففصل بينه وبين ردهم إلى الله للجزاء عليه بقوله: ﴿تُتْرَدُونَ﴾.. فلبعد ما بين الظاهر من عملهم وما يجازون به دخلت (ثم)، وليست كذلك الآية الأخيرة، لأن قبلها بعثاً على الخير لقوله: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ...﴾ وهذا وعد والأول وعيد، وبعده (وستردون) لأنه وعد مما يشاكل أفعالهم ويطابق أعمالهم من حسن الثواب وجميل الجزاء ولم يبعد عنها كبعد جزاء المنافقين عما هو ظاهر من أعمالهم التي يراؤون بها ويعلم الله تعالى خلافها منهم، فجرى الكلام على نسق واحد، فقال: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ...﴾ الآية، ولم يدخل (ثم) التي هي للتراخي والتباعد" (١).

وقد وافقه الكرماني، وابن جماعة، كما وافقه ابن الزبير الذي تحدث عن الآيتين طويلاً مبيناً سبب النزول، وأقوال العلماء في الذين تخلفوا (٢).

ومثل الموضع السابق توجيه علماء المتشابه لقوله تعالى في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾: ٥٢، ففي هذه الآية ورد العطف بـ(ثم)، بينما جاء العطف في سورة الأحقاف بالواو، يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ

(١) درة التنزيل: ١١١.

(٢) انظر: البرهان: ٢١٢، وكشف المعاني: ٢٠٠، وملاك التأويل: ٥٩٩/١-٦٠٣.



عَلَىٰ مِثْلِهِ فَعَامَنَ وَأَسْتَكْبَرُوا ۖ ﴿١٠﴾. يذكر الخطيب الإسكافي أن (ثم) في الآية الأولى تقتضي المهلة، فبعد أن جاءهم العلم والهدى كان عاقبة أمرهم الكفر فلا نظر ولا تأمل، أما الآية الأخرى فالخبر فيها متصل ولم تكن نهاية القصة بل عطف عليها أفعالا فقال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَعَامَنَ وَأَسْتَكْبَرُوا ۖ﴾.

يقول: "الآية الأولى ذكر فيها فعلين أحدهما ﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، وختمه بقوله: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ على معنى أنكم بعد إمهالي لكم لتدبره وحشي إياكم على تأمله كان عاقبة أمركم الكفر به، فلم يحسن في المعنى إلا (ثم) للمهلة بين الاستدعاء إلى الحق وخاتمة أفعالهم بالكفر وهو من مواضع (ثم).

وأما في سورة الأحقاف فإن قوله: ﴿وَكَفَرْتُمْ﴾ لم يجعله آخر ما أخبر به في القصة خاتمة أمره معهم في الدعوة، بل ذكر ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ وعطف عليها أفعالا بعدها وهي: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَعَامَنَ وَأَسْتَكْبَرُوا ۖ﴾... فلما لم يجعل قوله ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ الكفر الذي يوافي الآخرة لما ذكر بعده من الاحتجاج عليهم، وتوقع من إيمانهم، وشهادة من كان على دينهم وإيمانه واستكبارهم، خالف المكان الذي ختمت أفعالهم بالكفر فيه فاستعملت الواو بدل استعمال (ثم) هناك" (١).

وقد وافقه الكرمانى الذي اختصر التوجيه (٢)، وتابعه أبو يحيى الأنصارى (٣). أما ابن الزبير الغرناطى فذكر أن (ثم) في آية فصلت للترتيب الزمانى واقتضاء المهلة فيه، وهذا موافق لتوجيه الإسكافى، وذكر أيضاً أنها تأتي لبيان الرتبة، وهذا ما سنتحدث عنه بالتفصيل في الموضع القادم، يقول ابن الزبير: "إن (ثم) للترتيب الزمانى واقتضاء المهلة فيه، وتأتي أيضاً لبيان رتبة ما يعطف بها، وأن له موقعاً وخطراً وبه اعتناء، وإن تفاوت الرتب كتفاوت الزمان،

(١) درة التنزيل: ٢٣٩-٢٤٠.

(٢) انظر: البرهان: ٣٢٩.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٣٥٧.

ولا توقف في أن كفرهم بالقرآن بعد علمهم أنه من عند الله أو ثبوت أنه من عند الله كما هو، وكما قد علم من سعد بالإيمان به وإن كذبوهم، فلا شك أن ذلك مرتكب شنيع وضلال بعيد، فجاء هنا بـ(ثم) لتحرز عظيم اجترامهم وشنيع مرتكبهم، فجاءت على ما يجب“<sup>(١)</sup>.

ومن مواضع العطف بين (الواو وثم) ما ذكره ابن الزبير الغرناطي في حديثه عن قوله تعالى في الأعراف: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: ١٨٩، حيث جاء العطف بالواو في قوله: (وجعل)، وفي الزمر ورد العطف بـ(ثم) في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: ٦.

نظر ابن الزبير إلى سياق آية الزمر وخرج بأنه لا يقصد من العطف بـثم ترتيب زمني، بل الغرض الذي وضعت لأجله تعظيم الحال فيما عطف وتحريك النفوس لمعرفة هذه النعمة العظيمة، فلما قصد الإنعام والامتنان وتعداد ذلك تعظيماً وتفخيماً جاء العطف بـ(ثم)، يقول: ”لما قصد من الامتنان والإنعام على هذا الجنس الآدمي، ولتفاوت ما بين الآيتين العجبتين من خلق الصنف الإنساني من شخص واحد، وخلق زوجه منه، فجاء بـ(ثم) المنبهة على معنى الاعتناء بذكر ما عطف بها والتأكيد لشأنه للمزية على المعطوف عليه القائمة مقام التراخي في الزمان..“<sup>(٢)</sup>.

وابن الزبير أخذ هذا من الزمخشري الذي أجاد في تفصيل الآية — أقصد آية الزمر — فبعد أن ذكر الكلام السابق قال: قال الزمخشري: ”فإن قلت ما معنى قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وما تعطيه من معنى التراخي؟ قلت: هما آيتان من جملة الآيات التي عددها دالاً على وحدانيته وقدرته، وهما تشعب هذا الخلق الفائق للحصر وانتشاره من نفس آدم وخلق حواء من قصيره، إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرة والأخرى لم يجر بها العادة ولم تخلق أنثى غير

(١) ملاك التأويل: ١٠٠٨/٢.

(٢) ملاك التأويل: ٣٣١/١.

حواء من قُصِرَى رجل فكانت أدخل في كونها آية وأجلب لعجب السامع فعطفها بـ(ثم) على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزية، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود<sup>(١)</sup>.

وقد نقل أبو حيان نص الزمخشري مع الإشارة إليه<sup>(٢)</sup>، أما ابن عاشور فقد رتب حديثه، وخرّج الآيتين جميعاً وزاد كلام الزمخشري إيضاحاً فقال: "عطف في آية الزمر بـ(ثم) الدالة على التراخي الرتبي، لأن مساقها الاستدلال على الوحدانية وإبطال الشريك بمراتبه، فكان خلق آدم دليلاً على عظيم قدرته تعالى، وخلق زوجه من نفسه دليلاً آخر مستقل الدلالة على عظيم قدرته. فعطف بحرف (ثم) الدال في عطف الجمل على التراخي الرتبي إشارة إلى استقلال الجملة المعطوفة بها بالدلالة، مثل الجملة المعطوفة هي عليها، فكان خلق زوج آدم منه أدل على عظيم القدرة من خلق الناس من تلك النفس الواحدة ومن زوجها؛ لأنه خلق لم تجر به عادة فكان ذلك الخلق أجلب لعجب السامع من خلق الناس فجيء له بحرف التراخي المستعمل في تراخي المنزلة لا في تراخي الزمن لأن زمن خلق زوج آدم سابق على خلق الناس. فأما آية الأعراف فمساقها مساق الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد، فذكر الأصلان للناس معطوفاً أحدهما على الآخر بحرف التشريك في الحكم الذي هو الكون أصلاً لخلق الناس"<sup>(٣)</sup>.

والذي يظهر لي أن الزمخشري هو أساس هذه النظرة لمعنى (ثم)، بعد ذلك تبعه جمع من المفسرين، وكذلك ابن الزبير، ولهذا قال أبو حيان في تعليقه على كلام الزمخشري: "وقد تكرر للزمخشري ادعاء هذا المعنى لـ(ثم)،

(١) الكشف: ٣/٣٨٨، وملاك التأويل: ١/٣٣١-٣٣٢.

(٢) انظر: البحر المحيط: ٧/٤١٦.

(٣) روح المعاني: ٢٣/٣٣١.



ولا أعلم له في ذلك سلفاً“<sup>(١)</sup>.

وإذا تتبعنا حديث الزمخشري عن (ثم) في كثير من الآيات غير المتشابهة نجد هذا المعنى يتكرر كما قال أبو حيان<sup>(٢)</sup>.

## حروف الجر:

تقع بعض حروف الجر موقع بعضها، وهذا أمر جائز في لغة العرب، إلا أنه لا يلجأ إليه إلا لغرض يستدعيه المقام، وفي القرآن الكريم آيات متشابهة في اللفظ ليس بينها اختلاف إلا في نوع حرف الجر، وقد نظرت في تراث علماء التشابه فوجدت لهم وقفات وتأملات عند عدد من الآيات المتشابهة في هذا الموضوع، فبينوا أسرار هذا الاختلاف، وأظهروا ما تحويه هذه الحروف من دلالات، على ضوء سياق الآيات، وقد تحدثوا عن خمس مسائل تمثل ما جاء في كتاب الله في هذا الموضوع.

وأول المواضع حديثهم عن سر الاختلاف بين الحرف (إلى) و(على) في آتي سورة البقرة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ...﴾: ١٣٦، وسورة آل عمران: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ...﴾: ٨٤. يرى الإسكافي أن الحرف (إلى) في آية البقرة يدل على الانتهاء إلى الشيء من أي الجهات كان ذلك، كما بينه علماء النحو<sup>(٣)</sup>، والكتب السماوية منتهية إلى الأنبياء وإلى أممهم، وأول الآية خطاب للأمة وهو قوله: (قولوا)، أما آية آل عمران فإن (على) تختص بجانب فوق، وهذا خاص بالأنبياء، فالكتب السماوية منزلة عليهم وحدهم، ولذلك جاء الخطاب في أول الآية بقوله: (قل) وهو خطاب لنبينا محمد ﷺ.

يقول الإسكافي رحمه الله: ”على موضوعه لكون الشيء فوق الشيء،

(١) البحر المحيط: ٣٠٧/٢. وانظر: ٤٩٧/٧.

(٢) انظر: الكشف: ٤٥٣/٣، و٥٤٨/٢.

(٣) انظر: مغني اللبيب: ٨٨/١، ١٦٣.

ومجيئه من علو فهو مختص من الجهات الست كلها بجهة واحدة، و (إلى) المنتهى، ويكون المنتهى من الجهات الست كلها، فإن توجه نحو الشيء شيء من عن يمينه أو عن شماله أو قدامه أو من ورائه أو من فوقه أو من تحته، فإنه إذا بلغه يقال فيه انتهى إليه، فلا يتخصص (إلى) بجهة واحدة كما يتخصص (على). فقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ اختيرت فيها (إلى)، لأنها مصدرية بخطاب المسلمين، فوجب أن يختار له (إلى)، ثم جعل ما عطف عليه على لفظه بحق الإتيان وإن صح فيه معنى الانتهاء، فالمؤمنون لم ينزل الوحي في الحقيقة عليهم من السماء، وإنما أنزل على الأنبياء ثم انتهى من عندهم إليهم، فلما كان ﴿قُولُوا﴾ خطاباً لغير الأنبياء، وكان لأمرهم كان اختيار (إلى) أولى من اختيار (على).

ولما كانت في سورة آل عمران قد صدرت الآية بما هو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وهو قوله: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ كانت أحق بهذا المكان، لأن الوحي أنزل عليه..<sup>(١)</sup> وقد وافقه على هذا التوجيه الكرمانى، وابن الزبير، وابن جماعة، والأنصارى<sup>(٢)</sup>.

أما الزمخشري فقد اعترض على ما ذكره الخطيب الإسكافي، فقال: "ومن قال إنما قيل (علينا) لقوله: (قل)، و(إلينا) لقوله: (قولوا) تفرقة بين الرسول والمؤمنين، لأن الرسول يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء ويأتيهم على وجه الانتهاء فقد تعسف؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وإلى قوله: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾"<sup>(٣)</sup>.

واعترضه هذا وجه، إلا أنه يرد عليه بأن ما ذكره الإسكافي وابن الزبير عن الآيتين قد خرج عن الحقيقة إلى المجاز، وهذا يفهم من كلامهما في

(١) درة التنزيل: ١٩.

(٢) انظر: البرهان: ١٣١، وملاك التأويل: ٢٣٩/١، وكشف المعاني: ١٠٧—١٠٨، وفتح

الرحمن: ٣٧.

(٣) الكشف: ٤٤٢/١.

تخريج الآيتين، وقد نقل الفخر الرازي هذا الاعتراض<sup>(١)</sup>.

أما التوجيه الذي خرج به الزمخشري فهو قوله: "فإن قلت: لم عدي (أنزل) في هذه الآية — آل عمران — بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها — البقرة — بحرف الانتهاء؟ قلت: لوجود المعنيين جميعاً، لأن الوحي يترل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالأخرى"<sup>(٢)</sup>. وقد جمع أبو حيان الأقوال في تفسيره دون أن يرجح<sup>(٣)</sup>. والحق أن كل التوجيهات مقبولة، ويمكن أن تعلل بها الآيات جميعها، والأسرار البلاغية لا تتزاحم.

وفي موضع آخر يتحدث علماء المتشابهة عن الفرق بين (إلى) و(على)، وذلك في آيتين من سورة الزمر، يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾: ٢، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾: ٤١. يضع الإسكافي رحمه الله في توجيهه لهذا الموضع أصلاً يمكن تطبيقه على آيات الكتاب العزيز، فقد لاحظ أن أكثر المواضع التي جاء فيها إنزال القرآن على النبي ﷺ قد عدي بالحرف (على)، أما إنزاله على الناس فعدي بالحرف (إلى)، وهذا ملحظ لفظي، أما الملحظ المعنوي، فيرى أن كل موضع عدي بالحرف (إلى) فإنه يفيد تشديد التكليف عليه، ﷺ، أما التعدية بالحرف (على) فيفيد التشريف له والتخفيف عنه، هذه خلاصة توجيهه، ووافقه على ذلك جمع من علماء المتشابهة.

وقد تأملت كتاب الله تعالى فوقفت على مواضع كثيرة عدي فيها الإنزال بـ(إلى) والخطاب للنبي ﷺ، وقد حصرت ذلك في تسعة عشر موضعاً، من ذلك: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ العنكبوت: ٤٧، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٠٨/٨.

(٢) الكشاف: ٤٤٢/١.

(٣) انظر: البحر المحيط: ٥١٦/٢ — ٥١٧.



الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴿النساء: ١٠٥﴾، ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ الرعد: ١٩، كما وقفت على مواضع كثيرة عدي فيها الإنزال بالحرف (على)، والخطاب للنبي ﷺ، وقد حصرت ذلك في ثمانية عشر موضعاً<sup>(١)</sup>، وكان الإسكافي رحمه الله قد حصر تلك المواضع، وأسس على ذلك مناسبة المعنى، ومناسبة المبنى.

يقول رحمه الله: "أكثر المواضع التي ذكر فيها إنزال القرآن على النبي ﷺ عدي بـ(على)، كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ الكهف: ١، وكقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ النحل: ٨٩، وأكثر ما جاء ذكر إنزاله على الناس جاء معدى بـ(إلى) كقوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ النساء: ١٧٤ ثم كل موضع قيل فيه: (أنزلنا إليك) فقد شدد فيه التكليف عليه ونزل منزلة أمته فيما يجب على عالمهم تبيينه لتعلمهم، كقوله في أول هذه السورة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ..﴾ الآية، فقد أمر بإخلاص العبادة، والمراد هو وأمته، وكقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ النحل، فكان المراد في المواضع التي استعملت فيها (إلى) أنه تنهى إلى حيث لا متعد وراءه من علم سنة مقصورة عليه، فكل موضع عدي فيه بـ(على) فإن المراد به، أنه شرفك، وأعلى بذلك ذكرك لتؤدي ما عليك فتندر وتبشّر<sup>(٢)</sup>.

ووافقه على هذا التعليل الكرمانى، يقول: "كل موضع خاطب الله تعالى فيه النبي ﷺ بقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ ففيه تكليف، وإذا خاطبه بقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ ففيه تخفيف. اعتبر بما في هذه السورة — سورة الزمر — فالذي في أول السورة ﴿إِلَيْكَ﴾، فكلفه الإخلاص في العبادة، والذي في آخرها ﴿عَلَيْكَ﴾ فختم الآية بقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: لست مسؤولاً عنهم

(١) انظر: المعجم المفهرس لمحمد عبد الباقي: ٨٦٦—٨٩٦.

(٢) درة التنزيل: ٢٢٥.

فخفف عنه ذلك“<sup>(١)</sup>، وتابع ابن جماعة<sup>(٢)</sup>، وأبو يحيى الأنصاري<sup>(٣)</sup>، الكرمانى ونقلا نص كلامه.

أما ابن الزبير الغرناطي فتعليله قريب من توجيه الموضع السابق، فيرى: ”أن (إليك) و(عليك) هنا مترادفتان على معنى واحد من معنى الخطاب، فتارة يراعى وصول المنزل بواسطة الملك، وتارة يراعى وصوله من عند الله سبحانه من غير واسطة، فإذا روعي هذا قيل (عليك)، وإذا روعي الأول قيل: إليك“<sup>(٤)</sup>، وهذا التوجيه يختلف عن توجيه الإسكافي ومن وافقه، لأنه لم يلاحظ ما لاحظته الإسكافي، وإنما لا حظ أنه ينزل عليه بلا واسطة، وينزل إليه بواسطة، والله أعلم.

وأوضح ابن الزبير أن الآية الثانية جاء فيها قوله: (للناس) واللام الجارة تفيد الاختصاص وترادف كثيراً لفظة (إلى)، ولهذا جاءت مع (على)، ولو وردت مع (إلى) لكان ذلك كالمرادف<sup>(٥)</sup>، وهذا تعليل روعي فيه مناسبة المبنى للآيتين.

ومن مواضع الاختلاف بين حروف الجر ما ذكره علماء المتشابه من فرق بين قوله تعالى في الأعراف في قصة موسى عليه السلام مع فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ أَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ أَدْنَ لَكُمْ﴾: ١٢٣، بينما في طه: ٧١، والشعراء: ٤٩ جاء التعبير بحرف اللام: ﴿قَالَ أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَ لَكُمْ﴾.

يرى الخطيب الإسكافي أن قوله تعالى: ﴿أَمَنْتُمْ بِهِ﴾ و﴿أَمَنْتُمْ لَهُ﴾ واحد، لكن الاختلاف في عود الضمير ففي الأولى يعود لرب العالمين، والثانية لموسى عليه السلام.

(١) البرهان: ٣٢١.

(٢) انظر: كشف المعاني: ٣١٢—٣١٣.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٣٦٤.

(٤) ملاك التأويل: ٩٨٣/٢.

(٥) انظر: المصدر السابق: ٩٨٣/٢—٩٨٤.

وقد وافقه على ذلك كل من: الكرمانى، وابن جماعة، والأنصارى، وابن عاشور رحمهم الله تعالى<sup>(١)</sup>.

يقول الخطيب: "إن الهاء في ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ غير الهاء التي في ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ﴾ وكل واحدة تعود إلى غير ما تعود إليه الأخرى، فالأولى ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ لرب العالمين، لأنه تعالى حكى عنهم ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: ١٢١، وهو الذي دعا إليه موسى عليه السلام، وأما الهاء في ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ﴾ فلموسى عليه السلام، والدليل على ذلك أنها جاءت في السورتين — يقصد طه والشعراء —، وبعدها في كل واحدة منهما: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكَ الَّذِي عَلَّمَكَ السِّحْرَ﴾، فالهاء في (إنه) هي التي في (آمنتكم له)، والذي جاء بعد قوله: ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْمَكْرُ مَكْرُتُمْوهُ...﴾ أي: إظهاركم ما أظهرتم من الإيمان برب العالمين.. ويجوز أن يكون الهاء في (آمنتكم به) ضمير موسى عليه السلام، لأنه يجوز أن يقال: آمن بالرسول... فاقضى هذا الموضع الذي ذكر فيه المكر إنكار الإيمان به. فأما الإيمان له في الموضعين الآخرين فاللام تفيد معنى الإيمان من أجله، ومن أجل ما أتى به من الآيات.. فلذلك خص باللام، والأول خصّ بالباء.

وقد تدل اللام على الاتباع فيكون المعنى اتبعتموه، لأنه كبيركم في عمل السحر، وقد يؤمن بالخبر من لا يعمل عليه ولا يتبع الداعي إليه<sup>(٢)</sup>. وقد اطلع ابن الزبير على هذا التوجيه، وأفاد منه، فاختصر ووضح، فقد ذكر أن لفظ الإيمان يدل على معنى التصديق، وعلى معنى الانقياد والإذعان، فإذا عدي بالباء دل على التصديق، وإذا عدي باللام دل على معنى الانقياد، يقول: "إن الباء في قوله: ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾، واللام في: ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ﴾،

(١) انظر: البرهان: ١٩٩، وكشف المعاني: ١٨٣، وفتح الرحمن: ١٤٨، والتحرير والتنوير:

٢٦٣/١٦.

(٢) درة التنزيل: ٩٨—٩٩.



محتاج إلى كل واحدة منهما من حيث إن التصديق والانقياد معنيان يحتاج إليهما، والباء تحرز التصديق، واللام تحرز الانقياد والإذعان<sup>(١)</sup>.  
كما وافق البيضاوي الإسكافي وابن الزبير في إفادة اللام هذا المعنى وقال:  
”واللام لتضمن الفعل معنى الاتباع“<sup>(٢)</sup>.

ومن مواضع الاختلاف بين الحروف في الآيات المتشابهة توجيه علماء المتشابه للحرفين (إلى) واللام، ففي قوله تعالى في سورة لقمان:  
﴿الْمُتَرَانَّ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: ٢٩، جاء التعبير بالحرف (إلى)، وفي غيرها من الآيات ورد باللام، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾<sup>(٣)</sup>.

يرى الخطيب الإسكافي أن (اللام) في الآية الثانية يقصد بها بلوغ الأجل وإدراكه، أما (إلى) في الآية الأولى فتدل على الانتهاء، ثم نظر في سياق الآيتين، ولم يقتصر على ذلك، بل تأمل ما قبلهما من آيات، وما تأخر عنهما، وخرج بأن آية لقمان وقعت بين آيتين دلتا على غاية ما ينتهي إليه الخلق، والقيامة غاية ذلك، فناسب ذكر (إلى) الدال على الانتهاء، والمعنى: لا يزال كل من الشمس والقمر جارياً حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له. أما المواضع الأخرى التي ذكرت فيها اللام، ففيها إخبار عن ابتداء الخلق، وابتداء جري الكواكب، كما هو حاصل في آية الزمر، فهي تجري حتى بلوغ غايتها، وكذلك آية الرعد، أما آية فاطر فاكتنفها ذكر النعم في البر والبحر، والمعنى في هذه الآيات أي: يجري كل مما ذكر لبلوغ الأجل. وقد وافقه ابن جماعة، وأبو يحيى الأنصاري<sup>(٤)</sup>.

(١) ملاك التأويل: ٥٧٢/١.

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٢/٢.

(٣) سورة الرعد: ٢، وفاطر: ١٣، والزمر: ٥.

(٤) انظر: كشف المعاني: ٢٩٧، وفتح الرحمن: ٣٣١.

يقول الإسكافي: ”الجواب أن يقال: إن معنى قوله: ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يجري لبلوغ أجل مسمى، وقوله: ﴿يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معناه لا يزال جارياً حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له، وإنما خص ما في سورة لقمان بإلى التي للانتهاء، واللام تؤدي نحو معناها لأنها تدل على أن جريها لبلوغ الأجل المسمى، لأن الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة فقبلها: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ لقمان: ٢٨، وبعدها: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورَ بَكُمُ وَآخِشُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾: ٣٣، فكان المعنى: كل يجري إلى ذلك الوقت وهو الوقت الذي تكور فيه الشمس وتنكدر فيه النجوم كما أخبر الله تعالى.

وسائر المواضع التي ذكرت فيها اللام إنما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق، وهو قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ألا هو العزيز الغفور ﴿٥﴾ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجاً ﴿٦﴾: ٥-٦، فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السموات والأرض وابتداء جري الكواكب، وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية. وكذلك قوله في سورة الملائكة إنما هو في ذكر النعم التي بدأ بها في البر والبحر إذ يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فاطر: ١٢-١٣، فاختص ما عند ذكر النهاية بحرفها، واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها“ (١).

وللكرماني تعليل آخر، فيرى أنه يجوز أن تقول في الزمان: جرى ليوم كذا، وإلى يوم كذا، والأكثر اللام، وبه جاء في الأكثر. أما توجيه آية لقمان فيرى مسألة الموافقة اللفظية، فقبلها: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾: ٢٢ (٢).

(١) درة التنزيل: ٢٠٩.

(٢) انظر: البرهان: ٢١٣.

أما ابن الزبير رحمه الله فذهب إلى أن آية لقمان لما بنيت على الطول ناسبها الحرف الأطول، وهو (إلى)، أما الآيات الأخر فبنيت على الإيجاز فناسبها الجر باللام.

يقول: "آية لقمان تقدمها التنبيه على الاعتبار بها بقوله: ﴿الْمَرْتَرَانُ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ ثم قال: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، فعطف بواو النسق المقتضية الجمع، فدخل هذا مع ما قبله تحت حكم التنبيه بقوله: ﴿الْمَرْتَر﴾، وحكم التنبيه بالاعتبار منسحب على المجموع؛ للاشتراك في اللفظ والمعنى، فطال الكلام بحسب ما اقتضاه مقصوده، فنا سب طوله الجر بما يناسبه مما لا يخرج عن معنى اللام الجارة، وهو (إلى) فأنجر الأجل بها. ولما بنيت الآيتان بعد على إيجاز ليس في آية لقمان، ناسبه الجر باللام اكتفاء بما يحرز المعنى المقصود ويناسب التركيب" (١).

وقد وافق الزمخشري الخطيب الإسكافي، وأغلظ القول على من قال إن اللام تكون بمعنى إلى في الدلالة على الانتهاء، فالمخالفة بين الآيتين تفنن في النظم، فقال: "فإن قلت: ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، و﴿يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أهو من تعاقب الحرفين؟ قلت: كلا، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن، ولكن المعنيين — أعني: الانتهاء والاختصاص — كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض، لأن قولك ﴿يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معناه: يبلغه وينتهي إليه، وقولك: ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تريد يجري لإدراك أجل مسمى، تجعل الجري مختصاً بإدراك أجل مسمى، ألا ترى أن جري الشمس مختص بآخر السنة، وجري القمر مختص بآخر الشهر، فكلا المعنيين غير ناب به موضعه" (٢)، ووافقه أبو حيان (٣).

(١) ملاك التأويل: ٩٤٣/٢ — ٩٤٤.

(٢) الكشف: ٢٣٧/٣.

(٣) انظر: البحر المحيط: ١٩٣/٧.



أما الألوسي فخالفه وقال: "وتعديته بالأول بإلى باعتبار كون المجرور غاية، وبالثاني باللام باعتبار كونه غرضاً فتكون اللام لام تعليل أو عاقبة، وجعلها الزمخشري للاختصاص، ولكل وجه، ولم يظهر لي وجه اختصاص هذا المقام بإلى وغيره باللام" (١).

أما ابن عاشور فتوسط في الأمر، فأكد مراد الزمخشري الذي "يرمي إلى تحقيق الفرق بين معاني الحروف، وهو ما نميل إليه، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر كثرة ورود اللام في مقام معنى الانتهاء كثرة جعلت استعارة حرف التخصيص لمعنى الانتهاء" (٢).

وأختم موضوع حروف الجر بالوقوف عند تحليل ابن الزبير الغرناطي لقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: ٩، حيث ورد اللفظ باللام في قوله: ﴿لَهُمْ﴾، بينما جاء في آخر آية في سورة الفتح بـ (منهم)، يقول تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾: ٢٩.

يرى ابن الزبير أن آية المائدة عامة، فهي في المؤمنين الصادقين دون المنافقين في أي مكان أو زمان فلم يحتج إلى تخصيصهم بما خصص به الآية الثانية، فالمعنى: من عمل بما ذكر فله مغفرة وأجر عظيم، وآية الفتح خاصة بأصحاب النبي ﷺ وكان من جملة من صحبه منافقون فقال: (منهم) تمييزاً وتفصيلاً ونصاً عليهم بعدما ذكر من جميل صفاتهم.

يقول ابن الزبير: "آية المائدة لما تقدمها خطاب المؤمنين في قضيتين، الأولى منهما: القيام للصلاة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ...﴾ الآية: ٦، والثانية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ...﴾: ٨... ولم يقع أثناء هذه الآي إشارة إلى غيرهم، ولا انجر معهم أحد ممن سواهم، لم

(١) روح المعاني: ١١/١٠١.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٢/٢٨١.

يحتاج إلى تخصيص الخطاب الوعدي فأطلق القول ولم يقيد بأن يقال: (منهم) ولا عملت (وعد) في مفعولها الثاني...

وأما آية الفتح فأعقب بها التمثيل الجاري في ذكر الزرع.. إلى ما وصفوا به وعرف أنه مثلهم في التوراة وأن مثلهم في الإنجيل قد كان كذا، فمع ما وصفوا به قد عاصرهم، وكان في أيامهم ومعهم من علم نفاقه... وقد شمل الكل عموم قوله ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ بظاهر الإيمان إذ كانوا يتظاهرون بما وصف به المؤمنون، فجاء هنا بالوعد محرزاً مخرجاً منه من كان يتظاهر بالإيمان، ويلزق بالمؤمنين وليس منهم... فجاء بقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ ليحرز هذا المعنى الجليل<sup>(١)</sup>. وقد وافقه ابن جماعة واختصر كلامه<sup>(٢)</sup>.

## حروف أخرى:

سأتحدث في هذا الموطن عن موضع واحد تحدث عنه علماء المتشابه، وهو الفرق بين (لا) و(لن)، في آيتين متشابهتين، الأولى في البقرة يقول الله تعالى: ﴿وَلَن يَتِمَّنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾: ٩٥، فجاء التعبير بلن، وفي سورة الجمعة وردت الآية بـ(لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتِمَّنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾: ٧، فجاء التعبير في الآيتين بأداة نفي مختلفة، ففي الأولى (لن)، وفي الثانية (لا)، فما سر هذا الاختلاف، وماذا قال عنه العلماء؟

أوضح الخطيب الإسكافي أن الدعوى في آية البقرة أعظم، فقد ادعوا أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٩٤—٩٥، فالدعوى بالغة قاطعة، ومن هنا أكد نفي

(١) ملاك التأويل: ٣٧٤/١—٣٧٦.

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٤٦.

ذلك بـ(لن)، لأنها أبلغ في النفي من (لا) وذلك لظهورها في الاستغراق. أما آية الجمعة فدعواهم دون الأولى، فقد ادعوا ولاية الله تعالى لهم، يقول تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا ٥: ٦، ولا يلزم من الولاية لله اختصاصهم بالثواب وبالجنة، فاقصر على نفي الولاية بـ(لا)، وكلتا الآيتين مؤكدة بالتأييد في قوله (أبدًا)، لكن آية البقرة أبلغ. وهذا في الحقيقة كلام مؤسس على أن (لن) أكد من (لا)، ودالة على الاستغراق، فجاءت مع ادعاء أن الآخرة خالصة لهم، وليس لأحد فيها حظ، أما (لا) فجاءت مع ادعاء الولاية، وهذا لا يعني ألا يكون لغيرهم حظ في الآخرة.

يقول الإسكافي: ”الآية الأولى لما كانت مفتوحة بشرط علقت صحته بتمني الموت، ووقع هذا الشرط غاية ما يطلبه المطيع ولا مطلوب وراءه على ما ادعوه لأنفسهم، وهو أن لهم الدار الآخرة خالصة من دون غيرهم، ووجب أن يكون ما يبطل تمني الموت المؤدي إلى بطلان شرطهم أقوى ما يستعمل في بابه وأبلغه في معنى ما ينتفي شرطهم به، وكان ذلك بلفظة (لن) التي هي للقطع والبتات..

وليس كذلك الشرط الذي علق به تمني الموت في سورة الجمعة، لأنه قال: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ..﴾ الآية، وليس زعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس المطلوب الذي لا مطلوب وراءه، لأنهم يطلبون بعد ذلك إذا صح لهم هذا الوصف دار الثواب، فلما كان الشرط في هذا المكان قاصراً عن الشرط في المكان الأول، ولم تكن الدعوى غاية المطلوب، لم يحتج في نفيه وإبطاله إلى ما هو غاية في بابه فوق الاقتصار على ما لا يتمنونه“<sup>(١)</sup>. وبهذا قال الكرمانى، وابن جماعة، والأنصارى<sup>(٢)</sup>، كما قال به الزمخشري،

(١) درة التنزيل: ١٣.

(٢) انظر: البرهان ١٢٨، وكشف المعاني: ١٠٣-١٠٤، وفتح الرحمن: ٣٢.



والفخر الرازي، وأبو حيان<sup>(١)</sup>.

أما توجيه ابن الزبير الغرناطي فقد نظر للزمن في الفرق بين الآيتين، وهذه نظرة جيدة منه، فالوارد في آية البقرة جواب لحكم أخروي مستقبل، فناسبه النفي بما وضع من الحروف لنفي المستقبل، لأن (لن يفعل) جواب سيفعل. وأما آية الجمعة فهي جواب لزعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس وذلك حكم دنيوي حالي لا استقبالي فناسبه النفي بلا التي لنفي ما يأتي وغيره<sup>(٢)</sup>. وجعل الألوسي الاختلاف من باب التفنن في الكلام<sup>(٣)</sup>، وهو رأي مرجوح.

وللسهيلي وقفة حسنة عند الآيتين، فمع تحليله لسياق الآيتين، وإبراز الدلالة المعنوية، ذكر الدلالة الصوتية، وأثرها في تحديد المعنى، فقد ذكر رحمه الله أن من خواص (لن) أنها تنفي ما قرب، ولا يمتد معنى النفي فيها كامتداده في الحرف (لا).

ويوضح هذا الأمر بقوله: "حرف (لا) لام بعدها ألف، يمتد بها الصوت ما لم يقطعه تضيق النفس، فأذن امتداد لفظها بامتداد معناها، و(لن) بعكس ذلك، فتأمله فإنه معنى لطيف وغرض شريف.

ألا ترى كيف جاء في القرآن البديع نظمه الفائق على كل العلوم علمه (ولا يتمنونه أبداً) بحرف لا في الموضع الذي اقترن فيه حرف الشرط بالفعل فصار من صيغ العموم فانسحب على جميع الأزمنة، وهو قوله عز وجل: ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾، كأنه يقول: متى ما زعموا ذلك لوقت من الأوقات أو زمن من الأزمان، وقيل لهم: تمنوا الموت، فلا يتمنونه، وحرف الشرط دل على هذا المعنى، وحرف لا في الجواب بإزاء

(١) انظر: الكشف: ١٠٣/٤، والتفسير الكبير: ٣٠/٣، ١٧٥/٧، والبحر المحيط: ٣١١/١.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٢٢٧/١—٢٢٨.

(٣) انظر: روح المعاني: ٢٩١/١٤.

صيغة العموم لاتساع معنى النفي فيها.

وقال في سورة البقرة: (ولن يتمنوه) فقصر من سعة النفي وقرب، لأن قبله في النظم: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، وليست (إن) ههنا مع (كان) من صيغ العموم، لأن كان ليست بدالة على الحدث، وإنما هي داخلة على المبتدأ والخبر عبارة عن معنى في الزمان الذي كان فيه ذلك الحدث، فكأنه يقول عز وجل: إن كانت قد وجبت لكم الدار الآخرة، وثبتت لكم في علم الله تعالى فتمنوا الموت الآن، ثم قال في الجواب: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾ فانتظم معنى الجواب بمعنى الخطاب في الآيتين جميعاً<sup>(١)</sup>.

ومن خلال عرض توجيه الخطيب الإسكافي، والإمام السهيلي نلاحظ أن بين التوجيهين اختلافاً ظاهراً وبيناً، وذلك من وجهين، أحدهما: أن الإسكافي يرى أن (لن) أكد، وقد جاءت مع زعمهم أن الدار الآخرة لهم، وهذه غاية مطلوبهم، فجاء النفي بالحرف الآكد، وهو (لن)، أما السهيلي فيرى أن (لا) أشمل وأوسع من (لن)، نظراً لاحتباس الصوت مع (لن)، أما (لا) فحرف يمتد به الصوت، فأذن امتداد لفظها بامتداد معناها.

الأمر الآخر: أن الإسكافي نظر للآيتين من حيث قيمة الشرط، وهو خلوص الدار الآخرة لهم دون غيرهم، فهو الأمنية العظيمة والغاية التامة، لبلوغ ذلك الأمر العظيم، وهذا يكون بالحرف (لن) الذي يفيد القطع، أما السهيلي فتوجه للدلالة اللغوية، ودلالاتها من حيث السعة والضيق، فقد لاحظ أن الشرط في آية البقرة وُصل بكان الداخلة على المبتدأ والخبر، وهذا يدل على أن دخول الشرط ليس على فعل دال على الحدث، لأن كان لا تدل على الحدث، وبذلك صار المعنى محصوراً في الماضي، بخلاف قوله: ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ﴾ في آية الجمعة، لأن الشرط الداخلة على الحدث يفيد العموم، فالمعنى في أي وقت يكون لكم الزعم أنكم أولياء لله فتمنوا الموت، وهذا العموم يناسبه

(١) نتائج الفكر: ١٣١-١٣٢.

(لا) النافية التي يتسع فيها معنى النفي، والله أعلم.

وقد نقل ابن الزملاكي كلام السهيلي بنصه دون أن يشير إليه<sup>(١)</sup>، كما نقله ابن القيم، ورد القول إلى شيخه ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، حين سألته عن قول عالم اللغة أبي الفتح عثمان بن جني في مسألة أخذ المعنى من حروف اللفظ، وصفاته وجرسه، يقول ابن القيم: "وقلت يوماً لشيخنا أبي العباس ابن تيمية، قدس الله روحه، قال ابن جني: مكثت برهة إذا ورد عليّ لفظ أخذ معناه من نفس حروفه، وصفاتها، وجرسه، وكيفية تركيبه، ثم أكشفه فإذا هو كما ظننته، أو قريباً منه. فقال لي رحمه الله: وهذا كثيراً ما يقع لي، وتأمل حرف (لا) كيف تجدها لا ماً بعدها ألف يمتد بها الصوت ما لم يقطعه ضيق النفس، فأذن امتداد لفظها بامتداد معناها.."<sup>(٢)</sup> وذكر كلام السهيلي. كما نقل ذلك عبد الفتاح لاشين في دراسته لحس ابن القيم البلاغي، دون أن يتحقق من النقل<sup>(٣)</sup>، والذي يظهر لي من النص السابق أن ابن القيم نقل من ابن تيمية بطريق المشافهة، وربما أخذه ابن تيمية من السهيلي، إذ إن وفاته بعد السهيلي بقرن ونصف القرن، علماً أن بعض آثار السهيلي، إن لم نقل كلها كانت معروفة في المشرق العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين، وأنخص بالذكر كتاب نتائج الفكر والله أعلم<sup>(٤)</sup>.

وحين أتأمل ما ذكره الإسكافي، والسهيلي، وابن الزبير، أرى في الآيتين عظمة الإعجاز وغاية البيان، ودقة الأسرار، ففي هذه التوجيهات ملامح بلاغية جيدة، وأسرار مفيدة، ويمكن الأخذ بتلك التوجيهات جميعها، لأن أسرار القرآن الكريم لا تنفد، وعجائبه لا تنقضي.

(١) انظر: التبيان في علم البيان: ٨٤—٨٥، والبرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ١٩٣—١٩٤.

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم: ٩٥/١—٩٦.

(٣) انظر: ابن القيم وحسه البلاغي: ٥٢—٥٣، وانظر أيضاً: من أسرار التعبير في القرآن

(حروف القرآن) للدكتور: عبد الفتاح لاشين: ١٣٥—١٣٧.

(٤) انظر: البحث البلاغي عند السهيلي، رسالة ماجستير لم تنشر: ١٣٢—١٣٥.



## الباب الثالث التراكيب في التشابه اللفظي

الفصل الأول: الاختلاف بين الآيات المتشابهة  
في الذكر والحذف.

الفصل الثاني: الاختلاف بين الآيات المتشابهة  
في التقديم والتأخير.

الفصل الثالث: الاختلاف بين الآيات المتشابهة  
في الفصل والوصل.



## الفصل الأول

الاختلاف بين الآيات المتشابهة  
في الذكر والحذف





## الفصل الأول

### الاختلاف بين الآيات المتشابهة في الذكر والحذف

إن من معجزات القرآن الكريم التي تميز بها: حسن التأليف، وروعة الإنسجام، وتمام الإحكام، فنظمه المعجز وبلاغته الفائقة أعجزت العرب الأول الذين عاصروا نزوله، وكانوا أهل بلاغة وبيان، وأهل ذكاء حاد، يفهمون الكلام بإشارة عابرة أو رمز خفي، ولهذا نال الذكر والحذف عناية واهتمام علماء البلاغة، فهو أحد الأسس والركائز في هذا العلم، وأول خصائص العربية الإيجاز<sup>(١)</sup>، وإذا علم هذا فإن لموضوع الذكر والحذف في الآيات المتشابهة في القرآن الكريم — الذي نحن بصددده — أثراً كبيراً في بيان دقائق نظمهِ وعجائب إعجازه.

وكان أول من وسّع الكلام في مزايا الذكر والحذف، وأظهر أسرارهِ، وأوضح معانيهِ الإمام عبد القاهر الجرجاني، فقد أفاض الحديث عن سحرهِ وعجيب أسرارهِ، فبسط القول في حذف المبتدأ، وحذف الخبر، وكذلك الفاعل والمفعول، وبذلك فتح باباً ومهد طريقاً لمن بعده<sup>(٢)</sup>. يقول رحمه الله عن أهميته في مطلع حديثه: ”هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم

(١) انظر: الحذف البلاغي في القرآن الكريم، لمصطفى أبو شادي: ١١—١٢.

(٢) انظر: دلائل الإعجاز: ١٤٦—١٧٢.

تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين“<sup>(١)</sup>.

إن حسن العبارة في كثير من التراكيب والأساليب يرجع ”إلى ما يعتمد إليه المتكلم من حذف ما لا يغمض به المعنى، ولا يلتوي وراءه القصد، وإنما هو تصرف تصفى به العبارة، ويشتد به أسرها ويقوي حبكها ويتكاثر إيحائها ويمتلى مبنائها..

وفي طبع اللغة أن تسقط من الألفاظ ما يدل عليه غيره، أو ما يرشد إليه سياق الكلام أو دلالة الحال، وأصل بلاغتها في هذه الوجازة التي تعتمد على ذكاء القارئ، أو السامع، وتعول على إثارة حسه، وبعث خياله، وتنشيط نفسه، حتى يفهم بالقرينة ويدرك باللمحة، ويفطن إلى معاني الألفاظ التي طواها التعبير“<sup>(٢)</sup>.

وهذا الموضوع يعد أغزر فصول هذه الدراسة، فالآيات المتشابهة في القرآن الكريم التي تختلف من حيث الذكر والحذف كثيرة جداً، وقد حصرت أكثر من تسعين مسألة، ولا عجب في ذلك، فإن من يتأمل القرآن الكريم ويتتبع الآيات المتشابهة يلحظ ذلك لا سيما في القصص القرآني، وقد اجتهدت في تصنيف الآيات المتشابهة وترتيبها، ورأيت أن جل الحديث يدور حول ثلاثة محاور رئيسة:

**الأول:** حذف الحروف، وهو ما يطلق عليه حذف جزء الكلمة.

**الثاني:** حذف الكلمة، وهو ما يطلق عليه حذف جزء الجملة.

**الثالث:** حذف الجملة.

وقد درس البلاغيون حذف جزء الجملة في باب المسند إليه، والمسند، ومتعلقات الفعل كما تحدثوا عن حذف الجملة والجمل في باب

(١) المصدر السابق: ١٤٦.

(٢) خصائص التراكيب، للدكتور أبو موسى: ١١١.



الإيجاز بالحذف<sup>(١)</sup>.

أما حذف جزء الكلمة أو الحروف فأكثر العلماء لم يلتفتوا إليها، وهو ما سأحدث عنه أولاً في مطلع هذا الفصل بإذن الله تعالى.

## أولاً: الذكر والحذف في الحروف:

كما سبق أن ذكرت أن البلاغيين لم يعتنوا بدراسة حذف جزء الكلمة، أو الحروف، أو الأدوات، وإن كان فيها إشارات توجب على من له عناية بأسرار اللغة وبلاغتها أن يتنبه إليها، فإن من يتأمل تراث علمائنا السابقين يجد لهم من الإشارات واللمسات البلاغية الشيء الكثير مما يبرز هذا النوع من الحذف<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان لعلماء البلاغة إشارات في هذا الصدد، فإن لعلماء المتشابهة وقفات مع كتاب الله فيما تشابه منه، فبينوا أسرار ذكر هذا الحرف في هذه الآية، وحذفه في آية أخرى مشابهة، وهذا يعد مما انفرد به هؤلاء العلماء عن غيرهم، ولعل مما يحمد في هذا المقام أن حديثي هنا موصول بحديث سابق عن الحروف، وهو اختلاف الآيات المتشابهة في اختيار الحروف كالجر والعطف وغيرها، وهنا أورد الاختلاف بينها فيما يتصل بالذكر والحذف في الحروف، ولعل هذا يكمل ذاك في مسألة بحث الحرف القرآني وبالله التوفيق.

ونبدأ بإذن الله تعالى بالآيات التي حذف فيها حروف الجر، وأولها الباء، ففي قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾: ١٨٤ حذف حرف الجر في قوله: ﴿وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ﴾، بينما أثبت الحرف في آية سورة فاطر يقول

(١) انظر: مفتاح العلوم للسكاكي: ١٧٦-١٧٨، ٢٠٥-٢٠٧، ٢٢٤-٢٢٨، والتلخيص في علوم

البلاغة للقزويني: ٣٥-١٠١، ٥٦-١٠٥، ١٢٦-١٣٢، والإيضاح: ٢/٤-٩، ١٠٣-١١١،

١٣٨-١٦١، والبلاغة فنونها وأفناها (علم المعاني) لحسن عباس: ٢٤٧-٢٩٤.

(٢) انظر: خصائص التراكيب: ١١٢-١١٨. ففيه أمثلة وشواهد على هذا النوع من الحذف.

تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ  
وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾: ٢٥.

يرى الخطيب الإسكافي أن سياق آية آل عمران بني على الاختصار والتخفيف، فقد حذف الفاعل في (كذب) كما ورد الشرط ماضياً مع أن أصله المستقبل، فتم حذف الجار تخفيفاً لمناسبة ما تقدم، أما آية فاطر فسياقها يقتضي البسط، فقد ورد الفعل مضارعاً في الشرط، وكذا إظهار الفاعل، فناسبه البسط وذكر الجار في الألفاظ الثلاثة.

يقول رحمه الله تعالى: ”الزبر والكتاب في سورة آل عمران وقعا في كلام بني على الاختصار والاكتفاء فيه بالقليل عن الكثير مع وضوح المعنى، فكان أول ذلك قوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ والتقدير: وإن يكذبوك، فوضع الماضي الذي هو أخف موضع المستقبل الذي هو أثقل بدلالة (إن) التي للشرط وحصول الخفة في اللفظ، ثم إن الفعل الذي في جواب الشرط بني للمفعول ولم يسم فاعله، فكان الاختيار أن يجعل آخر الكلام كأوله بالاكتفاء بما قل عما كثر منه مع وضوح المعنى.

والآية التي في سورة الملائكة (فاطر) صدرت بما يخالف ذلك في الموضعين، لأن الشرط جاء فيها على الأصل بلفظ المستقبل وهو (وإن يكذبوك) وجاء الجزاء أيضاً مبنياً للفاعل ولم يحذف منه ما حذف من الأول، فلما قصد توفية اللفظ حقه اتبع آخر الكلام أوله في توفية كل معمول فيه عامله وهي حروف الجر التي استوفتها المجرورات“<sup>(١)</sup>. وقد وافقه الكرمانى الذي نقل نص كلامه، وتابعه ابن جماعة<sup>(٢)</sup>.

وللمطعني في خصائص التعبير القرآني توجيه جيد فبعد أن ذكر أنه ”لم ير توجيهاً لأحد في هذا“، ذكر أن آية فاطر مكية، فهي متقدمة على آية

(١) درة التنزيل: ٤٠.

(٢) انظر: البرهان: ١٥٢، وكشف المعاني: ١٣٤.

آل عمران المدنية في النزول، وأوضح أن الاستجابة إلى الدعوة والإسراع إلى الإيمان يختلف فيما بين أهل مكة وأهل المدينة، فأهل مكة أهل عناد وتحد، وأهل المدينة أهل إسلام وطاعة، فعلى هذا فالمقام مع أهل مكة يقتضي التأكيد في المعاني لتقريرها ورسوخها لتتناسب مع حالة الإنكار التي كانوا عليها، فأشعر تكرار حرف الجر بتكرار المتعلق، وخلا التعبير المدني المتمثل في آية آل عمران من هذا التكرار لعدم الحاجة إليه<sup>(١)</sup>.

ومن المواضع حذف الباء من الاسم الموصول في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾: ١١٧، وفي غيرها جاء التعبير بذكر الجار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾<sup>(٢)</sup>.

يعلل الإمام الكرماني سر ذلك بأن الأصل إثبات الباء كما جاء في غير سورة الأنعام، لأن (أفعل) فيه معنى الفعل، وهو لا يعمل في المفعول به فزيد بعده حرف الجر الباء تقوية للعمل، وأوضح أن الحذف في آية الأنعام إنما هو لموافقتها مع آية أخرى في السورة نفسها، يقول تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، ويرى رحمه الله أنه عدل إلى لفظ المستقبل، لأن أكثر ما يستعمل (أفعل) مع الماضي، والباء إذا حذفت من (بمن) التباس اللفظ بالإضافة، لأن أكثر الإضافة تكون مع الماضي، فلو قلنا: الله أعلم من ضل، بالماضي، سيكون هناك التباس في المعنى، أي أن هناك عالماً بمن ضل، والله تعالى أعلم منه، تعالى الله وتنزهه عن ذلك، ومن هنا لما حذفت الباء جيء بالمستقبل تحشياً من توهم الإضافة، والله أعلم..

يقول: ”إثبات الباء هو الأصل كما في القلم وغيرها من السور؛ لأن المعنى لا يعمل في المفعول به فقوي بالباء، وحيث حذفت أضمر فعل يعمل فيما بعده.

(١) انظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، للدكتور: عبد العظيم المطعني: ١٨/٢.

(٢) سورة النحل: ١٢٥، والنجم: ٣٠، والقلم: ٧.



وخصت هذه السورة — الأنعام — بالحذف موافقة لقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾: ١٢٤، وعدل إلى لفظ المستقبل لأن الباء إذا حذفت التبس اللفظ بالإضافة، تعالى الله عن ذلك، فنبه بلفظ المستقبل على قطع الإضافة؛ لأن أكثر ما يستعمل (أفعل من) يستعمل مع الماضي نحو: أعلم من دبّ ودرج، وأحسن من قام وقعد، وأفضل من اعتمر وحج، فتنبه فإنه من أسرار القرآن“ (١).

والملاحظ أن الآية التي ذكرها الكرمانى متأخرة، والمعروف أن الموافقة تكون للمتأخر، فالمتأخر يوافق المتقدم، وقد نبه إلى ذلك محقق كتاب كشف المعاني، وهذا لا يمنع أن الكرمانى أراد الموافقة، فهو رحمه الله يعول كثيراً على مسألة الموافقة اللفظية، وهي من المظاهر التي تميز توجيهاته وتعليلاته، وهو تعليل مقبول ينظر في مناسبة المبنى للنص، وتلاؤم الألفاظ. وقد وافقه ابن جماعة، والأنصاري (٢).

أما ابن الزبير فتوجيهه قريب من توجيه الكرمانى، فقد ذكر ”أن سقوط الباء الداخلة على (من) في آية الأنعام إنما ذلك والله أعلم لاستثقال زيادتها مع الزيادة اللازمة للمضارع مع التقارب إشاراً للإيجاز والتخفيف، أما آيتا النجم والقلم فلا زيادة في الفعل لكونه ماضياً فزيد باء التأكيد الداخلة على (من)“ (٣).

ومثل هذا الموضع ما ورد في القصص، في آيتين متشابهتين، الأولى ورد فيها ذكر الباء، والأخرى على الحذف يقول تعالى: ﴿رَبِّتْ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾: ٣٧، وفي آخر السورة: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾: ٨٥. فقد ذكر الكرمانى أن الآية الأولى جاءت على الأصل، والثانية جاءت بالحذف اكتفاء بدلالة الأولى عليه.

(١) البرهان: ١٧٧.

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٦٦، وفتح الرحمن: ١٢٧.

(٣) ملاك التأويل: ٤٧١/١.

يقول: "الأول هو الوجه؛ لأن (أفعل) هذا فيه معنى الفعل، ومعنى الفعل لا يعمل في المفعول به فزيد بعده باء تقوية للعمل، وخص الأول بالأصل ثم حذف من الآخر الباء اكتفاء بدلالة الأول عليه، ومحله نصب بفعل آخر: أي يعلم من جاء بالهدى، ولم يقتض تغييراً — أي: لم يقتض حذف الباء تغييراً في الفعل (جاء)، فأتي بدله بالفعل يجيء — كما قلنا في الأنعام<sup>(١)</sup>؛ لأن دلالة الأول قام مقام التغيير، وخص الثاني به لأنه فرع"<sup>(٢)</sup>. وقد وافقه أبو يحيى الأنصاري<sup>(٣)</sup>.

ونلاحظ في توجيه الكرماني رحمه الله لهذا الموضع، والموضع الذي قبله أن هناك مقياساً للكلام من حيث الخفة والثقل، وهذا الميزان يفيد أن الكلام يدل بعضه على بعض، فلما تقدم ما هو أصل، وعلم أنه الأصل، لم يضر الحذف في الموضع الثاني لأجل التخفيف، لأنه فرع عن الأول، وتابع له، وقد عده الإمام الكرماني أحد وجوه بلاغة الكلام، والله تعالى أعلم.

ومن الحروف التي ورد حذفها وذكرها في الآيات المتشابهة الحرف (من)، وقد وقفت على ستة مواضع في كتاب الله، تحدث عنها علماء المتشابه، وأول موضع في العنكبوت يقول تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾: ٦٣، فجاء التعبير بذكر (من) في قوله ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾، وفي غيرها من الآيات حذف الحرف في قوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾<sup>(٤)</sup>.

يرى الخطيب الإسكافي أن آية العنكبوت فيها سؤال وتقرير ليس في غيرها، والتقرير يحتاج إلى التحقيق، فلذلك قيد الظرف بـ (من) فجمع بين

(١) يقصد الآية التي سبق أن تحدث عنها في الموضع السابق.

(٢) البرهان: ٢٩١.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٣١٦.

(٤) سورة البقرة: ١٦٤، النحل: ٦٥، الجاثية: ٥.

طرفيه، أما الآيات الأخرى فليس فيها تقرير يماثل الآية الأولى فخلت من الحرف.

يقول: ”والجواب أن يقال: إن التقرير يؤثر فيه من تحقيق الكلام ما لا يؤثر في غيره، والظروف إذا حدثت حقت، تقول: سرت اليوم، فإن قلت: من أوله إلى آخره كان الحد تحقيقاً لأنه قد يطلق لفظ اليوم، وإن ذهب ساعة، أو ساعتان من أوله، وإن بقيت ساعة أو ساعتان من آخره، فإذا وقع الحد زال هذا الوهم، فقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ تحقيق، لأنه محدد بمن، وخص به التقرير لأنه من أماكنه، وقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ليس فيه تقرير كما كانت الأولى وإن كان يؤدي معنى المحدود، إلا أنه ليس له لفظه“<sup>(١)</sup>. وقد وافقه الكرمانى، وزاد رحمه الله وجهاً آخر لذكر الجار في آية العنكبوت، وهو موافقتها لما تقدمها وهو قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾: ٤٨<sup>(٢)</sup>، ووافقه الأنصارى على هذا التوجيه<sup>(٣)</sup>.

أما ابن الزبير فذكر توجيهاً مختلفاً فرى أن في زيادة الجار في العنكبوت زيادة بيان وتأکید نوسب به ما تقدم من قوله: ﴿مَنْ نَزَّلَ﴾، فصيغة (فعل) للمبالغة والتكثير وذلك مما يستجر البيان والتأكيد فنوسب بينهما، ولما لم يقع في آية البقرة وغيرها سوى لفظ (أنزل) ولا مبالغة فيها ولا تأكيد، ولا انجر في الكلام ما يعطيه، لم يوجد ما يستدعي زيادة (من) ليناسب بها<sup>(٤)</sup>.

أما ابن جماعة فذهب إلى أن إحياء الأرض يكون تارة عقيب شروع موتها، وتارة بعد تراخي موتها مدة، فأية العنكبوت تشير إلى الحالة الأولى، ”لأن (من) لا ابتداء الغاية، فناسب ذلك ما تقدم من عموم رزق الله تعالى

(١) درة التنزيل: ١٩٩—٢٠٠.

(٢) انظر: البرهان: ٢٩٨.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٣٢٢.

(٤) انظر ملاك التأويل: ٢٤٥/١.



خلقه، وآية البقرة والجمالية في سياق تعداد قدرة الله تعالى، فناسب ذلك ذكر إحياء الأرض بعد طول زمان موتها لدلالته<sup>(١)</sup>.

ومن مواضع حذف (من) ما ورد في سورة النحل عند قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾: ٧٠ بينما ورد في سورة الحج ذكر الحرف يقول تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾: ٥.

يعلل الخطيب الإسكافي سبب الاختلاف أن آية النحل بنيت على الإجمال فناسب الحذف، أما آية الحج فقد بنيت على التفصيل فناسبها الذكر، هذا جوهر توجيهه، وعليه فصل القول.

يقول: "ذكر في سورة النحل الجملة التي فصلت في سورة الحج وكانت لفظة بعد جملة الزمان المتأخر عن الشيء، قال: (والله خلقكم)، فأجمل ما فصل في السورة الأخرى، وبعده: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ﴾.. فكان هذا موضع جمل لا تفصيل معها ولا تحديد، ولم يكن كذلك الأمر في الحج، لأنه قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾... فذكر تفصيل الأحوال ومبadiها فقال: من كذا ومن كذا الابتداء كل ينتقل منه إلى غيره، فبنى ذكر الحال التي ينتقل فيها من العلم إلى فقداه على الأحوال التي تقدم ذكرها، فكما حدد أوائلها بمن كذلك حدد الحال الأخيرة المنتقلة عما قبلها بمن فقال: ﴿مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ﴾ أي فقد العلم بعد أن كان عالماً فباين الموضع الأول لذلك"<sup>(٢)</sup>.

وقد وافقه الكرمانى<sup>(٣)</sup>، وتابعهما ابن جماعة، وأبو يحيى الأنصارى<sup>(٤)</sup>.

(١) كشف المعاني: ٢٩٢.

(٢) درة التنزيل: ١٥٠.

(٣) انظر: البرهان: ٢٤٦.

(٤) انظر: كشف المعاني: ٢٣٠، وفتح الرحمن: ٢٢١.

أما ابن الزبير فيرى أن التناسب وتشاكل النظم هو سر الحذف والذكر  
فآية الحج تكررت فيها (من) في ستة مواضع، يقول: "... وكلها محرزة معناها  
الذي جيء بها من أجله، إلا التي في قوله: (من بعد) إذ النظم مع سقوطها  
ملتئم والمعنى تام، فاستوى وجودها وعدمها، فاستدعاها سياق آية الحج  
للتشاكل والتناسب في النظم، ولم يكن في آية النحل ما يستدعيها، إذ لم يرد  
ما يقتضيها"<sup>(١)</sup>، وقد ذكر ابن عاشور هذا المعنى<sup>(٢)</sup>.

ومثل الموضع السابق أيضاً إلا أن ذكر الحرف وحذفه قبل القبلية وليس  
البعدية، كما في الموضعين السابقين، ففي سورة طه جاء حذف (من) في قوله:  
﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنتِهِمْ﴾: ١٢٨، وفي السجدة  
ذكر حرف الجر في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾: ٢٦.  
الإسكافي أكد كلامه السابق حول هذه المسألة فقال: "أما دخول (من)  
وحذفها فقد بيناه... وهو أن القائل إذا قال: (كم أهلكنا قبلهم) فكأنه قال  
في الزمن المتقدم على زمانهم، وإذا قال: (من قبلهم) فكأنه قال من مبدأ  
الزمان الذي قبل زمانهم، والزمان من أوله لآخره ظرف للإهلاك لا يختص  
به بعضه دون بعض"<sup>(٣)</sup>.

أما ابن الزبير الغرناطي فقد أجاد في حديثه، حيث تأمل الآيات وخرج  
بنتيجة مفادها أنه إذا "ورد في هذه الآي ما قبله استيفاء تفصيل وعيدين في  
أمة بعينها، أو أكثر، أو تكرر التهديد وشدة التخويف من مقتضى السياق  
وفحوى الكلام فذلك موضع زيادتها والتأكيد بإثباتها، وحيث لا يتقدم  
تفصيل على ما ذكرناه أو تكون أي التهديد لا تبلغ في اقتضاء مقتضاها  
نفوذ الوعيد فهذا يناسبه الإيجاز بحذفها، إذ لا يراد من تأكيد الوعيد ما يراد

(١) ملاك التأويل: ٧٤٩/٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ٢٠٢/١٧.

(٣) درة التنزيل: ١٦٣.

في الآي الآخر<sup>(١)</sup>.

فسورة السجدة تتميز بالشدة والإشارة إلى إنفاذ الوعيد فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾: ٢٢، وكان ختم السورة بقوله: ﴿وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾: ٣٠، وقد وقعت الآية بين هذين الوعدين والتهديدين، فناسب ذكر (من)، وأما آية طه فلم يرد فيها من التخليط في الوعيد وتوالي التهديد ما في آية السجدة<sup>(٢)</sup>. وهذا في الحقيقة استقرار واستخلاص جيد من ابن الزبير رحمه الله.

ومثل الموضع السابق توجيه علماء المتشابه لقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾: ٧، فقد حذفت (من) بعد قوله: (أرسلنا)، وفي غيرها من السور جاء الإثبات: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾: <sup>(٣)</sup>. ذكر الخطيب الإسكافي أن (من) في الآية الثانية لا ابتداء الغاية و(قبلك) اسم للزمان الذي تقدم زمانك، والآيتان في الاستيعاب واحد إلا أن الآية الأولى أوكد للحصر بين الحدين وضبطه للطرفين، والزمان المتقدم قد يقع على بعض ما تقدم فيستعمل فيه اتساعاً، وهذا ما يؤكده الإسكافي رحمه الله<sup>(٤)</sup>.

ثم يقول: ”..فأما الأول فإنه حذفت منه (من) بناء على الآية المتقدمة، وهي: ﴿مَاءً آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾: ٦، فلما كان الزمان الذي تقدمهم هو الزمان الذي تقدم النبي ﷺ المذكور في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾، وكانت (قبل) إذا عريت من (من) موضوعة للزمان المتقدم كله، صار بناؤه على (قبل) مذكوراً كالتوكيد الواقع بمن في سائر المواضع“<sup>(٥)</sup>.

(١) ملاك التأويل: ٤١٦/١.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٤١٧/١—٤١٩.

(٣) سورة يوسف: ١٠٩، والنحل: ٤٣.

(٤) انظر: درة التنزيل: ١٣٢.

(٥) درة التنزيل: ١٣٢.



وقد وافقه على هذا التوجيه كل من الكرمانى، والأنصارى<sup>(١)</sup>.

أما ابن الزبير فقد ذكر شيئاً من كلام الإسكافى لاسيما عن موافقة آية الأنبياء لما قبلها، إلا أنه أكد أن قوة السياق تتحكم في الآيات، فآية يوسف تقدمها قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾: ١٠٦، وقوله: ﴿وَسُبِّحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: ١٠٨، وقوة السياق في هذه الآي يدل على معنى القسم ويعطيه، فناسب ذلك زيادة (من) المقتضية الاستغراق، وكذلك قوله في سورة النحل: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً...﴾: ٤١، يؤكد ذلك المعنى فناسبه زيادة (من) لاستغراق ما تقدم من الزمان، أما آية الأنبياء فتقدم قبلها إنكار الكفار كون الرسل من البشر ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾: ٣، واقتراحهم الآيات ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾: ٥، فلما تقدم هذا أتبع ببيان الطرف الآخر وهو التعريف بأن الرسل إنما كانوا رجالاً، فقل هنا (قبلك) كما قيل في نظيرتها ﴿مَاءَ أَمْنَتَ قَبْلَهُمْ﴾: ٦، وذلك لإحراز التناسب والتحام الجملة المنطوية على طرفي مقصدهم<sup>(٢)</sup>.

وقد أشار الطاهر بن عاشور إلى المعنى المستفاد من الحرف (من) في سياق الآيتين، وهو ما يتوافق مع كلام ابن الزبير الغرناطى<sup>(٣)</sup>.

ومن الإشارات السريعة في هذا الموضوع ما ذكره الإمام الكرمانى في توجيه قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾: ٧٤، بحذف الحرف (من) قبل (الجبال)، وفي الشعراء ورد ذكر الحرف: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾: ١٤٩.

فقد نظر رحمه الله لسياق آية الأعراف فلاحظ أن حرف الجر تقدم ذكره في قوله: (من سهولها)، فأغنى عن تكراره، يقول: "لأن ما في هذه السورة

(١) انظر: البرهان: ٢٢٩، وفتح الرحمن: ٢٦٨.

(٢) انظر ملاك التأويل: ٦٧٨/٢—٦٧٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير: ٦٧/١٣.

— الأعراف — تقدمه (من سهولها قصوراً) فاكتفى بذلك<sup>(١)</sup>.

من الإشارات أيضاً ما ذكره الخطيب الإسكافي رحمه الله في حديثه عن الآيات التي جاء فيها (من تحتها) كقوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، فكل ما ورد في كتاب الله جاء بحرف الجر (من)<sup>(٢)</sup>، إلا في آية في سورة التوبة بحذف حرف الجر، يقول سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهِجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: ١٠٠، وقد انفرد الإسكافي بتوجيه هذا الاختلاف، وإن كان ابن كثير قرأ الآية ﴿من تحتها﴾ بإثبات (من) الجارة<sup>(٣)</sup>.

يرى الإسكافي أن الآيات التي ورد فيها الجار يدخل فيها الأنبياء عليهم السلام وغيرهم، ففيها عموم، أما آية التوبة فهي لقوم مخصوصين ليس فيهم الأنبياء.

يقول: ”الآيات التي ذكر فيها لفظ (من) خرجت على ذكر الرسل عليهم السلام.. فكان الذي أخبر عنهم بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار الأنبياء وغيرهم صلوات الله عليهم، و(من) لا ابتداء الغاية والأنهار أشرف مباديها، والجنات التي مباديها الأنهار من تحت أشجارها أشرف من غيرها، فكل موضع ذكر فيه (من تحتها) إنما هو لقوم عام فيهم الأنبياء.

والموضع الذي لم يذكر فيه (من) إنما هو لقوم مخصوصين ليس فيهم الأنبياء، ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة براءة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهِجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الآية، فجعل مبادئ الأنهار تحت جنات أخبر أنها للصادقين والمؤمنين“<sup>(٤)</sup>.

(١) البرهان: ١٩٢.

(٢) سورة المائدة: ١١٩، التوبة: ٨٩، النساء: ١٣، الحديد: ١٢، المجادلة: ٢٢، الطلاق: ١١.

(٣) انظر: البحر المحيط: ٩٢/٥، والتحرير والتنوير: ١٨/١١.

(٤) درة التنزيل: ٥٤—٥٥.

وبعد أن تحدثت عن الآيات المتشابهة الخاصة بالحرف (من) أنتقل لما ورد عن حرف اللام، وقد تحدث علماء المتشابه عن خمسة مواضع، تمثل ما جاء في القرآن الكريم من المتشابه في هذه المسألة، وأول موضع نتحدث عنه ما جاء في آخر سورة الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: ١٦٥، حيث جاء اللفظ (سريع) بدون اللام، بينما في سورة الأعراف جاءت الآية بذكرها: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: ١٦٧.

وحين ننظر لتوجيه علماء المتشابه نجد أنهم نظروا لما قبل الآيتين، فحين كان السياق المتقدم عن الحسنات والهداية لصراط الله جاء التعبير باللام مع المغفرة والرحمة وذلك في آية الأنعام، ولما كان السياق المتقدم عن أخذ الذين ظلموا بالعذاب، وذكر مرتكباتهم السيئة جاء التعبير باللام لتأكيد سرعة العذاب الذي يستحقونه.

يقول الإمام الكرمانى: "لأن ما في هذه السورة — الأنعام — وقع بعد قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَالٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ خَلْقَ الْأَرْضِ﴾ فقيّد قوله: ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ باللام ترجيحاً للغفران على العقاب. ووقع ما في الأعراف بعد قوله: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾: ١٦٥، وقوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾: ١٦٦، فقيّد العقاب باللام لما تقدم من الكلام" (١).

ووافقه ابن الزبير، وأبو يحيى الأنصاري الذي نقل نص الكرمانى برمته (٢). كما وافقهم ابن جماعة ولكن بأسلوب آخر حيث قال: "لما تقدم ما يؤذن بالكرم والإحسان في قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ..﴾ الآيات، ناسب ترك التوكيد في جانب العقاب، وفي الأعراف: لما تقدم ما يؤذن بغضب الله وعذابه من اتخاذهم العجل وحلّ السبت، ناسب توكيد جانب العذاب بدخول اللام" (٣).

(١) البرهان: ١٨٠.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ١/٤٨٥—٤٨٦، فتح الرحمن: ١٣٣.

(٣) كشف المعاني: ١٧٣.



ومن الآيات المتشابهة أيضاً: تخرج علماء المتشابه لايتي لقمان والشورى،  
ففي الأولى حذفت اللام، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: ١٧، وفي  
الثانية جاءت الآية بذكرها: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لِمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: ٤٣.

يرى الإسكافي وغيره من علماء المتشابه أن الصبر يكون على وجهين،  
فهو إما صبر على مكروه حدث بظلم كقتل ولد، أو صبر على مكروه حدث  
بلا ظلم كموت ولد ونحوه، فالصبر الأول أشد، والعزم عليه أوكد، فجاء  
باللام للتأكيد.

يقول الإسكافي: "إن ما رغب الله تعالى فيه عبده من الصبر على  
ما آلم قلبه من جناية جان عليه حتى يغفر لمن ظلمه ويهب له من القصاص  
حقه ترغيب فيما يشق على الإنسان فعله... وإذا كان هذا من أصعب ما  
يتحملة الإنسان وجب توكيد الكلام فيه ما لا يجب في غيره، فأدخلت اللام  
على: ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ على معنى أنه من الأمور التي تحتاج إلى توطين النفس  
عليها وتخبر أرفعها وأعلاها. وليس كذلك ما في سورة لقمان؛ لأنه قال:  
﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ وليس يختص صبراً على ظلم يلحقه فيرغب في العفو  
عن الظالم، بل تكون شدائد — لا يهيج النفوس الانتصار فيها ولا تدعو  
دواع إلى الانتقام لها — من الرزايا في الأنفس والأموال" (١).

وقد وافقه الإمام الكرمانى، وابن جماعة، والأنصاري، رحمهم الله (٢).  
أما ابن الزبير فله رأي آخر، فيرى أن زيادة المبنى تدل على  
زيادة المعنى، فأية لقمان أشير فيها إلى أربع خصال يقول تعالى:  
﴿يَبْنِيْ أَيْمَانَ الصَّلَاةِ وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾، والأربعة من  
العدد القليل فحلت من التأكيد باللام، ومثلها ما ورد في آل عمران:  
﴿لَتُبْلَوْنَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ

(١) درة التنزيل: ٢٤١.

(٢) انظر: البرهان: ٣٣٠، وكشف المعاني: ٣٣١، وفتح الرحمن: ٣٧٧.

وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ،  
 فوقع الإخبار بالابتلاء في الأموال والأنفس وسماع الأذى، وهذا من القليل  
 أيضاً. أما آية الشورى فالإشارة فيها بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إلى اثني عشر مطلوباً  
 من لدن قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾: ﴿٣٦﴾، وهذه إشارة إلى  
 التنزه عن ذلك، ثم قيل للذين آمنوا: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، فالإشارة إلى  
 الإيمان والتوكل التزام بذلك، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبِئُونَ كِبِيرًا لِإِثْمِهِمْ وَالْفَوَاحِشِ  
 وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾: ﴿٣٧﴾، فهذه التزامات ثلاثة، ثم قال:  
 ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: ﴿٣٨﴾، فهذه  
 التزامات أربعة، وبعد هذه الخصال النيفة على العشر قال تعالى في التزام  
 جميعها: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ﴾ فناسب كثرة الخصال الجليلة زيادة اللام المؤكدة<sup>(١)</sup>.  
 وفي موضع آخر من كتابه يعلل تعليلاً آخر مفاده "أن آية الشورى لما  
 دخلها معنى القسم، وكانت على تقديره، إذ اللام في قوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾  
 توطئة له ودالة على تضمين الآية معناه، ناسب ذلك زيادة لام التوكيد  
 في خبر إن، وذلك ظاهر في معنى الآية. وأما آية لقمان فقوله فيها:  
 ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ مجرد إخبار عن حال ما وقعت الوصية به، ولا مدخل  
 للقسم هنا ولا معنى له.."<sup>(٢)</sup>.

ومن الآيات المتشابهة قوله تعالى في الزخرف: ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾: ﴿١٤﴾،  
 فأكد الخبر باللام، وفي سورة الشعراء حذف اللام: ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾: ﴿٥٠﴾.  
 والسر في ذلك كما يراه الخطيب الإسكافي ومن وافقه، أن آية الزخرف  
 تفيد العموم فحسن إدخال اللام، أما آية الشعراء فهي خبر عن السحرة لما  
 آمنوا، فأفادت الخصوص فحسن حذف اللام.

يقول الخطيب: آية الزخرف "خطاب لكل من كان في ذلك العصر،

(١) انظر: ملاك التأويل: ٣٢٧/١—٣٢٨.

(٢) المصدر السابق: ٩٤٢/٢—٩٤٣.

ومن يكون بعدهم إلى انقضاء الدهر، فالتوكيد لمثله لازم، وفي الكلام الذي للتأييد واجب، والذي في سورة الشعراء إنما هو خبر عن السحرة لما آمنوا، ووصفوا حالهم واستهانتهم بما خوفوا أن ينالهم من عقوبة فرعون، إذ كان منقلبهم إلى ربهم، وكانوا مجازين على إيمانهم وصدقهم وصبرهم، فلم يحتاج من التوكيد إلى ما احتاج إليه ما هو على التأييد“<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه كل من الكرمانى، وابن جماعة، وأبو يحيى الأنصارى<sup>(٢)</sup>. أما ابن الزبير فقد وافق الخطيب في تخريج آية الشعراء، فذكر أن الآية مجرد إخبار عن رجائهم وما ينتظرونه ثواباً على إيمانهم، فلا مدخل للام التأكيد هنا<sup>(٣)</sup>.

أما آية الزخرف فله رأي آخر فيرى أن الآية ”مبنية على ما تقدمها من الإخبار عن مشركي العرب في قوله: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾: ٩ الآيات، والمراد بذلك إقامة الحجة عليهم في إنكار البعث، فطابق ذلك وناسبه تأكيد قول المؤمنين المقول لهم ﴿لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾: ١٣، فأكد هذا وضمن معنى القسم“<sup>(٤)</sup>.

ومثل الموضع السابق تعليل علماء المتشابه لقوله تعالى في طه: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾: ١٥، فقد خلا خبر (إن) من التأكيد باللام، بينما ورد التأكيد بها في سورتي الحجر ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ و غافر: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّارْيَبَ فِيهَا﴾<sup>(٥)</sup>.

يذكر الخطيب الإسكافي وغيره من علماء المتشابه أن زيادة اللام إنما هي لتأكيد الخبر، وهذا التأكيد ذكر لأن الخطاب مع المنكرين للبعث،

(١) درة التنزيل: ٢٤٥.

(٢) انظر: البرهان: ٣٣٢، وكشف المعاني: ٣٣٢، وفتح الرحمن: ٢٩٩.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٨٩٠/٢.

(٤) ملاك التأويل: ٨٩١/٢.

(٥) سورة الحجر، آية: ٨٥، وغافر: ٥٩.



فناسب التوكيد باللام، أما في طه فالخطاب مع موسى عليه السلام فلم تدع الحاجة لمثل ذلك.

يقول الخطيب الإسكافي: "إن اللام التي تقع في خبر إن، أو اسمها، إذا حلت محل الخبر تؤكد الكلام، والعرب تحرص على التوكيد في موضعه، وتركه في غير موضعه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ﴾ ٨٥ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ٨٦، وقال في سورة المؤمن: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٥٧... فهذان من مواضع التوكيد وتحقيق الخبر، أن الساعة حق، وأنها آتية لا ريب فيها، والخطاب لقوم كفار ينكرونها، والتي في سورة طه خطاب لموسى عليه السلام، وهي ضمن كلام الله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ ١٢، وقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ١٤ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ ولم يكن موسى عليه السلام ممن ينكر ذلك فيؤكد الكلام عليه توكيده على منكره والجاحدين له" (١).

وقد وافقه على هذا علماء المشابه: الكرمانى، وابن الزبير، وابن جماعة، والأنصاري، رحمهم الله تعالى رحمة واسعة (٢).

وقد ذكر البلاغيون أن الخبر يأتي مؤكداً، ويأتي خالياً من التأكيد حسب ما يقتضيه الحال، فإذا كان المخاطب خالي الذهن ألقى عليه الكلام بدون تأكيد، أما إذا كان شاكاً في الخبر فإنه يحسن أن يؤكد له الخبر حتى يزول ما في نفسه من شك، وأما إذا كان منكراً فيجب أن يؤكد له الخبر على قدر درجة إنكاره (٣).

(١) درة التنزيل: ٢٣١.

(٢) انظر: البرهان للكرمانى: ٣٢٥، وملاك التأويل لابن الزبير: ٨١٥/٢—٨١٦، وكشف المعاني لابن جماعة: ٣٢١—٣٢٢، وفتح الرحمن للأنصاري: ٢٦٠.

(٣) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني: ٩٦/١—٧١، وبغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدي: ٤٥/١—٤٧، وانظر: البلاغة فنونها وأفنانها لفضل حسن عباس: ١١٣.

ومن مواضع ذكر اللام وحذفها ما جاء في سورة النحل، في قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: ٢٩، ففي هذه الآية ذكرت اللام في قوله: ﴿فَلَئْسَ﴾، وفي غيرها جاءت الآية بحذف اللام يقول تعالى: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

سياق آية النحل وما تقدمها من آيات سياق يحكي شدة كفر الكافرين الذين نزلت الآية فيهم، وعظم صدهم وضلالهم وإضلالهم، فناسب ذلك التأكيد بذكر اللام، ولهذا لما أكد في هذه الآية في ذكر أهل النار، أكد جل شأنه في ذكر أهل الجنة بقوله تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾: ٣٠، فاللام للتأكيد وهي مشعرة بالقسم، أما آية الزمر وغافر فهما في جملة الإخبار عن مآل الكفار وما سيلاقونه من العذاب فلم تدخل اللام على الآيتين.

يقول الإسكافي: "إن آية النحل نزلت في قوم قد ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم... وهم الذين قالوا إن القرآن ليس من عند الله، وإنما هو أساطير الأولين، وهؤلاء أكثر الناس آثاماً وأشدهم عقاباً، ومن هذه صفته اختيار — عند تغليظ العقاب له — إلى المبالغة في تأكيد لفظه، فاختيرت اللام هنا لذلك، ولأن بعدها في ذكر أهل الجنة قوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾، فاللام في (لنعم) بإزاء اللام في (لبئس)، وليس كذلك الآيتان في سورة الزمر والمؤمن، لأنهما في ذكر جملة الكفار... فلما كان المذكورون في سورة النحل فيمن لزمهم وزران عن ذنوبهم التي أتوها، وعن ذنوب غيرهم التي حملوا عليها، ولم يذكر من سواهم في الآيتين الآخرين يحمل أثقالاً مع أثقالهم حسن التوكيد هناك فضل حسن فلذلك خص باللام"<sup>(٢)</sup>.

أما الإمام الكرمانى فاكتفى بذكر أن اللام للتأكيد وأنها جارية مجرى القسم، كما ذكر الموافقة بينها وبين الآية التي بعدها، وهذا اختصار لقول

(١) الآية في سورة الزمر: ٧٢، وسورة غافر: ٧٦.

(٢) درة التنزيل: ١٤٦—١٤٧.

الإسكافي، وتابعه بدر الدين بن جماعة<sup>(١)</sup>، وأشار لهذا المعنى الألوسي في تفسيره<sup>(٢)</sup>.

أما ابن الزبير فذكر أن سياق آية النحل يختلف عن سياق الآيات الأخرى، فآية النحل تقدمها ما يقرب من ثماني آيات كلها في وصف كفرهم وشنيع مرتكبهم من لدن قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا اسْطِيرَ الْأَوَّلِينَ﴾: ٢٤، إلى قوله: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ وهذا فيه إطالة، فناسب ذلك زيادة اللام، أما آية الزمر والمؤمن فما تقدمهما كلام موجز لم يذكر فيه كفرهم كما ذكر في النحل، فناسب ذلك سقوط اللام<sup>(٣)</sup>.

ومن الحروف التي تناولها علماء المتشابهة في تراثهم: الفاء، وسر ذكرها في آية وحذفها من آية أخرى مشابهة، ففي سورتي الأنعام: ١٣٥، والزمر: ٣٩ جاء قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بذكر الفاء في قوله: (فسوف)، بينما حذفت في آية سورة هود: ﴿وَيَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ﴾: ٩٣.

أوضح علماء المتشابهة أن الآية التي ورد فيها ذكر الفاء هي متعلقة بقوله: ﴿أَعْمَلُوا﴾، فهي خطاب من الله تعالى للكفار من العرب وفيها وعيد لهم وتهديد، ولهذا تقدمها (قل)، وهو أمر لنبيه ﷺ بوعيدهم، وهذا يفيد قوة تقدير معنى الشرط ثم قال: (اعملوا)، فاستدعى ذلك الجواب بالفاء، فجاءت الفاء في الجواب المبني على الشرط المقدر، فكان المعنى: اعملوا فستجزون، أي: اعملوا على طريقته فستعلمون، فالعمل سبب للجزاء، أما آية هود فهي على الاستئناف، فلا حاجة لدخول الفاء، لأن الآية إخبار للنبي ﷺ فضعف فيها تقدير الشرط، فلم تدخل الفاء.

(١) انظر: البرهان: ٣٤٣، وانظر: كشف المعاني: ٢٢٧.

(٢) انظر: روح المعاني: ٣٧١/٧.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٧٣٧/٢—٧٣٨.



يقول الإسكافي: "أمر الله نبيه ﷺ في سورة الأنعام بأن يخاطب الكفار على سبيل الوعيد اعملوا على طريقتكم وجهتكم، أو على تمكنكم، فسوف تعلمون أنكم أسأتم إلى أنفسكم، والعمل سبب للجزاء الذي عبر عنه بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فالفاء متعلقة بقوله ﴿اعْمَلُوا﴾... وكذلك ما في سورة الزمر من خطاب الله تعالى للنبي ﷺ على هذا الوجه، وأما في سورة هود فإنه حكاية عن شعيب عليه السلام لما تجاهل قومه عليه.. فجعل (سوف تعلمون) مكان الوصف لقوله (عامل)، فلم يصح على هذا المعنى دخول الفاء، وقصد هذا المعنى لما أظهروا من جهلهم به وأهم لا يعرفون ما يقوله لهم، فقال لهم إني عامل سوف تعلمون عملي وتعرفونه بعدما أنكرتموه"<sup>(١)</sup>. وقد ذكر هذا المعنى الكرمانى، وابن الزبير، وابن جماعة، والأنصارى<sup>(٢)</sup>.

ويرى الزمخشري أن الذكر والحذف أمر جائز في العربية وهو من باب التفنن، لكن الحذف أبلغ ليكون جواباً عن سؤال مقدر، وهو أكمل في باب الفصاحة يقول: "فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في (سوف تعلمون)؟ قلت: إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف، وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه"<sup>(٣)</sup>.

وقد وافقه على ذلك الفخر الرازي، وأبو حيان، والألوسي<sup>(٤)</sup>. كما

(١) درة التنزيل: ٧٢.

(٢) انظر: البرهان: ١٧٨، وملاك التأويل: ٤٧٧/١، وكشف المعاني: ١٦٧، وفتح الرحمن: ١٢٩.

(٣) الكشف: ٢٨٩/٢—٢٩٠.

(٤) انظر: التفسير الكبير: ٤٢/١٨، والبحر المحيط: ٢٥٧/٥، وروح المعاني: ٣٢١/٦.

وافقهم ابن عاشور الذي زاد موضحاً أن في خطاب شعيب عليه السلام لقومه من الشدة ما ليس في الخطاب الذي أمر به نبينا ﷺ في سورة الأنعام جرياً على ما أرسل به من اللين لهم: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّمْ يَكْفُرُوا بِآيَاتِهِ لَأَكْثُرَنَّ آيَاتُهُ إِلَيْهِمْ﴾ آل عمران: ١٥٩، وكذلك التفاوت بين معمولي (تعلمون)، فهو هنا غليظ شديد ﴿مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾، وهو هناك لين ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ﴾<sup>(١)</sup>. ومن الأدوات التي تحدث عنها علماء المتشابه: زيادة (أن) بعد (لما)، ففي سورة العنكبوت جاء قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: ٣٣، بذكرها، وفي سورة هود حذفت الأداة، يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: ٧٧.

يرى الخطيب الإسكافي أن (لما) تقتضي جواباً، وإذا اتصلت بها (أن) دل ذلك على أن الجواب اكتمل ووقع في الحال من دون تراخ، وهذا ما حصل في آية العنكبوت فالجواب قوله: (سيء بهم وضاق بهم ذرعاً)، ومثل هذه الآية ما ورد في سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ...﴾: ٩٦. أما آية هود فالحديث فيها متصل، آية بعد آية إلى خمس آيات، فبعد عن الجواب فحسن الحذف.

يقول الإسكافي: "اقتران (أن) بها في سورة العنكبوت تكملة لمعناها في نفسها ليدل بذلك على أنه قد قارن جوابها متصلاً به ما يكمله ويخلصه لتحقيق أو بطلان، فالتى في سورة العنكبوت قد اتصل بجوابها وهي: ﴿سِئَءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ ما يكمله ويخلصه لبطلان الذرع السابق إليه، ومثله: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ فقوله: (ألقاه) جواب (لما)، وقوله متصلاً به: (فارتد بصيراً) تكملة للجواب.. وهي في قوله في سورة هود لم يتصل بجوابها ما يخلصه لتحقيق أو بطلان إلا في الآية الخامسة عند

(١) انظر: التحرير والتنوير: ١٢/١٥٢-١٥٣.

قوله: ﴿قَالُوا يَلُوْطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾: ٨١، فبعد عن هذا الجواب ولم يتصل به ما يكون من تمامه<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه الإمام الكرمانى<sup>(٢)</sup>، أما ابن الزبير ففصل القول في زيادة (أن)، وذكر أن الأصل أن تأتي (لما) بدون (أن)، كما في هود فجاء ذلك أولاً، ثم جاءت في العنكبوت بزيادة (أن) على غير الأصل ليحصل بين الآيتين ما يرفع تشاغل اللفظ المذكور، وأوضح أن الزيادة وعدمها أمر جائز وهو من فصيح الكلام.

أما آية يوسف فوافق الإسكافي في تخريجها فذكر أن مجيء البشير إلى يعقوب عليه السلام حصل بعد طول الحزن وتباعد المدة، فناسب ذلك زيادة (أن) نظراً لما تحمله من معنى التراخي<sup>(٣)</sup>.

ويؤكد الزمخشري ما ذكره الإسكافي حين تحدث عن (أن) فقال: ”.. (أن) صلة أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما، كأنهما وجداً في جزء واحد من الزمان، كأنه قيل: كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومه“<sup>(٤)</sup>. ووافقه أبو حيان<sup>(٥)</sup>، وابن عاشور<sup>(٦)</sup>.

وأختتم هذا الجزء الذي تحدثت فيه عن الذكر والحذف في الحروف والأدوات في التشابه اللفظي في القرآن الكريم بالحديث عن زيادة (ما) في قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ٢٠، بينما جاء السياق في آيتي سورة الزمر بدون (ما)

(١) درة التنزيل: ٢٠١.

(٢) انظر: البرهان: ٢٩٦.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٦٦٤/٢—٦٦٥.

(٤) الكشف: ٢٠٥/٣.

(٥) انظر: البحر المحيط: ١٥٠/٧.

(٦) انظر: التحرير والتنوير: ٢٤٤/٢٠—٢٤٥.



في الحديث عن أهل الجنة وعن أهل النار، يقول تعالى عن أهل النار: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾: ٧١، وعن أهل الجنة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾: ٧٣.

يوضح الخطيب الإسكافي رحمه الله هذه المسألة بكلام مختصر فيقول: "إذا قصد تأكيد معنى الشرط الذي تضمنه (إذا) لقوة معنى الجزاء، استعملت (ما) بعدها، وإذا لم يقصد ذلك لقرب معنى الجزاء من الشرط لم يستعمل (ما) بعدها، فقله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ شهادة السمع وسائر الجوارح من المعاني القوية التي لا يقتضيها الشرط الذي هو المجيء.. وليس كذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، لأن المجيء يقتضي فتح الأبواب، فصار المكان مكان اختصار وحذف لما لا بد للكلام منه، فكيف يزداد فيه ما يستغنى عنه" (١).

وقد وافقه ابن الزبير، وأوضح أنه قصد من آية فصلت الإطناب والاستيفاء فناسب ذلك الزيادة، أما الآيات الأخر فبنيت على الإيجاز فناسبها الحذف، كما وافقه ابن جماعة، وأبو يحيى الأنصاري، عليهم جميعاً رحمة الله تعالى (٢).

## ثانياً: الذكر والحذف في الكلمات:

يُعد هذا القسم أكثر وأغزر مسائل الذكر والحذف في التشابه اللفظي في القرآن الكريم، لأن مواقع الكلمة سواء كانت اسماً أو ضميراً في الكلام كثيرة، ولا تقاس بغيرها كالحروف أو الجملة أو الجمل، فهناك أركان الجملة الأساسية كالمبتدأ والخبر، والفاعل وما عطف عليه، وكذلك أيضاً حذف المسند، وحذف المضاف، وحذف بعض مكملات الجملة كالتوابع

(١) درة التنزيل: ٢٣٦-٢٣٧.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ١٠٠٥/٢-١٠٠٦، وانظر: كشف المعاني: ٣٢٨، وانظر: فتح الرحمن: ٣٧٤.

وما شابهها.

وبما أن الآيات المتشابهة كثيرة قمت بمحاولة ترتيبها وتنظيمها، فسأتحدث أولاً عن حذف الكلمات المفردة بمختلف مواقعها، بعد ذلك سأتناول حذف الضمائر، ثم عن ذكر القيود وحذفها، وفي الختام أتحدث عن مسألة الإضمار والإظهار في التشابه، وهذه المسألة أقرب ما تكون لحذف الكلمات وذكرها. أولاً: حذف الكلمات المفردة: فيما يتعلق بهذا الموضوع تحدث علماء التشابه في مصنفاتهم عن ثلاثة عشر موضعاً في كتاب الله تعالى، وسأتحدث عنها مفصلة.

وأول موضع نطالعه وقوف علماء التشابه عند قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَكُلًّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: ٣٥، فقد ذكر لفظ (رغداً) في هذه الآية وحذف من آية الأعراف ﴿فَكُلًّا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: ١٩.

يعلل الخطيب الإسكافي سر الزيادة في البقرة بأن أول الآية أسند فيه الفعل للكريم الأكرم سبحانه فقال: ﴿وَقُلْنَا يَادَمُ﴾، فناسب ذلك الزيادة الدالة على عظم كرمه، وجيل فضله، فجيء بكلمة (رغداً) لزيادة التوسعة والإكرام، أما آية الأعراف فحلت من ذلك، يقول تعالى: ﴿وَيَعَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ يقول رحمه الله: "لما أسند الفعل إلى نفسه تعالى كان اللفظ الأشرف للأكرم، فذكر معه الإناعام الأجسام، وهو أن يأكلوا رغداً، ولما لم يسند الفعل في سورة الأعراف إلى نفسه لم يكن مثل الفعل الذي في سورة البقرة، فلم يذكر معه ما ذكر فيها من الإكرام الأوفر، وإذا تقدم اسم المنعم الكريم اقتضى ذكر نعمته الكريمة"<sup>(١)</sup>. وقد أشار الكرمانى إلى ذلك بإشارة موجزة فقال: "زاد في البقرة ﴿رَغَدًا﴾ لما زاد في الخبر تعظيماً بقوله: ﴿وَقُلْنَا﴾ بخلاف الأعراف فإن فيها قال"<sup>(٢)</sup>.

(١) درة التنزيل: ٨.

(٢) البرهان: ١٢٠.

وسبب آخر مبني على تأمل السياق، سبق أن أشرت إليه في حديثي عن اختيار حرف الفاء والواو في الآيتين في الفصل الخامس، وهو أن سياق آية البقرة حديث عن نعمة الله على عبده آدم، وفضله عليه، وتكريمه إياه، فجاءت كلمة (رغداً) لتزيد ذلك المعنى، فأصبحت نعمة تضاف إلى تلك النعم العظيمة، أما آية الأعراف فسياقها في شأن إبليس وإعراضه وصدده، فلم يقتض السياق زيادة الكلمة.

ومثل هذا الموضع ما ذكره ابن الزبير في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: ٩٤، فقد زاد في الآية كلمة (فرادى)، بينما حذفت من آية سورة الكهف، يقول تعالى: ﴿وَعَرِضْهُ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: ٤٨.

نظر ابن الزبير للسياق المتقدم للآيتين، فيرى أن سياق آية الأنعام فيه إشارة لما عبد من دون الله تعالى، فجاء بلفظ ﴿فُرَادَىٰ﴾ لتحقيق أن تلك الآلهة وتلك المعبودات لا تنفعهم، وأنهم يلاقون مصيرهم يوم القيامة منفردين كما خلقوا، أما آية الكهف فخلا سياقها من تلك الإشارة التي في الأنعام فجاء سياق الآية بحذف اللفظ.

يقول رحمه الله: “الجواب والله أعلم، أن ذلك مراعى فيه في آية الأنعام ما أعقبت به من قوله: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلَتْكُمْ وِرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾<sup>وسط</sup> أي: ما أعطيناكم في الدنيا مما شغلكم عن آخرتكم، ثم قال: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: منفردين عما كنتم تؤملون من أنسادكم ومعبوداتكم من دونه سبحانه، فلرعي هذا المعقب به في آية الأنعام ما قيل فيها ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾.

أما آية الكهف فقبلها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾: ٤٧، ثم قال: ﴿وَعَرِضْهُ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مجردين عن كل متعلق، ولم يقع هنا ذكر ولا إشارة إلى ما



عُبد من دون الله، فلهذا لم يقع هنا (فرادى)، وذلك بين التناسب<sup>(١)</sup>.

ومن هذه المواضع: حذف الموصول وصلته في آية، وذكره في آية أخرى مشابهة، من ذلك ما جاء في سورة البقرة في قوله تعالى:

﴿وَمَا أَوْتَىٰ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾:

١٣٦، فذكر هنا قوله: ﴿وَمَا أُوْتِيَ﴾، بينما حذفت في آل عمران:

﴿وَمَا أُوْتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾: ٨٤.

أوضح الإسكافي أن سبب الحذف في آل عمران ما تقدم الآية من ذكر أخذه تعالى لميثاق النبيين: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾: ٨١، فأغنى ذلك عن ذكر لفظ الإيتاء، أما آية البقرة فلم يتقدمها شيء من ذلك.

يقول: ”إنما اختص هناك — آية آل عمران — لأن العشر التي فيها مصدرة بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾، فقدم ذكر إيتاء الكتاب، واكتفى به عن التكرير في الموضع الذي كرر فيه من سورة البقرة على سبيل التوكيد. وبيان ذلك أن هذه العشر مبنية على ذكر عهد الله إلى الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وما أخذ عليهم من المواثيق في تبين ما أنزله إليهم للناس فقوله: ﴿وَمَا أُوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ هو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ في المعنى، فلما تقدم هذا الذكر وجاء ﴿وَمَا أُوْتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ اكتفى عن إعادة ﴿وَمَا أُوْتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ بالذكر المتقدم، ولما لم يتقدم في سورة البقرة ذكر إيتاء النبيين ما أوتوا من الكتب في هذه العشر لم يكن فيه ما يغني عن التوكيد بإعادة اللفظ<sup>(٢)</sup>.

وقد وافقه الكرمانى الذي اختصر توجيهه<sup>(٣)</sup>، كما تابعهما ابن جماعة<sup>(٤)</sup>.

(١) ملاك التأويل: ٤٦١/١ — ٤٦٢.

(٢) درة التنزيل: ١٩ — ٢٠.

(٣) انظر: البرهان: ١٣٢.

(٤) انظر: كشف المعاني: ١٠٨.

أما ابن الزبير فيرى أنه لما كان الخطاب في آية البقرة عاماً، ناسبه الذكر تأكيداً، أما الخطاب في آية آل عمران فخاص به عليه الصلاة والسلام، فاقضى ذلك عدم التأكيد وحذف الجملة

يقول: "الأمر في البقرة لما كان للرسول وللمؤمنين ناسبه تأكيد ذكر الإنزال على النبيين، لأن المؤمنين لا يفرقون بين أحد منهم وقد فرق غيرهم، فناسب حالهم وسجل إيمانهم بالجميع تأكيد مقالهم وتثبيت اعتقادهم فقالوا: ﴿وَمَا أَوْفَى النَّبِیُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، ولما كان توجه الأمر في السورة الأخرى بيادي الخطاب من قوله: (قل) خاصاً به وبعد ذلك وقع التعميم ناسبه عدم التأكيد، لتنزه الرسول عليه السلام حالاً ومقاماً عن التفريق بين أحد من الرسل" (١). وقد وافقه أبو يحيى الأنصاري الذي أشار لتوجيهه بإيجاز، كما أشار لتوجيه الخطيب الإسكافي ومن وافقه بإيجاز أيضاً (٢).

ومثل الموضع السابق ما جاء في سورة الأعراف في قصتي نوح وهود عليهما السلام، ففي قصة نوح يقول تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: ٦٠، وفي قصة هود ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾: ٦٦، فذكر في الثانية قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وحذفت الجملة من الآية الأولى، فما الجواب عن ذلك؟

أجاب ابن الزبير الغرناطي رحمه الله بأن سبب الحذف في قصة نوح عليه السلام هو أن في دعائه عليه السلام ما يفيد أنهم على الكفر والضلال، يقول تعالى على لسان نبيه نوح: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: ٥٩، فاكفى بذلك عن ذكر ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مما يقتضيه الإيجاز، أما دعاء هود عليه السلام فلم يقع فيه ما وقع في دعاء نوح عليه السلام؛ لأنه قال في دعائه لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: ٦٥.

(١) ملاك التأويل: ٢٤٠/١.

(٢) انظر: فتح الرحمن: ٣٧.

يقول رحمه الله: ”ووجه ذلك — والله أعلم — الاكتفاء بما وقع في دعاء نوح عليه السلام من قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وخوفه من تعذيبهم إنما كان لكفرهم، ولم يقع ذلك في دعاء هود، لأن قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ليس فيما يعطيه من التخويف في قوة: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، إذ قد يؤمر بالتقوى المؤمن، ويقال للعاصي بصغيرة: أفلا تتقي. فلما كان في دعاء نوح ما يشير إلى الكفر ويدل عليه اقتضى الإيجاز الاكتفاء بذلك، ويشهد لهذا أن قصة صالح وقصة شعيب الوارد فيهما الدعاء إلى الإيمان على هذا المنهج لما لم يقع في دعاء هذين النبيين عليهما السلام ما وقع في دعاء نوح عليه السلام، مما ينبئ بالكفر ورد في حكاية مقالة قومهما ما يحصل منه ذلك المقصود، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾: ٧٥، ٨٨، وذلك جار في الواقع في قصة هود من غير فرق؛ لأن استكبارهم عن إجابته والإيمان به كفر، والله أعلم بما أراد“ (١).

أما ابن جماعة فقد اعتمد على توجيه الزمخشري وهو أن نوحاً عليه السلام لم يؤمن أحد من أشراف قومه، وهود آمن بعض أشراف قومه، فلذلك قال عن قوم هود ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ (٢).

يقول جار الله الزمخشري: ”فإن قلت: لم وصف الملائكة (الذين كفروا) دون الملائكة من قوم نوح؟ قلت: كان في أشراف قوم هود من آمن به، منهم مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتنم إسلامه، فأريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ﴾ المؤمنين: ٣٣“. وذكر وجهاً آخر عبر عنه بقوله: ”ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذم لا غير“ (٣).

(١) ملاك التأويل: ٥٢٩/١.

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٧٨—١٧٩.

(٣) الكشف: ٨٧/٢.



أما أبو يحيى الأنصاري فقد ذكر توجيه ابن جماعة السابق، ثم نقضه بأنه تعالى وصف الملأ من قوم نوح بالكفر في سورة هود: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾: ٢٧ ثم أجاب بقوله: ”وأجيب بجواز كون هذا القول وقع مرتين، المرة الثانية بعد إيمان بعضهم بخلاف المرة الأولى“<sup>(١)</sup>.

وقد وافق الفخر الرازي، وأبو حيان، والألوسي الزمخشري ونقلوا توجيهه<sup>(٢)</sup>.

أما ابن عاشور فنخالفهم معترضاً بما جاء في سورة هود في خبر قوم نوح، حيث ورد وصف الملأ بالذين كفروا، موضحاً أن الزمخشري غفل عن ذلك، أما تعليله رحمه الله فقد ذكر أن الاختلاف من باب التفنن<sup>(٣)</sup>.

ومن مواضع حذف الكلمة في الآيات المتشابهة ما ورد في سورة هود، في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۚ أَلَا بُعْدَ لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾: ٦٠، ففي هذه الآية جاء ذكر لفظ (الدنيا)، بينما حذفت في آخر السورة، يقول تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾: ٩٩.

ففي الآية الأولى جاء ذكر الصفة مع الموصوف وهو اسم الإشارة (هذه)، وفي الآية الثانية حُذِفَ الموصوف اكتفاء بالأول، وقد أجمع علماء المتشابه على ذلك.

يقول الإسكافي: ”الجواب أن الأولى أتى فيها بالموصوف والصفة جميعاً، وهو الأصل الأول، ثم الاكتفاء بالصفة عن الموصوف بعده لقيام الدلالة على الموصوف، فيجوز لذلك حذفه وإقامة الصفة مقامه، ولما جاءت الآيتان في سورة واحدة وفيت الأولى ما هو أولى بها من الإجراء على الأصل والإتيان

(١) فتح الرحمن: ١٤٢.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ١٤/١٢٦، والبحر المحيط: ٣٢٣/٤—٣٢٤، وروح المعاني: ٤/٣٩٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير: ٨/٢٠٢.

بالموصوف والوصف فقال تعالى: ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ واكتفى في الثانية لما قامت الدلالة على الموصوف بالصفة وحدها فقال: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾<sup>(١)</sup>.

وقد أشار إلى هذا التوجيه الكرمانى، والأنصارى<sup>(٢)</sup>، وابن الزبير الذي زاد توجيهاً آخر يرى أنه أنسب لرعي النظم، وهو أن الآية الأولى في قصة هود عليه السلام، والقصة في هذه السورة مستوفاة أكثر من قصة موسى عليه السلام التي وردت فيها الآية الثانية، فناسب الطول الطول، والإيجاز الإيجاز. ولما ذكر الوجه الذي أورده الخطيب الإسكافي أشار إلى أن الحذف يكون لما تقدم مما يدل عليه، ولا يحذف لما سيأتي بعد إلا في قليل نحو:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف<sup>(٣)</sup>

وهذه الإشارة الأخيرة من ابن الزبير لها أهميتها، فمع توضيحه لسر الحذف في الآية، فإن الحذف كما يكون لدلالة ما تقدم عليه فإنه ربما يقع لدلالة ما تأخر عنه، وقد مثل بالشاهد المعروف عند البلاغيين على حذف المسند<sup>(٤)</sup>، وهذا أمر جيد إلا أنه ينبغي أن تقيد هذه المسألة بالقرب حتى لا يطول الفصل بين موقع الحذف وما يدل عليه لئلا يقع غموض يوهم المتلقي فيصعب عليه إدراكه.

ومن المواضع: ما جاء في سورتى هود وغافر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ<sup>(٥)</sup> إِلَى فِرْعَوْنَ...﴾<sup>(٥)</sup>، فذكر هنا (السلطان المبين)، بينما جاءت آية سورة الزخرف بالحذف، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: ٤٦.

(١) درة التنزيل: ١٢٠.

(٢) انظر: البرهان: ٢٢٣، وفتح الرحمن: ١٩٢.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٦٥٨/٢، والبيت لقيس بن الخطيم الأوسي، انظر: خزانة الأدب: ٣١٨/١٠.

(٤) انظر: الإيضاح: ١٠٤/٢، ومفتاح العلوم: ٢٠٦، والمطول: ١٤٠.

(٥) سورة هود، آية: ٩٦—٩٧، وسورة غافر، آية: ٢٣—٢٤.

تحدث عن هذا الموضع الخطيب الإسكافي وابن الزبير الغرناطي، وقد بين الخطيب الفرق بين الآيات والسلطان المبين، فذكر أن الآيات هي الأمارات التي يكتفى بها في صدق الرسول عليه السلام، وتقوم الحجة على من يبعث إليهم، أما السلطان المبين فالمراد به الحجج القاهرة التي تقهر القوم، كأنواع العذاب التي أنزلت على قوم موسى عليه السلام<sup>(١)</sup>، وبهذا قال الراغب الأصبهاني<sup>(٢)</sup>.

أما تعليل الإسكافي للآيتين فذكر أن المراد في آيتي هود وغافر ذكر حال أولئك القوم وبيان خبرهم إلى أن انتهى بهم الأمر إلى الهلاك والعذاب الأليم، والآيات التي بعدها تحكي هذا الواقع، فلما كان القصد بيان حالهم في الدنيا ومصيرهم يوم القيامة، ناسب الآيتين الزيادة. أما آية الزخرف فالمراد منها بيان حالهم في الدنيا إلى أن أغرقهم الله: ﴿فَلَمَّا أَصْفَوْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ فَأَمَرْنَاهُمْ أَنْ يُسَبِّحُوا بُحْبُوحَةَ رَبِّهِمْ فَلَمَّا أَصْبَحُوا كَانُوا كَافِرِينَ ٥٥﴾ فجعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ فلما قصد ذلك لم يناسب ذكر السلطان المبين.

يقول الإسكافي رحمه الله: "لما كان القصد في الآيتين المتقدمتين ذكر جملة أمرهم إلى منتهى حالهم من هلاك الأبد، انطوت تلك الجملة على جميع ما احتج به عليهم إلى أن زال التكليف عنهم وأخبر عن مستقرهم من العقاب الدائم عليهم، ألا ترى أن الكلام في الآية الأولى في سورة هود ينساق إلى قوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٩٨﴾ وكذلك في الآية الثانية ينساق الكلام فيها إلى قوله: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ١٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١٦﴾: ٤٥-٤٦، فذكر في الآيتين جميع ما احتج به عليهم من الآيات التي سخرها بها عند رؤيتها، والآيات التي فزعوا إلى مسألته عند مشاهدتها في كشفها لقوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا مِنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ الرِّجْزُ الْأَوَّلُ ١٧﴾ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا مِنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ الرِّجْزُ الْأَوَّلُ ١٧

(١) انظر: درة التنزيل: ١٢٥.

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن: ٣٤٨، ٤٠.



الرَّجَزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴿١٣٤﴾ الأعراف: ١٣٤، وأما الآية الثالثة التي اقتصر فيها على ذكر آياتنا دون سلطان مبین، وهي التي في سورة الزخرف.. فلم يكن القصد إلى ذكر جملة ما عوملوا به في الدنيا، وانتهائه بهم إلى عذاب الأخرى، بل كان بعده: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: ٤٨، فاقصص ما عوملوا به حالاً بعد حال إلى أن هلكوا في الدنيا حيث قال: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾..“ (١).

وقد اطلع ابن الزبير على توجيه الإسكافي وقال: ”وقد ذكر صاحب كتاب الدرة هذه الآيات الثلاث لاستوائها في الافتتاح والمطالع وانفراد آيتي هود وغافر بزيادة قوله: (وسلطان مبین)، ولم يذكر ذلك في آية سورة الزخرف“ (٢).

ولم يقف رحمه الله عند توجيهه، بل جاء بتوجيه آخر خلاصته: أن الزيادة تكون في حال سوء رد المرسل إليهم وقبح جوابهم، فالتأييد بالسلطان المبین في مقابلة بشاعة إجابتهم وسوء ردهم، ولم يكن ذلك في آية الزخرف. يقول: ”والجواب عنه والله أعلم: أنه حيث يذكر سوء رد المرسل إليهم وقبح جوابهم يقابل أبداً بتأييده بأخيه أو عضده بالآيات مما يقتضي القهر والإرغام، وهو المعبر عنه بالسلطان المبین، فيكون ذلك مقابلة لشنيع مجاوبتهم، وسوء ردهم بالجملة، فإنه إذا اجتمع إفصاحهم بالتكذيب واستكبارهم جمع في التهديد المتقدم بين التأييد بهارون والسلطان المبین، وحيث يصرح بالتكذيب، أو ما يعطيه بياناً كقوله: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ قدّم ذكر التأييد بالسلطان المبین... أما حيث لم يرد ذكر السلطان فنجد جوابهم في ذلك دون ما تقدم من التشديد كقوله تعالى عنهم في سورة الأعراف: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾: ١٠٣، وقوله في سورة الزخرف: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾: ٤٧،

(١) درة التنزيل: ١٢٥—١٢٦.

(٢) ملاك التأويل: ٦٦٨/٢.

فليس موقع جوابهم في هاتين السورتين كموقع ما تقدم في الآيتين<sup>(١)</sup>.  
وما ذكره الخطيب الإسكافي وابن الزبير رحمهما الله كلام مقبول، اعتماداً  
فيه على فهم السياق وربطاً بين الآيات وما جاء بعدها، ولا يمنع أحدهما  
الآخر والله أعلم.

ومن المواضع: ما أورده علماء المتشابه عن آيتي سورة مريم والفرقان،  
يقول تعالى في سورة مريم: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾: ٦٠،  
وفي الفرقان: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ  
حَسَنَاتٍ﴾: ٧٠، ففي الأولى حذف (عملاً)، وفي الثانية ورد ذكرها.

نظر الكرمانى وابن الزبير لسياق الآيتين وما تقدمهما، فخرجاً بأن آية مريم  
بنيت على الإيجاز، فقد ورد قبلها بعد ذكر المنعم عليهم ومن اهتدى بهديهم  
قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾: ٥٩،  
وهذا قول مجمل فيه إيجاز فناسبه الحذف، أما آية الفرقان ففيها تفصيل وبيان  
يقتضى الزيادة قبلها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ  
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾: ٦٨ الآيات،  
فناسب الإيجاز الإيجاز، والإطناب الإطناب. يقول الكرمانى: "لأنه في هذه  
السورة أوجز في ذكر المعاصي، فأوجز في التوبة، وأطال هناك فأطال"<sup>(٢)</sup>.  
وقد أشار ابن الزبير لهذا المعنى<sup>(٣)</sup>، أما الأنصاري فقد نقل نص  
الكرمانى<sup>(٤)</sup>.

ومثل الموضعين المتقدمين ما ذكره الخطيب الإسكافي، وابن الزبير  
الغرناطي عن الآيات التي ختمت بقوله: (أبداً)، فقد جاء في القرآن الكريم

(١) المصدر السابق: ٦٦٩/٢—٦٧٠.

(٢) البرهان: ٢٦١.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٨٠٣/٢.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ٢٥٨.

آيات كثيرة ورد فيها ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾<sup>(١)</sup>، كما وردت آيات أيضاً بدون لفظ التأييد<sup>(٢)</sup>، فما سر الذكر والحذف في نظرهما؟ تحدث الخطيب الإسكافي عن حذف لفظ التأييد في آية التوبة وآية المجادلة، فذكر أن ما تقدمهما يدل على التأييد، فلما طال الكلام في مدحهم والثناء عليهم حذف (أبداً) لدلالة ما قبله عليه، يقول: ”إنما حذفت من أول الآيتين اللتين في براءة، وآخر آية في سورة المجادلة، لأنه ذكر قبل الآية التي في براءة: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وبعد الآية التي في آخر المجادلة: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فلأن في خالدين ما يدل على التأييد، ثم قد نزل منزلته أخبار هي في مدحهم، وهي قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، فلما تظاهر فيها مثل عدة هذه الأخبار التي هي ثناء من الله جلّ ذكره عليهم، ومدح لهم، وطال الكلام بها، فاستغني بذكر خالدين عن ذكر قوله: (أبداً)، وحسن حذفه، ولم يحسن في المواضع الأخر التي لم تتظاهر فيها مثل عدة هذه الأخبار الموجبة لهم دار الخلد ودوام النعيم“.

أما الحذف في آية النساء فيرى أن سياق الآية، وكذلك ما بعدها استغني فيهما بقوله: (خالدين) و(خالداً) عن ذكر لفظ التأييد، ولو ذكر لطال الكلام، أما الآيتان فهما: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾<sup>(١٣)</sup> وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ<sup>(١٤)</sup>، يقول الإسكافي: ”وأما في النساء فإنما لم يذكر (أبداً)، لأنه ذكر بعده في مقابلة خالدين، وخالداً فيها، ولم يقل أبداً، فلو ذكر فيهما أبداً لطال الكلام، فاستغني بقوله: خالدين وخالداً فيهما عن أبداً“.

(١) سورة المائدة: ١١٩، التوبة: ١٠٠، الطلاق: ١١، البينة: ٨.

(٢) سورة التوبة: ٨٩، المجادلة: ٢٢، النساء: ١٣، الحديد: ١٢.



أما الحذف في سورة المجادلة، فلأنه طال الكلام في مدح المؤمنين، فاستغني بقوله: خالدين، وكذلك زيادة الضمير المنفصل بعده عن لفظ التأييد، يقول الإسكافي: ”وأما في سورة الحديد لأنه ذكر قبله: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكَ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: ١٢، فلما طال الكلام في مدحهم ذكر بعد ذلك تأكيداً بقوله: (هو) استغني بقوله: (خالدين) عن (أبدًا)، وهذا الجواب عن إدخال (هو) بعد (ذلك)، لأنه ذكر ذلك بدلاً وتأكيذاً عن (أبدًا)، وليس كذلك في المواضع الأخر“ (١).

ونفهم من توجيه الإسكافي أنه علل الآيات التي ورد فيها الحذف دون التي ورد فيها الذكر، ومجمل توجيهه أن طول الكلام ودلالة لفظ الخلود سبب في الحذف، وأرى أن هذا لا يكفي في توجيه النصوص، فجميع الآيات ورد فيها ذكر الخلود سواء التي ذكر فيها لفظ التأييد أو التي حذف منها. أما ابن الزبير الغرناطي رحمه الله فكان حديثه على عكس طريقة الإسكافي، فقد كانت نظرتة للآيات الأربع التي اختصت بذكر التأييد. فيرى أن آية سورة المائدة، وكذلك الآية الثانية في سورة التوبة قد بُنيتا على الإطناب فناسبهما ذكر اللفظ، يقول: ”لما كان المشار إليهم في الآيتين هم الأسوة والقُدوة لمن سواهم، ناسب حالهم الإطناب فذكر الرضا والتأييد“ (٢). أما سر ذكر اللفظ في آية سورة الطلاق فهو: ”ما تكرر في هذه السورة من غايات بينها قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾: ٣، فلما أشارت آي السور إلى غايات ونهايات، ناسب ذلك التعريف بأن خلود الجنة مُتأبد لا انتهاء له“.

أما آية البينة فهي على ”حكم مقتضى الترتيب الثابت آخر آية ذكر

(١) درة التنزيل: ٥٥.

(٢) ملاك التأويل: ٣٣٨/١.

فيها حال المؤمنين في الجزاء الأخروي معقباً به ذكر جزاء من كان في طرف من حالهم من مستوجبي النار على التأييد، فكانت هذه الآية مظنة استيفاء للحال“ (١).

أما ابن جماعة فاقصر توجيهه على آية المائدة وآية المجادلة، فقد ذكر أنه لما تقدم وصف المؤمنين بالصدق في المائدة ونفعه إياهم يوم القيامة بالخلود في الجنة أكده بقوله: (أبداً)، ولما تقدم في المجادلة كتب الإيمان في قلوبهم وتأيدهم بروح منه أكده بقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (٢).

ومن لفظ التأييد إلى لفظ التأكيد ففي سورة البقرة يقول الله تعالى: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾: ١٩٣، في هذه الآية حذف لفظ التأكيد (كله)، بينما ذكر في آية الأنفال: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾: ٣٩ فهل هناك فرق بين الآيتين يوضح سبب الاختلاف بينهما؟ الإسكافي يرى أن القتال في الآية الأولى مع أهل مكة فحسب، فنزلت في قوم مخصوصين، فلا حاجة للتأكيد، وفي الأنفال نزلت في جميع الكفار، فجاءت الآية بالعموم، وهذا يقتضي تأكيد الدين بقوله: (كله).

يقول: ”الآية الأولى جاءت في قتال أهل مكة، ألا ترى ما قبلها ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: ١٩١، وهذا مختص بقتال قوم مخصوصين من أهل الشرك، وهم نازلة الحرم، فاقصر على الدين من غير تأكيد على معنى: حتى يكون الدين حيث هؤلاء لا في كل مكان.. وأما ما في سورة الأنفال فالأمر ورد عاماً في قتال كل الكافرين، ألا ترى أن قبل الآية ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ يَنْتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ﴾: ٣٨ وهذا ليس في طائفة من الكفار دون طائفة“ (٣).

(١) ملاك التأويل: ٣٣٩/١.

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٥٣.

(٣) درة التنزيل: ٢٥—٢٦.

وقد وافقه على هذا التوجيه الكرمانى، وابن الزبير، والأنصارى<sup>(١)</sup>.  
وتابعهم الألوسى<sup>(٢)</sup>.

أما ابن جماعة فله توجيه قريب من توجيه الإسكافى، فىرى أن آية البقرة نزلت فى أول سنة من الهجرة، وما زال فيها صناديد قريش أحياء ولم يكن للمسلمين فى ذلك الوقت رجاء فى إسلامهم، أما آية الأنفال فنزلت بعد معركة بدر، وفيها قتل صناديد قريش، فكان للمسلمين رجاء فى إسلام أهل مكة عامة وغيرهم، فأكد سبحانه رجاءهم ذلك، أى لا يعبد سواه<sup>(٣)</sup>.

أما ابن عاشور فقد ذكر أن "آية الأنفال أسبق فى النزول من آية البقرة، فاحتيج فيها إلى تأكيد مفاد صيغة اختصاص جنس الدين بأنه لله تعالى، لئلا يتوهم الاقتناع بإسلام غالب المشركين، فلما تقرر معنى العموم وصار نصاً من هذه الآية عدل عن إعادته فى آية البقرة تطلباً للإيجاز"<sup>(٤)</sup>.

ويظهر لى أن بين تعليل ابن جماعة وابن عاشور تعارضاً فى ترتيب النزول بين السورتين، أيهما نزل أولاً، كما فى مصحف عثمان وابن عباس رضى الله عنهما، وهذا لا يقلل من أهمية تعليلهما مع التعليلات المتقدمة، فأسرار كتاب الله لا تنفذ.

ومن الآيات المتشابهة فى موضوع الذكر والحذف فى الكلمات المفردة، توجيه حذف كلمة ﴿جَهَنَّمَ﴾ من قوله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾: ٩٨، بينما ذكرت فى الكهف: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا كَفَرُوا﴾: ١٠٦.

يوضح الإمام الكرمانى الفرق بين الآيتين فىرى أن آية الإسراء تقدمها ذكر

(١) انظر: البرهان: ١٣٧، وملاك التأويل: ٢٦١/١-٢٦٢، وفتح الرحمن: ٤٥.

(٢) انظر: روح المعاني: ٤٧٢/١.

(٣) انظر: كشف المعاني: ١١٣-١١٤.

(٤) التحرير والتنوير: ٣٤٧/٩.



جهنم وهو قوله تعالى: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾: ٩٧، ثم قال: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُم بَأْسُهُمْ...﴾، أما آية الكهف فحسن فيها ذكر اللفظ، لأنها مقترنة بما بعده وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾: ١٠٧، وبذلك يظهر لمن يقرأ أو يسمع وعيد الله للكافرين، ونعيم الله للمؤمنين، فيكون الأثر في النفس أعظم، ولتحقيق مبدأ الرجاء والخوف. يقول: "اقتصر في هذه السورة -الإسراء- على الإشارة لتقدم ذكر جهنم، ولم يقتصر في الكهف على الإشارة وإن تقدم ذكر جهنم، بل جمع بين الإشارة والعبارة لما اقترن بقوله: ﴿جَنَّاتُ﴾، فقال: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُم جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾، ليكون الوعد والوعيد كلاهما ظاهرين للمستمعين" (١).

أما ابن الزبير فقد وافق الكرمانى في آية الإسراء، أما آية الكهف فيرى أن المسافة بين هذه الآية، وبين الآيات التي ورد فيها ذكر لفظ جهنم بعيدة، فلما بعد ما بين اسم الإشارة والمشار إليه أتى باللفظ مظهراً، وفي ذلك يقول: "والجواب والله أعلم أن قوله في الأولى ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُم﴾ إلى ما اتصل به من قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَيُكْمَأُصُّمَاتًا مَّا أُولَهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ثم قال: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُم﴾... واسم الإشارة متصل بما أشير به إليه، لم يفصل بينهما إلا بوصف جهنم التي هي مأواهم... أما قوله في الثانية ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُم﴾ فالإشارة إلى جهنم المتقدم ذكرها في قوله: ﴿وَعَرْضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ...﴾ لما بعد ما بين اسم الإشارة والمشار إليه بما فصل به بينهما... أعيد مظهراً فقليل: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُم جَهَنَّمُ﴾" (٢).

وأرى والله أعلم أن توجيه ابن الزبير يأتي بعد توجيه الكرمانى، لأن الفصل في آيات سورة الكهف ليس كبيراً، كما أن الآيات نفسها غير طويلة،

(١) البرهان: ٢٥١-٢٥٢.

(٢) ملاك التأويل: ٧٧٦/٢.

وحين نتأمل ذكر لفظ (جهنم) مرتين قبلها وبشكل متقارب، يدعونا ذلك للنظر في السياق، وأن هذا التصريح بهذا اللفظ وتكراره له غرض يراد به تأكيد الوعيد والتهديد للكافرين الذين اتخذوا آيات الله هزواً، وقرع قلوبهم بالعذاب الأليم، وأن مأواهم ومآلهم إلى جهنم وبئس المصير، وهو ما أراده الإمام الكرمانى.

ومن الآيات المتشابهة: ما ورد في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾: ٦٠، وفي آية الشورى حذف لفظ (وزينتها): ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾: ٣٦.

ذكر علماء التشابه لهذا الموضع مناسبتين، الأولى منهما توضح مناسبة المعنى، ودلالة (المتاع والزينة) وبها قال الخطيب الإسكافى، وهو أن المولى ذكر في آية سورة القصص جميع ما ييسط فيه الرزق، فأغراض الدنيا كلها مستوعب بهذين اللفظين (المتاع، والزينة)، فالمتاع ما لا غنى عنه في الحياة من المأكول والمشروب والملبوس والمسكن والمنكوح، والزينة، ما يتجمل به الإنسان، وقد يستغني عنه كالملابس الفاخرة والآلات الحسنة والدور المزوقة المنجدة، والخيول والبغال والحمير ما ركب منها للحاجة إليه، وما اتخذ زينة يتجمل عند الأكفاء بها، فما كان محتاجاً إليه فهو متاع أيام قليلة، وما فضل عن ذلك فهو ما يقتنى لعدة زينة... وأما آية الشورى فلم يقصد استيعاب ما يتوهم في دنياهم بل ما هو مطلوبهم في تلك الحال من النجاة، والأمن في الحياة، فلم يحتج إلى ذكر الزينة<sup>(١)</sup>. وقد وافق الكرمانى الخطيب الإسكافى وقام باختصار كلامه<sup>(٢)</sup>.

أما المناسبة الثانية فهي مناسبة المبنى وتلاؤم السياق، وقال بها ابن الزبير

(١) انظر: درة التنزيل: ١٩١-١٩٢.

(٢) انظر: البرهان: ٢٩٢.

الذي ذكر أن سورة القصص ورد فيها قصة قارون الذي أعطاه الله المال الذي هو زينة الحياة الدنيا، فاغتر بها، وجحد واستكبر، فناسب الآية ذكر الزينة لتحذير المؤمنين من الدنيا وغرورها، وخير شاهد ما حصل لقارون من الخسف والعذاب، أما سورة الشورى فلم يرد فيها ذكر لحال الدنيا وزينتها.

يقول: "سورة القصص تضمنت ذكر قارون، وما أوتيته من المال الذي هو زينة الحياة الدنيا قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾: ٧٦، ثم أخبر تعالى عن زهوه واختياله بماله وظنه استحقاقه إياه، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾: ٧٩، حتى قال من غفل عن آخرته ولم يعلم ما أعد الله فيها للمؤمنين: ﴿يَلْبِثَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾، فقدّم سبحانه للمعتبرين من عباده المؤمنين، وتنبيهاً للغافلين... ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾... وبعد تحذير المؤمنين، وردت قصة قارون فالتحمت الآية بتلك القصة، وقيل هنا: (وزينتها) كما قيل في تلك: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾... ولم يقع في آية الشورى ذكر (وزينتها)، إذ لم يرد فيها ما ورد هنا مما استدعى هذه المناسبة، ولم يرد في سورة الشورى من أولها إلى آخرها ذكر بسط حال دنيوي لأحد، بل تضمنت حقارة الدنيا ونزارة رزقها، وأنه مقدور غير مبسوط" (١).

أما ابن جماعة فوافق ابن الزبير واختصر توجيهه، يقول رحمه الله: "آية القصص تقدمها ذكر الكفار وهم المغترون بزينة الدنيا من مساكن وأموال وخدم، وناسب ذلك ذكر الزينة وختمها بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وآية حم تقدمها آيات نعمه على عباده المؤمنين، وهم لإيمانهم بالآخرة لا يغترون بزينة الدنيا، فناسب عدم ذكر الزينة، وختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾" (٢).

(١) ملاك التأويل: ٩٠٧/٢ — ٩٠٨.

(٢) كشف المعاني: ٢٨٦.



وما قال به الإسكافي وابن الزبير مقبول، وبعضه يكمل الآخر، وفي التوجيهين تدبر آيات الكتاب العزيز، وفي ضوء تأملي للتوجيهين أرى - والله تعالى أعلم - أن الأقرب ما ذكره ابن الزبير، ووافقه عليه ابن جماعة؛ لأن نظرتهم متعلقة بما تقدم الآية، وربط ذلك بما ختمت به، وبذلك بنى توجيهه على مناسبة اللفظ والمعنى معاً، أما نظرة الإسكافي فاقترنت على تأمل معنى المتاع والزينة.

ومن المتشابه في هذا الموضوع ما ذكره ابن الزبير في حديثه عن حذف لفظ ﴿مَعْلُومٌ﴾ في الذاريات: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: ١٩، بينما ذكر اللفظ في المعارج: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: ٢٥.

ذكر ابن الزبير أن المراد بالحق في آية المعارج هو الزكاة فالآية خاصة بهذا الركن، ولهذا أتبع الحق بأنه معلوم في الوقت والنصاب والوجوب، ونقل ابن الزبير كلام الزمخشري في هذا الخصوص وهو: "حق معلوم" هو الزكاة لأنها مقدرة معلومة أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه يؤديها في أوقات معلومة" (١)، أما آية الذاريات فيرى أن المقصود بها التنفل في العبادات والطاعات بعد بيان ما أوجب الله عليهم مستدلاً بما قبلها من آيات.

يقول ابن الزبير: "آية المعارج قد تقدمها متصلاً بها قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾: ٢٢، والمراد بالصلاة هنا المكتوبة، وأيضاً يقرن بها في أي الكتاب الزكاة المفروضة، وبها فسر المفسرون الحق المعلوم في آية المعارج. قال الزمخشري: لأنها مقدرة معلومة. قلت: وليس في المال حق مقدر معلوم وقتاً ونصباً ووجوباً غيرها، فلما أريد بالحق هنا الزكاة أتبع بوصف يحرز المقصود، ولما قصد في آية الذاريات غير هذا المقصد، بدليل ما تقدمها من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا أَقْبَلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فوصف هؤلاء بطول صلاتهم وتهجدهم ومداومتهم الاستغفار في الأسحار،

(١) الكشف: ١٥٩/٤.

فذكروا بزيادة من التطوع والنفل على ما فرض عليهم، ومن الزيادة في أعمالهم على ما فرض عليهم مما يعد تاركه إذا تركه مهملاً، فناسب هذا الإطلاق الوارد في إنفاقهم ليفهم الزيادة على ما فرض عليهم من الزكاة المقدرة، ولم يكن ليناسب هنا الإشارة إلى قدر المنفق“<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه ابن جماعة فقال: ”المراد بآية الذاريات الصدقات النوافل لقريظة تقدم النوافل، وبهذه الآية الزكاة لتقدم ذكر الصلاة، لأنها معلومة مقدرة“<sup>(٢)</sup>. وأختتم موضوع ذكر الكلمات المفردة وحذفها بإشارة ابن الزبير الغرناطي لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾: ٢٢، فذكر في هذه الآية لفظ المقت، وفي سورة الإسراء حذف اللفظ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾: ٣٢.

يقول ابن الزبير: ”المقت هو النقص والاستحقار، ومتزوج امرأة أبيه فاعل رذيلة يمقت فاعلها ويشناً، وتستخسه الطباع السليمة، فوسمت فعلته بالمقت، وساوت الزنى فيما وراء ذلك، فلهذا زيد في آية النساء قوله: ومقتاً“<sup>(٣)</sup>.

## ثانياً: حذف الضمائر وذكرها:

أنتقل بعد ذلك للحديث عن حذف الضمائر وذكرها في الآيات المتشابهة، وقد بلغ عدد المواضع في القرآن الكريم خمسة مواضع: تناولها علماء المتشابهة بالتفصيل، وأول المواضع حديث علماء المتشابهة عن حذف الضمير المنفصل بعد لفظ الجلالة من قوله تعالى في سورتى آل عمران، ومريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ...﴾ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾<sup>(٤)</sup>، وفي آية سورة الزخرف جاء

(١) ملاك التأويل: ١٠٣٦/٢.

(٢) كشف المعاني: ٣٦٤.

(٣) ملاك التأويل: ٣٤٠/١—٣٤١.

(٤) سورة آل عمران: ٥١، ومريم: ٣٦.

ذكره، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾: ٦٤  
فما سر الاختلاف بين الآيات؟

يعلل الخطيب الإسكافي سبب الحذف في آل عمران ومريم أن الآيات العشر التي تقدمت الآية في السورتين كلها حكاية عن عيسى عليه السلام - وأمه، وأنه عليه السلام رسول من رب العالمين، فلما طال الكلام في ذلك اكتفى به عن التوكيد الذي ورد في آية الزخرف التي لم يتقدمها مثل ذلك، فناسب توكيد انفراده سبحانه بالربوبية. يقول الخطيب الإسكافي: "آية آل عمران حكاية عن عيسى بعدما مضت آيات كثيرة في ذكر ابتداء أمره من مبدأ الآية التي نزلت في شأن مريم وهي: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾ الآيات، إلى آخر هذه العشر، فلما تناصرت هذه الآيات المتقدمة في ذكره، ودلت على إحداثه وخلقه، كانت فيها دلالة على أنه مربوب مصنوع بكثرة الأفعال التي أسندت إليه... وكذلك في سورة مريم جاء قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ بعد عشرين آية فكانت تلك العشرون آية ناطقة بأن الله ربه، فاكفى بما طال الكلام المؤكد لحاله على حقيقتها عن التوكيد الذي جاء في سورة الزخرف، لأنه لم يذكر هذه الآية إلا بعد قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ...﴾ الآية: ٦٣، فالموضع الذي خلا من الآيات الكثيرة الدالة على أن الله تعالى ربه وهو عبده لا ابنه، حسن تأكيد الكلام فيه صرفاً للناس عما ادعوه من أنه ابن الله إلى أنه عبده" (١).

وقد وافقه الكرمانى الذى اختصر توجيهه، وتابعه ابن جماعة، والأنصارى (٢).

أما ابن الزبير فنظرته تختلف عن الآخرين فقد رأى أن آية الزخرف مسبوقه بذكر آلهتهم، "وقولهم ﴿إِنَّ إِلَهَهُمْ خَيْرٌ أَمُّهُ﴾: ٥٨، يعنون المسيح،

(١) درة التنزيل: ٣٦.

(٢) انظر: البرهان: ١٤٨، وكشف المعاني: ١٢٩، وفتح الرحمن: ٦٧-٦٨.



ناسبه ما أعقب به من قوله تعالى حاكياً عن المسيح عليه السلام ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، فكان قد قيل: هؤلاء غيره فأحرز (هو) هذا المعنى، ولم يرد في آية آل عمران وآية مريم من ذكر آلهتهم ما ورد هنا فلم يحتج إلى الضمير المحرز لما ذكرنا..“<sup>(١)</sup>.

وبعد استقراء القولين أرى أن توجيه ابن الزبير أقرب لوجهين: أحدهما: أن مجموع الآيات التي وردت في قصة عيسى عليه السلام في سورة الزخرف ثماني آيات من قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وما جاء في آل عمران عشر آيات فلا فرق بينها من حيث العدد، فالسياق بينهما متقارب، وهذا يخالف ما ذكره الإسكافي.

**الأمر الثاني:** أن ابن الزبير اعتمد في توجيهه لزيادة الضمير على آيات أخرى مشابهة مثل قوله تعالى في المائدة: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾: ١١٧، وقوله في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾<sup>(٢)</sup> وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا: ٤٣—٤٤، وهذه الآيات الأمر فيها يحتاج إلى زيادة تأكيد، فالحال فيها مثل آية الزخرف.

ومما يؤكد أحقية توجيه ابن الزبير أيضاً عناية علماء البلاغة بهذا الأمر فقد بحثوا ذلك في باب تعريف الطرفين وتوسط ضمير الفصل، فقد قال الجرجاني في حديثه عن الخبر المعروف بالألف واللام من قولك: (زيد هو الجواد) و(عمرو هو الشجاع): "... تريد أنه الكامل إلا أنك تُخرج الكلام في صورة توهم أن الجود أو الشجاعة لم توجد إلا فيه، وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال"<sup>(٣)</sup>.

وقد ذكر السهيلي في حديثه عن آيات سورة النجم أنه أتى بالضمير في كل موضع ادعي فيه نسبة ذلك المعنى إلى غير الله تعالى، ولم يؤت به حيث

(١) ملاك التأويل: ٣٠٩/١.

(٢) دلائل الإعجاز: ١٧٩.

لم يدع ذلك<sup>(١)</sup>، وقد نقل السبكي ذلك عنه في عروس الأفراح<sup>(٢)</sup>، كما أثنى الدكتور أبو موسى على حديثه ومما قال: ”نبّه العلماء إلى مواقع في ضمير الفصل اقتضتها دواع خفية يجد لها الدارس المتذوق فضلاً ومتاعاً...“<sup>(٣)</sup>

ومن الآيات المتشابهة توجيه علماء المتشابه لآيتي الأعراف وهود، ففي الأولى وردت الآية بدون الضمير بعد قوله: ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ﴾: ٤٥، وفي هود جاءت زيادة الضمير ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ﴾: ١٩ يرى الخطيب الإسكافي أن آية الأعراف جاءت على الأصل فلم تحتج إلى تأكيد، أما آية هود فقد تقدمها قوله: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ ثم قال: ﴿عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾: ١٨، ولم يقل: (عليهم) والقياس ذلك، فبالإظهار التبس الأمر أنهم هم أم غيرهم، فجاء ختام الآية بزيادة الضمير لتأكيد وتحقيق الخبر عنهم.

وفي ذلك يقول الإسكافي: ”آية الأعراف جاءت على أصله غير مزيد فيه ما يجري مجرى التوكيد، والذي في سورة هود جاء بعد قوله: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ فأشير إليهم، ثم قال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فأظهر ذكر الظالمين في موضع الإضمار، ولو أجرى على الحكم في إضمار الاسم عقيب الذكر لكان: ألا لعنة الله عليهم، لأن المراد بالظالمين هم المشار إليهم... فلما أظهر مكان الإضمار تضمن معنى قوله: ﴿وَهُمْ﴾ أي الظالمون.. فلما استمر الكلام على الإضمار بعد ذكر الظالمين صار الظاهر كأنهم غير المشار إليهم بقوله: (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم)، فأعيد هم في قوله: (هم كفرون) لتحقيق الكفر عليهم بنسبة الأوصاف المتقدمة

(١) انظر: الروض الأنف: ٤٠٣/٣.

(٢) انظر: عروس الأفراح، أحد شروح التلخيص: ٣٨٦/١.

(٣) دلالات التراكيب: ٩٣.

إليهم... فكان الموضع موضع توكيد، لتحقيق الخبر عنهم بالكفر وتشبيته عليهم بأوكد لفظ<sup>(١)</sup>.

وقد وافق الإمام الكرمانى الإسكافى فى تعليله، وخالفه فى دلالة الضمير على التأكيد فى آية هود: "لأن ما فى هذه السورة - الأعراف - جاء على القياس، وتقديره: وهم كافرون بالآخرة، فقدّم ﴿يَا آخِرَةَ﴾ تصحيحاً لفواصل الآي.

وفى هود لما تقدم: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، ثم قال ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، ولم يقل: (عليهم)، والقياس ذلك، لأنه التيس أنهم هم أم غيرهم، فكرر وقال: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾، ليعلم أنهم هم المذكورون لا غيرهم، ثم رد على الإسكافى فقال: "وليس (هم) ههنا للتأكيد كما زعم بعضهم، لأن ذلك يزداد مع الألف واللام ملفوظاً أو مقدرأ"<sup>(٢)</sup>، فمراده أن الضمير لإزالة اللبس وليس للتوكيد، وقد وافقه أبو يحيى الأنصارى، الذى نقل نص كلامه<sup>(٣)</sup>.

أما ابن الزبير فى أن سياق آية هود بنى على الإطناب وهذا يقتضى الزيادة، وسياق آية الأعراف بنى على الإيجاز فاقتضى الحذف، يقول: "ابتداء الإخبار فى الأعراف بحال هؤلاء الملعونين فى الآيتين هو قوله فى الأولى: ﴿فَأَذَّتْ مُوَدِّنُهُنَّ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾: ٤٤، وابتداء الإخبار عنهم فى سورة هود قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلَّا شَهِدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، ففى هذه إطناب، وتأمل ورود الظاهر فى موضع المضمّر من قوله: ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ولم يقل: عليهم، فناسب زيادة ضمير الفصل، وفى آية الأعراف إيجاز ناسبه سقوطه، ولو لم يكن إلا ما بين (أن) و(ألا) فإن

(١) درة التنزيل: ٥٧.

(٢) البرهان: ١٨٥-١٨٦.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ١٤٠.



ذلك مراعى فيما قصدناه، فـ(أن) أوجز من (ألا)..<sup>(١)</sup>

أما الزمخشري فقد وافق الإسكافي في إفادة ضمير الفصل في سورة هود للتأكيد، فقال: "وهم الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به"<sup>(٢)</sup>، وقد وافقه الفخر الرازي، وأبو حيان، والألوسي رحمهم الله<sup>(٣)</sup>.

وقد كان للطاهر بن عاشور وقفة حسنة مع هاتين الآيتين، فقد ذكر أن آية هود اختصت بزيادة ضمير التوكيد الذي يفيد التقوية، "لأن المقام هنا تسجيل إنكارهم البعث وتقريره إشعاراً بما يترقبهم من العقاب المناسب فحكى به من كلام الأشهاد ما يناسب هذا، وما في سورة الأعراف حكاية لما قيل في شأن قوم أدخلوا النار وظهر عقابهم فلا غرض لحكاية ما فيه تأكيد من كلام الأشهاد، وكلتا المقالتين واقع وإنما يحكى البليغ فيما يحكىه ما له مناسبة لمقام الحكاية"<sup>(٤)</sup>، وهذا كلام جيد.

ومن الآيات المتشابهة التي تحدث عنها علماء التشابه، سر ذكر الضمير المنفصل في آية النحل: ﴿أَفِيَ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾: ٧٢، وحذفه من آية العنكبوت: ﴿أَفِيَ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتِ اللَّهُ يَكْفُرُونَ﴾: ٦٧.

يرى الخطيب الإسكافي أن سر زيادة الضمير في آية النحل هو الأمن من الالتباس، لأن سياق الآية متصل بالمخاطبين وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، ثم عاد الخطاب في آخر الآية للغيبة فلم يكن بد من تقييده بالضمير (هم)، حتى لا يلتبس الخطاب بالغيبة، وكذلك التاء بالياء، أما آية العنكبوت فاستمرت الآيات على نمط واحد وهو الغيبة، فلم يحتج إلى الضمير، وأول الآية قوله

(١) ملاك التأويل: ٤٩٦/١.

(٢) الكشاف: ٢٦٣/٢.

(٣) انظر: التفسير الكبير: ١٦٤/١٧، والبحر المحيط: ٢١٢/٥، وروح المعاني: ٢٣٢/٦.

(٤) التحرير والتنوير: ٣٤/١٢.

تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِّنَ أَمْنًا وَبُيُوتَ خَطْفِ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

وقد وافقه على ذلك كل من الكرمانى، وابن جماعة، وأبو يحيى الأنصارى<sup>(١)</sup>.

يقول الإسكافي: "الكلام في سورة النحل نقل عن الخطاب الذي يصلح لغير الكفار إلى الإخبار عنهم، وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، ثم انتقل الكلام عن الخطاب العام إلى الإخبار الخاص، فقال: ﴿أَفِيَ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ فأكد الكلام بقوله: ﴿هُمْ﴾ لئلا يتوهم أن هذا الإخبار خطاب، وهو بالتاء دون الياء، إذ لا فرق في الخلط بينهما، ولم يكن كذلك الأمر في سورة العنكبوت، لأن الإخبار المستمر في الآية التي قبل هذه أغنى عما يحصره للخبر دون غيره، وهو قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَاُ اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْتَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾: ٦٧، فترادف الإخبار عن الغيب أغنى عن توكيده، بما يحصره على الخبر، وذلك واضح لمن تدبره" (٢).

أما ابن الزبير الغرناطي فقد خالف الإسكافي ومن وافقه، حيث ذكر أن  
الوارد في آية النحل راجع إلى من تقدم ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ  
لِمَا لَا يَعْمُونَ نَصيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: ٥٦، وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾: ٥٧... وقوله:  
﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾: ٦٢، فقوله: ﴿أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾  
راجع إلى المذكورين في هذه الآي، وليس راجعاً إلى ما اتصل به من قوله:  
﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾... فلما كان قوله: ﴿أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾  
راجعاً إلى ما تباعد أتى بضميرهم المشعر بالبعد وهو ضمير الغائبين فقليل:

(١) انظر: البرهان: ٢٤٧، وكشف المعاني: ٢٣٠، وفتح الرحمن: ٢٢٢

(٢) درة التزليل: ١٥١.

(هم)، أما آية العنكبوت فلا يرجع فيها شيء إلى متقدم قبله والمعنيون في أول الآية هم المعنيون في آخرها فخلت منه<sup>(١)</sup>.

وكلا التوجيهين مقبول، ويمكن أن يحمل الاختلاف بين الآيتين عليهما، وهذا من إعجاز الكتاب العظيم، الذي لا تحصى أخباره، ولا تتزاحم أسرارُه. ومن المواضع أيضاً: ذكر الضمير المنفصل في قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾: ٦٢، وفي سورة لقمان جاءت الآية بدون الضمير، يقول تعالى: ﴿وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾: ٣٠.

ربط الخطيب الإسكافي بين سياق آية الحج وسياق الآيات التي قبلها، ولاحظ أن سياق الآيات قبلها قد أكد بعدة مؤكدات مترادفة في ستة مواضع، من لدن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ..﴾ الآيات، فلما بني السياق المتقدم على ذلك أكد هذه الآية بضمير الفصل، أما آية لقمان فلم يتقدمها مثل ذلك فلم يحتج إلى ضمير الفصل.

يقول رحمه الله: ”والجواب أن الأولى وقعت في مكان تقدمت فيه توكيدات مترادفة في ستة مواضع وهي: قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لِيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، فاللام والنون مؤكدتان، وبعده: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾: ٥٨، واللام مع هو مؤكدان، وبعده: ﴿لِيَدْخِلَنَّهُمْ مَدِينًا يَرْضَوْنَ﴾، واللام والنون سبيلهما تلك السبيل، وبعده: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾: ٥٩، اللام التي في خبر إن كذلك، وبعده: ﴿لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾: ٦٠، فلما ترادفت التوكيدات جاء في هذا الموضع مؤكداً بقوله: (هو) في الآية.. وليس كذلك ما جاء في سورة لقمان، لأنه لم تتقدمه التوكيدات التي تستتبع أمثالها كما تقدمت في الأولى“<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: ملاك التأويل: ٧٥٠/٢-٧٥٢.

(٢) درة التنزيل: ١٧٣.



وقد وافقه على هذا التوجيه الإمام الكرمانى الذى اختصر كلامه،  
وتابعهما ابن جماعة، والأنصارى<sup>(١)</sup>.

كما أشار الألوسى لذلك التوجيه فى تفسيره<sup>(٢)</sup>.

أما ابن الزبير الغرناطى فله نظرة أخرى تختلف عن نظرة الإسكافى ومن وافقه، فىرى أن تكرار ذكر آلهتهم التى يعبدونها من دون الله استدعى الإتيان بالضمير الدال على تأكيد بطلان تلك الآلهة، وفى لقمان لم يكن لتلك الآلهة ذكرٌ فحلت من التأكيد.

يقول: "سورة الحج ورد فيها ما استدعى هذا التأكيد بالضمير ويناسبه، وهو تكرار الإشارة إلى آلهتهم والإفصاح بذكرها تعريفاً بوهن مرتكبهم وشنيع حالهم، وأوضح هذا المتكرر وأشدّه ملاءمة الإتيان بهذا الضمير المعد فصلاً أو مبتدأ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾: ٣١، وقوله فى آخر السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾: ٧٣، فهذه الآية والتي ذكرنا قبلها أنسب شيء لقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ...﴾ الآية.. تمهيداً وتوطئة لما وبخوا به بعدها وقرعوا مما لا يجدون عليه جواباً... ولما لم يقع فى سورة لقمان مثل هذا لم يرد فيها التأكيد وذلك أبين شيء وأنسبه"<sup>(٣)</sup>.

وأختم مسألة ذكر الضمير وحذفه بوقفه علماء المتشابهة عند آيتى سورة الصافات، يقول تعالى فى آخر السورة: ﴿قَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾<sup>(١٧٤)</sup> وَأَبْصَرُهُمْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ<sup>(١٧٥)</sup>، فقد جاء ذكر الضمير المتصل فى قوله: (وأبصرهم)، وبعد هذه الآية بأربع آيات وردت آية مشابهة محذوف منها الضمير يقول تعالى: ﴿قَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾<sup>(١٧٨)</sup> وَأَبْصَرُ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ<sup>(١٧٩)</sup>.

(١) انظر: البرهان: ٢٧٤، وكشف المعاني: ٢٦٥، فتح الرحمن: ٢٧٩.

(٢) انظر: روح المعاني: ١٨٢/٩.

(٣) ملاك التأويل: ٨٦٦/٢—٨٦٨.

يعلل الإسكافي الحذف في الآية الثانية، لأنه تقدم في الآية الأولى ذكر الضمير، وأوضح أن المراد من الحين الأول هو الدنيا، وهو الوقت الذي ينصر فيه المسلمون على أعدائهم، والحين الثاني يوم القيامة حيث يحل بهم العذاب والحزى العظيم<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه الإمام الكرمانى<sup>(٢)</sup>، وأبو يحيى الأنصارى<sup>(٣)</sup>.

أما ابن الزبير الغرناطي فيرى أن قوله: (وأبصرهم) خاص برسول الله ﷺ أن يترقب ما يترل بهم، ويحل بساحتهم من الانتقام، فلما أفاد الخصوص جاء بالضمير، أما قوله ﴿وَأَبْصَرَ﴾ فقد سقط عنه الضمير، لما يحزره من عموم لهم ولغيرهم، أي أبصر حال المؤمنين وما هم فيه من النعيم، وما هؤلاء فيه من العذاب والحزى، فيما كان عاماً أطلق الإبصار والمبصرين، فخلا اللفظ من الضمير<sup>(٤)</sup>. وقد تابعه ابن جماعة<sup>(٥)</sup>.

أما الطاهر بن عاشور فقد أشار لرأي الخطيب الإسكافي ومن وافقه<sup>(٦)</sup>.

### ثالثاً: ذكر القيد وحذفه:

وبعد أن تحدثت عن الآيات المتشابهة التي ورد فيها ذكر الضمير وحذفه، أنتقل إلى جزء آخر من أجزاء الذكر والحذف، وهو ذكر القيد وحذفه في الآيات المتشابهة، والحديث هنا متعلق بالجار والمجرور، ونظراً لارتباط بعضهما ببعض أصبحا كالكلمة الواحدة، فكان مجال بحثهما في هذا القسم، والحديث عن هذا الجزء يعد أكثر وأغزر من الأجزاء الأخرى في مسألة حذف

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٢٢.

(٢) انظر: البرهان: ٣١٨.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٣٥٦.

(٤) انظر: ملاك التأويل: ٩٦٢/٢—٩٦٣.

(٥) انظر: كشف المعاني: ٣١٠.

(٦) انظر: التحرير والتنوير: ١٩٨/٢٣.

الكلمة وذكرها في الآيات المتشابهة، وقد رأيت أن أتحدث عن عشرة مواضع هي أبرز المسائل في هذا الموضوع وأهمها.

وأول موضع بين أيدينا ما ورد في سورة البقرة في قصة موسى عليه السلام ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: ٥٩، بينما في سورة الأعراف جاءت الآية، بزيادة الجار والمجرور ﴿مِنْهُمْ﴾، يقول تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: ١٦٢، فلماذا اختصت الأعراف بالقيّد دون البقرة؟

يرى الخطيب الإسكافي رحمه الله أن في سورة الأعراف معنى يقتضي الزيادة، ثم ينظر لسياق القصة في هذه السورة فيجد أن أول القصة مبني على التخصيص، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾: ١٥٩، وقوله: ﴿وَقَطَّعَتْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾: ١٦٨، فقابل بين التبعض في الأمة الهادية للحق والتبعض الذي في مقابله وهو الذين ظلموا، والمراد بالقول الذي بدلوه هو قوله: ﴿أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾: ١٦١، وفي البقرة قوله: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾: ٥٨.

يقول الإسكافي: "إن قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وإن لم يذكر فيه (منهم) معلوم أن المراد بالظالمين الذين ظلموا من المخاطبين بقوله: (ادخلوا هذه القرية فكلوا)، (وقولوا حطة) فالذين ظلموا من هؤلاء هم الموصوفون بالتبديل والمغيرون لما قدم إليهم من القول، إلا أن في سورة الأعراف معنى يقتضي زيادة «منهم» هناك ولا يقتضيها هنا، وهو أن أول القصة في الأعراف مبني على التخصيص والتمييز بدليل لفظه في الآية قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾، فذكر أن منهم من يفعل ذلك ثم عدّ صنوف إنعامه عليهم وأوامره لهم، فلما انتهت قال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا﴾، فأتى في آخر ما حكى عنهم من مقابلة نعمة الله



عليهم بتبديلهم ما قَدَّم به القول إليهم بلفظ (من) التي هي للتخصيص والتمييز بناء على أول القصة، التي هي ومن قوم موسى<sup>(١)</sup>.

وقد وافق الكرمانى الإسكافى واكتفى بالإشارة إلى أن الزيادة في الأعراف لموافقة التبعض في الآية المتقدمة قبلها<sup>(٢)</sup>، وتابعه ابن جماعة، والأنصارى<sup>(٣)</sup> كعادتهما.

أما ابن الزبير الغرناطى فذكر أن آية البقرة تفيد العموم، وآية الأعراف تفيد التخصيص فزاد قوله: (منهم) وأوضح "أن لفظ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لفظ عام يحتمل التخصيص، والتخصيص يكون بدليل عقلي ودليل سمعي، ومن المعلوم أن الأمة من الناس والطائفة الكبيرة إذا خوطبوا بأمر أو نهي لم يكونوا في تقبله على حد سواء وهذا معلوم، ويبين هذا في هؤلاء المقصودين بهذا الإخبار قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ آل عمران: ١١٠، وقوله: ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾: ١١٣، وغير ذلك، وإذا تأملت هذه الآية فهمت منها نفسها أنها ليست على عمومها، فزادت آية الأعراف تخصيصاً سمعياً بما يعطيه حرف التبعض في قوله (منهم)، وآية الأعراف مخصصة للعموم البادي من آية البقرة<sup>(٤)</sup>.

والحق أن ابن الزبير لم يأت بالجواب الشافى؛ لأن الجواب يكون بمعرفة لماذا اختصت آية الأعراف بالقيّد الذي خصص العموم البادي من آية البقرة؟ إذاً فلا بد أن هناك علة جعلت آية الأعراف هي الأولى بهذا القيّد. ولهذا فإن صاحب «درة التنزيل» قد أحسن حين ذكر السياق، ورجع إلى ما قبل ذلك بثلاث آيات كما ذكر رحمه الله ووافقه عليه من بعده.

(١) درة التنزيل: ٩.

(٢) انظر: البرهان: ١٢٤.

(٣) انظر: كشف المعاني: ٩٨، وفتح الرحمن: ٢٨.

(٤) ملاك التأويل: ٢٠٨/١—٢٠٩.

وقد اكتفى الزمخشري بالقول أن زيادة (منهم) زيادة بيان<sup>(١)</sup>، ونقل عنه ذلك أبو حيان، والألوسي<sup>(٢)</sup>، أما ابن عاشور فوقف وقفة جيدة عند الفرق بين الآيتين فقال: "وجه زيادتها هنا التصريح بأن تبديل القول لم يصدر من جميعهم، وأجمل ذلك في سورة البقرة، لأن آية البقرة لما سقت مساق التوبيخ ناسب إرهابهم بما يوهم أن الذين فعلوا ذلك هم جميع القوم لأن تبعات بعض القبيلة تحمل على جماعتها"<sup>(٣)</sup>.

ومن مواضع ذكر القيد وحذفه ما جاء في سورة آل عمران في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾: ١٢٦، وفي سورة الأنفال حذف (لكم) بعد قوله (بشري) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾: ١٠. يذكر الخطيب الإسكافي أن آية آل عمران جاءت على الأصل، أما الآية الثانية فقد تقدمها لفظ (لكم) وهو ما يغني عن إعادتها بلفظها ومعناها وهو قوله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾: ٩، ثم يقول رحمه الله: (فلما قال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ علم أنه جعل بشري لهم، فأغنت (لكم) الأولى بلفظها ومعناها عن الثانية)<sup>(٤)</sup>.

وقد وافقه كل من الكرمانى<sup>(٥)</sup>، وابن جماعة<sup>(٦)</sup>، وأبو يحيى الأنصاري<sup>(٧)</sup>. أما ابن الزبير فله تعليل مختلف عن الآخرين فيرى أن آية آل عمران تقدمها ذكر الطائفتين المؤمنة والكافرة، وخص الطائفة المؤمنة بالبشارة وأنها لأولياء الله تعالى فقال: ﴿بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾، أما آية الأنفال فالحديث فيها خاص

(١) انظر: الكشاف: ١٢٥/٢.

(٢) انظر: البحر المحیط: ٤٠٩/٤، وروح المعاني: ٨٤/٥.

(٣) التحرير والتنوير: ١٤٥/٩.

(٤) درة التنزيل: ٣٨.

(٥) انظر: البرهان: ١٥١.

(٦) انظر: كشف المعاني: ١٣٢.

(٧) انظر: فتح الرحمن: ٧٢.

بالمؤمنين فلم يذكر القيد.

يقول: "آية آل عمران لما تقدم فيها ﴿وَيَأْتُواكُمْ مِّن فَوْرِهِمْ﴾: ١٢٥، فأخبر عن عدوهم واختلط ذكر الطائفتين وضمهما كلام واحد، فجردت البشارة لمن هدي منهما وأنها لأولياء الله المؤمنين فجيء بضمير خطابهم متصلاً بلام الجر المقتضية الاستحقاق فقل: (بشرى لكم).. أما آية الأنفال فلم يتقدم فيها ذكر لغير المؤمنين فلم يحتج إلى الضمير الخطابي في (لكم)، كما أنه قد تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾: ٧، فأغنى عن عودته فيما بعده اكتفاء بما قد حصل مما تقدم من تخصيصهم بذلك" (١).

وقد نقل ابن عاشور توجيه الإسكافي، وذكر تعليلاً آخر وهو: "أن آية آل عمران سبقت مساق الامتنان، والتذكير بنعمة النصر في حين القلة والضعف، فكان تقييد ﴿بُشْرَى﴾ بأنها لأجلهم زيادة في المنة، أي جعل الله ذلك بشرى لأجلكم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، وأما آية الأنفال فهي مسوقة مساق العتاب على كراهية الخروج إلى بدر في أول الأمر، وعلى اختيار أن تكون الطائفة التي تلاقيهم غير ذات الشوكة، فجرّد ﴿بُشْرَى﴾ عن أن يعلق به ﴿لَكُمْ﴾ إذ كانت البشـرى للنبي ﷺ ومن لم يترددوا من المسلمين" (٢).

والحق أن كل التوجيهات مقبولة، ولها أثرها وإيحائها، فإذا كانت الأسرار البلاغية في كلام العرب لا تتزاحم، فكيف بأسرار كلام الله تعالى، الذي في كل آية منه أسرار عظيمة، ومعجزات بليغة، بل في كل حرف من حروفه بيان وإعجاز؟

ومن المواضع ما ورد في سورة النساء، وسورة المائدة، ففي الأولى حذف

(١) ملاك التأويل: ٣١٤/١-٣١٥.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٧٦/٩-٢٧٧.



لفظ (منه) من قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾: ٤٣، وفي المائدة جاءت الآية بذكر اللفظ: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾: ٦، فهل من فرق بين الآيتين؟

هذا الموضع من المواضع التي غفل عنها الإسكافي، وقام الكرمانى بتوجيهها، فيرى — رحمه الله — أن الآيتين في أحكام الوضوء، وأن آية النساء ورد فيها بعض تلك الأحكام فجاء الحذف، أما آية المائدة فقد ورد فيها جميع الأحكام الخاصة بالوضوء، فورد فيها الذكر. يقول رحمه الله: "لأن المذكور في هذه السورة بعض أحكام الوضوء هو والتيمم، فحسن الحذف، والمذكور في المائدة جميع أحكامهما فحسن الإثبات والبيان" (١).

أما ابن الزبير فيرى أن آية المائدة اختصت بالزيادة لتأخرها في ترتيب المصحف، فقوله: ﴿مِنْهُ﴾ بيان، والتأخر يكون بياناً للمتقدم، يقول: "زيادة منه في آية المائدة بيان، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ لا يحصل منه ما يحصل من زيادة ﴿مِنْهُ﴾ فزيدت بياناً، واختصت بذلك آية المائدة لتأخرها في الترتيب الثابت عليه المصحف، والبيان يتأخر عما هو بيان له، فجاء على ما يجب" (٢).

أما ابن جماعة، وأبو يحيى الأنصاري (٣) فقد أخذوا برأي الكرمانى، الذي يعد أولى من توجيه ابن الزبير، لأن آية المائدة ذكر من أولها تفصيل للوضوء وتفصيل لواجباته، ثم جاء ذكر التيمم، أما آية النساء فجاءت تبعاً للنهي عن قربان الصلاة مع شغل الذهن فليس فيها تفصيل مثل ما جاء في المائدة.

ومن حذف القيد في آية وذكره في آية أخرى مشابهة ما ورد في سورة المائدة يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

(١) البرهان: ١٥٥.

(٢) ملاك التأويل: ٣٤٤/١.

(٣) انظر: كشف المعاني: ١٣٨، وفتح الرحمن: ٨٤.

قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ﴿١٧﴾ ،  
فحذف ﴿لَكُمْ﴾ بعد ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ﴾ ، وفي سورة الفتح جاء ذكر القيد  
يقول تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْنَا  
يَقُولُونَ بَالِيسَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ  
نَفْعًا﴾: ١١ .

وقد أجمع علماء التشابه اللفظي على ما ذكره الخطيب الإسكافي  
رحمه الله، حيث يرى أن بين الآيتين فرقاً من حيث العموم والخصوص،  
وأن الخصوص يقتضي الزيادة للتبيين، فأية الفتح نزلت في قوم تخلفوا عن  
رسول الله ﷺ، أما آية المائدة فهي عامة فلم تختص بفريق دون فريق، بل  
هي فيمن كفر بالله تعالى وادعى أن المسيح عليه السلام هو الله ولهذا قال:  
﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، فلما  
كانت عامة لم يحتج إلى القيد.

يقول رحمه الله: ”الجواب أن يقال: إن هذه الآية في سورة الفتح  
نزلت في قوم تخلفوا عن رسول الله ﷺ من غير عذر وتأخروا عن الجهاد،  
وقالوا شغلنا أموالنا وأهلونا، ثم سألوهم ﷺ أن يستغفر لهم، يكتمون بذلك  
نفاقهم ويظهرون وفاقهم، وقصدهم استمالته كيلا تضرهم عداوته، فقال  
عز وجل: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾، فلما كان  
في قوم مخصوصين احتج إلى (لكم) للتبيين. فأما في هذه السورة - يقصد  
المائدة - فإنها لم تنزل لفريق مخصوص دون فريق، بل عم بها، دليله:  
﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، فلما  
سيقت الآية إلى العموم لم يحتج إلى (لكم) التي للخصوص“ (١).

(١) درة التنزيل: ٥٠، وقد أعاد المؤلف الحديث عن هذا الموضع مرة أخرى في حديثه عن  
آيات سورة الفتح: ٢٥٢-٢٥٣.

وقد وافقه الإمام الكرمانى، وابن الزبير، وابن جماعة<sup>(١)</sup>. أما ابن عاشور  
فاكتفى رحمه الله بذكر أن (لكم) في آية الفتح للبيان<sup>(٢)</sup>.

ومن الآيات المتشابهة التي حذف منها القيد ما جاء في سورة هود:  
﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي  
أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾: ٣١، فحذف (لكم) بعد (أقول) الثانية، بينما في  
سورة الأنعام جاء بالقيد يقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ  
الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا تَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾: ٥٠.

ذكر علماء المتشابهة لهذه المسألة أكثر من توجيه، أبدأ بتوجيه الكرمانى  
الذي يرى "أن ما في الأنعام آخر الكلام فبدأ بالخطاب وختم به، وليس ما  
في سورة هود آخر الكلام، بل آخره ﴿تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ فبدأ بالخطاب وختم في  
السورتين به"<sup>(٣)</sup>.

ولابن الزبير توجيه جيد مبني على قراءة الآيات وفهم السياق حيث  
تأمل رحمه الله سياق الآيتين، فبين أن آية هود هي حكاية عن نوح عليه  
السلام، الذي يدعو قومه بلطف وإشفاق واستلطاف، وهذا يناسبه الحذف،  
فتكرار الكلمة يفهم منها التقرير والتوبيخ، أما آية الأنعام فهي في أمر  
مشركي قريش أهل الكفر والعناد، فناسب ذلك ذكر القيد.

يقول رحمه الله: "الوارد في سورة هود إنما هو حكاية قول نوح  
عليه السلام متلطفاً، ومشفقاً من حال قومه، ألا ترى استفتاح خطابه  
لهم بقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ﴾: ٢٨ وقوله:  
﴿وَيَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾: ٢٩ ﴿وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ...﴾: ٣٠.. فتأمل  
جليل ملاطفته عليه السلام، وما يفهم من كلامه من عظيم الإشفاق من

(١) انظر: البرهان: ٣٣٥، وملاك التأويل: ٣٨٢/١، وكشف المعاني: ١٤٧، ٣٤١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ٢٥٣/١٣.

(٣) البرهان: ٢٢٢.



حالمهم، وإرادته ما به نجاحهم من العذاب، ومن أخذهم بمرتكباتهم، فهذا كله استلطاف في الدعاء لا يلائمه تكرار كلمة تفهم تعنيفاً أو توبيخاً، والتأكيد والتكرار يفهم ذلك، ويردان حيث يقصد. وأما قوله تعالى في آية الأنعام: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فوارد طي كلام أمره ﷺ بتبليغه عتاة قريش، والعرب توبيخاً لهم، وتقريعاً، ف قيل: ﴿قُلْ﴾ والمراد قل لهم يا محمد ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ خَزَائِنِ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾... فتكرر فيها قوله: (لكم) تأكيداً يفهم التعنيف ويناسب التوبيخ والتقريع<sup>(١)</sup>.

أما ابن جماعة فيرى أن سر حذفها من آية هود هو أن لفظ (لكم) تقدم عدة مرات من أول القصة فاكتفى به تخفيفاً، أما آية الأنعام فلم يتقدم اللفظ إلا مرة واحدة فحسن الذكر<sup>(٢)</sup>. وقد وافقه على هذا التوجيه أبو يحيى الأنصاري<sup>(٣)</sup>.

وهذه التوجيهات والأقوال المختلفة لا يمنع أن تكون مقصودة، فالآية يمكن أن تحمل على توجيه الكرماني، لأنه آخر الكلام فذكر القيد، ويمكن أيضاً أن يعلل ذكر القيد لأنه في مخاطبة عتاة قريش، وهو رأي ابن الزبير، ويمكن أيضاً كما قال ابن جماعة أن عدم ذكر كلمة (لكم) فيما تقدم آية الأنعام سبب في ذكر القيد، فليس بين هذه العلل أي خلاف، ويمكن الاستئناس بها، والله أعلم.

ومما تشابه في هذه المسألة قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام وفرعون في الأعراف في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾: ١١٠، فهذه الآية نزلت من القيد الوارد في آية الشعراء وهو (بسحره)، في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾: ٣٥، فما هذا الاختلاف؟

(١) ملاك التأويل: ٤٥٦/١—٤٥٧.

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٦١—١٦٢.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ١٢٢.

تحدث الإسكافي عن الآيتين فذكر أن آية الأعراف من كلام الملائكة ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحِرُ عَلِيمٌ﴾: ١٠٩، وأما آية الشعراء فمن كلام فرعون ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا السَّحِرُ عَلِيمٌ﴾: ٣٤، ولما كان فرعون - عليه من الله ما يستحق - أشدهم في عداوة موسى عليه السلام وقومه، صرح بأن ما جاء به موسى سحر، ويؤيد ذلك قوله لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ سورة طه: ٥٧، يقصد من ذلك تنفير الناس عن متابعة موسى عليه السلام، فجاءت الزيادة مع قول فرعون، أما الملائكة فلم يبلغوا ما بلغه فرعون تجاه موسى ومن معه من المؤمنين فحذف اللفظ مع قولهم.

يقول رحمه الله: "الجواب أن يقال: لما أسند الفعل في الأولى إلى فرعون وحكى ما قاله، وأنه قال للملائكة من قومه إن هذا لساحر عليم، وكان أشدهم تمرداً وأولهم تجبراً وأبلغهم فيما يرد به الحق، كان في قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم ذكر السبب الذي يصل به إلى الإخراج وهو ﴿بِسِحْرِهِ﴾، فأشبع المقال بعد قوله: ﴿إِنَّ هَذَا السَّحِرُ عَلِيمٌ﴾ بأن ذكر أنه يريد إخراجكم بسحره، فهو زيادة عما حكي<sup>(١)</sup> من قول الملائكة في سورة الأعراف... والملائكة لم يبلغوا مبلغ فرعون في إبطال ما أورده موسى عليه السلام، ولم يجفوا في الخطاب جفاه، فتناولت الحكاية ما قاله فرعون على جهته بتكرير لفظ السحر من لفظه بعد ما أخرجه في صفته حيث قال: إن هذا لساحر عليم... فذكر قوله ﴿بِسِحْرِهِ﴾ فيما حكاه فرعون، فلذلك خلا منه الموضع الذي كان الخبر فيه عن الملائكة من قومه"<sup>(٢)</sup>. وقد وافقه على ذلك ابن الزبير، وابن جماعة<sup>(٣)</sup>، كما وافقهما ابن عاشور<sup>(٤)</sup>.

(١) الأصل: فهو ما حكي.

(٢) درة التنزيل: ٩٤.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ١/٥٦٣-٥٦٥، وكشف المعاني: ١٨٣.

(٤) انظر: التحرير والتنوير: ١٩/١٢٤.

فالإسكافي يريد أن يوضح أن زيادة كلمة (بسحره)، في قول فرعون، تدل على زيادة المعنى، فهناك فرق بين الذي يجده فرعون في نفسه، فما يحمله من غيظ وشدة وعداوة لموسى عليه السلام، أعظم وأشد مما عند الملائ من قومه، فلذلك جاء التعبير بالقيد في قول فرعون دون قول الملائ.

وذكر الإمام الكرمانى أن الآية الأولى بنيت على الاختصار والإيجاز، وسبب ذلك أن لفظ (الساحر) في الآية التي قبلها يدل على السحر، أما آية الشعراء فليست كذلك فذكر اللفظ<sup>(١)</sup>، وقد تابعه أبو يحيى الأنصاري<sup>(٢)</sup>.

وهذا ليس ببعيد عن التوجيه الأول الذي ذكره الخطيب الإسكافي، فالإشباع في وصف كلام فرعون معناه الإطناب، فالكلام يعود بعضه على بعض.

ومما جاء في التشابه في مسألة ذكر القيد وحذفه ما ورد في الأعراف ويونس، ففي الأولى حذف القيد (به) في قوله: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾: ١٠١، بينما ذكر القيد في الآية الثانية ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾: ٧٤.

يرى الخطيب الإسكافي أن هناك فرقاً بين الآيتين، وقد اعتمد في تفريقه بينهما على ما تقدمهما من سياق، فكل آية وافقت ما قبلها، فما قبل آية الأعراف خلا من التعدية بالباء، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: ٩٦، فقال: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾، فجاءت الآية بعدها على ذلك، وفي يونس جاء قبل الآية قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: ٧٣، فقال: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بذكر الباء، مع أن التكذيب في الآيتين واحد.

(١) انظر: البرهان: ١٩٧.

(٢) انظر: فتح الرحمن: ١٤٧.



يقول الخطيب: "سقوط (به) من قوله: (كذبوا) هو للبناء على ما جعل صدرأ لهذه الآيات التي نزلت في الترغيب والترهيب، وهو ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فقوله: (ولكن كذبوا) لم يذكر له مفعول، وانسأقت الآيات بعد التحذير المتوالي بقوله: ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ وختمت بقوله: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ فالمكذبون هنا هم المكذبون في قوله: (ولكن كذبوا) يدل على ذلك بأن أجرى مجراه في حذف ما يتعدى إليه... وأما قوله في سورة يونس: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ وإثبات المفعول به هنا، فلأن قبله قصة نوح وهي: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كِبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي﴾ ثم بعده ﴿فَكَذَّبُوهُ فَتَبَيَّنْهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ ثم بعده: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، فجاء (كذب) أمام القصة المبنية على القصة التي قبلها متعدية إلى ما وجب لها في موضعها ونوعي تعديها... فلما جاء ذاك متعدياً جاء هذا مثله ، وكما لم يجئ في الآية التي في سورة الأعراف متعدياً لم يجئ فيما بني عليه إلا محذوف الفعل<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه الكرماني، وابن جماعة، والأنصاري، الذين اختصروا التوجيه، كما وافقهم ابن عاشور رحمه الله<sup>(٢)</sup>.

أما ابن الزبير فله تعليل آخر يختلف عن تعليل الإسكافي ومن وافقه، حيث ذكر أن القيد تقدم في الأعراف مرتين، فحذف من الآية اكتفاء بما تقدم، وأما آية يونس فلم يتقدمها ذكر للقيد، فجاء به، فهو تعليل مبني

(١) درة التنزيل: ٩١—٩٢. وقوله «محذوف الفعل» كذا في الأصل، ولعلها «محذوف معمول الفعل».

(٢) انظر: البرهان: ١٩٥، وكشف المعاني: ١٨٤، وفتح الرحمن: ١١٤٦، والتحرير والتنوير: ٣١/٩.

على النظر في مناسبة اللفظ وتلاؤمه. يقول رحمه الله: "لما تقدم في الأعراف ﴿وَتَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾: ٨٦، وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾: ٨٧، ثم ذكر الآية بعد ذلك، وقع الاكتفاء بما تقدم من قوله: ﴿بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾، والذي أرسل به هو الذي طلب منهم الإيمان به فحصل المقصود، فلو قيل أخيراً (به) لكان تكراراً، فاقضى الإيجاز وإحراز البلاغة حذفه. أما في يونس فإنه لم يتقدم هنا ما تقدم هناك، فلم يكن بد من الإتيان بالضمير ليحصل ما وقع من التكذيب، ولترتبط الصلة بالموصول" (١).

ومن التشابه ما جاء في سورة الكهف في هذه المسألة: يقول تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾: ٧٢، وفي الآية التي بعدها زاد ذكر القيد (لك) فقال: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾: ٧٥.

في هذا الموضع اتفق علماء التشابه وغيرهم من المفسرين على توجيه الآيتين، ففي الآية الأولى قصد بها الخضر عليه السلام تذكير موسى عليه السلام بوصيته له وبما شرطه عليه، فخاطبه بلطف وأدب، وفي الآية الثانية كرر موسى الإنكار، لما رأى قتل الغلام فشدد عليه الخضر، وأكد كلامه بقوله (لك) زيادة في عتابه عليه بترك الوصية مرة ثانية. هذا ما قال به الخطيب الإسكافي (٢).

وقد وافقه على ذلك كل من الكرمانى، وابن الزبير، وابن جماعة، والأنصاري (٣)، وبه أخذ الفخر الرازي، والألوسي، والطاهر بن عاشور (٤). ومما تحدث عنه علماء التشابه في مسألة ذكر القيد وحذفه، توجيههم لقوله

(١) ملاك التأويل: ٥٥٧/١.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١٥٨.

(٣) انظر: البرهان: ٢٥٨، وملاك التأويل: ٧٩٠/٢، وكشف المعاني: ٢٤٢، وفتح الرحمن: ٢٤٩.

(٤) انظر: التفسير الكبير: ١٣٢/٢١، وروح المعاني: ٣٢٥/٨، والتحرير والتنوير: ٥/١٦.

تعالى في سورة الحج: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: ٢٢، فذكر هنا (من غم)، بينما حذف اللفظ في آية السجدة ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾: ٢٠.

يرى الخطيب الإسكافي أن السياق المتقدم لآية الحج يقتضي زيادة اللفظ، فالغم هو الكرب<sup>(١)</sup> والأخذ بالنفس حتى لا يجد صاحبه متنفساً، وقبل الآية قوله: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ شِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يَصُبُّ مِنْ قَوْقٍ رُّءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾<sup>(٢)</sup> يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ<sup>(٣)</sup> وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ﴾: ٢١، فاشتمل العذاب عليهم وأحاط بهم إحاطة الثوب للجسد، فبلغ بهم الغم والكرب غايته، أعادنا الله منها، فناسب الآية الزيادة، أما آية السجدة فلم يتقدمها ما تقدم آية الحج فناسبها الحذف، فزيادة المبنى تقتضي زيادة المعنى.

يقول رحمه الله: "ليس الغم هاهنا الحزن، وإن كان أصله من ذلك، لكنه تغطيتهم بالعذاب، والأخذ بكظمهم، فلما تقدمه وصف ما أحاط بهم ذكر هذا الغم، أي: كلما أرادوا من الكرب الذي أخذ بكظمهم أن يخرجوا من النار التي جلبت عليهم كل ذلك، أقبلت الزبانية نحوهم بما يدق رؤوسهم. والآية التي في سورة السجدة ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾<sup>(٤)</sup> لم تشتمل من إحاطة العذاب بهم من ذكر الشيا من النار وصب الحميم وإذابة الشحوم، ما ذكر في هذه الآية، فلما لم يتقدم ذكر ما يطيف بهم ويغمهم ويصير كما يسد مخارج أنفاسهم لم يذكر أنهم يحاولون الخروج من أجل الغم الذي اقتضت الآية في الحج ذكره، ولم يقع مثله في سورة السجدة من مقتض، فلم يقع المقتضي لذلك"<sup>(٥)</sup>. وقد وافقه الكرمانى الذي ذكر معنى كلامه، وتابعه ابن جماعة، والأنصارى، رحمهم الله تعالى<sup>(٦)</sup>.

(١) انظر: لسان العرب: ٤٤١/١٢.

(٢) درة التنزيل: ١٧١.

(٣) انظر: البرهان: ٢٧٢، وكشف المعاني: ٢٦٢، وفتح الرحمن: ٢٧٥.



أما ابن الزبير فقد وافق الخطيب وجاء تعليقه بأسلوب آخر، فقال: "زيادة ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ مناسب لما ورد قبله وبعده من تفصيل الجزاء في الطرفين بعد ذكر الحالين من نعيم أو عذاب... والإطناب يناسب الإطناب. أما في السجدة فلما لم يقع تفصيل في الطرفين وأوجز الكلام ناسبه الإيجاز"<sup>(١)</sup>، فابن الزبير ذكر أن آية سورة الحج ورد في شأنها تفصيل متقدم عليها، ومتأخر عنها، استوجب ذكر القيد (من غم)، وهذا هو مراد الإسكافي الذي ذكر أن الآية تقدمها وَصَفُ إحاطة العذاب بهم، فجاء ذكر القيد في هذه الآية دون الأخرى.

وأختم مواضع ذكر القيد وحذفه في المتشابه اللفظي بتوجيه قوله تعالى في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: ٤٦، فحذف القيد (فيه) بعد (الفلك)، وجاء ذكره في آية الجاثية: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: ١٢.

هذا الموضع من المواضع التي أجمع عليها علماء المتشابه، فالآية الأولى آية الروم جاء في أولها ذكر الرياح وأنها تبشر بالمطر وإذاعة الرحمة، ثم قال: ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾ بالرياح بأمر الله تعالى، ولم يتقدم ذكر البحر، فلم يذكر القيد، لأنه ليس للضمير عائد يعود إليه، أما آية الجاثية فجاء فيها ذكر البحر: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ﴾ فجاء بالضمير العائد إليه على ما يجب، وهذا نظر في مناسبة المبنى وتلاؤم اللفظ.

يقول الإسكافي رحمه الله: "الهاء في قوله: ﴿فِيهِ﴾ عائدة للبحر، وقد ذكر في سورة الجاثية فعاد إليه الضمير وهو قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾، ولم يتقدم للبحر ذكر في الآية التي ذكر فيها جري الفلك

(١) ملاك التأويل: ٨٥٩/٢.

في سورة الروم، وإنما نبه على النعمة بالرياح وإظهار آياته فيها فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ...﴾<sup>(١)</sup>. وبهذا القول قال الكرمانى، وابن الزبير، وابن جماعة، وأبو يحيى الأنصارى، عليهم رحمة الله تعالى<sup>(٢)</sup>.

## رابعاً: الإضمار والإظهار:

وبعد أن تحدثت في هذا القسم، عن ذكر الكلمات المفردة وحذفها، ثم تناولت ذكر الضمائر وحذفها في التشابه، وكذلك ما جاء في التشابه اللفظي من ذكر القيد وحذفه، أختتم حديثي في هذا الموضوع عن الإضمار والإظهار في الآيات المتشابهة، وهو وإن لم يكن من باب الذكر والحذف فإنه أقرب ما يكون إليه، كما أنه الطريق الذي يوصلنا إلى معرفة أسرارهِ ونكاته البلاغية والبيانية، وقد تناوله أهل البلاغة والبيان في باب خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، فبينوا وقوع الظاهر موقع الضمير، ووقوع المضمّر موقع الظاهر<sup>(٣)</sup>، فعنوا بذكر النكات البلاغية فيهما، وبينوا سر وقوع الظاهر في موقعه أو المضمّر في موقعه، وهذا هو أصل البلاغة ولب البيان، ومن هنا كان لعلماء التشابه شأن في هذه المسألة، وعناية تستحق الاهتمام، فقد عقدوا مقارنة بين الآيات المتشابهة في هذا الخصوص، وبينوا علة اختصاص كل آية بما اختصت به من إضمار أو إظهار، وقد ورد في كتاب الله تعالى خمسة مواضع تحدث عنها علماء التشابه في مصنفاتهم، وسنتحدث عنها بالتفصيل.

أول المواضع التي نطالعها توجيههم لقوله تعالى في البقرة:

(١) درة التنزيل: ٢٠٨.

(٢) انظر: البرهان: ٣٠٢، وملاك التأويل: ٩٤٠/٢، وكشف المعاني: ٢٩٥، وفتح الرحمن: ٣٢٧.

(٣) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٨٠/٢—٨٤، وبغية الإيضاح: ١٤٧/١—١٥٠.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾: ١٢٩، ومثله في الجمعة  
 ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: ٢، ففي هاتين الآيتين جاء  
 التعبير بقوله (منهم) بالإضمار، وفي آل عمران عبر بالأنفس عن الضمير،  
 فجاءت الآية بالإظهار: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ  
 يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: ١٦٤.

أوضح الإمام الكرمانى أن الإظهار في آية آل عمران يقتضي بيان المنّة  
 على المؤمنين، حيث أرسل لهم خاتم رسله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم،  
 وجعله من أنفسهم، ولهذا جاء في وصف الرسول ﷺ في آخر سورة التوبة  
 أنه من أنفسهم، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ  
 عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: ١٢٨، ليكون حجة عليهم، ملزمة لهم،  
 بكونه من أنفسهم، وقد عرفوا صدقه، ولقبوه بالصادق الأمين، ولم يعلق  
 على الآيات التي جاءت بالإضمار.

يقول: "لأنه سبحانه منّ على المؤمنين منّة به فجعله من أنفسهم ليكون  
 موجب المنّة أظهر، وكذلك قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، لما  
 وصفه بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ..﴾، جعله من أنفسهم  
 ليكون موجب الإجابة والإيمان به أظهر وأبين" (١).

وقد نقل كلامه ابن جماعة، وأوضح أن آية البقرة جاءت في سياق دعاء  
 إبراهيم عليه السلام، ولم يعلق على آية الجمعة (٢)، وكذلك أبو يحيى الأنصاري  
 نقل توجيه الكرمانى، وزاد بقوله في توجيه الإضمار في الآيتين: "في البقرة  
 والجمعة بترك الأنفس إيجازاً" (٣)، واكتفى بذلك.

وفي ضوء تحليل الإمام الكرمانى أقول: إن بيان سر التعبير بالأنفس،

(١) البرهان: ١٥٢.

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٠٦.

(٣) فتح الرحمن: ٣٦.



وأنه في مقام المنة، لأنه مادام عليه السلام من أنفسهم فهم أعزة عليه، وهو حريص عليهم، وهذا البيان يعني أن التعبير بالضمير في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ لا يراد به هذا المعنى، إلا أن الكرمانى، وابن جماعة، والأنصارى لم يوضحوا هذا الملحظ.

أما ابن الزبير الغرناطي فله رأي آخر، فقد ذكر أن آية الجمعة فيها عموم يقتضي الإضمار، فاللفظ في الآية يتناول قريشاً وغيرهم من العرب فقال: (منهم) ليناسب عموم الأميين من العرب ممن أسلم، ومن لم يسلم، أما آية آل عمران ففيها تخصيص يقتضي الإظهار، فقد جاء في الآية: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فخص المؤمنين فناسب ذلك التعبير بالإظهار.

وفي ذلك يقول ابن الزبير: "إن قولك (فلان من أنفس القوم) أوقع في القرب والخصوص من قولك (فلان منهم).. أما من أنفسهم فأخص.. ولذلك وردت حيث قصد التعريف بعظيم النعمة به ﷺ على أمته وجليل إشفاقه وحرصه على نجاتهم ورأفته ورحمته بهم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، وقال فيمن كان على الضد من حال المؤمنين المستجيبين: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ النحل: ١١٣، فتأمل موقع قوله هنا (منهم) لما قصد أنه إنعام عليهم لم يوفقوا لمعرفة قدره ولا للاستجابة المثمرة النجاة فقليل هنا (منهم).. فتأمل هذا. ولما كان لفظ الآيتين يتناول قريشاً وغيرهم من العرب ممن ليس من أهل الكتاب قيل: (منهم) فناسب هذه الكناية.. عموم الأميين من العرب ممن أسلم ومن لم يسلم، ولما قال في آية آل عمران ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فخص من أسلم ناسب ذلك قوله (من أنفسهم) لخصوصه كما تقدم، ولم يكن العكس ليناسب والله أعلم" (١).

ومما جاء في الإظهار والإضمار في التشابه اللفظي وقد تكرر في القرآن

---

(١) ملاك التأويل: ٣٢٢/١ - ٣٢٣.

الكريم وهو إظهار لفظ الجلالة وإضماره، ففي سورة الإسراء ورد الإضمار في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾: ٥٦، بينما جاءت الآية في سورة سبأ بإظهار اللفظ ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: ٢٢، وقد نظر علماء المتشابه للسياق المتقدم للآيتين، وأبدأ برأي الخطيب الإسكافي.

يرى الإسكافي أن سر الإضمار في آية الإسراء أنه تقدمها اسم الرب صريحاً ومضمراً فيما يقرب من عشرة مواضع، فناسب ذلك الإضمار، أما آية سبأ فسبب الإظهار فيها أنه لم يتقدم اسم الرب قبلها إلا في ثلاثة مواضع، فناسب الإظهار.

يقول: "اختير الإضمار في سورة بني إسرائيل لقوة الذكر قبل، ألا ترى أنه يكون في عشرة مواضع مضمراً ومظهراً، لقوله: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ أَنْ يَشَأْ يُعَذِّبَكُمُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾: ٥٤-٥٥، فكان الإضمار تلو الإضمارات أولى بهذا المكان، فلذلك قال: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾، وأما في سورة سبأ فإن الذي تقدمه ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَوْمُ بَأْ لْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ﴾: ٢١، فالذكر تقدم في ثلاثة مواضع، وهناك أكثر من عشرة مواضع، فحسن الإظهار هنا، وقوي الإضمار هناك فلذلك اختلفا<sup>(١)</sup>.

وقد وافق الإمام الكرمانى الخطيب الإسكافي في توجيه الإضمار في آية الإسراء فقال: "لأنه يعود إلى الرب، وقد تقدم ذكره في الآية الأولى وهو قوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾...". لكنه أرجع سبب الإظهار في سبأ إلى طول البعد عن التصريح باسم الرب سبحانه يقول: "وفي سبأ بينه وبين ذكره سبحانه صريحاً أربع عشرة آية فلما طالت الآيات صرح ولم يكن<sup>(٢)</sup>".

(١) درة التنزيل: ٢١٦.

(٢) البرهان: ٢٥٢.

ولكن لا أدري إن كان خفي عليه رحمه الله قوله تعالى في الآية التي قبلها ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾: ٢١، ولا يصح أن يصرف تعليل الكرمانى إلى أن المراد به لفظ الجلالة (الله)، لأنه رحمه الله عدّ القرب في الآية الأولى في قوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ...﴾، وتأكيد الأنصاري على ذلك حيث وافق الكرمانى في توجيهه فقال: "قاله هنا بالضمير لقرب مرجعه، وهو الرب في قوله: (وربك أعلم)...".<sup>(١)</sup>

أما ابن الزبير فمع موافقته للإسكافي في الآية الأولى، إلا أن له رأياً آخر في آية سورة سبأ، وهو البعد عن الإيهام في عود الضمير في الآية المتقدمة، يقول: "والجواب أن آية سبأ تقدم قبلها قوله تعالى مخبراً: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ﴾: ٢٠، فجيء بالاسم الظاهر ليكون أبعد على إيهام عودة الضمير، ورجوعه إلى المتبع لهم في الآية المتقدمة.. فورد التحفظ بإيراد الظاهر مما كان المضمير يوهمه".<sup>(٢)</sup>

ومثل الموضع السابق قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾<sup>(٣)</sup> فوردت هذه الآية في سورتين من القرآن الكريم وجاءت بالإظهار، وفي أول سورة الفرقان وردت الآية بالإضمار: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾: ٣.

يرى الخطيب الإسكافي أن آية الفرقان تقدمها آيتان جاء فيهما ذكر المولى سبحانه، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾<sup>(١)</sup> الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ وَتَقْدِيرًا﴾: ٢، فحسن الإضمار على طريقة العرب في فصيح الكلام، أما آية مريم ويس فلم يتقدمهما ظاهر يقع الإضمار بعده. يقول الإسكافي: "الجواب عن ذلك أن يقال: إنه لما قال في سورة الفرقان فأخبر عن نفسه لا كإخبار المتكلم

(١) فتح الرحمن: ٢٣٦.

(٢) ملاك التأويل: ٧٦٩/٢.

(٣) سورة مريم: ٨١، ويس: ٧٤.



بلفظ التاء والنون والألف في مثل: (فعلت وفعلنا)، بل كما يخبر المخبر عن غيره فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ...﴾ إلى قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ كان ذكر الله تعالى قد تقدم في الآيتين فأجرى ذكره في الثالثة مجراه في الأوليين على مقتضى كلام العرب في الإضمار بعد الذكر، ولم يكن كذلك الأمر في الآيتين في سورتي يس، ومريم، لأن الذكر المتقدم إنما هو على لفظ المخبر عن نفسه لقوله: ﴿كَأَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّهُ مِنْ الْعَذَابِ مَدًّا ۖ وَنَرِثُهُ وَمَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾: ٧٩، ٨٠... فأظهر اسمه تعالى، إذ كان لم يتقدم ظاهر يقع الإضمار بعده... وكذلك كان الأمر في سورة يس حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾: ٧١، إلى قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾<sup>(١)</sup>.

أما الكرمانى فوافق الإسكافي في توجيه آية الفرقان، أما في آيتي مريم ويس فيرى أن الإظهار فيهما لأمن اللبس، وقد كانت عبارته موجزة. يقول رحمه الله: "في هذه السورة — يقصد الفرقان — وافق ما قبله. وفي السورتين لو جاء (من دونه) لخالف ما قبله، لأن ما قبله في السورتين بلفظ الجمع تعظيماً فصرح"<sup>(٢)</sup>.

ويقول في موضع آخر: "صرح بلفظ الجلالة كيلا يؤدي إلى مخالفة الضمير قبله فإنه في السورتين بلفظ الجمع تعظيماً"<sup>(٣)</sup>. ويعقب محقق الكتاب في الحاشية بقوله: "في سورة مريم الضمائر التي في الآيات السابقة مباشرة للغائب المفرد، وتعود على الذي كفر بآيات الله، فلو لم يصرح بعدها باللبس فقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وفي سورة يس أول ضمير غائب مفرد سبق قوله: (واتخذوا) يعود على سيدنا رسول الله ﷺ ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ فكان

(١) درة التنزيل: ٢٢٠.

(٢) البرهان: ٢٨٢.

(٣) المصدر السابق: ٣١٣.

المقام مقام التصريح بلفظ الجلالة“<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه ابن الزبير، وابن جماعة، والأنصاري رحمهم الله تعالى<sup>(٢)</sup>.  
كما وافقهم ابن عاشور في توجيه آية الفرقان، أما الإظهار في الآيتين  
فذكر أن اسم الجلالة يشعر بعظمة الإلهية، وأن اتخاذهم الآلهة من دون الله  
جراءة عظيمة<sup>(٣)</sup>.

وعندما نتأمل التوجيهات نلاحظ أن الفرق ليس كبيراً، وما ذكره العلماء  
جيد، وموافق لما ورد في القرآن الكريم، فقد حصرت ما جاء في كتاب الله  
من آيات متشابهة، فوقفت على أربعة مواضع أخرى جاءت بالإظهار، وهي:  
قوله في العنكبوت ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾: ٤١، وفي الزمر:  
﴿أَمْ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾: ٤٣، وفي الجاثية: ﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾:  
١٠، وفي الأحقاف: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا﴾: ٢٨، كما  
وقفت على أربعة مواضع أخرى جاءت بالإضمار وهي: في الأنبياء قوله:  
﴿أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلهَةً﴾: ٢٤، وفي الزمر: ﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ  
مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾: ٣، وفي الشورى قوله: ﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ  
أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِیْظٌ عَلَيْهِمْ﴾: ٦، وقوله: ﴿أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾: ٩، وقد  
جاءت هذه الآيات موافقة لما ذكره علماء المتشابهة في توجيهاتهم لآية مريم  
ويس مع آية الفرقان، والله تعالى أعلم.

ومن الآيات المتشابهة في مسألة الإضمار والإظهار في القرآن الكريم قوله  
تعالى في سورة يونس ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾: ٦٠،  
وفي سورة غافر قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ  
لَا يَشْكُرُونَ﴾: ٦١، ففي الأولى قال: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾، وفي الثانية

(١) حاشية كتاب البرهان: ٢٨٢.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٨٨٨/٢-٨٨٩، وكشف المعاني: ٣٠٥، وفتح الرحمن: ٢٩٤.

(٣) انظر: التحرير والتنوير: ٧٠/٢٣.



﴿أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ فما الفرق؟

يرى الخطيب الإسكافي أن الإضمار والإظهار جائزان، وأوضح أن كل موضع يحتمل الإضمار يحمل على قرب الذكر، والإظهار يُحمل على تعظيم الأمر، وذكر أن ذلك ينبغي أن يحمل على ما يلائم الآيات المتقدمة له فيجمع السياق بين صحة المعنى واللفظ ومشاكلة ما قبله من آيات.

أما آية غافر فقد ذكر أنه جاء في آيتين متقدمتين إظهار اللفظ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ٥٧، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: ٥٩. فناسب الإظهار، أما آية يونس فالكلام قبلها بني على الإضمار كقوله: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ٥٥. فناسب الآية الإضمار.

يقول: "والجواب أن يقال: إن كل موضع يحتمل الإضمار لقرب الذكر، ويحتمل الإظهار لتعظيم الأمر وذكر أخص الأسماء المقصود بالتقريع والتفنيد فإنه يحمل على ما يلائم الآيات المتقدمة له ليكون قد جمع إلى صحة المعنى واللفظ مشاكلة ما قبله من الآي. فأما قوله في سورة المؤمن ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بعد قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، فإنه محمول على الآيات التي قبله وهي قوله ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ٥٧، وقال بعده: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ثم جاء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، فأظهر ذكر الناس كما أظهر في الآيتين قبلها للمشاكلة والملاءمة.

وليس كذلك الأمر في سورة يونس عليه السلام لأن الكلام هناك بني على الإضمار في الآية المتقدمة، ألا ترى أنه قال تعالى مخبراً عمن يدخل من الظالمين النار: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: ٥٢، فانقضى هذا الكلام واستؤنف خبر عن القوم الذين بعث الله رسوله ﷺ إليهم وقال: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُّ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ وَلِحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾: ٥٣. فأضمر ذكره في قوله: (ويستنبئونك أحق)، ثم قال بعده: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ



أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَضْمِرْ مَا أَضَافَ إِلَيْهِ أَكْثَرُ، ثُمَّ انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ بَعْدَهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فَاقتضى ما بني عليه الكلام في هذه الآية أن يكون ما بعد الشرط بلفظ الإضمار كما كان ما تقدمه<sup>(١)</sup>.

فقد نظر الإسكافي في توجيهه هذا نظرة بعيدة، نجدها ظاهرة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، فقول الإسكافي: "كل موضع يحتمل الإضمار لقرب الذكر، ويحتمل الإظهار لتعظيم الأمر.."، يقصد أن الاسم الظاهر غير ذكر الضمير العائد عليه، فالإظهار يكون لتعظيم الأمر، وهذا كلام جيد، ويدل على معان حسنة، وقد ذكر ذلك الجرجاني في باب الحذف، حين تحدث عن بيت البحتري:

قد طلبنا فلم نجد لك في السُّؤِّ دُدَّ والمجد والمكارم مثلاً<sup>(٢)</sup>  
وكذلك حين ذكر رواية الجاحظ، وقوله على لسان أبي يعقوب: "أو ما علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والتكشيف"، يقول عبد القاهر: (... ولن تبلغ الكناية - يقصد الضمير - مبلغ التصريح أبداً)<sup>(٣)</sup>.

أمر آخر يلحظ في توجيه الخطيب الإسكافي، وهو أمر سار عليه الإسكافي في دراسته، وهو المشاكلة بين أحوال بناء الكلام، أي تشابه مباني الكلم، يقول: "فإنه يحمل على ما يلائم الآيات المتقدمة له ليكون قد جمع إلى صحة المعنى واللفظ مشاكلة ما قبله من الآية.."، وهذه نظرة جيدة في دراسة النصوص.

وقد وافق الكرمانى الإسكافي واختصر توجيهه<sup>(٤)</sup>، كما وافقهما ابن جماعة<sup>(٥)</sup>.

(١) درة التنزيل: ٢٣٢.

(٢) القصيدة في مدح المعتز، انظر: ديوان البحتري: ١٦٥٣/٣..

(٣) دلائل الإعجاز: ١٦٨—١٦٩.

(٤) انظر: البرهان: ٢١٧—٢١٨.

(٥) انظر: كشف المعاني: ٣٢٣.

ويرى ابن الزبير رأي الإسكافي المتقدم، إلا أنه عبّر عنه بعبارة أخرى، فيرى أن المقصود بآية غافر التذكير والتنبيه، ولهذا ”تقدمها قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ٥٧، فمقصود الآية ”تحريك الخلق للاعتبار والتذكير بما نصب سبحانه من الدلائل والآيات، فاقضى ذلك تكرار الظاهر كما في آية التذكير والتنبيه، ثم جيء بعد هذا بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ فنوسب بين هذا وما تقدم لتجيء هذه الآي على منهاج واحد من التذكير، فاقضت الثانية تكرير الظاهر.

وأما آية يونس فإنما تقدمها تأنيس بقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا...﴾: ٥٨، ثم رجع الكلام إلى تعنيف الكفار في تحكيمهم فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ...﴾: ٥٩، ثم قال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: ٦٠، ولم يتقدم تكرير يطلب بمناسبة، فلذلك ورد الكلام على ما هو الأصل من الإتيان بالضمير ليحصل به ربط الكلام، فجاء كل من الموضعين على ما يقتضيه ما قبله رعيًا لتناسب الكلام“<sup>(١)</sup>.

وقد أشار الألوسي إلى أن وقوع المظهر موقع المضمير يراد به مزيد التشنيع بهم وبجأهم<sup>(٢)</sup>، وهو رأي الإسكافي، وقد وافقه ابن عاشور الذي أوضح أن تكرار لفظ الناس مع أنه متقدم ليسجل عليهم الكفران بوجه أصرح، أحدهما عند ذكر التفضل عليهم والآخر عند ذكر عدم الشكر<sup>(٣)</sup>، فلما تكرّر لفظ الناس دل ذلك على التشنيع بهم، وهو مراد الخطيب الإسكافي أيضاً، والله تعالى أعلم.

وبعد البحث في آيات القرآن الكريم وقفت على آيتين لم يتحدث عنهما

(١) ملاك التأويل: ٦٢٥/١.

(٢) انظر: روح المعاني: ٥٥٣/١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير: ١٨٦/٢٤.

علماء المتشابه، الأولى جاءت بالإظهار، وهي في سورة البقرة، يقول تعالى: ﴿الْمُتَرِّ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾، فهذه الآية تقدمها آيات كثيرة فصلت أحكام الطلاق والرضاعة، في ثلاثين آية تقريباً، ثم جاءت هذه الآية على الاستئناف، فكان المناسب الإظهار، طبقاً للقاعدة التي قررها الإسكافي.

والموضع الآخر جاء بالإضمار، وهو في سورة النمل، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٣﴾، وإذا تأملنا السياق المتقدم نجد أنه بني على الإضمار، فقبلها: ﴿بَلِ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهَا عَمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾، وبعد الآية: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ ﴿٦٩﴾، وبعدها: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿٧٠﴾، فناسب الآية الإضمار والله أعلم.

وأختم موضوع الإضمار والإظهار بوقفه بعض علماء المتشابه مع قوله تعالى في الأنبياء: ﴿وَإِذَارَأَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلهَ زُورًا﴾ ﴿٣٦﴾، فأظهر قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وفي الفرقان أضمر الفاعل: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِتَّخِذُواكَ إِلهَ زُورًا﴾ ﴿٤١﴾. يرى الخطيب الإسكافي أن الآية المتقدمة لآية الأنبياء ليس فيها ذكر للكفار، وهي: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ﴿٣٥﴾، فلذلك جاء التصريح والإظهار، أما آية الفرقان فقبلها: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَرُجُونَ نُشُورًا﴾ ﴿٤٠﴾، فلما قرب الذكر جاءت الآية بالإضمار.

يقول: "والجواب أن يقال: إن ما قبل الآية في سورة الأنبياء ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُمُ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، فلم يجر للكفار ذكر في الآية التي قبل هذه - يقصد التصريح بهم - فكان الاختيار بالإظهار، وأما في سورة الفرقان فإن قبل الآية ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَرُجُونَ نُشُورًا﴾ أي: ألم ير الكفار في زمانك القرية التي أمطرت مطر السوء فيحذروا، فلما كان الذكر متقدماً في أقرب



الكلام إليها كان الاختيار الإضمار<sup>(١)</sup>. وقد وافقه الكرمانى الذي نقل كلامه<sup>(٢)</sup>.

أما ابن الزبير فذهب إلى أن آية الأنبياء فيها عموم يقتضى الإظهار، وآية الفرقان فيها تخصيص يقتضى الإضمار، وبيان ذلك أن الآيتين نزلتا في الكفار المعاصرين للرسول ﷺ ولم يتقدم قبل آية الأنبياء أو فيما يليها خطاب يخصهم ويعنيهم، وإنما تقدم قبلها قوله ﴿أَوَلَمْ يَرَأِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾: ٣٠، وهذا يتناول كل الكفار بدون تخصيص، فلهذا تعين إظهار الفاعل في الآية. أما آية الفرقان فقبلها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾: ٣٢، فلما تقدم ذكر الكفار المعاصرين غير متناول غيرهم، واحتيج إلى الإخبار عنهم أتى بضميرهم إذ هو أوجز<sup>(٣)</sup>، وهذا قريب من توجيه الإسكافي.

### ثالثاً: حذف الجملة وذكرها:

هذا هو الجزء الثالث والأخير من بحثنا في هذا الفصل، ومسائل هذا الجزء تعد أقل من مسائل حذف الحروف أو الكلمات، والآيات المتشابهة في هذا القسم لا تخرج عن أحد أمرين، إما حذف جمل اسمية، أو حذف جمل فعلية، وقد وقف علماء التشابه في مصنفاتهم عند إحدى عشرة مسألة، خمس منها في حذف الجملة الاسمية، والباقي في حذف الجملة الفعلية، وسأبدأ أولاً بمسائل حذف الجمل الاسمية.

وأول موضع نتحدث عنه سر ذكر «لا» النافية للجنس مع اسمها وخبرها في سورة البقرة في قول الله تعالى: ﴿فَمِنْ أَضْطَرَّ غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: ١٧٣، فذكر هنا قوله: (فلا إثم عليه)، وفي سورة

(١) درة التنزيل: ١٦٥.

(٢) انظر: البرهان: ٢٦٧.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٨٣٤/٢ — ٨٣٥.

الأنعام حذفت الجملة ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: ١٤٥، وكذلك في سورة النحل: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: ١١٥. الكرمانى يرى أنه "لما قال في الموضع الأول ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ صريحاً، اكتفى في غيره تضميناً، لأن قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يدل على أنه لا إثم عليه"<sup>(١)</sup>. فنظر للآيات على حسب الترتيب في المصحف، وإلا فإن نزول الأنعام والنحل جاء قبل البقرة<sup>(٢)</sup>، كما نلاحظ من إشارته أن الحذف لا يكون إلا بدليل، ولذلك فإن المغفرة والرحمة تعني عدم الإثم، وهذا ملحوظ جيد. وأشار ابن الزبير إلى أن آية البقرة مبنية على الإطناب الجليل فأعقب ذلك بقوله: (فلا إثم عليه) ليناسب ما ذكر، ووقع الاكتفاء في غيرها بما فيها كل ذلك على ما يناسب<sup>(٣)</sup>. وهذا معنى توجيه الكرمانى، وقد وافقهما الأنصارى<sup>(٤)</sup>. ومن الفوائد في هذه المسألة ما ذكره الفخر الرازى رحمه الله في آية البقرة عن سر الجمع بين ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وقوله بعده ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فالغفران إنما يكون عند حصول الإثم، فذكر أن المضطر قد يزيد على تناول الحاجة فهو سبحانه غفور بأن يغفر ذنبه في تناول الزيادة، رحيم حيث أباح في تناول قدر الحاجة<sup>(٥)</sup>.

ومثل الموضع السابق تعليل علماء المتشابه لزيادة ﴿لَا ضَيْرٌ﴾ وحذفها، ففي آية سورة الأعراف جاء الحذف يقول تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾: ١٢٥، وفي سورة الشعراء ورد الذكر يقول تعالى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرٌ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾: ٥٠، فما توجيه ذلك؟

يرى الإسكافى والكرمانى أن قصة موسى عليه السلام في سورة الأعراف

(١) البرهان: ١٣٥.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن: ١٩٣/١—١٩٤.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٢٥١/١.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ٤٢.

(٥) انظر: التفسير الكبير: ١٢/٥—١٣.

مبنية على الاختصار، أما آية الشعراء فالقصة فيها إطناب وتوسع وهذا ملاحظ من قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ نَبُوءُكُمْ فِيْنَا وَلِيدًا وَلِئْتَ فِيْنَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ﴾: ١٨، فوقع في هذه السورة زوائد لم تقع في سورة الأعراف فجاءت الزيادة على أتم وجه، وكما قيل زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

يقول الإسكافي رحمه الله: ”والجواب أن يقال إنهم قابلوا وعيده بما يهونه ويزيل ألمه من انتقالهم إلى ثواب ربهم مع المتحقق من منقلب معذبهم، فجاء في سورة الشعراء وهي التي قصد بها الاقتصاص الأكبر (لا ضير) أي لا ضرر علينا فإن منقلبنا إلى جزاء ربنا فننعم أبداً وتعذب أنت أبداً، فالضرر الذي تحاول إنزاله بنا يكون بك نازلاً وعليك مقيماً، ونحن نألم ساعة لا يعتد بها مع دوام النعيم بعدها فكأنه لم يلحقنا ضرر، وفي سورة الأعراف وقع الاقتصار على قوله ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ وفيه كفاية وإبانة عن هذا المعنى ودلالة نبأ على ما فيها مما بيّن وشرح فيما سواها“ (١).

وقد وافقه الكرمانى وتميّز تعليله بالوضوح والتدقيق فقال: ”لأن ما في هذه السورة — الأعراف — اختصرت فيها هذه القصة، وأشبعَت في الشعراء، وذكر فيها أول أحوال موسى مع فرعون إلى آخرها، فبدأ بقوله: ﴿اللَّهُ نَبُوءُكُمْ فِيْنَا وَلِيدًا﴾، وختم بقوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾، فلهذا وقع فيها زوائد لم تقع في الأعراف“ (٢).

أما ابن الزبير فجعل قوله: ﴿لَا ضَيْرٌ﴾ مقابلاً لما تقدمه من قوله: ﴿وَقَالُوا بَعْزَةُ فِرْعَوْنَ﴾: ٤٤، وهذا لم يحصل في آية الأعراف، يقول: ”قوله: ﴿لَا ضَيْرٌ﴾ مقابل به ما تقدم من قوله: ﴿وَقَالُوا بَعْزَةُ فِرْعَوْنَ﴾، لما اعتقدوا أن له عزة ونسبها إليه، فظنوا أنه يقدر على ما يريد، ويستبد بفعله، ثم لما وضع لهم الحق رجعوا عن اعتقادهم وظنهم وعلموا أن القدرة والعزة لله

(١) درة التنزيل: ١٠٠.

(٢) البرهان: ٢٠١.



سبحانه ، وسلموا لخالقهم ولم يبالوا بفرعون وملئه فقالوا: ﴿لَا ضَيْرٌ﴾ أي: لا ضرر، ولا خوف من فرعون إذ العزة لله وحده، ولما لم يقع من قولهم في الأعراف أولاً مثل الواقع هنا لم يجيئوا في الجواب بما جاءوا هنا<sup>(١)</sup>.

ونظر ابن جماعة لسياق آية الشعراء فذكر أن الوعيد فيها أشد فناسب ذلك مقابلتهم له بعدم التأثير به في مقابلة ما يرجونه عند الله تعالى<sup>(٢)</sup>.

وفي ضوء التوجيهات السابقة أرى أن الاختلاف بين الآيتين يمكن أن يحمل على توجيه الإسكافي، أو ابن الزبير، أو ابن جماعة، فهي توجيهات لا تتزاحم.

ومن المواضع قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: ٢٠، فزاد في هذه الآية قوله ﴿يَنْقُومِ﴾، بينما جاءت الآية في سورة إبراهيم بدونها ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: ٦.

يرى الخطيب الإسكافي رحمه الله أن التصريح بحرف النداء واسم المنادى أبلغ وأخص في التنبيه على المقصود، كما أن فيه دليلاً على الاعتناء بالمنادى وتخصيصه بما يريد أن يقوله له، فأية المائدة جاء فيها ذكر أشرف العطايا من النبوة والملك وإيتاء ما لم يؤت أحداً من العالمين، وهو المن والسلوى، فناسب ذلك مزيد الاعتناء، وتخصيص المنادى يقول تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَ لَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، وذكر أيضاً وجهاً آخر هو أن التصريح جاء

موافقاً لما بعد الآية في أكثر من موضع كقوله: ﴿يَنْقُومِ أَذْكُرُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: ٢١، وقوله: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾: ٢٢، وقوله

بعده: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾: ٢٤، أما آية إبراهيم فلم يكن فيها شيء مما تقدم فناسبها الحذف. فلما ذكر الفرق المعنوي في الوجه الأول،

أبان عن المشاكلة في بناء اللفظ، وتشابه الأحوال، وملاءمة النسق، ولذلك

(١) ملاك التأويل: ٥٧٦/١.

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٨٨.

قال في التعليل الآخر إنه موافق لما قبلها وما بعدها.

ومما قال: ”والجواب أن يقال: إن تسمية المخاطب بندائه مع الإقبال عليه يفيد مبالغة في التنبيه له، فإذا قال القائل: افعل كذا يا فلان، فكأنه قال: أعنيك بخطابي لا غيرك، ممن يصح أن ينصرف الخطاب إليه، ألا ترى أنه إذا عري من النداء صلح لكل مخاطب، فإذا قارن النداء الأمر كان مقصوراً على صاحب الاسم الذي دخله حرف النداء، والمبالغة في التنبيه حقها أن تكون في الأهم الأعم نفعاً..

فلما نبههم على ما خصهم به من الإكرام ليشكروه على هذه النعم العظام، بأن جعل فيهم أنبياء مقيمين بين ظهرانيهم يدعونهم إلى طاعة ربهم.. وجعلهم ملوكاً حيث أغناهم بما أنزله عليهم من المن والسلوى عن الحاجة إلى الناس.. وما ملكهم من المال والعبيد والإماء... فنبهوا بأبلغ الألفاظ ليقوموا بشكر ما عليهم من الإنعام، والآية التي في سورة إبراهيم عليه السلام تنبيه على ما صرف عنهم من البلاء، وليس كالتنبيه على تخويل أشرف العطاء من صرف البلاء..

ولما جعل الخطاب بعد قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ في آيتين، وصدر المخاطبات بـه فيها المخاطبين بمناداتهم فيما حكي من أقوالهم، كقوله تعالى بعده: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، وقوله: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمَ جَبَّارِينَ﴾، وبعده: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ لَنَا نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾، وبعده قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾، كان الاختيار أن يجري مجرى نظائره المتقدمة، والمتأخرة، ولم يكن شيء من ذلك في الآية التي في إبراهيم، فلم يذكر هناك (يا قوم) لهذا<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه الكرمانى الذي اختصر التعليلين، وتابعهما ابن جماعة<sup>(٢)</sup>، أما

(١) درة التنزيل: ٥١-٥٢.

(٢) انظر: البرهان: ١٦٢، وكشف المعاني: ١٤٩.

ابن الزبير فقد اكتفى بذكر التوجيه الأول، وتابعه أبو يحيى الأنصاري<sup>(١)</sup>.  
ومن الآيات المتشابهة في هذا الموضوع قوله تعالى في سورة الأنعام  
﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: ٥، فذكر هنا  
قوله: ﴿بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ﴾، بينما حذفت هذه الجملة في آية سورة الشعراء  
يقول تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: ٦.

يوضح الخطيب الإسكافي سبب ذلك بأن آية الأنعام سابقة للآية الثانية  
وإن كانتا مكيتين، فلما استوفت الأولى اللفظ، بنيت الأخرى على الاختصار،  
يقول رحمه الله: "الآية الأولى وفي المعنى فيها حقه من الألفاظ، لأنها سابقة  
لِلثانية، وإن كانتا مكيتين، فأشبعَت الألفاظ الأولى مستوفية لمعناها. وفي الثانية  
اعتمد على الاختصار لما سبق في الأولى من البيان، واقتصر على (كذبوا)،  
وهذا اللفظ إذا أطلق كان لمن كذب بالحق... ولما بنيت هذه الثانية على  
الاختصار والاكتفاء بالقليل من الكثير جعل فيها بدل سوف السين وحدها،  
وهي مؤدية معناها"<sup>(٢)</sup>.

وقد أخذ عنه هذا التوجيه الإمام الكرمانى، وابن الزبير الغرناطي، وأبو  
يحيى الأنصاري<sup>(٣)</sup>، أما ابن جماعة فذهب إلى أن الاختلاف من التنويع في  
الفصاحة<sup>(٤)</sup>، وهذا توجيه عام يأتي بعد التوجيه الأول.

كما أخذ بتوجيه الإسكافي أيضاً أبو حيان<sup>(٥)</sup>، والألوسي<sup>(٦)</sup>.  
ومما انفرد ابن الزبير بذكره ما جاء في آخر سورة الكهف في قوله  
تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحِيدٌ﴾: ١١٠، بزيادة قوله:

(١) انظر: ملاك التأويل: ٣٨٥/١، وفتح الرحمن: ١٠٠.

(٢) درة التنزيل: ٥٧.

(٣) انظر: البرهان: ١٦٤، وملاك التأويل: ٤١٢/١—٤١٣، وفتح الرحمن: ١١٦.

(٤) انظر: كشف المعاني: ١٥٥.

(٥) انظر: البحر المحيط: ٧٥/٤.

(٦) روح المعاني: ٨٩/٤.



﴿أَنَابَشِّرُمَثَلُكُمْ﴾، وفي سورة الأنبياء بحذف الجملة يقول تعالى:  
﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحِدٌ﴾: ١٠٨.

اعتمد ابن الزبير رحمه الله في توجيه الآيتين على تتبع سياق السورتين  
فسياق سورة الأنبياء فيه بسط لقصصهم مع أقوامهم، وفيه أيضاً آيات تنص  
على أنهم من البشر، فناسب الآية الحذف، أما سورة الكهف فلم تحفل بذلك  
فتطلب سياق الآية الذكر يقول: "لما تقدم في أول سورة الأنبياء إثبات كون  
الرسل عليهم السلام من البشر فيما حكاه تعالى من قول الكفار بعضهم  
لبعض: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، ثم قال تعالى راداً لقولهم مثبتاً كون الرسل  
من البشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾، ثم تتابع في هذه السورة ذكر  
الرسل من البشر في عدة مواضع إفصاحاً وإشارة... لم يحتاج هنا أن يذكر  
كونه عليه السلام من البشر إذ قد توالى ذكر ذلك جملة وتفصيلاً. أما سورة  
الكهف فلم يتقدم فيها هذا فكان مظنة الإعلام بكونه ﷺ من البشر إرغاماً  
لأعدائه، ولما في ذلك من تلاففه تعالى بالحق ورحمته إياهم.. فكون الرسل  
من البشر من أعظم إنعامه سبحانه على الخلق" (١).

ومما جاء في كتاب الله تعالى من المتشابه قوله في سورة لقمان:  
﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾:  
٧، حيث ورد في هذه الآية ذكر قوله: (كأن في أذنيه وقراً)، بينما في سورة  
الجاثية حذفت الجملة، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا  
كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشَّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: ٨.

يرى الخطيب الإسكافي أنه ورد في آية الجاثية ما يغني عن ذكر الجملة  
التي حذفت، وهو قوله تعالى ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾، يقول: "والجواب أن هذا  
الكافر لما أخبر الله عنه في سورة لقمان بأنه يعرض عن القرآن إذا سمعه غير  
منتفع به، حتى كأنه لم يسمعه، ويستمر به هذا الحال، كما يستمر بمن به

(١) ملاك التأويل: ٧٩١/٢ - ٧٩٢.

صمم، وقوله في الجاثية: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يدل على ما دل عليه ﴿كَانَ فِي أُذُنِهِ وَقْرًا﴾، لأن الإصرار عزم لا يتهم معه بإقلاع، فإذا أصر على التصام فهو كمن في أذنيه وقر، فصار أحد اللفظين يغني عن الآخر ويقوم مقامه، ويؤدي من المعنى أدائه، فلذلك لم يجمع بينهما، وكان الموضع الذي ذكر فيه: ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِرًا﴾ أحق بقوله: ﴿كَانَ فِي أُذُنِهِ وَقْرًا﴾، والموضع الذي ذكر فيه الإصرار على ترك الاستماع أغنى عن ذكر كأن في أذنيه وقرًا<sup>(١)</sup>.

أما الكرمانى فذهب إلى أن الآيات نزلت في النضر بن الحارث الذي أخذ يحدث قومه بأحاديث الأكاسرة وأخبار رستم وكتاب كليله ودمنة ليصرفهم عن استماع القرآن، فأيات لقمان فيها مبالغة في ذمه لتركه استماع القرآن، أما آية الجاثية فلم يبالغ فيها هذه المبالغة حيث جاء بعدها ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾: ٩، لأن العلم لا يحصل إلا بالسماع أو ما يقوم مقامه من خط وغيره<sup>(٢)</sup>. فأفادت الزيادة مزيد التشنيع بحاله. وقد وافقه أبو يحيى الأنصاري الذي نقل توجيهه<sup>(٣)</sup>.

ويرى ابن الزبير الغرناطي رحمه الله أنه تقدم آية الجاثية "وصفه بسماع الآيات ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ آفَاقٍ أَثِيمٍ﴾ ٧ ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾: ٧-٨، فلم يكن ليطابقه ذكر الوقر في الأذن، لأنه قد ذكر سماعه للآيات والوقر مانع من السمع، فلم يناسب الإعلام بالسماع ذكر الوقر المانع منه، أما آية لقمان فلم يقع ذكر سماع الآيات، كما تقدم ذكر المشار إليهم بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: ٦، وهذه زيادة مرتكب، فناسبها ذكر زيادة الوقر، مع أنه لم يرد فيها ذكر سماعه الآيات كما ورد في آية الجاثية<sup>(٤)</sup>.

(١) درة التنزيل: ٢٤٨-٢٤٩.

(٢) انظر: البرهان: ٣٠٢-٣٠٣.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٣٢٩.

(٤) ملاك التأويل: ٩٤١/٢-٩٤٢.

وهذا توجيه قريب من توجيه الإسكافي.

وأما ما جاء في كتب التشابه اللفظي في حذف الجملة الفعلية وذكرها فمنه ما ورد في آيات كثيرة من القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾<sup>(١)</sup>، بينما جاءت الآية في سورة آل عمران بحذف جملة: (كانوا)، يقول تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: ١١٧.

ذكر الإمام الكرمانى أن ما جاء في الآية الأولى إنما هو إخبار عن قوم ماتوا وانقرضوا، أما آية آل عمران فهي مثل يضرب: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْ...﴾<sup>(٢)</sup>. وقد وافقه أبو يحيى الأنصاري ونقل توجيهه<sup>(٣)</sup>.

أما ابن الزبير فوافق الكرمانى، إلا أن تعليله للآية الأولى اقتصر على ما ورد في سورة النحل، فقد ذكر أن "آية آل عمران إنما نزلت في المعاصرين للرسول ﷺ الحاضرين عند نزول الآية فورد الإخبار مساوقاً لحالهم في وقت نزول الآية... فلم يكن لدخول «كان» التي تقتضي وقوع الشيء فيما تقدم من الزمان معنى تحرزه، وأما آية النحل فإخبار عن تقدم زمانهم وعظ به غيرهم يبين ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: ٣٣.. فأحرزت كان هذا المعنى ولأمت الموضع، ولم تكن لتلائم آية آل عمران، ولا الوارد في آية آل عمران ليناسب ما قصد في آية النحل"<sup>(٤)</sup>.

جدير بالذكر أن زيادة جملة (كانوا) جاءت في سبعة مواضع في كتاب الله تعالى، أشرت إلى مواطنها في أول المسألة، وقد ذكر الكرمانى رحمه الله منها ما جاء في البقرة والأعراف فقط.

(١) البقرة: ٥٧، الأعراف: ١٦٠، التوبة: ٧٠، النحل: ٣٣، ١١٨ والعنكبوت: ٤٠، والروم: ٩.

(٢) انظر: البرهان: ١٢٣.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٢٧.

(٤) ملاك التأويل: ٣١٣/١.



وأقف في ختام المسألة عند آية في سورة يونس، يحسن بنا أن نتأملها، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: ٤٤، فهذه الآية جاء التعبير فيها بزيادة لفظ (الناس)، والاكتفاء بها عن جملة (كانوا)، وإذا تأملنا الآيات المتقدمة، نلاحظ أن الحديث يتناول المشركين الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ، وهذا في زمن نزول الوحي المطهر ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾: ٤٣. وعلى هذا فتوجيه هذه الآية موافق لما ذكره ابن الزبير في توجيه آية آل عمران، والله تعالى أعلم

ومن مواضع حذف الجملة الفعلية في آية وذكرها في أخرى، قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾: ٩٢، وفي التغابن حذفت جملة ﴿وَاحْذَرُوا﴾، و﴿فَاعْلَمُوا﴾، يقول الله تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾: ١٢، فهل من فرق بين الآيتين؟

هذا الموضع مما انفرد بتوجيهه ابن الزبير الغرناطي رحمه الله فذكر أن الوعيد والتهديد في آية المائدة أشد، فقد تقدم الآية بيان تحريم الخمر والميسر، فناسب الآية الزيادة لتأكيد عظم ذلك الأمر. أما آية التغابن فلم يتقدمها ما يستدعي التأكيد.

يقول رحمه الله: ”والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آية المائدة لما أعقب بها آية الأمر باجتنب الخمر وما ذكر معها، ثم أتبع بعد ذلك بذكر العلة في تحريمها فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ..﴾ الآية إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾: ٩١، فختمت من التهديد بما يشعر بشديد الوعيد، ناسب ذلك قوله تأكيداً لما تقدم من الإشعار بمخوف الجزاء قوله: (واحدروا) وقوله: (فإن توليتم فاعلموا) لما في ذلك من التأكيد

لما تقدم.

أما آية التغابن فلم يرد قبلها ما يستدعي هذا التأكيد ألا ترى الوارد فيها من قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: ١١، فلما لم يرد هنا نهي عن محرم متأكد التحريم بما أتبع النهي من التهديد والتأكيد، لم يرد هنا من الزيادة المحرزة لمعنى التأكيد ما ورد هناك، فجاء كل على ما يجب ويناسب<sup>(١)</sup>.

ومن الآيات المتشابهة ما ورد في سورة هود في قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾: ٨١، وفي سورة الحجر جاء في الآية زيادة جملة (واتبع أدبارهم) يقول تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَأَمْضُ أَوَّحَيْتُ تُؤْمَرُونَ﴾: ٦٥.

ذكر الإمام الكرمانى أن سبب الزيادة في آية الحجر، لأن لوطاً عليه السلام إذا ساقهم وكان من ورائهم علم بنجاتهم، ولا يخفى عليه حالهم<sup>(٢)</sup>. ولم يوضح الفرق بين الآيتين من حيث الزيادة والنقص، وسبب اختصاص كل آية بما اختصت به. وقد وافقه ابن جماعة ونقل نص كلامه<sup>(٣)</sup>.

وهذا التعليل قال به الزمخشري إذ يقول: "فإن قلت: ما معنى أمره باتباع أدبارهم ونهيهم عن الالتفات؟ قلت: قد بعث الله الهلاك على قومه، ونجاه وأهله، إجابة لدعوته عليهم، وخرج مهاجراً فلم يكن له بدٌّ من الاجتهاد في شكر الله، وإدامة ذكره وتفرغ باله لذلك، فأمر بأن يقدمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه، وليكون مطلعاً عليهم وعلى أحوالهم، فلا تفرط منهم التفاتة احتشاماً منه، ولا غيرها من الهفوات في تلك الحال المهولة المحذورة، ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب"<sup>(٤)</sup>.

(١) ملاك التأويل: ٤٠٦/١—٤٠٧.

(٢) انظر: البرهان: ٢٢٦.

(٣) انظر: كشف المعاني: ٢١٣.

(٤) الكشف: ٣٩٥/٢.

وقد ذكر هذا المعنى الفخر الرازي، وأبو حيان، وابن كثير،  
والشوكاني<sup>(١)</sup>، كما ذكره الألوسي، وابن عاشور<sup>(٢)</sup>.

أما ابن الزبير الغرناطي رحمه الله فذهب إلى أن الزيادة في آية الحجر  
لزيادة إخبار بما ليس في سورة هود وسورة الحجر لما تأخرت عن سورة هود  
فإنها وفت بما لم يذكر في سورة هود<sup>(٣)</sup>. واكتفى بذلك.

ومن الآيات التي تحدث عنها علماء المتشابه قوله تعالى في سورة يوسف:  
﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَآتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: ٢٢، فحذف هنا  
جملة (واستوى) التي وردت في آية مشابهة في القصص في خبر موسى عليه  
السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَآتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: ١٤.

تحدث الخطيب الإسكافي عن الخلاف في بلوغ الأشد، والاستواء، وذكر  
أقوالاً كثيرة ليس هذا موضع ذكرها، وخلاصة ما ذكره أن الأشد يكون  
من البلوغ إلى استكمال الأربعين على خلاف بين العلماء<sup>(٤)</sup>.

أما توجيهه لسر الزيادة في أمر موسى دون يوسف عليهما السلام، فيرى  
أن يوسف عليه السلام نُبّه على ما يراد منه قبل بلوغ الأربعين برؤيا الكواكب  
والوحي حين ألقي في الجب، وما ألهمه الله من علم التأويل، أما موسى عليه  
السلام فلم يعلم المراد منه، ولا نُبّه عليه قبل بلوغ الأربعين فناسبه (واستوى)  
ولاسيما على قول الأكثر أن الاستواء بلوغ الأربعين، لأنها كمال العقل.

يقول الخطيب الإسكافي: "والذي يفرق بين المكانين حتى لم ينتظر  
بيوسف عليه السلام الاستواء بعد بلوغ الأشد، هو أن يوسف عليه

---

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٦٠/١٩، والبحر المحيط: ٤٦١/٥، وتفسير ابن كثير: ٥٣٥/٢،  
وفتح القدير: ١٣٥/٣.

(٢) انظر: روح المعاني: ٣١٢/٧، والتحرير والتنوير: ٦٤/١٤.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٦٦٦/٢.

(٤) انظر: لسان العرب: ٢٣٥/٣، ٤١٤/١٤، وانظر: المفردات في غريب القرآن: ٣٧٦، ودرة

التنزيل: ١٣١، والتفسير الكبير: ١٩٨/٢٤—١٩٩، وانظر: فتح القدير: ٤/٣، ١٦٣/١٤.



السلام، أخبر الله تعالى عنه أنه أوحى إليه لما طرحه إخوته في الحب حيث قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: ١٥، وأراه عزّ ذكره الرؤيا التي قصّها على أبيه، وموسى عليه السلام لم يفعل به شيء من ذلك إلى أن بلغ الأشد واستوى، لأنه لم يعلم ما أريد به إلا بعد أن استأجره شعيب عليه السلام<sup>(١)</sup>، ومضت سنو إجارته وسار بأهله، فهناك أتاه ما أتاه من كرامة الله تعالى، وقيل إن ذلك بعد الأربعين فلم ينتظر بيوسف في إيتاء الحكم والعلم والتشريف بالوحي ما انتظر به في موسى<sup>(٢)</sup>.

وقد وافقه على هذا التوجيه بقية علماء المتشابه، وهم الكرمانى<sup>(٣)</sup>، وابن الزبير<sup>(٤)</sup>، وابن جماعة<sup>(٥)</sup>، وأبو يحيى الأنصاري<sup>(٦)</sup>.

ولابن عاشور رحمه الله تعقيب حسن بني على استقراء الأقوال، بدأه بتوضيح معنى الأشد في اللغة، حيث قال: "والحق أن الأشد كمال القوة، لأن أصله جمع شدة بكسر الشين بوزن نعمة وأنعم، وهي اسم هيئة بمعنى القوة، ثم عومل معاملة المفرد، وأن الاستواء كمال البنية كقوله تعالى في وصف الزرع: ﴿فَأَسْتَغْلَظْ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ الفتح: ٢٩، ولهذا أريد لموسى الوصف بالاستواء، ولم يوصف يوسف إلا ببلوغ الأشد خاصة لأن موسى كان رجلاً طوالاً كما في الحديث: «كأنه من رجال شُوءة»، فكان كامل الأعضاء ولذلك كان وكزه القبطي قاضياً على الموكوز<sup>(٧)</sup>.

ومن المتشابه قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: ٨٨،

(١) هذا نص الخطيب الإسكافي، لكن الصحيح الذي أجمع عليه العلماء أن ملاقة موسى بشعيب عليهما السلام غير مسلمة بل باطلة، ولم يرد ما يثبت ذلك، والله أعلم.

(٢) درة التنزيل: ١٣١.

(٣) انظر: البرهان: ٢٢٧.

(٤) انظر: ملاك التأويل: ٦٧٦/٢—٦٧٧.

(٥) انظر: كشف المعاني: ٢١٥.

(٦) انظر: فتح الرحمن: ١٩٩.

(٧) التحرير التنوير: ٨٧/٢٠.

بينما في سورة الشعراء وردت الآية بزيادة جملة ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ﴾، يقول تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ٢١٥.

انفرد ابن الزبير الغرناطي بتوجيه هذا الاختلاف فأوضح أن آية الحجر تقتضي الخصوص فناسبها عدم الزيادة، أما آية الشعراء فتقتضي العموم والإطلاق وهو ما يناسبه الزيادة.

يقول رحمه الله: "لم يتقدم آية الحجر تخصيص بمدعو بل تقدمها خطاباً عليه السلام بالتأنيس والتسلية عمن أعرض والرفق بمن آمن فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يحتج هنا إلى زيادة.

ولما تقدم آية الشعراء قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾: ٢١٤، والإنذار يستصحب التخويف والاستعلاء على من يخاطب به، أتبع ذلك تعالى تلطفاً وإنعاماً على من آمن من عشيرته عليه الصلاة والسلام وغيره، بقوله: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ف قيل هنا (لمن اتبعك) ليكون أنص في تعميم المؤمنين مطلقاً من العشيرة وغيرهم..<sup>(١)</sup>.

وأختم هذا الفصل بتوجيه علماء المتشابه لقوله تعالى في سورة التغابن: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾: ٩، وقوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾: ١١، فالآية الأولى ذكر فيها جملة ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾، وحذفت من الآية الثانية، فما السر في ذلك، وهل من فرق بين الموضعين؟  
بنى علماء المتشابه الاختلاف بين الآيتين على ما تقدمهما من آيات، فالخطيب الإسكافي يرى أن آية التغابن جاءت بعد قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشِّرْهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾: ٦، وهذه الآيات إخبار عن الكفار أن عليهم سيئات تحتاج إلى تكفير إذا آمنوا بالله، أما آية الطلاق فلم يتقدمها مثل ذلك فلم تحتج إلى الزيادة.

(١) ملاك التأويل: ٧٢٩/٢ - ٧٣٠.

يقول: "والجواب أن الأولى جاءت بعد قوله مخبراً عن الكفار: ﴿فَقَالُوا أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾<sup>(١)</sup> زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾: ٧، فهذه سيئات تحتاج إلى تكفير إذا آمن بالله بعدها فقال: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ في مستقبل عمره يمسح عنه ما سبق من كفره ثم يوجب له جنات، والآية الثانية لم يتقدمها خبر عن كفار بسيئات فيوعدوا بتكفيرها إذا أقلعوا عنها وتابوا منها، وعملوا الصالحات مكانها، وكان مضموناً تكفير السيئات عند الإيمان وعمل الصالحات، فلم يحتج إلى ذكره كما كان الأمر في غيره"<sup>(٢)</sup>.

وقد وافقه الكرمانى<sup>(٣)</sup>، وابن الزبير الغرناطي<sup>(٤)</sup>، وابن جماعة<sup>(٥)</sup>، وأبو يحيى الأنصارى<sup>(٥)</sup>، رحمهم الله تعالى رحمة واسعة.

(١) درة التنزيل: ٢٨٠.

(٢) انظر: البرهان: ٣٤٧.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ١٠٨٦/٢—١٠٨٧.

(٤) انظر: كشف المعاني: ٣٥٩.

(٥) انظر: فتح الرحمن: ٤٢٥.



## الفصل الثاني

الاختلاف بين الآيات المتشابهة  
في التقديم والتأخير



## الفصل الثاني

### الاختلاف بين الآيات المتشابهة

#### في التقديم والتأخير

يعدُّ موضوع التقديم والتأخير من أهم مباحث علم المعاني، إذ تظهر فيه بلاغة الأساليب، وروعة العبارة، وتعرف به القدرات والمواهب، كما يدل على تمكن البليغ في الفصاحة وحسن تصريف الكلام. يقول الزركشي: "هو أحد أساليب البلاغة، فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكته في الكلام، وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع، وأعذب مذاق"<sup>(١)</sup>. وقد أولاه علماء البلاغة عناية فائقة بوصفه أحد أصول علم المعاني الذي به تعرف أحوال اللفظ العربي التي يطابق بها مقتضى الحال، وجهد الإمام عبدالقاهر الجرجاني في ذلك معلوم مشاهد، فهو رحمه الله يعد أول من تناول هذا الموضوع بشكل موسّع، فأفاض رحمه الله الحديث عنه، ووضع مجموعة من القواعد والأسس تبين أسرار التقديم والتأخير<sup>(٢)</sup>، يقول متحدثاً عن أهميته: (هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتّر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدّم فيه شيء، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان)<sup>(٣)</sup>.

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢٣٣/٣.

(٢) انظر: أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم، للدكتور: محمود شيخون: ١٢٥.

(٣) دلائل الإعجاز: ١٠٦.



بعد الجرجاني اتسعت دائرة البحث والتصنيف، واندرج هذا الموضوع تحت عدة مباحث عند البلاغيين المتأخرين، فجاء في (تقديم المسند إليه وتأخير)، و(تقديم المسند وتأخير)، و(تقديم متعلقات الفعل)<sup>(١)</sup>، وقد جمع الدكتور المطعني مناهج العلماء من بلاغيين ومفسرين في دراسة التقديم والتأخير في كتابه خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، وبحثه في ذلك قيم وجدير بالعناية<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان هذا هو حال علماء البلاغة فما حال علماء التشابه مع التقديم والتأخير؟ والجواب عن ذلك أن لهم مشاركة جيدة في هذا المجال ولا سيما أن الآيات المتشابهة من حيث التقديم والتأخير لها وقع عند القراء، والمهتمين بحفظ كتاب الله تعالى فيكثر فيها السؤال لماذا تقدمت هذه اللفظة في هذه الآية، ولم تتقدم في الآية الأخرى المشابهة، وكذا تقديم بعض المعطوفات على بعض وهكذا...؟

من هنا جاء بحث علماء التشابه من جوانب مختلفة ففي مسائلهم التي طرقتها حديث عن تقديم المسند، وكذلك عن تقديم فقرات الجملة بعضها على بعض، كتقديم المعطوفات، ونحو ذلك، كما تحدثوا عن تقديم المتعلقات في الجملة بعضها على بعض، فما دونوه في مصنفاتهم مقتصر على ما جاء في الآيات المتشابهة، ومن هنا كان حديثهم مرتبطاً بما يمليه عليهم النص القرآني، وحين نستعرض المسائل التي بحثوها، وما بينوه من أقوال وتوجيهات، نجد بحثاً رائعاً، تجلى فيه إبداعهم، فكان لهم تأملات لا يصنعها إلا عالم حاذق وصاحب نظر دقيق، ولذلك تميز حديثهم في هذا الفصل، بما نرى من إبداع

---

(١) انظر: مفتاح العلوم: ١٩٤—٢٠٤، ٢١٩—٢٢٣، ٢٣١، والإيضاح: ٥٠/٢—٨٠، ١٣٥—١٧٢، وخصائص التراكيب: ١٧٠—١٨٦، ٢٤٧—٢٥١، ٢٩١—٢٩٨، والبلاغة فنونها وأفنانها: ٢٠٧—٢٤٣.

(٢) انظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ٧٩/٢—٢٠١.

في عرض المسائل، واستخراج دقيق لأسرار الاختلاف بين الآيات التي توضح منهج القرآن الكريم في التقديم والتأخير في ضوء الآيات المتشابهة.

وسيكون حديثنا عن الآيات المتشابهة في هذا الفصل حسب ترتيب الآيات في المصحف، فنبدأ أولاً بما جاء في سورة البقرة، ثم التي تليها وهكذا..، وقد بلغ عدد المواضع في كتاب الله خمسة وعشرين موضعاً تحدث عنها علماء المتشابه بالتفصيل.

وأول موضع نطالعه في كتب أولئك العلماء الفضلاء توجيههم لآيتين في سورة البقرة، الأولى قوله: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: ٤٨، فقدمت الشفاعة على العدل في هذه الآية، وفي موضع آخر قدم العدل على الشفاعة، يقول الله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾: ١٢٣.

الآيتان موضوعهما واحد، والخطاب لبني إسرائيل، فقبلهما ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، كما أن الآيتين تضمنتا الأمر بالاستعداد ليوم الدين، الذي لا شفاعة فيه لأهل الكفر ولا فدية، والشفاعة: هي السعي والوساطة في حصول نفع أو دفع ضرر، والعدل: هو الفدية<sup>(١)</sup>.

وهذا الموضع من المواضع التي تحدث عنها كثير من العلماء ولهم أقوال في مسألة رجوع الضمير في ﴿مِنْهَا﴾، و﴿تَنْفَعُهَا﴾ ولا سيما المفسرين الذين تحدثوا عن عود الضمير، ولم يتعرض أحد منهم للتقديم والتأخير في هذا الموضع، وشغلهم عن ذلك مرجع الضمير وتقرير المعنى<sup>(٢)</sup>، وأكتفي بما يهمننا

(١) انظر: التفسير الكبير: ٤٨/٣، وروح المعاني: ٢٥٣/١، والتحرير والتنوير: ٤٨٦/١.

(٢) انظر: الكشف: ٢٧٩/١، والتفسير الكبير: ٥٢/٣، والبحر المحيط: ١٩٠/١—١٩١، وتفسير

النسفي: ٣٧/١، وتفسير أبي السعود: ٩٩/١، والبرهان في علوم القرآن: ١٢٤/١—١٢٥،

وكشف المعاني: ٩٤—٩٥.

وهو سر تقديم الشفاعة أولاً وتأخيرها ثانياً، وتأخير العدل أولاً وتقديمه ثانياً. اقتضب الخطيب الإسكافي رحمه الله القول اقتضاباً، وجاء توجيهه للمسألة توجيهاً عاماً، فلم يتعرض فيه للتقديم في موضع والتأخير في الآخر، وكلامه كلام عام يقوم على توضيح معنى الآيتين دون بيان سر التقديم والتأخير فيهما<sup>(١)</sup>.

أما الإمام الكرمانى فذكر تعليلاً حسناً لذلك فقال: "إنما قدم الشفاعة قطعاً لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم، وأن الأصنام شفعاءهم عند الله. وأخرها في الآية الأخرى، لأن التقدير في الآيتين معاً: لا تقبل منها شفاعة فتنبعها تلك الشفاعة، لأن النفع بعد القبول. وقدم العدل في الآية الأخرى ليكون لفظ القبول مقدماً فيها"<sup>(٢)</sup>، وتوجيهه لتقديم الشفاعة جيد، كما أن في تعليله لتقديم العدل وتأخير الشفاعة في الآية الثانية ملحظاً دقيقاً، وهو أن القبول الذي جاء في قوله ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾ هو مبنى العدل — الفداء — والشفاعة، وهو المعول عليه، فإذا قبلت الشفاعة انتفعت، وإذا لم تقبل لم تنتفع، أسأل المولى سبحانه أن يرحمنا برحمته، وأن يجعلنا من الآمنين يوم الفرع الأكبر.

وقد وافقه الزركشي ورد القول إلى أحد شيوخه، فذكر أن المراد بتقديم الشفاعة قطع رجائهم رداً لما ذكره بنو إسرائيل من أنهم أبناء الأنبياء، وسيشفعون لهم يوم القيامة، ففي الآية الأولى نفى عنهم نفع الغير بكل وجه من وجوه النفع، وفي الثانية نفى عنهم نفع أنفسهم مقدماً الفداء الذي يدفعه المجرم عن نفسه في الغالب، وأخر الشفاعة لأنها تكون من غيرهم<sup>(٣)</sup>.

ويرى ابن الزبير رأياً آخر اعتمد فيه على السياق المتقدم للآيتين، فذكر

---

(١) انظر: درة التنزيل: ٦.

(٢) البرهان: ١٢١.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن: ١٢٦—١٢٧، وانظر: خصائص التعبير القرآني للمطعني: ١٩٢/٢.



أنه تقدم الآية الأولى قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾: ٤٤، فصور لهم الوهم أن أمرهم الناس بالبر أعظم شفيع لهم ينجيهم من العذاب، فقدّم الشفاعة لنفي المعنى الذي دار في خلدهم، أما الآية الأخرى فلم يتقدمها ما يستدعي هذا، فقدّم الفئة التي هي أولى وأحرى في كمال التخلص على ما عهد في الدنيا لو أمكنت<sup>(١)</sup>.

وقد نقل محقق كتاب البرهان توجيه ابن الزبير دون أن ينسبه إليه، وزاد في توضيح الآية الثانية بقوله: ”أما الآية الأخرى، فقد تقدمها تسفيه هؤلاء الذين قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، فناسب هذه الآية أن يجري الأمر على ما هو معهود في الدنيا، وهو أن الإنسان إذا ما عاين الهلاك افتدى نفسه بكل ما يملك فتقدم فيها ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾“<sup>(٢)</sup>. وللأنصاري توجيه آخر موجز قال فيه: ”قدّم الشفاعة للإشارة إلى من ميله إلى حب نفسه أشد منه إلى حب المال، والثانية لمن هو بعكس ذلك“<sup>(٣)</sup>. وقد أخذنا هذا التوجيه من الفخر الرازي، الذي يقول: ”إن كان ميله إلى حب المال أشد من ميله إلى علو النفس، فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية، ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة، ففائدة تغيير الترتيب الإشارة إلى هذين الصنفين“<sup>(٤)</sup>.

أما ابن عاشور فله تعليل مرجوح فيرى أن التقديم والتأخير ”هو تفنن والتفنن في الكلام تنتفي به سامة الإعادة مع حصول المقصود من التكرير“<sup>(٥)</sup>. وهذه التوجيهات كلها مقبولة، فكلها أسرار، ويمكن أن نعلل بها الآيتين.

(١) انظر: ملاك التأويل: ١٩٦/١—١٩٧.

(٢) حاشية كتاب البرهان: ١٢٢.

(٣) فتح الرحمن: ٢٦.

(٤) التفسير الكبير: ٥١/٣.

(٥) التحرير والتنوير: ٦٩٨/١.

ومن المواضع ما جاء في سورة البقرة أيضاً، في قوله تعالى:  
﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: ٥٨،  
فقدّم الدخول على القول، وفي سورة الأعراف قدّم القول على الدخول،  
يقول تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ﴾: ١٦١.

يرى الإسكافي أن التقديم والتأخير في هذا الموضع راجع إلى أن القرآن  
الكريم إنما حكى المعنى دون اللفظ، فلا غرابة، واكتفى بذلك.

يقول: "والجواب عن ذلك مما يحتاج إليه في مواضع من القرآن في هذه  
الآية التي قصدنا الفرق بين مختلفاتها، وهو أن ما أخبر الله تعالى به من قصة  
موسى عليه السلام وبني إسرائيل وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه،  
وما حكاه من قوله عز وجل لهم، لم يقصد إلى حكاية الألفاظ بأعيانها وإنما  
قصد إلى اقتصاص معانيها، وكيف لا يكون كذلك واللغة التي خوطبوا بها  
غير العربية، فإذا حكاية اللفظ زائلة، وتبقى حكاية المعنى، ومن قصد حكاية  
المعنى كان مخيراً بأن يؤديه بأي لفظ أراد، وكيف شاء من تقديم وتأخير،  
بحرف لا يدل على ترتيب كالواو، ولو قصد حكاية اللفظ ثم وقع في المحكي  
اختلاف لم يجز...".<sup>(١)</sup>

وأوضح الكرمانى أن السر في تقديم الدخول في آية البقرة، هو أنه تقدم  
في أول الآية الدخول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، فبيّن كيفية الدخول<sup>(٢)</sup>،  
واكتفى بذلك، ووافقه أبو يحيى الأنصاري الذي نقل توجيهه<sup>(٣)</sup>.

وقد وصف الزمخشري التقديم والتأخير في هذا الموضع بعدم التناقض،  
وحجته في ذلك أن المأمور به هو الجمع بين الأمرين: القول بالخطية،  
والدخول ساجدين من غير اعتبار الترتيب بينهما، سواء قدموا الخطية، أو

(١) درة التنزيل: ٨.

(٢) انظر: البرهان: ١٢٣.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٢٨.

أخروها فهم جامعون في الإيجاد بينهما، يقول: ”فإن قلت: كيف اختلفت العبارة هاهنا وفي سورة البقرة؟ قلت: لا بأس باختلاف العبارتين، إذا لم يكن هناك تناقض، ولا تناقض بين قوله: ﴿أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا﴾، وبين قوله: ﴿فَكُلُوا﴾، لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها، فقد جمعوا في الوجود بين سكنها والأكل منها، وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو أخروها فهم جامعون في الإيجاد بينهما“<sup>(١)</sup>. وقد وافقه أبو حيان، وأبو السعود، ونقلنا تعليله<sup>(٢)</sup>.

والذي يظهر أن التوجيهات السابقة، وإن كانت مقبولة في بيان وجوه الاختلاف بين الآيتين إلا أنها ليست كافية، لمن يبحث عن أسرار كتاب الله تعالى، ويكشف عن كل ظاهرة من ظواهر التعبير فيه، فهي تعد من قبيل التوجيه العام الخالي من التحليل الموضوعي الدقيق.

والذي أراه أقرب والله أعلم ما ذكره المطعني في توجيه الآيتين يقول: ”المعروف أن السجود قد يكون شكراً على النعم، والاستغفار طلباً للعفو من الذنوب، والقوم في الموضعين مُنعم عليهم ومخطئون، فتقديم السجود في البقرة على الاستغفار تغليب لجانب الشكر على جانب الاستغفار، وهذا التغليب مبعثه أمران: الأول أن الله حثهم صراحة على الشكر في معرض الحديث، الثاني: أن نعمة الله عليهم في البقرة أظهر، وأكمل منها في الأعراف، وذلك لاشتمال الحديث في البقرة على بعثهم بعد الموت بالصاعقة، وهذه نعمة جليلة، كما وصف الأكل بالرغد ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، وقد فسر الرغد بالسعة، ولم يأت هذا الوصف في الأعراف“<sup>(٣)</sup>.

ومن الآيات المتشابهة في موضوع التقديم والتأخير قوله تعالى في سورة

(١) الكشف: ١٢٤/٢-١٢٥.

(٢) انظر: البحر المحيط: ٤٠٩/٤، وتفسير أبي السعود: ٢٨٣/٣.

(٣) خصائص التعبير القرآني: ١٥١/٢.



البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّةِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: ٦٢، ففي هذه ورد تقديم النصارى على الصابئين، وجاء في سورة الحج تقديم الصابئين على النصارى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّبِيَّةِينَ وَالنَّصَارَى﴾: ١٧، وكذلك في المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّبِيَّةُونَ وَالنَّصَارَى﴾: ٦٩، فهل من فرق بين تلك الآيات؟ سؤال يجيب عنه علماء المتشابه.

ذكر الخطيب الإسكافي أن الترتيب بين هذه الفرق يعود لأحد أمرين، أحدهما: ترتيب بحسب الكتب السماوية المنزلة على كل أمة، والثاني: ترتيب بحسب الأزمنة لا بحسب الكتب. فأية البقرة الترتيب فيها بحسب الكتب، فقدّم الذين آمنوا بما أنزل على إبراهيم عليه السلام، لأنهم سابقون، ثم الذين هادوا، لأن التوراة سابقة على الإنجيل، ثم النصارى، لأنهم أهل الإنجيل، ثم أتى بالصابئين، لأنهم لا كتاب لهم.

أما آية المائدة والحج فالترتيب فيهما بحسب الزمان، فقدّم الصابئين على النصارى لأنهم أسبق منهم زمناً، وهذا أمر واضح في آية الحج لمجيء (الصابئين) بالنصب، أما آية المائدة فقدّم لفظاً ونوى تأخيرها معنى فرفع على الاستئناف.

يقول رحمه الله عن آية البقرة: ”هذا ترتيب على حسب ما ترتب تنزيل كتبه، فصحف إبراهيم عليه السلام قبل التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، والتوراة قبل الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، فرتبهم عزّ وجلّ في هذه الآية على ما رتبهم عليه في بعثة الرسالة، ثم أتى بذكر الصابئين وهم الذين لا يثبتون على دين وينتقلون من ملة إلى ملة، ولا كتاب لهم كما للطائفتين اللتين ذكرهما الله تعالى في قوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ الأنعام: ١٥٦... وترتيبهم في سورة المائدة فعلى ترتيب الأزمنة؛ لأن الصابئين وإن كانوا متأخرين على

النصارى بأنهم لا كتاب لهم، فإنهم متقدمون عليهم بكونهم قبلهم، لأنهم كانوا قبل عيسى عليه السلام، فرفع (الصائبون) ونوى به التأخير عن مكانه.. وإنما قدّم في اللفظ وآخر في النية، لأن التقدم الحقيقي التقدّم بكتبه المنزلة على الأنبياء عليهم السلام... وأما الترتيب الثالث في سورة الحج، فترتيب الأزمنة الذي لا نية للتأخير معه، لأنه لم يقصد في هذا المكان أهل الكتب إذ كان أكثر من ذكر ممن لا كتب لهم وهم الصائبون والمجوس والذين أشركوا عبدة الأوثان..“<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه كل من الكرمانى، وابن الزبير، وابن جماعة، والأنصارى<sup>(٢)</sup>.  
وتوجيه الخطيب الإسكافى لآية المائدة يرشدنا لتحليل سعد الدين التفتازانى الجيد، حين تناول بيت ضابئ البرجمي:

فَمَنْ يَكُ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ      فَإِنِّي وَقْيَارٌ بِهَا لَغْرِيبٌ

فالشاعر لم يقل بعد الحذف: فَإِنِّي لَغْرِيبٌ بِهَا وَقْيَارٌ، وإنما قال: فَإِنِّي وَقْيَارٌ بِهَا لَغْرِيبٌ، فقدّم قياراً على بقية الجملة، وأقحمه بين جزأيهما، لقصد التسوية بينهما في التحسر على الاغتراب، يقول في بيان هذا السر: ”والسر في تقديم قيار على خبر إن قصد التسوية بينهما في التحسر على الاغتراب، كأنه أثر في غير ذوي العقول أيضاً، بيان ذلك، أنه لو قيل: إِنِّي لَغْرِيبٌ وَقْيَارٌ، لجاز أن يتوهم أن له مزية على قيار في التأثير بالغرابة، لأن ثبوت الحكم أولاً أقوى، فقدّمه ليتأتى الإخبار عنهما دفعة بحسب الظاهر تنبيهاً على أن قياراً مع أنه ليس من ذوي العقول قد تساوى العقلاء في استحقاقه الإخبار عنه بالاغتراب قصداً إلى التحسر“<sup>(٣)</sup>.

(١) درة التنزيل: ١٠-١١.

(٢) انظر البرهان: ١٢٧، وملاك التأويل: ٢١٩/١-٢٢٠، وكشف المعاني: ١٠٠-١٠١، وفتح الرحمن: ٣٠.

(٣) المطول: ١٤٠، وانظر: خصائص التراكيب للأستاذ الدكتور محمد أبو موسى: ٢١٤-٢١٥.

ثم ربط هذا الكلام الجيد بآية المائدة، مؤيداً رأي الزمخشري، يقول: ”وهذا الوجه هو الذي قطع به صاحب الكشف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾ الآية وقال: الصابئون مبتدأ، وهو مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة (إن الذين آمنوا... إلى آخره) لا محل لها من الإعراب، وفائدة تقديم «الصابئون» التنبيه على أنهم مع كونهم أبين المذكورين ضلالاً وأشدّهم غياً يثاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح فما الظن بغيرهم“<sup>(١)</sup>.

هذا وللزمخشري رأي آخر في المراد بالصابئين، فيرى أن المراد بهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة، وأوضح الزمخشري أن المراد بـ(الذين آمنوا) في الآيات هم المنافقون فهم وإن كانوا كفاراً في الباطن، فإن إطلاق وصف الإيمان عليهم في الظاهر، فهذا جعلهم في المرتبة الأولى من الذكر لا باعتبار أنفسهم وإنما باعتبار شرف الإيمان نفسه<sup>(٢)</sup>.

وقد وافقه أبو السعود<sup>(٣)</sup>، وأبو حيان<sup>(٤)</sup>، ونقلوا توجيهه.

أما الإسكافي فكما سبق أن ذكرت يرى أنهم مؤمنو الأمم السابقة. وقد جمع الحافظ ابن كثير رحمه الله أقوال العلماء في معنى الصابئين، فلما انتهى من ذلك قال: ”وأظهر الأقوال والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه، أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه، ولهذا كان المشركون ينزولون من أسلم بالصابيء، أي: أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك“<sup>(٥)</sup>.

(١) المطول: ١٤٠، وانظر: الكشف: ٦٣١/١.

(٢) انظر: الكشف: ٦٣٢/١، ٢٨٥.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود: ٦٢/٣.

(٤) انظر: البحر المحيط: ٢٤١/١.

(٥) تفسير القرآن العظيم: ١٠٠/١.



وقد نظر الدكتور المطعني في قول الإسكافي وقول الزمخشري ولاحظ أن الاختلاف في أمرين: في معنى الصابئين، والأمر الثاني في نوع الحكم الذي حكم به على هذه الفرق، وقد بين رأي الإسكافي والزمخشري في لفظ الصابئين الذي سبق بيانه، أما نوع الحكم المحكوم به وهو خبر (إن) فهو مختلف من موضع لآخر، ففي البقرة ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ومثله في سورة المائدة: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وقد تقدم الخبرين ما يمهد له وهو قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، ففي الآيتين دعوة إلى الإيمان وهذا لا يكون إلا في حال الحياة، فقدم النصارى على الصابئين في البقرة، إذ لا يبعد أن يكون المراد بهم صابئي النصارى، وقدم الصابئون في المائدة لفظاً على نية التأخير، ليشمل صابئي اليهود والنصارى، وفي تقديم اليهود والنصارى عليهم، لأنهم أفضل إذ هم أهل كتاب. وذكر أن رأي الزمخشري أقوى من رأي الإسكافي، بدليل نظمهم مع اليهود والنصارى والصابئين وغيرهم في سلك واحد، وأنهم جميعاً مطالبون بتحقيق الإيمان لعريهم عنه.

أما الخبر في آية الحج فهو مختلف إذ هو ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، فالحال هنا مختلف عن الآيتين في سورتي البقرة والمائدة، فالفصل يكون يوم القيامة، فجاء النظم بأسلوب مختلف<sup>(١)</sup>.

وفي الختام: كأن القرآن الكريم نظر في سرد هذه الفرق إلى السبق الزمني، فاليهود وصابئوهم سابقون زمنياً على النصارى، لذلك قدم اليهود عاطفاً عليهم صابئهم، ثم ذكر النصارى، ولم يحتج لذكر صابئي النصارى اكتفاء بذكر صابئي اليهود، كما لم يذكر في آية البقرة صابئي اليهود اكتفاء بذكر صابئي النصارى، وكانت آية المائدة وسطاً بين التعبيرين، وتلك إذاً قسمة عادلة، أما تأخير المجوس والذين أشركوا عن هذه الفرق، فلأنهم

(١) انظر: خصائص التعبير القرآني: ١٥٩/٢ - ١٦١.

ليسوا أهل كتاب<sup>(١)</sup>.

ومن المواضع التي انفرد بها ابن الزبير عن علماء المشابه توجيهه لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا أَوِّثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾: ١٢٩، فقدّم تعليم الكتاب والحكمة على التزكية، وفي آل عمران والجمعة، عكس الترتيب فقدّمت التزكية على تعليم الكتاب والحكمة: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾<sup>(٢)</sup>، فقد ذكر رحمه الله أن الدعوة في آية البقرة كانت قبل وجود الضلال في ذرية إبراهيم عليه السلام، والآية دعاء لتلك الذرية، فجاء ذكر التعليم أولاً لأنه السبب في حصول التزكية، أما آية آل عمران والجمعة، فالمقصود بهما ذكر امتنان المولى سبحانه عليهم بالهداية، وإجابة دعوة إبراهيم الخليل، فأخر ذكر تعليم الكتاب ليكون بعده ذكر الضلال الذي أنقذهم منه، وهو قوله في الآيتين: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

يقول: ”لما كانت دعوة إبراهيم عليه السلام قبل وجود الضلال في ذريته المدعو لها، وإنما تحصل لهم تزكيتهم ورفع ضلالهم المتوقع وقوعه بما يمنحونه من التعليم، وما يتلى عليهم من الآيات، لأن ذلك هو السبب في حصول التزكية والسلامة من الضلال، إذا وفقوا للانقياد له، ألا ترى أن ارتباط التزكية بأعمال الطاعات قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ التوبة: ١٠٣.. فتأخر ذكر التزكية المسببة عما به تحصل، وذلك بعد هدايتهم للإيمان فجاء على الترتيب من بناء المسبب على سببه.

ولما كان مقصود الآيتين الآخرين إنما هو ذكر الامتنان عليهم بهدايتهم بعد الضلال الذي كان قد وجد منهم والتعريف بإجابة دعوة إبراهيم عليه السلام أخر ذكر تعليمهم الكتاب والحكمة المزيلين لضلالهم ليكون تلوه

(١) انظر: المرجع السابق: ١٦١/٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٤، والجمعة: ٢.

ذكر الضلال الذي أنقذهم الله منه بما علمهم وأعطاهم وامتن عليهم وهو ثاني السببين فكان الكلام في قوة ما لو قيل: ويعلمهم ما به زوال ضلالهم، وأخر في هاتين الآيتين ذكر السبب ليوصل بمسببه الأكيد هنا.. ولو أخرج التزكية لما أحرز هذا المعنى المقصود هنا“<sup>(١)</sup>.

وقد أخذ المطعني قول ابن الزبير دون أن يشير إليه، وجاء بمعنى كلامه<sup>(٢)</sup>. ومما انفرد به ابن الزبير عن باقي علماء المتشابه أيضاً توجيهه لقوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِنْ تَبْذُؤْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْتُخَفُّوهُ يَحْسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾: ٢٨٤، ففي هذه الآية جاء تقديم الظاهر على الباطن، وفي آية آل عمران جاءت الآية على عكس ذلك يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْتُبْذُؤْهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾: ٢٩.

فقد أوضح رحمه الله أن من صفة المنافقين إبداء الشيء وإخفاء خلافه، وقد عرفوا بذلك عن غيرهم، يقول الله تعالى في شأنهم: ﴿يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ﴾ آل عمران: ١٥٤، كما أخبر سبحانه أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ النساء: ١٣٨، ١٣٩ بعد ذلك قال: ”وقد تقدم آية آل عمران قوله تعالى ناهياً وزاجراً: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ٢٨... فلما نهاهم عن المرتكب الذي به امتياز المنافقين، كان أكد شيء وأهمه إعلامهم بأنه سبحانه يعلم ما يخفون كعلمه ما يبذون.. فهذا وجه تقديم الإخفاء في آية آل عمران.

أما آية البقرة فلم يجر فيها ذكر النفاق ولا صفة أهله، وإنما الخطاب فيها، وفي آية الدين قبلها، وفيما أعقبت به بعد للمؤمنين فيما يخصهم من الأحكام، فورد فيها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَبْذُؤْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْتُخَفُّوهُ يَحْسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾

(١) ملاك التأويل: ٢٣٦/١—٢٣٧.

(٢) انظر: خصائص التعبير القرآني: ١٧٤/٢—١٧٥.



مقدماً فيها بادي أعمالهم بناء على سلامة بواطنهم وتنزههم من صفة المنافقين<sup>(١)</sup>.

ومن مواضع التقديم والتأخير في التشابه ما جاء في سورة البقرة أيضاً، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِزْيِرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾: ١٧٣، وفي غيرها من السور تقدم قوله: (لغير الله) على الضمير المجرور بالباء، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ﴾<sup>(٢)</sup>، فما سر اختصاص آية البقرة دون غيرها؟

أوضح الخطيب الإسكافي أن تقدم الضمير المجرور بالباء في آية البقرة هو الأصل، وبيان ذلك أن الضمير في (به) مجرور بالباء، وقوله: (لغير الله) معدى باللام، فما جرّ بالباء حقه التقديم على ما عداه، أما تقديم ﴿لغيرِ اللَّهِ﴾ في الآيات الثلاث فلأنه الأهم، فقدم المستنكر وهو الذبح لغير الله وتقدمه أولى.

يقول: "والجواب أن يقال: أما الموضع الأول — يقصد آية البقرة — فإنه جاء على الأصل الذي يقتضيه حكم اللفظ، لأن الباء التي يتعدى بها الفعل في هذا المكان من جملة الباءات التي تجيء كحرف من نفس الفعل، تقول: ذهبت بزيد، ثم تقول: أذهبت زيداً، فتصير الباء كالهزمة الزائدة في بنية الفعل، فيجب لذلك أن تكون أحق بالتقديم، وما يتعدى إليه الفعل باللام لا يترك، لأنه بمنزلة الحرف من نفس الفعل، فصار قوله: ﴿أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾ بمنزلة ذبح لغير الله مسمى عليه اسم بعض الآلهة، فلما كان هذا الأصل في الأول جرت الآية الأولى عليه.

ولما كان الإهلال بالمذبح لا يستنكر إلا إذا كان لغير الله، كان ما عدا

(١) ملاك التأويل: ٢٨٠/١ — ٢٨٢.

(٢) سورة المائدة: ٣، والأنعام: ١٤٥ مع الاختلاف في بدء العبارة ﴿أَوْفَسَقَّا أَهْلَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ﴾، والنحل: ١١٥.

الأصل بتقديم المستنكر أحق وأولى، ألا ترى أنهم يقدمون المفعول إذا كانوا ببيانه أعني<sup>(١)</sup>... فالعناية بتقديم ما يزيل الشك عنه أتم، وهو بالتقديم أحق، فذلك قوله: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾، مع قوله: ﴿وَمَا أَهْلَ لغيرِ اللَّهِ﴾ في الآي الثلاث<sup>(٢)</sup>.

وقد وافقه الإمام الكرمانى الذي قام باختصار التوجيه، يقول: "...لأن تقديم الباء الأصل، فإنه يجري مجرى الألف — يقصد همزة التعدية — والتشديد في التعدي، فكان كحرف من الفعل، فكان الموضع الأول أولى بما هو الأصل، ليعلم ما يقتضيه اللفظ، ثم قدم فيما سواه ما هو المستنكر وهو الذبح لغير الله، وتقديم ما هو الغرض أولى، ولهذا جاز تقديم المفعول على الفاعل، والحال على ذي الحال، والظرف على العامل فيه إذا كان ذلك أكثر الغرض في الإخبار"<sup>(٣)</sup>. وقد تابعه أبو يحيى الأنصارى، الذي نقل توجيهه<sup>(٤)</sup>.

أما ابن الزبير فقد بسط القول عن آية البقرة وخلاصة ما ذكر — بعد أن بين طريقة العرب في التقديم، ونقل كلام سيبويه — أن آية البقرة وردت في سياق المأكول وحله وحرمة فناسب ذلك تقديم المضمير المجرور، أما الآيات الأخر فليس فيها ما في هذه الآية فتأخر المضمير المجرور إلى محله الذي هو موضعه<sup>(٥)</sup>، واكتفى بذلك.

وقد وافقه ابن جماعة في تعليل آية البقرة، إلا أنه زاد موضحاً أن "آية المائدة وردت بعد تعظيم شعائر الله وأوامره، والأمر بتقواه، وكذلك آية النحل بعد قوله: ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾: ١١٤، فكان تقديم اسمه أهم".

(١) هذا القول (ألا ترى أنهم...) هو قول لسبويه ونصه: (إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعني، وإن كانا جميعاً يُهماهم ويعنيانهم) الكتاب: ٣٤/١.

(٢) درة التنزيل: ٢٢—٢٣.

(٣) انظر: البرهان: ١٣٥.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ٤٢.

(٥) انظر: ملاك التأويل: ٢٤٩/١—٢٥١.

ولسه تعليل آخر حسن أظن أنه انفراد به وهو "أن آية النحل والأنعام نزلتا بمكة فكان تقديم ذكر الله بترك ذكر الأصنام على ذبائهم أهم لما يجب من توحيده، وإفراده بالتسمية على الذبائح. وآية البقرة نزلت بالمدينة على المؤمنين لبيان ما يحل وما يحرم، فقدّم الأهم فيه والله أعلم" (١).

وقد أخذ المطعني توجيه ابن جماعة الثاني دون أن يشير إليه، وعدّ هذا التوجيه أولى من توجيه الإسكافي، لأنه تحليل موضوعي للأسلوب، وقد قدّم كلامه بتوضيح لماذا كان تقديم (به) هو الأصل، فقال: (لأن الضمير فيه عائد على (ما) و(لغير الله) متعلق بـ(أهل) وهو صلة الموصول (ما) والموصول مقدّم دائماً على الصلة، فكان حق العائد عليه التقديم على المتعلق بالصلة، لكن خولف هذا الأصل في المواضع الثلاثة المذكورة، وهذه المواضع منها موضعان مكيان هما الأنعام والنحل، والموضع الثالث وهو المائدة مدني إلا الآية التي فيها هذه العبارة فمكية، نزلت في حجة الوداع كما نص على ذلك العلماء، وجاءت العبارة على الأصل في موضع واحد، هو سورة البقرة، وهي مدنية بلا خلاف) (٢).

ثم ذكر معنى كلام ابن جماعة وهو أن ما قدّم فيه (لغير الله) على (به) خطاب لأهل مكة، ومسارعة إلى نفي الشرك أولاً، ثم تحريم ما حرّم ثانياً، أما آية البقرة فخطاب لأهل المدينة والخطاب يهدف إلى تحريم ما حرّم أولاً، ثم الثبات على ما هم عليه من الإيمان ثانياً (٣).

ومن الآيات في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾: ٢٦٤، حيث تقدم ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ على ﴿مِّمَّا كَسَبُوا﴾، بينما في سورة إبراهيم جاء التقديم

(١) كشف المعاني: ١١٠-١١١.

(٢) خصائص التعبير القرآني: ١٦٢/٢-١٦٣.

(٣) انظر: المرجع السابق: ١٦٣/٢.



على عكس ذلك ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾: ١٨.

هذا الموضع مما انفرد بتعليله الكرمانى، فيرى أن الكسب هو المقصود في آية إبراهيم فلذلك كان التقديم، وإلا فإن القياس ما جاء في البقرة، لأن ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ صلة ليقدرُونَ، و﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ صفة لشيء، يقول: (قدم في آية إبراهيم لأن (على) من صفة القدرة، ولأن ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ صفة الشيء، وإنما قدم في هذه السورة، لأن الكسب هو المقصود بالذكر، وأن المثل ضرب للعمل يدل عليه قوله: ﴿أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾<sup>(١)</sup>. وقد وافقه الأنصارى، الذي نقل نص كلامه<sup>(٢)</sup>.

ومن المواضع ما جاء في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ : ١٢٦ ، بينما ورد في الأنفال تقديم الضمير المجرور بالباء على (قلوبكم) يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: ١٠ . بنى الإسكافي رحمه الله تأخير الضمير المجرور في آية آل عمران على المناسبة اللفظية دون أن يتأمل سياق الآية، فذكر أنه لما تأخر ﴿لَكُمْ﴾ في الجملة التي قبلها وهي قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾ وجب التأخير هنا ليكون الثاني كالأول.

أما تعليله لآية الأنفال فقد وفق فيه، فاعتمد رحمه الله على الحالة النفسية التي كانت تسيطر على فكر المخاطبين ، فجاء الخطاب القرآني مراعيًا تلك الحالة فقدم ما هو أهم عندهم.

يقول: ”وأما تأخير (به) بعد قوله: ﴿قُلُوبُكُمْ﴾، فلأنه لما تأخر الجار والمجرور في الكلام الأول، وهو قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾ وعطف

(١) البرهان: ٢٣٥.

(٢) انظر: فتح الرحمن: ٢١٠.

الكلام الثاني عليه، وقد وقع فيه جار ومجرور، وجب تأخيرها في اختيار الكلام ليكون الثاني كالأول في تقديم ما الكلام محتاج إليه وتأخير ما قد يستغنى عنه. وأما تقديم (به) في الآية الثانية فلأن الأصل في كل خبر يصدر بفعل أن يكون الفاعل بعده ثم المفعول والجار والمجرور، وقد يقدم المفعول على الفاعل.. وكذلك الجار والمجرور بمنزلة المفعول في التقديم والتأخير.. وفي هذا الموضع.. فإن المعتمد تحقيقه عند المخاطبين إنما هو الإمداد بالملائكة، وهو الذي أخبر الله تعالى عنه أنه لم يجعله إلا بشري، فوجب أن يقدم في الكلام<sup>(١)</sup>، وقد وافقه ابن جماعة الذي أشار إلى هذا التوجيه بإيجاز، وزاد وجهاً آخر هو التفنن في الكلام، وهو بعيد<sup>(٢)</sup>.

أما الكرمانى فاكفى بأن الاختلاف في التقديم والتأخير هو من باب الازدواج بين الخطابين، ونقل هذا أبو يحيى الأنصارى رحمهما الله تعالى<sup>(٣)</sup>. ومثل الكرمانى ابن الزبير الذي اكفى بتوضيح آية آل عمران التي جاءت على الأصل في تقديم الفاعل، بينما الآية الأخرى التي تستحق البيان، والتوضيح لم يتحدث عنها<sup>(٤)</sup>.

والذي يظهر لي بناء على توجيه الخطيب الإسكافى أن آية الأنفال استغاثة من المؤمنين يوم بدر، وفي ذلك تشوق من المستغيث، وأنه متطلع إليه في موطن الخوف وطلب النجدة، فقدم ضمير الإمداد مع عامله على القلوب لاهتمامهم به وشدة حاجتهم إليه فهو موضع رجائهم، كما يفهم من الآية أنها نزلت في غزوة بدر والدماء لم تجف بعد، والعهد بها لم يطل، فروعى فيها ما روعى من مقتضيات الأحوال.

(١) درة التنزيل: ٣٨.

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٣٢.

(٣) انظر: البرهان: ١٥١، وفتح الرحمن: ٧٢.

(٤) انظر: ملاك التأويل: ٣١٤/١-٣١٥.

أما آية آل عمران فخلت من ذلك، لأن الآية حكاية لما حدث يوم بدر، وتذكير للمؤمنين بما صنع الله معهم، واعداء إياهم أن يصنعه معهم في أحد لو صبروا واثقوا، يقول الزمخشري: "فإن قلت: كيف يصح أن يقول لهم يوم أحد، ولم تنزل فيه الملائكة؟ قلت: قاله لهم مع اشتراط الصبر والتقوى عليهم فلم يصبروا عن الغنائم، ولم يتقوا حيث خالفوا أمر نبيهم ﷺ فلذلك لم تنزل الملائكة، ولو تموا على ما شرط عليهم لنزلت، وإنما قدم لهم الوعد بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم، ويعزموا على الثبات ويثقوا بنصر الله" (١)، فالآية حكاية عن حال مضت، فاقترضى الحال أن يأتي الضمير على الأصل (٢).

ومن الآيات المتشابهة في هذا الموضوع قوله تعالى في سورة النساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾: ٤١، حيث تقدم اسم الإشارة المجرور بعلى (شهِيداً)، بينما جاء في سورة النحل عكس ذلك يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾: ٨٩، وهذا الموضع مما انفرد بذكره ابن الزبير أيضاً. يجب ابن الزبير رحمه الله عن ذلك بقوله: "آية النحل تقدمها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فتقدم اسم الشهيد على المشهود عليه، فورد على ما نسق على ذلك من الإخبار بشهادته عليه السلام على أمته مرتباً على ما تقدمه من مقتضى النظم في التناظر والتناسب، فقل: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ متوازناً مع قوله: ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِمْ﴾، وذلك على ما يجب والله أعلم.

أما آية النساء فلم يرد فيها إفصاح بذكر المشهود عليهم ولا كناية عنهم بضمير ولا اسم إشارة بل في آية النساء داع إلى تقدم المجرور بعلى، وهو أنه لما تقدم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

(١) الكشف: ٤٦١/١.

(٢) انظر: خصائص التعبير القرآني: ١٦٩/٢.



وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿٣٨﴾، وذلك من صفة المنافقين، ناسب هذا تقديم المجرور في قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾<sup>(١)</sup>.

وذكر تعليلاً آخر اعتمد فيه على الفاصلة، لأن بناء آيات سورة النساء على المنون المنصوب، وهذا تعليل ينظر لمناسبة المبنى، وهو مقبول إلا أنه يأتي بعد الأول.

ومما جاء في كتاب الله تعالى من التشابه في هذا الموضوع، توجيه علماء التشابه لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾: ١٣٥، بينما في سورة المائدة قدم ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ على ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾: ٨. ذهب الخطيب الإسكافي رحمه الله إلى أن آية النساء تقتضي العموم فالخطاب فيها للناس عامة، فهي أمر بالعدل في الشهادة، ولهذا جاء بعد ذلك ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، أما آية المائدة فهي خاصة بالولادة، ولأجل ذلك أعقب القول بقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ﴾.

يقول: "الآية الأولى في الشهادة أمر عز وجل من عنده شهادة أن يقوم بالحق فيها، ويشهد لله على كل من عنده حق لغيره يمنعه إياه حتى يصل إليه، فقال قوموا بالقسط أي بالعدل في حال شهادتكم لله على كل ظالم حتى يؤخذ الحق منه، فقدم القسط لأنه تمام قوامين، إذ فعله يتعدى إلى مفعوله بالباء، وأما (شهداء) فإنها إذا كانت حالاً من الضمير في قوامين فإن حقها أن تجيء بعد تمام قوامين، وكذلك إن كانت خبراً ثانياً، وإن كانت صفة لقوامين فإن حقها أن تجيء بعده. وأما قوله (لله) بعد (شهداء) فلتعلقه بالشهادة كأنه قال: كونوا شهداء لله، لا للهوى والميل إلى ذوي القربى، والدليل على ذلك أنه قال: (ولو على أنفسكم)، وشهادة الإنسان على نفسه أن يقر بالحق

(١) ملاك التأويل: ٣٤٢/١.

لخصمه... وأما الآية التي في سورة المائدة فإن فحواها يدل على أنها للولادة فقط، فقال: كونوا قوامين لله لا لنفع، ويكون بالقسط متعلقاً بقوامين، أي كونوا قوامين لأجل طاعة الله بالعدل والحكم فيه في حال كونكم شهداء، أي وسائط بين الخالق والخلق.. والدليل على أن الخطاب لولادة الأحكام قوله بعده: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾...<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه الكرمانى الذي اختصر تعليله، يقول: "لأن الله في هذه السورة متصل ومتعلق بالشهادة بدليل قوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي: ولو تشهدون عليهم، وفي المائدة متصل ومتعلق بـ(قوامين)، والخطاب للولادة بدليل قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ﴾ الآية"<sup>(٢)</sup>، وتابعه الأنصارى<sup>(٣)</sup>.

أما ابن الزبير، وابن جماعة فنظرا للسياق المتصل بالآيتين، فالآيات المتصلة بآية النساء مبنية على الأمر بالعدل والقسط، كنشوز الرجال وإعراضهم عن النساء، والصلح على مال، وإصلاح حال الزوجين، يقول تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَمِينِ بِالْقِسْطِ﴾: ١٢٧ ويقول ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾: ١٢٩، وتوالت الآي على هذا المعنى، فناسب تقديم القسط وهو العدل ليناسب ما ذكر.

أما آية المائدة فجاءت بعد أحكام تتعلق بالوفاء بالعهود والمواثيق كما في أول السورة ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾: ١، وكذلك أحكام تتعلق بالطهارة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾: ٦، إلى أن أمر عباده بتذكر نعمه عليهم فقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾، فناسبه تقديم ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) درة التنزيل: ٤٤.

(٢) البرهان: ١٥٧.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٩٢.

(٤) انظر: ملاك التأويل: ٣٥٨/١، وكشف المعاني: ١٤٢.

وقد وقف المطعني عند هذا الموضع، فلم يستحسن توجيه الإسكافي السابق، فبعد أن ذكر أن سورة النساء مدنية باتفاق والمائدة كذلك على الراجح من أقوال أهل العلم، لأنها آخر ما نزل من القرآن فقد نزلت في حجة الوداع<sup>(١)</sup>، أوضح أن آية النساء ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ خطاب للمؤمنين، لأن القواماة لله عند المؤمنين أمر متحقق، والمطلوب تحري العدل في الشهادة والحكم، وأيد كلامه بما جاء في سبب نزول الآية وهو: أن الآية نزلت في النبي ﷺ حين اختصم إليه غني وفقير، وكان ضلعه مع الفقير، فرأى أن الفقير لا يظلم الغني، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير، فنزلت الآية إلى قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَلَهُ أُوْلَىٰ بِهِمَا﴾<sup>(٢)</sup>.

أما تقديم قوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ في آية المائدة، فلأن ذلك خطاب للمؤمنين والناس عامة، ومن سبب النزول نفهم أن أهل مكة داخلون في المخاطبين بها، فالآية في مقام الإرشاد العام، فقدّم فيها (كونوا قوامين لله)، لأن القواماة لله أمر ليس بمتحقق عند جميع المخاطبين، بل هو متحقق عند بعضهم دون بعض<sup>(٣)</sup>.

وأرى — والله أعلم — أن توجيه ابن الزبير أولى؛ لاعتماده على النظر في السياق، فقد ربط بين الآيتين، وما تقدمهما من آيات، ولا يغفل أيضاً توجيه الإسكافي، وكذلك ما ذكره المطعني الذي اعتمد فيه على سبب نزول الآية، والتعليلات لا تراحم بينها.

ومن الآيات المتشابهة في هذا الموضوع والتي تناولها علماء المتشابه اللفظي ما جاء في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: ٤٠، حيث جاء تقديم

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي: ١٩٥/١، والإتقان للسيوطي: ١٩/١.

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي: ١٠٦.

(٣) انظر: خصائص التعبير القرآني: ١٦٥/٢ — ١٦٦.



العذاب على المغفرة، بينما الوارد في كتاب الله تقديم المغفرة على العذاب يقول تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾<sup>(١)</sup>.

يرى الإمام الكرمانى أن التقديم في آية المائدة سببه أن الآية ”نزلت في حق السارق والسارقة وعذابهما يقع في الدنيا، فقدم لفظ العذاب، وفي غيرها قدم لفظ المغفرة رحمة منه سبحانه، وترغيباً للعباد في المسارعة إلى موجبات المغفرة“<sup>(٢)</sup>.

وقد وافقه على هذا التوجيه ابن الزبير<sup>(٣)</sup>، وابن جماعة الذي يقول: ”إن آية البقرة وغيرها جاءت ترغيباً في المسارعة إلى طلب المغفرة، وإشارة إلى سعة مغفرته ورحمته، وآية المائدة جاءت عقب ذكر السارق والسارقة، فناسب ذكر العذاب، لأنه لهم في الدنيا والآخرة“<sup>(٤)</sup>، كما وافقهم الأنصاري<sup>(٥)</sup>. ومن المواضع التي لا تخفى على قارئ القرآن الكريم في مسألة التقديم والتأخير في التشابه اللفظي ما بين لفظي (العب) و(اللهو) من تقديم أحدهما على الآخر، وقد جاء ذلك في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وفي آيات متشابهة مختلفة.

ففي سورة الأنعام قدم اللعب على اللهو ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾: ٧٠، وفي سورة الأعراف جاءت الآية بتقديم اللهو في قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾: ٥١.

وفي موضع آخر في سورة الأنعام ورد تقديم اللعب على اللهو أيضاً ولكن مع وصف الحياة الدنيا باللعب واللهو في قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: ٣٢، كما

(١) سورة البقرة: ٢٨٤، آل عمران: ١٢٩، المائدة: ١٨، والفتح: ١٤.

(٢) البرهان: ١٤٢.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٢٨٣/١—٢٨٤.

(٤) كشف المعاني: ١٢٣.

(٥) انظر: فتح الرحمن: ٥٦.

جاء ذلك أيضاً في سورتي محمد والحديد ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ﴾: ٣٦ (١) ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ﴾: ٢٠، بينما في سورة العنكبوت جاء تقديم اللهو على اللعب يقول تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَلَعِبٌّ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: ٦٤.

وقبل أن أقوم بتوجيه الموضعين وعرض أقوال علماء المتشابه وغيرهم، أوضح معنى اللفظين ودلالاتهما، فاللعب ضد الجد، وأصل الكلمة من اللعاب، وهو البزاق السائل، تقول: لعب فلان، إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً، أما اللهو فهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، تقول: لهوت بكذا، ولهيت عن كذا إذا انشغلت عنه بلهو<sup>(٢)</sup>، فاللعب فعل لم يتحدد من ورائه قصد مفيد، أما اللهو فقد يكون فعلاً من أفعال النفس، ولا يلزم معه حركة، ولهذا جاء في الأنبياء قوله: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾: ٣، فإسناد اللهو إلى القلوب دليل على ذلك المعنى.

وقد تحدث علماء المتشابه عن هذين الموضعين فقد ذكر الخطيب الإسكافي أن اللعب يكون في زمن الصبا، أما اللهو فهو في زمن الشباب، وزمان الصبا متقدم على زمان الشباب، وعلى هذا جاء التقديم في آية الحديد ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ زِينَةٌ...﴾، أما آية العنكبوت ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَلَعِبٌّ﴾، فقد أوضح أن زمان الشباب الذي يكون فيه اللهو أكثر من زمان الصبا الذي يكون فيه اللعب، فقدم الكثير على القليل.

أما الموضع الآخر وهو تقديم اللعب وتأخير اللهو في قول الله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾، فذكر أن الآية خاصة في قوم من الكفار

(١) سورة محمد آية: ٣٦، والحديد آية: ٢٠.

(٢) انظر: أساس البلاغة للزمخشري: ٣٤٤/٢، ٣٦١، والفروق اللغوية لأبي هلال العسكري:

٢١٠، والمفردات للراغب: ٦٨٨، ٦٨٠، ولسان العرب: ٧٣٩/١، ٢٥٨/١٥، والتحرير

والتنوير: ١٩٣/٧.

سمعوا القرآن فأعرضوا عنه، فقدّم اللعب، لأن أول أفعالهم لعب، ثم انشغلوا بالدنيا، فكان أول أمرهم لعباً، ثم شغلهم الدنيا وحلاوتها وهو اللهو، أما آية الأعراف فسر تقديم اللهو على اللعب في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾، لأنها عامة في الكافرين جميعاً، وليست خاصة فيمن سمع، فقدّم فعل الأكثر على فعل الأقل.

يقول الإسكافي عن آية الأنعام: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾: ”فإنها في قوم من الكفار كانوا إذا سمعوا آيات الله هزلوا عندها واستهزؤوا بها، فهذا اتخاذهم دين الله لعباً ولهواً، وهو كما قال في آية أخرى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهمُ﴾ النساء: ١٤٠، فقوله عز وجل: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾، كقوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾، فهؤلاء قوم حضروا النبي ﷺ، وسمعوا القرآن وعبثوا عند سماعه وتلاعبوا بآياته... ثم شغلوا بدنياهم عن تدبرها وألهتهم بحلاوتها عن الفكر في صحتها، فأول أفعالهم لعب، وثانيها لهو، واللعب فعل في طاعة الجهل تتعجل منه مسرة، واللهو قال فيه صاحب العين: ”ما شغل الإنسان من هوى وطرب“<sup>(١)</sup>، فهؤلاء لما فعلوا عند سماع القرآن من الاستهزاء، والعبث أطلق على فعلهم اسم اللعب، ثم لما شغلوا عنه باستحلاء الدنيا كان هذا لهواً منهم بعد اللعب وكان أول دينهم لعباً وما بعده لهواً، فلذلك قدّم لعب على لهو في هذه الآية“.

وأما آية الأعراف فقال عن تقديم اللهو على اللعب: ”لأن الكافرين — يقصد قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَعَالَى الْكُفْرِينَ﴾ — هنا لعامة الكفار غير مختص لمن سمع الآيات، فقدّم فعل أكثرهم على فعل أقلهم، وهم الذين شغلهم الدنيا وحلاوتها.. وهذا هو اللهو، وثم كانت أفعالهم التي اقتدوا فيها بآبائهم لما طابت لهم ولم يجدوا في العاقبة نفعاً عليهم كاللعب الذي ينطوي على أفعال

(١) انظر: كتاب العين للخليل بن أحمد: ٨٧/٤.



تبطل في الآجل وإن سرت في العاجل، وهذا بعد الأول، فوجب هنا تقديم ذكر اللهو لوجهين، لتقدمه على ما هو كاللعب، ولأنه فعل أكثرهم.

أما آية الحديد والعنكبوت والتي وصفت الحياة الدنيا فيهما باللهو واللعب فقد قال عنهما: (وتقدم اللعب فيه على اللهو - يقصد في آية الحديد -، فلأن معناه الحياة الدنيا لمن اشتغل بها ولم يتعب لغيرها من أعمال الآخرة مقسومة من الصبا، وهو وقت اللعب، وبعده اللهو وهو الترويح عن النفس بملاعبة النساء... أما قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ فليس المراد به أن الحياة الدنيا كلها لهو ولعب... بل المراد المبالغة في وصف قصر مدة الدنيا بالإضافة إلى مدة الأخرى... وإنما قدم اللهو هنا على اللعب، لأن الأزمنة التي يقصرها اللهو أكثر من الأزمنة التي يقصرها اللعب، لأن التشاغل به أكثر، فلما كانت معظم ما يستقصر وجب تقديم ما يكثر على ما هو دونه في الكثرة“<sup>(١)</sup>.

هذا وقد وافقه الإمام الكرمانى الذي اختصر كعاداته ما ذكره الخطيب الإسكافى<sup>(٢)</sup>، كما وافقهما ابن جماعة<sup>(٣)</sup>، وقد نقل الزركشى توجيه الكرمانى بنصبه<sup>(٤)</sup>.

كما نقل الشهاب الخفاجى توجيه الإسكافى، وعقب على من قال إن التوجيه من نتاج فكره بقوله: ”أبدى بعضهم لذلك نكتة، وزعم أنها من نتائج أفكاره وليس كذلك كما قال، فإنها مذكورة في درة التريل، وهو أبو عذرتة في هذا الفن، وإن أردت التفصيل فطالع درة التنزيل“<sup>(٥)</sup>.

(١) درة التنزيل: ٦٥-٦٧.

(٢) انظر: البرهان: ١٦٩-١٧٠.

(٣) انظر: كشف المعاني: ١٧٥-١٧٦.

(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن: ١٢١/١.

(٥) حاشية الشهاب الخفاجى: ٤٩/٤.

أما ابن الزبير فوافق الخطيب الإسكافي في حديثه عن آيتي الأنعام، وآية محمد، وآية الحديد، حيث قدم اللعب على اللهو، فذكر أن اللعب هو المتقدم في الوجود الدنيوي على اللهو، لأن اللعب إذا استمر ألهى عن التدبر، والاعتبار، والآيات تحذير منه تعالى لعباده أن يجتنبوا الدنيا ويحذروها، وهذا معنى كلام الإسكافي. أما آية الأعراف فذكر أنها من قول المؤمنين أهل الجنة إخباراً عن حال الكافرين الموجهة لتعذيبهم، فقدموا في الذكر اللهو الشاغل عن الاستجابة الجاري مع سن التكليف والتزام الطاعة، ولم يذكر اللعب أولاً، لأنه جارٍ في البداية وحين لا تكليف، أما آية العنكبوت فقد تقدمها قوله: ﴿وَلَيْنَسْأَلَنَّهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآيات: ٦١-٦٣، ولا يسأل عن هذا ويجب إلا من جاوز سن اللعب وبلغ التكليف<sup>(١)</sup>.

وقد وقف ابن عاشور عند آية الأنعام الأولى، وآية العنكبوت، فذكر أن تقديم ذكر اللعب في الأنعام لأن الآية "لم تشتمل على اسم إشارة يقصد منه تحقير الحياة الدنيا فكان الابتداء بأنها لعب مشيراً إلى تحقيرها، لأن اللعب أعرق في قلة الجدوى من اللهو. ولما أشير في هذه الآية — يقصد آية سورة العنكبوت — إلى الحياة الآخرة.. زاده تصريحاً بأن الحياة الآخرة هي الحياة الحق.."<sup>(٢)</sup>، واكتفى بذلك.

وهذه التوجيهات التي توصل إليها العلماء حسنة، وتعد وقفات الإسكافي عند الآيات متميزة، فلما أوضح المراد اللغوي من لفظي (اللعب، واللهو)، بين أسرار الاختلاف بين الآيات من حيث تقدم اللهو على اللعب، واللعب على اللهو، فتأمل كل آية، فتارة ينظر لمسألة نزول الآية، وتارة إلى مسألة عموم الآية وخصوصها، فله رحمه الله قدم السبق، وجودة التعليل، كما أن ما ذكره ابن الزبير حسن أيضاً، حيث ربط بين الآيات وبين السياق المتقدم

(١) انظر: ملاك التأويل: ٤٤٥/١-٤٤٨.

(٢) التحرير والتنوير: ٢١-٣١.

لها في آية الأعراف، والعنكبوت، ولا يغفل أيضاً توجيه ابن عاشور، رحم الله الجميع رحمة واسعة.

ومن مواضع التقديم والتأخير ما جاء في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾: ١٥١، حيث قدم رزق المخاطبين على رزق أولادهم المدلول عليه بعطف ضميرهم عليه، وفي سورة الإسراء قدم رزق الأولاد على رزق المخاطبين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾: ٣١، فما وجه ذلك عند علماء التشابه؟

اتفق علماء التشابه وغيرهم من المفسرين على توجيه هاتين الآيتين، وأن الخطاب في آية الأنعام مع قوم فقراء يهتمهم رزقهم أولاً، ثم رزق أولادهم، فقدم رزقهم لأنه عندهم أهم، أما آية الإسراء فالخطاب فيها مع قوم غير فقراء لكنهم يخشون الفقر مستقبلاً فيظهر أثره على أولادهم، فرزق أولادهم أهم عندهم لأنه مظنة القلة المتوقعة، أما رزقهم فهم حاصلون عليه، فقدم رزق الأولاد على رزقهم لأنه أهم، ولهذا جاء التعبير في الآية الأولى بقوله: ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ أي من فقر واقع، أما الثانية فجاء فيها قوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ أي فقر متوقع.

يقول الخطيب الإسكافي: "فأما قوله: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فلأن قبله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ أي من أجل إملاق وانقطاع مال وزاد، وهذا نهي عن قتلهم مع فقرهم وخوفهم على أنفسهم إذا لزمتهم مؤونة غيرهم.. وأما الآية الثانية فإنه قال فيها ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ والإملاق غير واقع، فكأنه قال خوف الفقر على الأولاد، وكان عقيب هذا إزالة الخوف عنهم، ثم عن القائلين أي لا تقتلوهم لما تخشون عليهم من الفقر فالله يرزقهم وإياكم، فقدم في كل موضع من الموضعين ما اقتضى تقديمه وأخر ما اقتضى الموضع تأخيره"<sup>(١)</sup>.

(١) درة التنزيل: ٧٤.



وقد وافقه بقية علماء المتشابه على هذا التوجيه كالكرماني، وابن الزبير، وابن جماعة، والأنصاري رحمهم الله تعالى<sup>(١)</sup>.

كما ذكر هذا التوجيه الخطيب القزويني في «الإيضاح» في موضوع تقديم بعض معمولات الفعل على بعض، يقول: (قدّم المخاطبين في الأولى دون الثانية، لأن الخطاب في الأولى للفقراء، بدليل قوله تعالى: ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾، فكان رزقهم أهم عندهم من رزق أولادهم، فقدّم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم، والخطاب في الثانية للأغنياء بدليل قوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾، فإن الخشية إنما تكون مما لم يقع، فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم، لأنه حاصل، فكان أهم فقدّم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم<sup>(٢)</sup>.

كما ذكر هذا المعنى من المفسرين ابن كثير، وأبو السعود، وأبو حيان، والألوسي، والطاهر بن عاشور رحمهم الله تعالى<sup>(٣)</sup>.

ومن المتشابه في كتاب الله تعالى في موضوع التقديم والتأخير ما جاء في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾: ١٨٨، حيث تقدم النفع على الضر في هذه الآية، بينما جاء في آية سورة يونس تقديم الضر على النفع يقول تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: ٤٩.

أوضح الخطيب الإسكافي أن الآية الأولى جاءت بعد قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾، وبعد قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: ١٨٧، ثم جاءت هذه الآية، وهي بيان أنه عليه الصلاة

---

(١) انظر: البرهان: ١٧٨، وملاك التأويل: ٤٧٩/١-٤٨٠، وكشف المعاني: ١٦٩، وفتح الرحمن: ١٣١.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة: ١٦٧/٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم: ١٨٠/٢، وتفسير أبي السعود: ١٦٩/٣، والبحر المحيط: ٢٥١/٤، وروح المعاني: ٢٩٧/٤، والتحرير والتنوير: ٨٧/١٥-٨٨.

والسلام لا يملك تعجيل ثواب ولا عقاب، فلما تقدم الآية سؤلهم عن الساعة ظناً منهم أن عنده علماً، والعلم بالشيء بلا شك نفع لصاحبه، تقدم النفع على الضرر في الآية، أما آية يونس فقد تقدمها طلبهم تعجيل العذاب، فقبلها قوله: ﴿وَمَا نُرِيكَ بِعُضِّ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾: ٤٦، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ...﴾: ٤٨، فتقدم الضرر لأجل ما تقدم من طلبهم إياه<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه على هذا التوجيه ابن الزبير الغرناطي<sup>(٢)</sup>، وابن جماعة<sup>(٣)</sup>، أما ابن عاشور فقد ذكر توجيه آية سورة يونس<sup>(٤)</sup>.

أما الإمام الكرمانى فيرى أن تقدم الضرر على النفع هو الأصل، لأن العابد يعبد ربه خوفاً من عقابه ثم طمعاً في ثوابه، فأية يونس جاءت على الأصل، أما آية الأعراف فقد تقدم فيها النفع على الضرر بسبب تقدم قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىُّ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: ١٧٨، وبعده في الآية نفسها قوله تعالى: ﴿لَا تَسْكُتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾: ١٨٨<sup>(٥)</sup>. وقد وافقه أبو يحيى الأنصاري<sup>(٦)</sup>.

والذي أرى والله تعالى أعلم أن التوجيه الأول مقدم على توجيه الكرمانى، لأن سياق الآيات يتطلب ذلك التوجيه، وسبب آخر هو أن الأصل الذي ذكره الكرمانى غير مسلم به لا من الناحية العقدية، ولا من الناحية الفطرية، فالأصل في عقيدة أهل السنة والجماعة الجمع في العبادة بين أصلي الخوف والرجاء حتى يكونا كجناحي طائر، وإن غلبة أحدهما على الآخر ذريعة للدخول في مذهب الخوارج، أو المرجئة، وكلا المذهبين باطل، وهذا لا

---

(١) انظر: درة التنزيل: ١٠١.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٥٧٧/١—٥٧٨.

(٣) انظر: كشف المعاني: ١٨٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير: ١٨٩/١١.

(٥) انظر: البرهان: ٢٠١—٢٠٢.

(٦) انظر: فتح الرحمن: ١٥٤.

يتعارض مع ما قال به بعض العلماء بتغليب جانب الخوف في حال الصحة، فلا يعني إطلاقاً تقديم الخوف على الرجاء، بل هو مخالف لسنة الأنبياء عليهم السلام الذين حكى الله طريقتهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَ نَارَ غَبَاوَرَهُبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ الأنبياء: ٩٠، فقدم الرغبة على الرهبة<sup>(١)</sup>، أما من ناحية الفطرة فإن النفس البشرية تتطلع إلى الخير والنفع، وتتعلق بالآمال والأمان، وتغفل عما يعرض لها من مصائب الدهر، ولهذا ذكر ابن عاشور رحمه الله أن السر في تقديم النفع في آية الأعراف "لأن النفع أحب إلى الإنسان"<sup>(٢)</sup>.

ومثل الموضع السابق ما جاء في سورة يونس من تقديم الضر على النفع في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾: ١٨، وفي الفرقان تقديم النفع على الضر فقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾: ٥٥. يقول الخطيب الإسكافي: "إنما قدم يضرهم على ينفعهم في الآية الأولى، لأن العبادة تُقام للمعبود خوفاً من العقاب أولاً، ثم رجاءً للثواب ثانياً، وقد تقدم في هذا المكان ما أوجب تقديم يضرهم على ينفعهم في الآية الأولى وهو قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: ١٥، فكأنه قال: ويعبدون من دون الله ما لا يخافون ضرراً في معصيته ولا يرجون نفعاً في عبادته... وأما في سورة الفرقان فقد تقدمت قبلها آيات قدم فيها الأفضل على الأدون كقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾: ٥٣، وقوله بعده: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾: ٥٤، وصلة النسب أفضل من صلة المصاهرة، كما أن العذب من الماء أفضل من المالح، وقال بعده ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾: أي: يتكلفون المشقة بعبادة ما لا

(١) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/٦١-٦٤، ٨١-٨٣، ٢٤٠-٢٤٢، وكتاب مدارج السالكين لابن القيم: ٢/٣٦-٥٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٩/٢٠٧.



يرجونه لنفع ولا يخشونه لضر، فقدم الأفضل على الأدون لهذا المعنى وللبناء على ما تقدم من الآيات“<sup>(١)</sup>. وقد وافقه كل من الكرمانى، وابن الزبير، وابن جماعة رحمهم الله<sup>(٢)</sup>.

وهذا التحليل الجيد من الخطيب الإسكافي يجعلنا ندرك مكونات الكلام، وإدراك مواقع اللفظ القرآني، وأن سياق النص يقوم على ذكر الأفضل وتقديمه، فانظر إلى ملاحظته للفظي (عذب فرات، وملح أجاج)، و(نسباً وصهرأ)، وقياس ذلك على ما ورد في السورة نفسها ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾، إنه منهج تحليلي قائم على النظر في بناء الكلام، وتلاؤم الألفاظ.

ومن المواضع التي تناولها علماء المشابه قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ﴾: ١٠٢، حيث تقدمت كلمة التوحيد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ على الخلق، وفي سورة غافر قدم الخلق على كلمة التوحيد ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾: ٦٢.

يرى الخطيب الإسكافي ووافقه على ذلك علماء المشابه أن المقام في آية الأنعام مقام يزعم فيه المشركون تعدد الآلهة حيث جعلوا له شركاء الجن، فقدمت كلمة التوحيد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لما فيها من نفي التعدد المزعوم، أما آية غافر فالمقام فيها تذكير بنعم الله التي لا تحصى وبيان عظم خلق السموات والأرض فناسبها تقديم ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

يقول الخطيب الإسكافي: ”ما في هذه السورة - يقصد الأنعام - جاء بعد قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ رُبَيْنَ وَبَنَتِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: ١٠٠، فلما قال: ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، أتى بعده بما يدفع قول من جعل له شريكاً فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، ثم قال ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وفي سورة المؤمن جاء هذا

(١) درة التنزيل: ١١٣.

(٢) انظر: البرهان: ١٧٦، ملك التأويل: ٤٦٨/١ - ٤٦٩، وكشف المعاني: ١٦٤ - ١٦٥.

بعد قوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ٥٧، فكان الكلام على تثبيت خلق الإنسان لا على نفي الشريك عنه، كما كان في الآية الأولى، فكان تقديم خالق كل شيء ها هنا أولى<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه الكرمانى، وابن الزبير، وابن جماعة رحمهم الله تعالى<sup>(٢)</sup>.  
ومن المواضع التي تحدث عنها علماء المتشابه توجيههم لقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: ٧٢، حيث جاء التعبير بالمال والنفس أولاً، بينما جاء التعبير بالجهاد في سبيل الله أولاً في سورة التوبة يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾: ٢٠.

اعتمد الخطيب الإسكافي في توجيهه هذا الموضع على السياق المتقدم للآيتين، فآية الأنفال تقدمها ذكر المال والفداء والغنيمة في قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾: ٦٧، وقوله: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾: ٦٨، أي: من الفداء، ثم قال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾: ٦٩، فتقدم ذكر المال في الآية، أما آية التوبة فتقدمها ذكر الجهاد في سبيل الله، يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾: ١٦، وقوله: ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: ١٩، وهذه الطريقة تتكرر منه رحمه الله كثيراً فيبني توجيهه وتعليله على مناسبة اللفظ، فينظر لما تقدمه وما تأخر عنه، فيأدراك السر واللطائف القرآنية، كما تكون من جهة البحث والغوص في المعاني تكون أيضاً في التدقيق في تلاؤم الكلام ومناسبة السياق.

يقول الخطيب الإسكافي: ”والجواب أن يقال: إن الآية الأولى في سورة الأنفال عقيب ما أنكره الله تعالى على من قال لهم:

(١) درة التنزيل: ٦٩. ويعني بخلق الإنسان قدرة الله على إعادة خلق الإنسان.

(٢) انظر: البرهان: ١٨٦، وملاك التأويل: ٤٦٨/١—٤٦٩، وكشف المعاني: ١٦٤—١٦٥.



﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم أصحاب النبي ﷺ لما أسروا المشركين ولم يقتلوهم طمعاً في الفداء، ثم قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي فيما أخذتم من هؤلاء الأسرى من الفداء، ثم قال تعالى لما غفر لهم ما كان منهم من ترك القتل إلى الأسر: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾.. فعقب ذلك بهذه الآية التي مدح فيها من أنفق أمواله في سبيل الله لا من يجاهد طلباً للنفع العاجل.. فقدّم بأموالهم وأنفسهم على قوله: (في سبيل الله) ليعلموا أن ذلك يجب أن يكون أهم لهم وأولى بتقديمه.. ولم تكن كذلك الآية التي في سورة براءة، لأنها بعد ما يوجب تقديم قوله: (في سبيل الله) على ذكر المال لأنه قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ثم قال في إبطال ما أتى به المشركون من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج مع المقام على الكفر: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فكان المندوب إليه بعد الإيمان بالله الجهاد في سبيله..<sup>(١)</sup> وقد وافقه واختصر توجيهه كل من الكرمانى، وابن الزبير، وابن جماعة، والأنصارى رحمهم الله تعالى<sup>(٢)</sup>.

ومن مواضع تقديم متعلقات الجملة ما جاء في سورة هود، ففي قصة نوح عليه السلام جاء قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ ارْءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ﴾: ٢٨، بينما في قصة صالح - عليه السلام - تقدّم المجرور على المفعول الثاني وهو (رحمة) فقال: ﴿قَالَ يَقَوْمِ ارْءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾: ٦٣.

لعلماء المتشابهة توجيهان في هذه المسألة، الأول للخطيب الإسكافي ومن وافقه حيث يرى "أن ما جاء في قصة نوح عليه السلام جار على ما جرى

(١) درة التنزيل: ١٠٤.

(٢) انظر: البرهان: ٢٠٥، وملاك التأويل: ١/٥٨١-٥٨٢، وكشف المعاني: ١٩٢-١٩٣، وفتح الرحمن: ١٦٠-١٦١.



عليه الفعل الذي قبله، من تقديم المفعول الثاني على الجار والمجرور، وهو قوله: ﴿مَا نَزَلَكَ إِلَّا بَشْرًا مِّثْلَنَا﴾، فبشراً مفعول ثانٍ من نراك، وكذلك ﴿وَمَا نَزَلَكَ أَتْبَعَكَ﴾ في موضع المفعول الثاني من نراك، وبعده ﴿بَلْ نُنَظُّكُمْ كَذِبِينَ﴾: ٢٧، فلما تقدمت ثلاثة أفعال كل واحد منها يتعدى إلى مفعولين، والمفعول الثاني لا يفصله عن الأول مفعول فيه، جرت هذه الآية على تلك الحال.

وأما في قصة صالح عليه السلام فإنه بإزاء قول قومه له: ﴿يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾: ٦٢، فوقع خبر كان الذي هو كالمفعول لكان، وتقدمه الجار والمجرور (فينا)، فترجح في الآية تقديم الجار والمجرور على المفعول الثاني وهو رحمة<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه على هذا التوجيه الإمام الكرمانى، الذي نقل نص كلامه<sup>(٢)</sup>، وتابعه أبو يحيى الأنصارى<sup>(٣)</sup>.

أما التوجيه الآخر وهو توجيه ابن الزبير الغرناطي فقال عنه: "إن قوم صالح قد بالغوا في إساءة الجواب حين قالوا: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾... فلما بالغوا في إساءة الجواب جاوبهم عليه السلام رداً لمقاهم الشنيع بقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيْ وَآتَانِيْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي: كيف ترون إن كنت على بينة واضحة وعلى يقين من ربي وآتاني منه رحمة فعصيته بموافقتكم.. وأكد بتقديم المجرور في قوله: ﴿وَآتَانِيْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ لما يحزره تقديمه من التأكيد، ويعطيه بمفهومه من أن الرحمة منه سبحانه لا يشاركه فيها غيره، وهو مخصوص لا يحصل مع تأخيره، فتقديم هذا الضمير المجرور كتقديمه في قوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾... ولما لم يكن في مراجعة قوم نوح مثل هذا في شناعة الجواب أتى بالمجرور مؤخرًا في

(١) انظر: درة التنزيل: ١٢٠.

(٢) انظر: البرهان: ٢٢١.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ١٨٩.

محله على ما يجب“<sup>(١)</sup>.

ولابن عاشور رحمه الله توجيه آخر، قال عنه بعد أن تأمل سياق الآيتين:  
(فالجواب لأن ذلك مع ما فيه من التفنن بعد التزام طريقة واحدة في إعادة الكلام المتماثل، هو أيضاً أسعد بالبيان في وضوح الدلالة ودفع اللبس، فلما كان مجرور (من) الابتدائية ظرفاً وهو (عند) كان صريحاً في وصف الرحمة بصفة تدل على الاعتناء الرباني بها وبمن أوتيها، ولما كان المجرور هنا ضمير الجلالة — يقصد في قصة صالح وهي الآية الثانية — كان الأحسن أن يقع عقب فعل (آتاني) ليكون تقييد الإيتاء بأنه من الله مشيراً إلى إيتاء خاص ذي عناية بالمؤتى)<sup>(٢)</sup>.

والذي يظهر لي والله أعلم أن توجيه ابن الزبير أولى، وهو الأنسب لمقاصد الآيات، كما أنه الأقرب لبيان السر البلاغي من هذا الاختلاف بين الآيتين، فتقديم الضمير المجرور في قصة صالح عليه السلام له دلالة وأثر يُعلم من أحداث القصة، فهم قد بالغوا في الإساءة لنبي الله عليه السلام، فلما كان هذا شأنهم، جاء الرد قوياً، فأفاد تقديم الضمير المجرور بمن التأكيد على أن الرحمة خاصة به سبحانه لا يشاركه فيها غيره، أما توجيه الإسكافي فيأتي بعد توجيه ابن الزبير، لأن فيه ملاحظة النسق، وتلاؤم اللفظ القرآني، وهذا لا يعني إغفال ما أورده، كما لا يغفل توجيه الطاهر بن عاشور، والأسرار البلاغية لا يمكن أن تتزاحم مهما تعددت.

ومثل الموضع السابق ما جاء في سورة النحل في قوله تعالى:  
﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: ١٤، حيث ورد تقديم ﴿مَوَاجِرَ﴾ على الضمير المجرور، وفي سورة فاطر جاءت الآية بتقديم الضمير

(١) انظر: ملاك التأويل: ٦٥٢/٢ — ٦٥٤.

(٢) التحرير والتنوير: ١١١/١٢.

المجرور بفي على (مواخر): ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: ١٢.

في هذا الموضع نرى أن آية النحل جاءت على الأصل في الترتيب، فمواخر حال، ثم جاء بعدها الظرف ﴿فِيهِ﴾، أما تقديم ﴿فِيهِ﴾ في فاطر فجاء على خلاف الأصل، وقد أجاب الإسكافي عن سر التقديم بمناستين الأولى معنوية وهي تعلق قوله: ﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ به، فالتقدير: وترى الفلك فيه تمخر الماء أي تشقه لتبتغوا من فضله، فأخر ﴿مَوَاجِرَ﴾ ليجاور معموله ﴿لَتَبْتَغُوا﴾، والأصل عدم الفصل، ولهذا حذفت واو العطف من قوله: ﴿لَتَبْتَغُوا﴾ بينما لم تحذف في الموضع الأول، والسر في ذلك أن آية النحل بدأت بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ﴾ وما عطف عليه من استخراج الحلية، وجري السفن، وابتغاء الفضل، أما آية فاطر فليس فيها ما يصلح لعطف الابتغاء عليه، وإنما هو متعلق بمواخر كما عرفنا.

أما المناسبة اللفظية التي اقتضاها تقديم الضمير المجرور، فهي أنه تقدم في الآية تقديم الجار والمجرور على الفعل نفسه في قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

وقد كان حديث الخطيب الإسكافي طويلاً، ومما قال بعد أن أوضح مسألة الأصل في الترتيب: "...وأما تقديم (مواخر) في هذا المكان على قوله (فيه)، فلقوة حكم الفعل الذي اعتد الله بذكره على عباده في هذه الآية لأنها مصدرية بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾، وإذا قوي حكم الفعل المتعدي إلى مفعولين مفعوله الأول الذي أصله أن يكون معرفة، ثم مفعوله الثاني الذي أصله أن يكون نكرة، ثم الظرف الذي هو كالفضلة فجاء على هذا الأصل.

فأما تقديم (فيه) في الآية الأخرى على (مواخر)، فلأن الفعل الذي قدم فيه وعطف هذا عليه بولغ في تقديم الجار والمجرور فيه مبالغة



لا مدى وراءها ولا زيادة عليها، ألا تراهما قدما على الفعل نفسه وهو: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَآكُلُونَ لَحْمًا طَرِيقًا﴾، فلما عرض قوله: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ بعد فعل هذه صفته وقد حصل فيه مفعولان وجار ومجرور، قوي تقديم الجار والمجرور (فيه) على أحد مفعوليه، ليعلم أنه من جملة كلام بني الفعل فيه على تقديم الجار والمجرور عليه<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه الكرمانى<sup>(٢)</sup>، وابن الزبير<sup>(٣)</sup>، والأنصارى<sup>(٤)</sup> على هذا التوجيه. أما ابن جماعة فاكفى بالقول في تقديم (فيه) في آية فاطر أن شق الفلك الماء لجريانه فيه آية عظيمة، فلذلك كان التقديم أنسب للفلك، وهي آية لبيان قدرة الخالق سبحانه وحكمته<sup>(٥)</sup>، وقد وافقه ابن عاشور<sup>(٦)</sup>.

ومثل الموضعين السابقين ما جاء في سورة الإسراء من تقديم ﴿لِلنَّاسِ﴾، على ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾، في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾: ٨٩، وفي سورة الكهف جاء التقديم لقوله: ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ على ﴿لِلنَّاسِ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾: ٥٤.

حين نتأمل سياق الآيات التي تقدمت الآيتين في كلا السورتين نجد أن آية الإسراء جاءت عقب أمثال ضربت، وبعد تخويف وإنذار فجاء تقديم للناس تنبيهاً، وليهتموا بتدبر القرآن، أما آية الكهف فقد وردت عقب قصص وأخبار فقدم الإشارة إلى القرآن الكريم لبيان أنه وحي، وأنه من عند الله، وهذا توجيه الإسكافي.

(١) درة التنزيل: ١٤٥-١٤٦.

(٢) انظر: البرهان: ٢٤٢.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٧٣٥/٢.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ٢١٧-٢١٨.

(٥) انظر: كشف المعاني: ٢٢٦.

(٦) انظر: التحرير والتنوير: ٢٢/٢٨٠.

يقول: ”آية الإسراء جاءت بعد أمثال ضربت نحو ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾: ٧٢، وبعد تخويف النبي ﷺ وتحذيره كتحذير الناس كلهم إذ يقول: ﴿وَأَنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَةً﴾: ٧٣، إلى قوله: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾: ٧٥، فقال بعده، وقدم للناس ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ..﴾ تنبيهاً للناس، وليهتموا بتفهمه، ويعنوا بتدبره، ويقفوا عند أوامره، وينتهوا عن زواجره، فكان موضع الآية يقتضي تقديم الناس على عادة العرب في تقديم ما عنايتهم بذكره أتم.

وأما الآية الثانية فإنها وقعت في السورة التي تقدم فيها ذكر أصحاب الكهف، وما سئل النبي ﷺ عن الإخبار به مما لم يقدر عليه إلا بأن يوحى إليه... فقال في هذا المكان: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ للدلالة على ما طلبوه من النبي ﷺ، وما قد أوحى الله به إليه في كتابه، فكان تقديم ذلك في هذا المكان أولى والله أعلم“<sup>(١)</sup>.

وفي توجيه الخطيب الإسكافي لهذا الموضع لفظة ينبغي الإشارة إليها، وهي نظرتة البعيدة في سياق النصوص، فهو يرجع سر تقديم كلمة على كلمة إلى سياق بعيد، ولنا أن نتأمل توجيهه لآية الكهف وهي الآية الرابعة والخمسون، فقد عاد لسياق أول السورة، حيث قصة أصحاب الكهف، وما تبع ذلك من قصص وأخبار إلى هذه الآية، وكذلك آية الإسراء فقد نظر إلى ما قبل الآية بما يزيد على عشر آيات.

هذا وقد تابعه الكرمانى في توجيه آية الكهف، أما آية الإسراء فله توجيه آخر حيث يرى أن الآية تقدمها قوله: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾: ٨٨، ففي هذه الآية ورد تقديم الإنس فقدم للناس في

(١) درة التنزيل: ١٥٣.

وقد وافق ابن الزبير الكرمانى في توجيه آية الإسراء وزاد في توضيحه أنه خص من الفريقين — يقصد الإنس والجن — وعين ممن ذكر "الناس" اعتناء بهم، ليظهر شرفهم على الجن، وأيضاً لثقل التكرار فيما تقارب، ولو قيل: ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً، لجاء لفظ الناس كأنه قد أعيد متصلاً، والعرب تستثقل مثل هذا فقدم المجرور ليستحكم الفصل فلا يستثقل.

أما آية الكهف فله توجيه آخر أيضاً فقد ذكر أنه لم يتكرر فيها لفظ الناس فيقع استثقال، فقدم قوله: ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾، لأن تقديمه أهم، ولم يقع قبلها ذكر الثقلين معاً فيحتاج إلى تقديم الناس<sup>(٢)</sup>.

ولابن جماعة توجيه آخر لآية الكهف فيقول: "وردت بعد ذكر إبليس وعداوته وذم اتخاذه وذريته أولياء، فناسب تقديم ذكر القرآن الدال على عداوته ولعنه"<sup>(٣)</sup>.

وللطاهر بن عاشور رحمه الله كلمة في هذا المقام حيث يقول: "إن الاعتبار الطارئة تُقدم في الكلام البليغ على الاعتبار الأصلية"، قال ذلك حين تحدث عن آية الإسراء وسر تقديم (للناس) على (في هذا القرآن)، وتوضح هذه العبارة يعلم في ثنايا حديثه حيث يقول: "ووجه تقديم أحد المتعلقين بفعل (صرفنا) على الآخر: أن ذكر الناس أهم في هذا المقام لأجل كون الكلام مسوقاً لتحديثهم والحجة عليهم، وإن كان ذكر القرآن أهم بالأصالة، إلا أن الاعتبار الطارئة تقدم في الكلام البليغ على الاعتبار الأصلية، لأن الاعتبار الأصلية، لتقررها في النفوس تصير متعارفة فتكون

(١) انظر: البرهان: ٢٥٠—٢٥١.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٧٦٥/٢—٧٦٦.

(٣) كشف المعاني: ٢٣٣.



الاعتبارات الطارئة أعز منالاً“ (١).

والحق أنه لا مانع من الأخذ بهذه الأقوال ولا يمنع أحدها الآخر، فكلها مقبولة، إلا أنني أرى أن الأقرب توجيه الخطيب الإسكافي، لأنه بني على تأمل سياق السورة كاملة، وهذا اتجاه في غاية الأهمية في الدرس البلاغي والأدبي، وقد أشرت إلى ذلك في أول المسألة والله أعلم.

ومثل الموضع السابق ما جاء في سورة المؤمنين في قصة نوح وهود، ففي قصة نوح جاء قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾: ٢٤، بتقديم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾، وفي قصة هود جاء التعبير القرآني على عكس ذلك فقدّم ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ على ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: ٣٣.

إذا نظرنا في الآية الأولى في قصة نوح عليه السلام نجد أنها جاءت على الأصل، فصلة (الذين) اقتصرت على الفعل وضمير الفاعل، ثم ذكر بعده الجار والمجرور، ثم ذكر المفعول وهو المقول، وليس كذلك الآية الأخرى فصلة الموصول طالت بذكر الفاعل والمفعول والعطف عليه مرة بعد أخرى، فقدم المجرور، لأن تأخير مثل الآية الأولى يلبس، وحتى لا يحال بين الصفة وما عطف عليها وهذا هو رأي الإسكافي.

يقول: ”لما انقطعت صفة الملاء في الآية الأولى إلى المحكي من قولهم قرن الوصف بالذين إلى الموصوف، ثم جيء بالجار والمجرور فكان منتهى بيان فاعل قال، ولم يكن كذلك القصد في الآية الآخرة، لأنه عدت أفعال عطفت على الفعل، الذي هو صلة الذين، فقدم الجار والمجرور لئلا يحال بين الصلة، وما عطف عليها، فقال: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، فكان كل ذلك مما أتبع قوله: ﴿كَفَرُوا﴾، ولو قال: وقال الملاء

(١) التحرير والتنوير: ٢٠٤/١٥—٢٠٥.

الذين كفروا من قومه وكذبوا بقاء الآخرة لم يكن على النظم المرتضي فيما يستفصح من الكلام، وإن كان جائزاً، فلذلك قدم الجار والمجرور في الأخيرة، وأخر في الأولى<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه على ذلك علماء المتشابه<sup>(٢)</sup>، وعلماء البلاغة على حد سواء<sup>(٣)</sup>. ومثل هذا الموضع أيضاً ما جاء في سورة المؤمنين كذلك، حيث قُدم ﴿نَحْنُ وَعِبَادُنَا﴾ على اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَبَادُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: ٨٣، وفي سورة النمل جاء التقديم لاسم الإشارة فقال: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَبَادُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: ٦٨.

تحدث الإسكافي عن الآيتين مبيناً المناسبة من جهة المبنى فالآية الأولى أسندت فيها الأفعال إلى فاعليها بدون فصل، وهذا هو القياس، فإن الضمير المرفوع المتصل لا يجوز العطف عليه حتى تؤكد بالضمير المنفصل، فأكد ﴿وَعَدْنَا﴾ بـ ﴿نَحْنُ﴾ ثم عطف عليه ﴿ءَبَادُنَا﴾ ثم ذكر المفعول وهو ﴿هَذَا﴾، أما آية النمل فقدّم اسم الإشارة موافقة للآية المتقدمة وهي: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَبَادُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾: ٦٧، فهنا تقدم ﴿تُرَابًا﴾ والقياس: كنا نحن وآباؤنا تراباً، فقدم (تراباً) ليسد مسد (نحن).

يقول الخطيب: "الجواب أن يقال: لما كان الأول في حكاية تظاهرت فيها أفعال أسندت إلى فاعليها متصلة بها وهو ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾، فهذان فعلاّن تعلق بهما هذا المحكي، وكل واحد منهما جاء بعده فاعله مواصلاً له غير منفصل عنه، ثم بعده ﴿قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا﴾ فكل هذه الأفعال قصد بها حكاية ما جاء بعدها، فلما قال: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا﴾ وجب في البناء على

(١) درة التنزيل: ١٧٥.

(٢) انظر: البرهان: ٢٧٥، وملاك التأويل: ٨٧٦/٢، وكشف المعاني: ٢٦٦، وفتح الرحمن: ٢٨٢.

(٣) انظر: مفتاح العلوم: ٢٣٩، والمصباح: ٥٢، والإيضاح: ١٧٠/٢، وعروس الأفراح للسبكي: ١٦٣/٢، والمطول: ٢٠٣.

الأفعال المتقدمة أن يتم حكم الفاعل وهو توكيده، والعطف عليه فقدم ﴿نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا﴾ على المفعول الثاني، وهو ﴿هَذَا﴾ لذلك، ولأن الأصل إذا جرى عليه الشيء أولى من غيره.

أما الآية الثانية من سورة النمل فإن الذي تقدمها ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا﴾ فأخر المعطوف على اسم كان الذي هو كالفاعل لها وهو قوله ﴿وَأَبَاؤُنَا﴾ عن المنصوب الذي هو كالمفعول لها وهو قوله ﴿تُرَابًا﴾ فصار ما هو كالمفعول مقدماً على ما هو معطوف على الفاعل المضمّر<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه على هذا التوجيه كل من الكرمانى، وابن جماعة، والأنصارى<sup>(٢)</sup>. أما ابن الزبير فيرى أن سر التقديم في آية المؤمنين (لأنه تقدم قبل الآية قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾: ٦٨، فتقدم التعريف في هذه الآية أن آبائهم قد جاءتهم الرسل، وأنذروا كما أنذر هؤلاء، لهذا قالوا ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾، ولما لم يتقدم في آية النمل ذكر إنذار آبائهم كان أهم شيء ذكر الموعود به الذي هو (هذا)، فقالوا ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا﴾<sup>(٣)</sup>.

ويلحظ أن ابن الزبير رحمه الله ربط بين آية المؤمنين وبين آية تقدمتها بخمس عشرة آية، وهذه نظرة بعيدة في السياق المتقدم، أما الإسكافي فنظر للآية التي تقدمتها مباشرة وهي: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ وكما قال ابن جماعة: الأولون هم آبائهم، وهذا يغني في تحقيق المراد، وإن كانت الأقوال كلها تعنى بالمناسبة اللفظية للآيتين.

أما الزمخشري فذهب إلى أن التقديم يعود إلى أهمية المقدم بالنسبة للغرض المسوق له الكلام، يقول: (فإن قلت: قدم في هذه الآية (هذا) على (نحن

(١) درة التنزيل: ١٧٧.

(٢) انظر: البرهان: ٢٧٧، وكشف المعاني: ٢٦٨، وفتح الرحمن: ٢٨٣.

(٣) ملاك التأويل: ٨٨٠/٢.



وآباؤنا)، وفي آية أخرى قدّم (نحن وآباؤنا) على (هذا)؟ قلت: إن المقدم هو الغرض المعتمد بالذكر، لأن الكلام إنما سيق لأجله، ففي إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الذي تعمد بالكلام، وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوثين بذلك الصدد<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه من المفسرين كل من الفخر الرازي، وأبي حيان، والألوسي، وابن عاشور رحمهم الله<sup>(٢)</sup>.

كما أشار إلى توجيه الزمخشري أيضاً السكاكي في «مفتاح العلوم»، وجعله ضمن موضوع تقلسم بعض المعمولات على بعض، وأن الغرض من التقلسم العناية، والاهتمام بشأن المقدم<sup>(٣)</sup>، كما أشار إليه بدر الدين في «المصباح»<sup>(٤)</sup>، والقزويني في «الإيضاح»<sup>(٥)</sup>.

وحين نتأمل توجيه الزمخشري ومن وافقه، ثم نعود لسياق الآيات التي تقدمت الآيتين نلاحظ الحالة النفسية التي كان عليها منكرو البعث، فآية النمل جاء قبلها ﴿أَذَاكُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَبْنَاءَ الْمُحَرِّجُونَ﴾ فالإنكار قوي، فلما قالوا ﴿أَذَاكُنَّا تُرَابًا﴾ أبعد احتمال وقوع البعث عندهم، كما لم يكن في قولهم ذكر للموت، فلهذا تقدم اسم الإشارة الدال على ذلك، لكونه محل إنكارهم، وحتى يكون حاضراً في أذهانهم، أما آية المؤمنين فجاء قبلها: ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ أَوْ كُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ فهم أقروا بالموت، وأنهم سيصبحون تراباً وعظاماً، فالإنكار هنا أضعف، وذلك لذكر العظام وذكر الموت، فتقدم (نحن

---

(١) الكشاف: ١٥٨/٣.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ١٨٣/٢٤، والبحر المحيط: ٩٤/٧، وروح المعاني: ٢٢٦/١٠، والتحرير والتنوير: ٢٥/٢٠.

(٣) انظر: مفتاح العلوم: ٢٣٨—٢٣٩.

(٤) انظر: المصباح في المعاني والبيان والبدیع: ٥٢.

(٥) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ١٦٩/٢—١٧٠.

وآباؤنا) وتأخر اسم الإشارة، لأنه موضع الاستغراب والإنكار<sup>(١)</sup>.

وكل الأقوال التي ذكرها هؤلاء العلماء الأجلاء مقبولة وحسنة، ولا يمنع أن تُحمل الآيتان على هذه الاعتبارات، فالخطيب الإسكافي يرى أن الآية الأولى جاءت على الأصل، والثانية لموافقة الآية التي قبلها، وابن الزبير ربط بين الآية وبين آية تقدمتها بخمسة عشر آية ورد فيها إنذار آبائهم، والزمخشري ومن وافقه ذهبوا إلى أن التقديم يعود لأهمية المقدم وخلاصة القول أن أقوال علماء المتشابه تنظر في السياق وتلاؤم اللفظ، أما نظرة الزمخشري ومن وافقه فهي إلى دلالة المعنى أقرب، والله أعلم.

ومن الآيات المتشابهة التي تناولها علماء المتشابه في موضوع التقديم والتأخير، ما جاء في سورة يونس من تقديم الأرض على السماء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾: ٦١، وفي سورة سبأ جاء تقديم السماء على الأرض على المعتاد في أسلوب القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: ٣، وجاء بعد هذه الآية: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: ٢٢. تحدث الإسكافي رحمه الله عن تقديم السموات في آية سبأ الأولى، وبنى ذلك على التقديم الوارد في أول السورة وهو قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾: ١، وعلى هذا جاءت الآية التي بعدها بتقديم السموات على الأرض أما آية يونس فقد جاءت عقب قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾: ٦١، فالمقصود من الآية ذكر علمه سبحانه وتصريفه لعباده من خير أو شر، وذلك كائن في الأرض فجاء تقديم الأرض على السماء.

يقول رحمه الله: ”إنما قدم ذكر السموات على الأرض في سورة سبأ، لأن هذه الآية مبنية على مفتتح السورة وهو: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ

(١) انظر: خصائص التعبير القرآني: ١٨٥/٢.

وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴿١﴾ فقدم ذكر السموات، لأن ملكها أعظم شأنًا وأكبر سلطاناً.. وأما التي في سورة يونس، فإنها جاءت عقيب قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، فكان القصد إلى ذكر علمه بما يتصرف فيه العباد من خير أو شر، وذلك في الأرض، فأتمه بقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾، واستوعب جميع ما في الأرض ثم أتبعه ذكر السماء، لأن الابتداء وقع بما يتعلق بها، وما يعمل العباد فيها، فلذلك قدمت الأرض عليها<sup>(١)</sup>.

وتعليل الإسكافي لآية سبأ وأن الآية مبنية على مفتاح السورة وراءه أصل بلاغي أشرت إليه في توجيه الإسكافي لآية الكهف ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ﴾، وهو أن سياق الكلام في السورة يتلاحم ويترابط ويبيّن بعضه بعضاً، حتى يتآخى الكلام ويشبه بعضه بعضاً، ليس في المعنى فحسب، وإنما في المبنى أيضاً.

وقد وافقه الكرمانى في توجيه الآيتين واختصر، واكتفى بالقول عن آية يونس أن سبب تقديم الأرض على السماء لأن المخاطبين فيها، وتقديم السموات في سبأ لتقدمها في أول السورة<sup>(٢)</sup>. أما ابن جماعة فوافق الخطيب الإسكافي في توجيه آية يونس، أما آية سبأ فذكر أنه تقدم الآية إنكار الكفار للقيامة، وما فيها من أمور غيبية فناسب ذلك تقديم السماء<sup>(٣)</sup>.

وقد أشار الكرمانى رحمه الله إلى أن لفظ الأرض لم يتقدم على السماء في القرآن إلا في خمسة مواضع، وأقول: إن هذا من استقصائه رحمه الله، وكأنه يطالع معجماً لألفاظ القرآن الكريم، هذا وقد جاء تقديم الأرض على لفظ السماء في أربعة مواضع هي: الأول ما جاء في يونس، والثاني في

(١) درة التنزيل: ٢١٥.

(٢) انظر: البرهان: ٢١٨، ٣٠٨.

(٣) انظر: كشف المعاني: ٢٠٦.



آل عمران ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾: ٥، والثالث في إبراهيم ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾: ٣٨، والرابع في العنكبوت ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾: ٢٢، والموضع الخامس جاء التقديم فيه على لفظ (السموات) بالجمع، وهو في سورة طه ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾: ٤.

أما ابن الزبير الغرناطي فذكر وجهاً آخر وهو: أنه ناسب تقديم الأرض على السماء، لأن السماء مصدر الأمر، ومحل العلو ومسكن الملائكة، وهي مشاهدة لهم، فكان العلم بما فيها أجلى وأظهر، وكان العلم بما في الأرض أخفى<sup>(١)</sup>.

وهذا التوجيه فيه نظر فعلم المخلوقين بالأرض يكون أجلى وأظهر لقربهم منها ومعرفتهم بأحوالها وأسرارها، بخلاف علمهم بما في السماء. أما الزمخشري فله توجيه قريب من توجيه الإسكافي لآية يونس، حيث قال: ”لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ووصل بذلك قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ﴾، لاءم ذلك أنه قدم الأرض على السماء“<sup>(٢)</sup>. وقد وافقه الفخر الرازي ونقل كلامه، وتابعه أبو حيان، وافقهما الألوسي، والطاهر بن عاشور، وزين الدين الرازي صاحب كتاب «الأنموذج»<sup>(٣)</sup>.

أما الإمام السهيلي رحمه الله فله كلام جيد في هذا الموضع وإن كان يقرب من توجيه الإسكافي والزمخشري يقول: ”وأما تقديم (السماء) على

(١) انظر: ملاك التأويل: ٦٢٧/١-٦٢٨.

(٢) الكشف: ٢٤٣/٢.

(٣) انظر: التفسير الكبير: ٩٩/١٧، البحر المحيط: ١٧٤/٥، روح المعاني: ١٣٧/٦، التحرير والتنوير: ٢١٤/١١ و(أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب التنزيل): ١٩. والمؤلف هو محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، من علماء القرن السابع، له كتاب (الذهب الإبريز في تفسير الكتاب العزيز).

(الأرض) فبالرتبة أيضاً وبالفضل والشرف، وأما تقديم الأرض من قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فبالرتبة، لأنها منتظمة بذكر ما هي أقرب إليه، وهم المخاطبون بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾، فاقترضى حسن النظم تقديمها مترتبة في الذكر مع المخاطبين الذين هم أهلها، بخلاف الآية التي في سبأ، فإنها منتظمة بقوله: ﴿عَلِيَ الْغَيْبِ﴾<sup>(١)</sup>.

ومراد السهيلي بالرتبة في تقديم السماء على الأرض، يرجع إلى أن السماء أشرف من الأرض لأنها محل الأمر والعلو والرفعة، أما الرتبة في تقديم الأرض على السماء في آية يونس فالمراد بها رتبة أسلوب، لأنه تقدم ما يقتضي ذكر الأرض، وهو ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾، فتقدم ذكرها.

وقد أشار ابن الزملكاني إلى توجيه السهيلي ونقل جزءاً منه<sup>(٢)</sup>، كما وافقه ابن القيم، ونقل كلامه أيضاً<sup>(٣)</sup>.

ومن مواضع التقديم ما ورد في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّى إِنَّ الْمَلَائِيَّةَ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾: ٢٠، حيث جاء ترتيب النظم على وضعه الأصلي فولي الفعل فاعله وهو (رجل)، وفي سورة يس جاءت الآية بتقديم الجار والمجرور على الفاعل، يقول تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومُ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾: ٢٠، فهنا فصل بقوله: (من أقصى المدينة) بين الفعل وفاعله وذلك على خلاف الأصل. والآيتان مختلفتان من حيث الموضوع فالرجل في آية القصص هو مؤمن آل فرعون، والمدينة في مصر، أما آية يس فالرجل هو حبيب بن إسرائيل النجار، والمدينة هي أنطاكية<sup>(٤)</sup>، وهذا لا يمنع أن هناك سراً لهذا الاختلاف اللفظي.

(١) نتائج الفكر: ٢٧٠.

(٢) انظر: التبيان في علم البيان: ١٥٠.

(٣) انظر: بدائع الفوائد: ١/٧٤، ٦٣، وانظر: ابن القيم وحسه البلاغي: ١٠٢—١١٠.

(٤) انظر: فتح القدير: ٤/١٦٥، ٣٦٥.

للخطيب الإسكافي رحمه الله كلام جيد في هذه المسألة إذ يرى أن تقديم الجار والمجرور في يس، يفيد تبكيت القوم، فالناصح جاء من أقصى مكان في المدينة، وهو لم يحضر ما يحضرون، ولم يشهد ما يشهدون من الآيات والنذر، أما تقديم الرجل في القصص فلأنه الأصل، ولم يكن فيه ما يدعو إلى التبكيت.

يقول رحمه الله: ”الذي يفاد المخاطب أن يعرف أنه — أي الرجل — جاء من مكان بعيد إلى مجتمع الناس في القرية، وحيث لا يقرب من مجاري القصة، ولا يحضر موضع الدعوة ومشهد المعجزة، فقدم ما تبكيت القوم به أعظم والتعجب منه أكثر، فقال: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾، ينصح لهم ما لا ينصحون مثله لأنفسهم، ولا ينصح لهم أقربوهم، مع أنه لم يحضر جميع ما يحضرونه، ولم يشهد من كلام الأنبياء ما يشهدونه.. وأما الآية الأولى من سورة القصص فإن المراد جاء من لا يعرفه موسى من مكان لم يكن مجاوراً لمكانه، فأعلمه ما فيه الكفار من ائتمارهم به، فاستوى حكم الفاعل والمكان الذي جاء منه، فقدم ما أصله التقديم وهو الفاعل، إذ لم يكن هنا تبكيت للقوم بكونه من أقصى المدينة، كما كان ذلك في الآية المتقدمة“<sup>(١)</sup>. وقد وافقه ابن الزبير<sup>(٢)</sup>.

أما الكرمانى فذكر أن تقديم الفاعل في آية القصص وهو (رجل)، لأنه تقدم قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ﴾، وآية يس بتأخيرها، لأنه كان يعبد الله في جبل، فلما سمع خبر الرسل سعى مستعجلاً<sup>(٣)</sup>. وقد وافقه أبو يحيى الأنصاري رحمه الله، ونقل توجيهه برمته كعاداته<sup>(٤)</sup>.

(١) درة التنزيل: ٢١٩.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٩٠٤/٢ — ٩٠٥.

(٣) انظر: البرهان: ٢٩٠.

(٤) انظر: فتح الرحمن: ٣١٤ — ٣١٥.



أما السكاكي فله توجيه حسن، وهو يضاف لتوجيه الإسكافي السابق في جودته فيرى أن سر تقديم الجار والمجرور في آية يس، لأن ما قبل هذه الآية دال على سوء معاملة أهل المدينة للرسول، فكان ذلك مظنة أن يسأل سائل: أكانت هذه المدينة كلها بهذه الصفة، أم أن فيها موطناً هو منبت خير؟ لذلك قدّم ما يشتمل على المدينة، لأنها أهم عند المخاطب<sup>(١)</sup>.

وقد أخذ عنه هذا التوجيه ابن مالك، والخطيب القزويني، والتفتازاني<sup>(٢)</sup>. وقد ذكر ابن عاشور أن الرجل في آية القصص كان ناصحاً، فجاء الترتيب على الأصل، أما في آية (يس) فالرجل جاء يدعو للإيمان، وفي هذا اهتمام، وثناء على أهل أقصى المدينة، وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط<sup>(٣)</sup>.

وأختم هذا الفصل بما ذكره ابن الزبير الغرناطي عن آية سورة الحديد: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ١٢، وفي سورة التحريم قدّم الفاعل، وأُخِّرَ الفعل ﴿يَسْعَى﴾، يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ...﴾: ٨، فالنور جاء تارة بعد الفعل، وتارة قبله.

يقول ابن الزبير: "قوله في سورة التحريم ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ يفهم من حيث المعية قرب المنزلة وعلو الحال فتقدم ثبوته، فناسب ذلك ورود الجملة الاسمية هنا لما تقتضيه من الثبات وتقدمه واستحكامه.

أما قوله في سورة الحديد ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ فبشارة للمؤمنين، ولم يأت هنا كونهم مع نبيهم، فلم يتحصل مما يفهم تمكن المنزلة وثبوتها ما تحصل في آية التحريم، إنما هذه بشارة، فناسبها التجدد والحدوث، فناسب

(١) انظر: مفتاح العلوم: ٢٣٨.

(٢) انظر: المصباح: ٥٢، والإيضاح: ١٦٩/٢، والمطول: ٢٠٢.

(٣) انظر: التحرير والتنوير: ١٦٥/٢٢—١٦٦.

ذلك الفعل بما يعطيه من المعنى ليفهم التكرار وحدث الشيء بعد الشيء،  
فورد كل على ما يجب ويناسب..“<sup>(١)</sup>.

وتعليق ابن الزبير للآيتين لم يشر إليه من تقدمه كالإسكافي أو الكرمانى،  
ولا من تأخر عنه كابن جماعة، أو أبى يحيى الأنصارى، أو غيرهم من علماء  
التفسير؛ ولهذا نرى ابن الزبير يضع علامة (غ) فى أول المسألة لينبه على أن  
المسألة جديدة وأن حديثه عنها لم يسبق إليه.

---

(١) ملك التأويل: ١٠٧١/٢ — ١٠٧٢.





## الفصل الثالث

الاختلاف بين الآيات المتشابهة  
في الفصل والوصل



## الفصل الثالث

### الاختلاف في الفصل والوصل

الفصل والوصل باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، كثير الأسرار، عظيم الفائدة، جعله الفرس حداً للبلاغة، حيث قيل لفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل<sup>(١)</sup>.

ويقول عبد القاهر الجرجاني عن الفصل والوصل: ”واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: إنه خفي غامض، ودقيق صعب، إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب..“<sup>(٢)</sup>.

وقد كان الجاحظ من أوائل من تكلموا على الفصل والوصل في كتبهم<sup>(٣)</sup>، كما أن لأبي هلال العسكري وقفة طويلة عند هذا الموضوع، فقد ذكر أقوالاً كثيرة تدل على أهمية هذا الأسلوب في البلاغة، والفصل والوصل عندهما يراد به معرفة مقاطع المعاني ونهاياتها، ومعرفة مطالعها ومبادئها، وقد بحث أبو هلال ما يتصل بفصول القصيدة ومقاطعها، ويعنون بالفصول والمقاطع أواخر الأبيات التي تقابل مطالعها وابتدائها، وتطرق إلى فواصل كتاب الله تعالى، وقال: إن من حسن المقطع جودة الفاصلة وحسن موقعها وتمكنها في موضعها<sup>(٤)</sup>. أما عبد القاهر الجرجاني فإنه يعد أول من أبان أسرار هذا العلم، فقد

---

(١) انظر: البيان والتبيين: ٨٨/١.

(٢) دلائل الإعجاز: ٢٣١.

(٣) انظر: البيان والتبيين: ٨٨/١ وما بعدها.

(٤) انظر: كتاب الصناعتين: ٤٣٨—٤٥٢.



بحثه بحثاً دقيقاً يقوم على التقسيم والتحليل والتعليل، كما ربطه بباب العطف بناء على ربط البلاغة بمعاني النحو، فجعل النظم توخياً لمعاني النحو بين الكلم، وبحثه رحمه الله يختلف عن بحث الجاحظ وأبي هلال، فالمراد بالوصل عنده عطف بعض الجمل على بعض، والفصل ترك العطف<sup>(١)</sup>.

وقد أجمل مواضع الفصل والوصل بقوله: ”إن الجمل على ثلاثة أضرب:

١— جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكد، فلا يكون فيها العطف ألبتة، لشبه العطف فيها، لو عُطفت بعطف الشيء على نفسه.

٢— وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله، إلا أنه لا يشاركه في حكم، ويدخل معه في معنى، مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلاً أو مفعولاً أو مضافاً إليه، فيكون حقها العطف.

٣— وجملة ليست في شيء من الحالين، بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه شيء، فلا يكون إياه ولا مشاركاً له في معنى، بل هو شيء إن ذكر لم يذكر إلا بأمر ينفرد به، ويكون ذكر الذي قبله وترك الذكر سواء في حاله، لعدم التعلق بينه وبينه رأساً، وحق هذا ترك العطف ألبتة.

فترك العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية أو الانفصال إلى الغاية، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين، وكان له حال بين حالين، فاعرفه“<sup>(٢)</sup>. بعد عبد القاهر جاء علماء البلاغة فرتبوا بحثه وأوضحوا مقاصده، فكان جهدهم أدق ضبطاً وأكثر تقييداً، وقد استفاد الخطيب القزويني من عبد القاهر،

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز: ٢٢٢—٢٤٨، ودلالات التراكيب للدكتور أبو موسى: ٢٦٨—٢٧١. وانظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها لأحمد مطلوب: ١١٧/٣—١٢٥، ومعجم البلاغة العربية للدكتور بدوي طبانة: ٥٠١—٥٠٥.

(٢) دلائل الإعجاز: ٢٤٣.

ومن السكاكي<sup>(١)</sup>، فأصل القواعد وحددها مع الشرح والتعليل<sup>(٢)</sup>، جاء بعد ذلك شراح التلخيص الذين اعتنوا به، حتى انتهى إلى الصورة التي نراها في كتب البلاغة اليوم<sup>(٣)</sup>.

هذا وقد كان لعلماء المتشابه اللفظي مشاركة طيبة في هذا الموضوع من خلال توجيه الآيات المتشابهة في ألفاظها المختلفة من حيث الفصل والوصل، فبينوا دواعي الفصل والوصل في الآيات التي تناولوها في بحثهم، والآيات المتشابهة في هذا الموضوع تعد قليلة مقارنة بالفصلين السابقين، ولهذا سيكون حديثي في ضوء ترتيب الآيات في المصحف الشريف.

وقد حصرت ما جاء في كتاب الله تعالى من آيات متشابهة في موضوع الفصل والوصل، فوقفت عند أحد عشر موضعاً، وقد تحدث عنها علماء المتشابه اللفظي في مصنفاتهم، وسأقف عند كل موضع لأوضح أقوالهم، وأستطلع آراءهم، ونستنبط الأسرار والدقائق في الآيات المتشابهة.

وأول موضع يطالعنا في كتب المتشابه حديثهم عن قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾: ٤٩، حيث فصلت جملة ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ عما قبلها، وفي سورة إبراهيم جاءت الآية بالوصل، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾: ٦، فما سر الاختلاف بين الآيتين؟

الخطيب الإسكافي يرى أن قوله: (يذبحون) في آية البقرة بدل من (يسومونكم) فالآية إخبار من الله تعالى بإنجاء بني إسرائيل، فلم يُرد تعداد المحن التي أصابت بني إسرائيل، فوقع الفصل، أما آية إبراهيم فقد تقدمها قوله:

(١) انظر: مفتاح العلوم: ٢٤٨ وما بعدها.

(٢) انظر: الإيضاح: ٩٧/٣—١٦٥.

(٣) انظر: مختصر السعد، ومواهب الفتاح، وعروس الأفراح: شروح التلخيص: ٢/٣ وما بعدها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا..﴾ الآية: ٥، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: ٦، فلما تقدم ذلك ناسب العطف بالسواو، فعطف يذبحون على سوم العذاب للدلالة على أنه نوع آخر فكأنه قال: يعذبونكم ويذبحون، وهذا فيه تعداد للمحن، وتذكيرهم بأنواع النعم التي أنعمها عليهم، فالآيات من كلام موسى عليه السلام، حيث أمر بتعديد ذلك فكان الوصل للآية أنسب.

يقول الخطيب: (القول في ذلك أنه جعل يذبحون بدلاً من قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، لم يحتج إلى السواو، وإذا جعل (يسومونكم سوء العذاب) عبارة عن ضروب من المكروه، هي غير ذبح الأبناء لم يكن الثاني إلا بالسواو، وفي الموضعين يحتمل الوجهين، إلا أن الفائدة التي يجوز أن تكون خصصت لها الآية في سورة إبراهيم بالعطف بالسواو وهي أنها وقعت هنا في خبر قد ضمن خبراً متعلقاً به، لأنه قال قبله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: ٥، ثم قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فضمن إخباره عن إرسال موسى إخباره عن تنبيهه قومه على نعمة الله ودعائهم إلى شكرها، فكان قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ في هذه السورة في قصة مضمنة قصة يتعلق بها هي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾، والقصة المعطوفة على مثلها تقوي معنى العطف فيها فنجتاز فيما كان يجوز فيه العطف على سبيل الإيثار لا على سبيل الجواز، وليس كذلك موقع (يذبحون) في الآية التي في سورة البقرة، لأنه تعالى أخبر عن نفسه بإنجائه بني إسرائيل، وهناك أخبر عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه كذا، بعد أن أخبر عنه أنه أرسله إليهم بآياته<sup>(١)</sup>.

(١) درة التنزيل: ٧.



وقد وافقه على ذلك واختصر توجيهه كل من الكرمانى، وابن جماعة،  
والأنصارى رحمهم الله تعالى<sup>(١)</sup>.

أما ابن الزبير فقد أخذ معنى كلام الإسكافى وعبر بطريقة أخرى فذكر  
أن سورة إبراهيم مبنية على الإجمال والإيجاز فيما تضمنته من قصص الرسل  
وغير ذلك، ولم يقصد فيها البسط كما في غيرها، كما انضم إلى قصد الإيجاز  
تغليظ الوعيد. فقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يشير إلى جملة ما امتحنوا به  
من فرعون وآله من استخدامهم وإذلالهم بالأعمال الشاقة وغير ذلك، فلما  
وقعت الإشارة إلى هذه الجملة مما كانوا يمتحنونهم به جرّد منها وعين بالذكر  
أشدّها وأعظمها امتحاناً، فجاء به معطوفاً، لأنه مغاير لما تقدمه فقل:  
﴿وَيُذَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾، أما آية البقرة فتحمل على البدل وعلى الاستئناف  
وهو الأولى، وكأنه قد قيل: وما ذاك؟ فقل: يذبحون أبناءكم<sup>(٢)</sup>. وهذا هو  
معنى كلام الإسكافى، إلا أنه زاد أن آية البقرة قد تحمل على الاستئناف  
وجعله أولى.

وقد وافق الزمخشري الإسكافى في التعليل إلا أنه جعل الذبح في آية البقرة  
تفسيراً للعذاب وبياناً له وهو قريب من توجيه الإسكافى<sup>(٣)</sup>.

كما وافقهم أيضاً كل من الفخر الرازى، وأبي حيان، والزر كشي،  
والسيوطى، والألوسى، وابن عاشور، رحمهم الله تعالى<sup>(٤)</sup>.

فعلى هذا فإن سبب الوصل هو جعل الجملة الثانية مستقلة بنفسها،  
فلما عطفت على ما قبلها جعلت كأنها مغايرة لها، من أجل تكثير المصائب

---

(١) انظر: البرهان: ١٢٢، وكشف المعاني: ٩٥—٩٦، وفتح الرحمن: ٢٧.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٢٠٠/١—٢٠٢.

(٣) انظر: الكشف: ٣٦٨/٢، وانظر: دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى: ٣٠٢.

(٤) انظر: التفسير الكبير: ٦٧/١٩، والبحر المحيط: ٤٠٦/٥، والبرهان في علوم القرآن: ١١٦/١،

والإتقان: ١١٥/٢ ومعتزك الأقران: ٨٧/١—٨٨ للسيوطى، وروح المعاني: ١٨٠/٧،

والتحرير والتنوير: ١٩١/١٣—١٩٢.

التي يمتن الله بتفريجها عن بني إسرائيل، ومن أجل التنويه بشأن هذه النعمة بالذات، حيث صارت من قبيل عطف الخاص على العام.

ومن مواضع الفصل والوصل في التشابه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: ٥٨، فقد جاءت هذه الآية بالوصل، بينما جاءت في الأعراف بالفصل: ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: ١٦١.

لم يوضح الإسكافي رحمه الله السر البلاغي من الاختلاف بين الآيتين، وإنما اقتصر حديثه على بيان الخلاف بين البصريين والكوفيين في مسألة مجيء المفعول جملة، بـ بدل المفعول المفرد، في ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا﴾، و﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا﴾، وناقش رأي أبي سعيد السيرافي في ذلك<sup>(١)</sup>.

أما الكرمانى فأوضح أن آية البقرة جاءت بالوصل؛ لأن الاتصال أشد وأقوى حيث أسند فيه القول إلى الله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا...﴾، فالواو عطفت جملة (ستريد) على جملة (قلنا ادخلوا)، أي: وقلنا ستريد، أما آية الأعراف فجاءت مستأنفة. إذ بين الجملتين في آية البقرة علاقة حسنة الوصل، أما آية الأعراف فبين الجملتين اختلاف، فحذفت الواو حتى تحمل الجملة على الاستئناف.

يقول: "لأن اتصالها في هذه السورة — البقرة — أشد لاتفاق اللفظين، واختلفا في الأعراف فكان اللائق به ﴿سَنَزِيدُ﴾ فحذف الواو ليكون استئنافاً للكلام"<sup>(٢)</sup>.

وقد وافقه الأنصاري الذي نقل كلامه، كما وافقه ابن عاشور<sup>(٣)</sup>. أما ابن الزبير فنظر للسياق المتقدم للآيتين وأوضح أن آية البقرة تقدمها

(١) انظر: درة التنزيل: ٩.

(٢) البرهان: ١٢٤.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٢٨، والتحرير والتنوير: ٥١٦/١.

آيات "من لدن قوله سبحانه: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُونَ نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾: ٤٠، إنما هي آلاء ونعم، كما تقدم، عددت عليهم على التفصيل شيئاً بعد شيء، فناسب ذلك عطف قضية الزيادة بالواو ليجري على ما تقدم من تعداد الآلاء وضروب الإنعام بالعفو عن الزلات والامتنان بضروب الإحسان، ولهذا القصد من إحراز التعداد، ورد: ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ هنا بالواو، ولم يكن ليحصل ذلك لو لم ترد الواو هنا، وأما آية الأعراف فلم يرد قبلها ما ورد في سورة البقرة<sup>(١)</sup>، وقد وافقه ابن جماعة<sup>(٢)</sup>.

وللفخر الرازي تعليل آخر يرى فيه أن آية الأعراف جاء فيها ذكر أمرين: "أحدهما: قول الحطة، وهو إشارة إلى التوبة، وثانيها: دخول الباب سجداً، وهو إشارة إلى العبادة، ثم ذكر الجزاءين، أحدهما: قوله تعالى: ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾، وهو واقع في مقابلة قول الحطة، والآخر: قوله: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، وهو واقع في مقابلة دخول الباب سجداً، فترك الواو يفيد توزع كل واحد من الجزاءين على كل واحد من الشرطين. وأما في سورة البقرة فيفيد كون مجموع المغفرة والزيادة جزاء واحداً لمجموع الفعلين، أعني دخول الباب وقول الحطة<sup>(٣)</sup>.

ومن المواضع قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾: ٥١، حيث جاءت الآية بالفصل، بينما وردت آية سورة مريم بالوصل في قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾: ٣٦، وهذا الموضع مما انفرد بتوجيهه ابن الزبير عن بقية علماء المتشابه، وقد سبق لنا أن تناولنا هاتين الآيتين مع آية سورة الزخرف ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾: ٦٤، في فصل الذكر والحذف، حيث زيدت آية الزخرف بالضمير المنفصل دون

(١) ملاك التأويل: ٢٠٧/١—٢٠٨.

(٢) انظر: كشف المعاني: ٩٧.

(٣) التفسير الكبير: ٣٠/١٥.



الآيتين الآخرين، ويراجع ذلك في مكانه من البحث، حيث بسطنا أقوال علماء المتشابه في مسألة زيادة ضمير الفصل.

وقد ذكر ابن الزبير رحمه الله أن آية مريم لما تضمنت مقالة عيسى عليه السلام، وآية كلامه في المهد مخبراً عن حاله النبوية، وما منحه الله من الخصائص الجليلة منسوقاً بعضها على بعض، فذكر حفظ الله له، وتكريمه إياه في أحواله الثلاث حال الولادة والموت والبعث وبعده، وهذه أحوال تنزهه الربوبية عنها وتعالى، ثم لما كان تمام إخبار عيسى عليه السلام وتكميل ما قصده به الإقرار لله سبحانه بالربوبية لكل في قوله تعالى ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، فلما كان الكلام متصلاً بما تقدم في معناه، وقد ورد فيه ما يظهر أن كلام عيسى عليه السلام تم وانقضى وذلك في قوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾: ٣٣، ثم جاء بعد ذلك قضية أخرى من التعريف بحقيقة عيسى عليه السلام فقال: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾: ٣٥، فورد هذا مورد الجمل، التي كأنها مفصلة مما قبلها مع الحاجة إلى اتصال ما بعدها بما قبلها، فلا بد من حرف النسق، ليحصل منه أنه كلام غير منقطع بعضه من بعض، ولا مستأنف، بل هو معطوف على ما تقدمه من كلام عيسى عليه السلام<sup>(١)</sup>.

وهذه نظرة جيدة قائمة على النظر في سياق القصة كاملة، من أولها إلى موضع الشاهد، وهذه النظرة من الأسس التي يبنى عليها علماء المتشابه توجيهاتهم.

ثم قال رحمه الله بعد ذلك: (فالوجه العطف عليه مع الحاجة إلى ما توسط الكلامين، فهذا وجه ورود الواو هنا، ولم يعرض في آية آل عمران

(١) ملاك التأويل: ٣٠٦/١—٣٠٨ (باختصار).

فصل بين الآية وما قبلها يوهم انقطاعاً فيحتاج إلى الواو<sup>(١)</sup>. وبهذا نفهم أن علة الفصل في آية آل عمران كمال الاتصال، وقد عبّر عن ذلك أبو حيان بأنها بدل من قوله تعالى: ﴿بَيَّاتَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وذكر وجهاً آخر هو أن الآية تحمل على الاستئناف<sup>(٢)</sup>.

كما نفهم أيضاً أن علة الوصل في آية مريم دفع التوهم، وأن هذا الكلام منقطع عما قبله، أو أنه مستأنف، وإثبات كونه معطوفاً على ما تقدمه من كلام بصرف النظر عما دخل الكلام من الجمل التي توهم بالانقطاع، وهذا في الحقيقة ملحظ يستحق العناية والاهتمام.

وهذه الملاحظة غفل عنها كثير من البلاغيين في موضوع الفصل والوصل، وقد أشار الإمام عبدالقاهر إلى ذلك الملحظ بقوله: (فصل: هذا فن من القول خاص دقيق، اعلم أن مما يقل نظر الناس فيه من أمر العطف، أنه قد يؤتى بالجملة فلا تعطف على ما يليها، ولكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التي تعطف جملة، أو جملتان... فأمر العطف إذن موضوع على أنك تعطف تارة جملة على جملة، وتعتمد أخرى إلى جملتين، أو جمل فتعطف بعضاً على بعض ثم تعطف مجموع هذي على مجموع تلك)<sup>(٣)</sup>.

وقد تحدث الدكتور أبو موسى عن هذا الملحظ الدقيق، الذي بيّنه عبدالقاهر، والحق أن حديثه هو الذي دلني على قول عبدالقاهر، ومما قال: ”وهكذا يكون بناء معنى على معنى، وترتيبه عليه فيه من الدقة والحذر ما يحتاج إلى إدراك تلك الشعيرات الخفية التي تربط أطراف الخاطرة برأسها، حتى تهيئها، لأن تنضم إليها خاطرة، أو فكرة ثانية فيها هذه النعومة وتلك الدقة“<sup>(٤)</sup>.

(١) المصدر السابق: ٣٠٨/١.

(٢) انظر: البحر المحيط: ٤٦٩/٢.

(٣) دلائل الإعجاز: ٢٤٤—٢٤٥.

(٤) دلالات التراكيب: ٣٤١.

ومن المواضع ما ورد في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾: ١٣٦ بالوصل في (ونعم أجر العاملين)، في حين جاءت الآية في سورة العنكبوت بالفصل: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾: ٥٨، وهذا اللون من الجمل يكثر في القرآن الكريم، وهي الجملة التي تقع في نهاية الفاصلة، وتكون كأنها مؤكدة للكلام السابق، فماذا قال علماء المتشابه؟.

أوضح الخطيب الإسكافي، ووافقه على كلامه بقية علماء المتشابه أن الآية الأولى لما وقع فيها ذكر الجزاء مفصلاً معطوفاً ناسبه عطف الجملة الممدوح بها الجزاء، فجاءت الآية بالوصل، أما آية العنكبوت فجاءت بالفصل لأن الجزاء لم يفصل، ولأن الاتصال بين الجملتين قسوي فناسبه الفصل.

يقول الخطيب الإسكافي: إن (آية آل عمران مبنية على تداخل الأخبار، لأن أولها (أولئك) وهو مبتدأ، و(جزاؤهم) مبتدأ ثان، و(مغفرة) خبر المبتدأ الثاني، وهو مع خبره خبر المبتدأ الأول، والجزاء هو الأجر، فكأنه قال: أولئك أجرهم على أعمالهم محو ذنوبهم وإدامة نعيمهم،.. فنسقت الأخبار بعضها على بعض للتنبيه على النعم التي هدفت لرجاء الراجين، والخبر إذا جاء في مثل هذا المكان، فحقه أن يعطف على ما قبله بالواو.. أما آية العنكبوت فإن ما قبلها مبني على أن يدرج الكلام فيه على جملة واحدة، وهي: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾، فلما جعلت هذه الأشياء كلها في درج كلام واحد وهو جملة ابتداء وخبر، احتمل قوله: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾.. أن يجيء بغير الواو<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه كل من الكرمانى، وابن الزبير، وابن جماعة، والأنصارى،

(١) درة التنزيل: ١٩٧.



الذين اختصروا التوجيه بإيجاز مقتضب<sup>(١)</sup>.

ومثل الموضع السابق ما ذكره الإمام الكرمانى في توجيه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: ١٣، حيث جاءت الآية بالوصل في قوله: (وذلك الفوز العظيم)، بينما في سورة التوبة وردت الآية بالفصل يقول تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: ٨٩. وهذا الموضع انفرد بتوجيهه الكرمانى عن بقية علماء المتشابه، إلا الأنصارى الذي نقل توجيهه بنصه كما هي عادته. فالإمام الكرمانى يرى أن للسياق المتقدم وكذلك المتأخر أثراً في الفصل والوصل، "فآية النساء اختلفت عن آية التوبة لوجهين: موافقة ما قبلها، وهو جملة مبدوءة بالواو، وذلك قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ﴾، الثاني: موافقة ما بعدها وهو قوله: ﴿وَلَهُ﴾ بعد قوله: ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾: ١٤، أما آية التوبة فخلت من ذلك"<sup>(٢)</sup>.

وقد وافقه أبو يحيى الأنصارى<sup>(٣)</sup>، والفيروزابادى<sup>(٤)</sup>، ونقلنا نص كلامه. ومن مواضع الفصل والوصل في الآيات المتشابهة ما ورد في قصة نوح عليه السلام، ففي سورة الأعراف جاءت القصة بالفصل على الاستئناف يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ﴾: ٥٩، بينما في هود، والمؤمنون<sup>(٥)</sup> جاءت الآية بالوصل ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾.

أوضح الخطيب الإسكافى رحمه الله أن آية الأعراف لم يتقدمها ذكر رسول فتعطف الآية عليه، فالآية استئناف للكلام، أما في هود فقد تقدم

---

(١) انظر: البرهان: ١٥١، ٢٩٨، وملاك التأويل: ٣٢١/١، وكشف المعاني: ١٣٤، وفتح الرحمن: ٧٣.

(٢) البرهان: ١٥٤.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٨٠.

(٤) انظر: بصائر ذوي التمييز: ١٧٣/١—١٧٤.

(٥) سورة هود، آية: ٢٥، والمؤمنون: ٢٣.

ذكر الرسل مرات، أما في سورة المؤمنون فتقدم الآية ذكر نوح عليه السلام ضمناً، حيث ذكر الفلك، فهو أول من صنع الفلك فعطف ما في السورتين بالواو، وقد بنى توجيهه على نظر دقيق في السياق المتقدم للآيات، فمثلاً آية هود عاد لأول السورة، وربط بين القصص الواردة فيها، وهكذا بقية الآيات.

يقول: ”الآيات التي تقدمت قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ في هذه السورة إلى أن اتصلت به في وصف ما اختص الله به من أحداث خلقه، والبدائع من فعله، من حيث قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: ٥٤، إلى أن ذكر الشمس والقمر والرياح والنبات والأمطار.. ولم يكن فيها ذكر بعثة نبي ومخالفة من كان له من عدو، فصار كالأجنبي من الأول فلم يعطف عليه واستؤنف ابتداء الكلام ليدل على أنه في حكم المنقطع من الأول، وليس كذلك الآية في سورة هود، لأن أولها افتتح إلى قصة نوح بما هو احتجاج على الكفار بآيات الله التي أظهرها على أيدي أنبيائه وألستهم.. فعطف هذه الآية على ما قبلها إذ كانت مثلها، ألا ترى أن أول السورة ﴿الرَّكْتَبُ أَحْكَمْتُ آيَتُهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّي حَكِيمٌ خَيْرٌ ۝ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾: ٢، وبعد العشر منها ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ﴾: ١٢، إلى قوله: ﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾: ١٣، ثم وصف حال من آمن بالله ورسله وأنجبت إلى ربه، وحال من افترى على ربه، وحصل على خسران نفسه.. فاقضى حال تشابه القصتين عطف الثانية على الأولى.

وأما في سورة المؤمنون فإن قبل هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾: ١٢، ثم قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾: ١٧ ثم انقطعت الآية إلى قوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾: ٢٢، والفلك التي يحمل عليها مما اتخذها نوح عليه السلام، فدخل واو العطف في قصة نوح عليه السلام للفظتين المتقدمتين وهما (ولقد خلقنا) رؤوس الآيتين، وللمعنى المقتضى

من ذكر الفلك الذي نجي الله عليه من جعله أصل الخلق وبذر هذا النسل<sup>(١)</sup>.  
وقد أخذ الكرمانى بتوجيه الإسكافى، ووافقه أيضاً ابن الزبير، الذي  
ذكر عبارة الإسكافى، ووافقهم ابن جماعة، أما الأنصارى فنقل كلام الكرمانى  
بنصه<sup>(٢)</sup>.

ومن المواضع ما ذكره ابن الزبير عن سبب الفصل في قوله تعالى في سورة  
يونس: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: ٣٣، وسبب الوصل  
في نظيرتها في غافر ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: ٦.

يرى رحمه الله أن آية غافر تقدمها قوله: ﴿مَا يَجِدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾  
الآية: ٤، ثم أعقب بذكر قوم نوح والأحزاب، وهم كل أمة برسولهم  
ليأخذوه، وأنهم جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذهم الله وأهلكهم،  
ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فلما تقدم في هذه السورة  
ذكر من حقت عليه كلمة العذاب عطف عليه ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ﴾، أما آية يونس  
فلم يتقدم قبلها فيما اتصل بها مقال ممن ذكر ممن حقت عليه كلمة العذاب،  
فأتى قوله: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ﴾ بصورة الاستئناف غير معطوف، إذ لم يتقدم  
ما يعطف عليه<sup>(٣)</sup>، فهذه الآية وما شابهها كـ ﴿وَكَذَلِكَ نَفِصِلُ الْآيَاتِ﴾،  
و﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، تؤذن بنهاية المعنى، وختام الكلام، فكأنها تفيد  
القارئ في معرفة ذلك، وأن الكلام قد بلغ المراد، فله ما أعظم هذه الحكمة  
القرآنية، وقد وافقه ابن جماعة<sup>(٤)</sup>.

ومن المواضع التي تحدث عنها علماء المتشابه فيما يتعلق بالفصل

(١) درة التنزيل: ٨١—٨٢.

(٢) انظر: البرهان: ١٨٧، وملاك التأويل: ٥١١/١—٥١٣، وكشف المعاني: ١٧٧—١٧٨،

وفتح الرحمن: ١٤١—١٤٢.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٦١٦/١—٦١٧ (بتصرف).

(٤) انظر: كشف المعاني: ٢٠٣.



والوصل في الآيات المتشابهة، توجيههم لقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾: ١٤، حيث جاءت الآية بالوصل، بينما وردت آية فاطر بالفصل يقول تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾: ١٢، وقد سبق أن تحدثت عن هذا الموضع في فصل التقديم والتأخير، وبينت سر تقدم الجار والمجرور (فيه) في فاطر، وتأخره في النحل، وأوضحت أقوال علماء المتشابه في موطنه من البحث.

أما سر الوصل والفصل في الآيتين فيرى الخطيب الإسكافي أن المراد من آية النحل تعداد النعم، فلما قصد ذلك عطف بالواو ليناسب عطف بعضها على بعض، كما أن الفصل بين ﴿مَوَاجِرَ﴾ والفعل ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ بالجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾ مناسب لدخول الواو، حيث منع التعلق به فلذلك حسن العطف. أما آية فاطر فالفصل فيها يدل على أن مخر الفلك للبحر من أجل الابتغاء من فضل الله، فاتصلت الجملة بما قبلها، فالذي منع من الوصل كمال الاتصال بين الجملتين، فلما كان العطف يقتضي المغايرة كان تركه مناسباً للدلالة المعنى عليه، وبذلك نلاحظ أن الخطيب الإسكافي، وفي أكثر من موضع يضع قاعدة، وهي أن ذكر التعدد ملازم للوصل بين الجمل.

يقول الخطيب الإسكافي: (وأما حذف الواو من قوله: ﴿لِتَبْتَغُوا﴾، فلأنه لم تب الآية على فعل يقتضي استيعاب ما يتعلق به، كما كان في قوله — في آية النحل —: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ لكذا وكذا، وذكر بعضه إثر بعض، ثم صارت (مواخر) يليها قوله: (لتبتغوا)، وصح تعلق الكلام بمعنى المواخر، لأن معناها التي تشق الماء وتسير بأهلها، والله سخرها على هذه الصفة لتبتغوا من فضله، فيما جعل الطريق إليه من المنافع التي لا تنال إلا بها، وقد ذكرنا نبذاً منها، فلما اتصلت مواخر بقوله: (لتبتغوا) ولم يحجز بينهما ظرف استغني عن الواو لذلك، ولأنه لم يتقدم فعل بنيت عليه الآية دال على تعلقه بنعم يجب أن ينسق بعضها على بعض، كما كان في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ إذ

أول هذه الآية ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فبان الفرق بين الموضعين فيما يختار له إثبات الواو وتركها<sup>(١)</sup>.

وقد وافقه الكرمانى الذي اختصر توجيهه، وتابعه الأنصارى<sup>(٢)</sup>. أما ابن الزبير فقد وافق الإسكافى أيضاً، وأكد على أن آية النحل سقت لتعداد النعم، وآية فاطر سقت لبيان القدرة والحكمة الإلهية، وتابعه ابن جماعة<sup>(٣)</sup>.

كما وافق ابن عاشور الخطيب الإسكافى في توجيه الآيتين<sup>(٤)</sup>. ومثل الموضع السابق أيضاً ما ذكره الكرمانى في توجيه الوصل في قوله تعالى في سورة المؤمنين: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَاكِهٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: ١٩، بينما جاءت الآية في سورة الزخرف بالفصل يقول تعالى: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: ٧٣، وهذا الموضع مما انفرد بتوجيهه الكرمانى.

يقول رحمه الله: (قال في هذه السورة — المؤمنين — ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بزيادة الواو، لأن تقدير الآية: منها تدخرون، ومنها تأكلون، ومنها تبيعون، وليست كذلك فاكهة الجنة فإنها للأكل فحسب، فكذلك قال — يقصد آية الزخرف —: ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، ووافق هذه السورة — يقصد سورة المؤمنين — ما بعدها أيضاً وهو قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: ٢١، فهذا للقرآن معجزة وبرهان)<sup>(٥)</sup>.

وتوجيهه هذا يرجع أيضاً لما سبق بيانه عن الآيات التي لها طابع واحد،

(١) درة التنزيل: ١٤٦.

(٢) انظر: البرهان: ٢٤٢، وانظر: فتح الرحمن: ٢١٨.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٧٣٦/٢، وانظر: كشف المعاني: ٢٢٦.

(٤) انظر: التحرير والتنوير: ٢٢/٢٨٠—٢٨١.

(٥) البرهان: ٢٧٥.

والتي تمثل نهاية المعنى، وختام الكلام، وتؤذن بوصول المعنى إلى القارئ، وقد وافقه أبو يحيى الأنصاري الذي نقل نص كلامه<sup>(١)</sup>.

ونفهم من كلام الكرمانى الموجز أن الآية الأولى في أمر الدنيا، يدل على ذلك ما تقدمها وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾<sup>(١٨)</sup> فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ...: ١٩، أما الآية الأخرى فهي في أمر الآخرة فقبل الآية ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(١٩)</sup> لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ، أما الآية الأولى فجمل عطف بعضها على بعض فناسبها ذكر الواو، أما السبب الثاني الذي ذكره وهو ملاءمة السياق، والموافقة بين أجزاء الكلام، فالعطف متواتر بين الآية والتي بعدها، وهذا يعضد ويقوي السبب الأول، ولا تعارض بينهما.

ومن مواضع الفصل والوصل في التشابه ما ورد في سورة الشعراء في قصة صالح وشعيب عليهما السلام، ففي قصة صالح جاءت الآية بالفصل، يقول تعالى: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: ١٥٤، وفي قصة شعيب بالوصل يقول تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نُّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾: ١٨٦. يذكر الخطيب الإسكافي أن الآية الأولى بدل من الجملة التي قبلها فناسبها الفصل، أما في قصة شعيب عليه السلام فإن تكذيب قومه له، ومخاطبته لهم كان أكثر من الحاصل من قوم صالح، فناسبه إكثارهم في الجواب وذلك بذكر العطف.

يقول: ”الجواب أن يقال إن قوم صالح في حال هذا الخطاب لم يدفعوا أمره، كما دفع أمر شعيب قومه، فيما حكى الله تعالى من قولهم لصالح عليه السلام ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾<sup>(٢٠)</sup> مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا، ثم لم يطلبوا منه ما ليس لهم طلبه، لأنهم قالوا: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، ... فالموضع

(١) انظر: فتح الرحمن: ٢٨١.



الذي لا واو فيه هو بدل من الجملة التي قبله، ثم قال: ﴿فَأَتَيْتَ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ولهم أن يقولوا ذلك. وأما قوم شعيب فإنهم في خطابهم المحكي عنهم مشطون، ومبالغون في رده وتكذيبه، فقالوا ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ١٨٥ ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ على خبرين عطف أحدهما على الآخر، وقالوا بعده: ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ على معنى وإنا لنظنك كاذباً، أي الغالب في أمرك عندنا أنك كاذب، فلم يجعلوا الخبرين خبراً واحداً، بل جعلوها أخباراً ثلاثة... فكان موضع الواو في قصتهم لذلك، ولم يكن لها موضع في الأول، لما بينا من إبداهم الجملة الثانية من الأولى، واقتصارهم على بعض ما انبسط فيه غيرهم<sup>(١)</sup>.

فما حصل من قوم شعيب تجاه نبهم عليه السلام من رده وتكذيبه ومبالغتهم في ذلك، وإكثارهم في القول عليه ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾، ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، فكل هذه الأمور اقتضت ذكر الواو، فزيادة المعنى تقتضي زيادة المبنى، وهذا مراد الإسكافي. وقد وافقه الكرماني، وتابعه ابن جماعة، والأنصاري، رحمهم الله تعالى<sup>(٢)</sup>. أما ابن الزبير فقد ذكر تعليل الإسكافي ولكن بأسلوب مختلف فأشار إلى أن قصة شعيب عليه السلام ورد فيها جمل كثيرة عطفت بالواو يقول تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ١٨١ ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيرِ﴾ ١٨٢ ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ١٨٣ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ﴾: ١٨٤، فهذه خمس معطوفات من مأمور به ومنهي عنه طابقتها العطف في جوابهم، أما قصة صالح عليه السلام فلم يقع فيها من المعطوفات أمراً أو نهياً سوى قوله: ﴿وَاطِيعُونَ﴾ ١٥٠ ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾: ١٥١، فناسب ذلك ورود جوابهم في دعوى

(١) درة التنزيل: ١٨٥-١٨٦.

(٢) انظر: البرهان: ٢٨٥، وكشف المعاني: ٢٨٢، وفتح الرحمن: ٣٠٢.

المماثلة في البشرية بغير حرف النسق<sup>(١)</sup>.

هذا وقد بين الزمخشري أثر دخول الواو بين الجملتين فتفصل بين معنييهما فتكون كل واحدة ذات معنى مستقل عن الأخرى ومتميزة عنها، فإذا تكررت الجملتان في مقام آخر وسقطت هذه الواو كان الكلام كلاماً واحداً يقرر بعضه بعضاً، ولكنه لم يبين السياق الذي اقتضى الواو، والسياق الذي اقتضى حذفها، كما فعل علماء المتشابه، يقول الزمخشري: (فإن قلت: هل اختلف المعنى بإدخال الواو هنا وتركها في قصة ثمود؟ قلت: إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما منافع للرسالة عندهم التسخير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً، ولا يجوز أن يكون بشراً، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً، ثم قرر بكونه بشراً مثلهم)<sup>(٢)</sup>.

وقد وافقه الفخر الرازي<sup>(٣)</sup>، والبيضاوي<sup>(٤)</sup>، وأبو حيان<sup>(٥)</sup>، والألوسي<sup>(٦)</sup>، وابن عاشور<sup>(٧)</sup>.

كما وافقه أيضاً الشهاب الخفاجي، وزاد في توضيح المعنى مع الفصل أن ترك الواو في قصة ثمود "لأنه استئناف لتعليل أو تأكيد"<sup>(٨)</sup>.

وأختتم هذا الفصل بحديث علماء المتشابه عن آيتين في سورة ق، الأولى منهما جاءت بالوصل، والثانية بالفصل، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ

(١) انظر: ملاك التأويل: ٨٩٥/٢—٨٩٦.

(٢) الكشف: ١٢٧/٣، وانظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور أبو موسى: ٤٣١.

(٣) انظر: التفسير الكبير: ١٤١/٢٤.

(٤) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١٦٥/٢.

(٥) انظر: البحر المحيط: ٣٨/٧.

(٦) انظر: روح المعاني: ١١٧/١٠.

(٧) انظر: التحرير والتنوير: ١٨٦/١٩.

(٨) حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي: ٢٦/٧.

عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾، والآية الثانية قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ ﴿٢٧﴾، وهذا الموضع قريب من الموضع السابق، فهو من قبيل عطف الجمل، أما الفصل فالحمل على الاستئناف.

الخطيب الإسكافي بيّن في بداية حديثه أن المراد بالقرين الأول أحد أمرين، إما الملك الشهيد عليه، وهو المشاهد لما يعمل به الإنسان، فيكتبه عليه، وإما قرينه من الشياطين كان معه في الدنيا.

وذهب الإسكافي إلى أن بين الآيتين فرقاً من ناحية الخطاب، فالأولى "خطاب للإنسان من قرينه ومتصل بكلامه، أما الآية الثانية فإنها منفصلة، لأن القول هناك ليس للإنسان، ولا ما بعده خطاباً له، فلما لم يكن القائل ولا المقول انقطع استؤنف، ألا ترى أنه للقرين، وأنه يخاطب الله تعالى بقوله: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾، فلما لم يكن القائل المخاطب ولا المقول له المخاطب صار كأنه مستأنف، فالآيات التي أجريت هذا المجرى بعده وهي: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ ﴿٢٨﴾، وكقوله: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ ﴿٢٩﴾، فلما لم يكن في واحد منها واو عاطفة، كانت الأخرى كذلك<sup>(١)</sup>. فالخطيب في تعليقه ربط بين السياق المتقدم والمتأخر، فالآية الأولى التي ورد فيها الوصل عطفت على جمل كلها عمّا يلقاه الإنسان من أهوال، وشدائد يوم القيامة، أما الآية الثانية التي استؤنف فيها الكلام، جرى فيها الكلام على ما جرى فيما بعدها من آيات، فلم يكتف بدلالة العطف وعدمه بل بحث سياق الآيات.

وقد وافقه الكرمانى واختصر توجيهه<sup>(٢)</sup>، أما الأنصارى فنقل كلام الكرمانى<sup>(٣)</sup>.

أما ابن الزبير فوافق الإسكافي أيضاً إلا أنه قام ببسط الكلام عن الآية

(١) درة التنزيل: ٢٥٥.

(٢) انظر: البرهان: ٣٣٧.

(٣) انظر: فتح الرحمن: ٣٩٦.



الأولى، يقول: (والجواب عن ذلك: أن الآية معطوفة على ما قبلها من آيات هي إخبار عما يلقاه الإنسان المتقدم ذكره من الأهوال والشدائد في المواقف الأخروية، وما بين يديها، أولها قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾: ١٩، ثم قال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾: ٢٠، ثم قال: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، فهذه إخبارات عن شدائد بعضها تلو بعض، فطابق ذلك ورود بعضها معطوفاً على بعض، وأما قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ﴾، فهو إخبار مبتدأ مستأنف معرف بتبرؤ قرينه من جملة ما تأبطه واجترحه، ولا طريق لعطف ذلك على ما قبله، إنما هو استئناف إخبار، فورد كل من الآيتين على ما يجب ويناسب<sup>(١)</sup>.

كما وافق الزمخشري علماء المتشابه، يقول: "وأما الجملة الأولى فواجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها، ومعنى ما قبلها في الحصول، أعني: مجيء كل نفس مع الملكين وقول قرينه ما قال له"<sup>(٢)</sup>.

وقد تابعه أبو حيان<sup>(٣)</sup>. أما ابن جماعة فقد انفرد بتعليل آخر، وإن كان لا يخرج عن التوجيه السابق إلا في المراد بالقرين، فيرى أن الآية الأولى قول القرين من الملائكة، والثانية قول القرين من الشياطين، فانقطع الكلام عن الأول فجاء مستقلاً بغير واو العطف<sup>(٤)</sup>.

ورأي ابن جماعة في المراد بالقرين ذكره المفسرون، كابن كثير، والبيضاوي، والشوكاني، وابن عاشور<sup>(٥)</sup>، على اختلاف بينهم في المراد بالقرين في الآية الأولى<sup>(٦)</sup>.

(١) ملاك التأويل: ١٠٢٩/٢ — ١٠٣٠.

(٢) الكشف: ٨/٤.

(٣) انظر: البحر المحيط: ١٢٦/٨.

(٤) انظر: كشف المعاني: ٣٤٣.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٢٧/٤، وأنوار التنزيل: ٤٢٣/٢، وفتح القدير: ٧٦/٥،

والتحرير والتنوير: ٣١٠/٢٦.

(٦) اختلف المفسرون في المراد بالقرين على ثلاثة أقوال: الأول: أنه الملك الموكل بالإنسان، =

وعلى كل حال فإن توجيه ابن جماعة يضاف إلى التوجيه الأول، ولا يعد قولاً مستقلاً، فكلا القولين يجمعهما العطف في الآية الأولى، والاستئناف في الثانية.

وإلى هنا أصل إلى نهاية هذا الفصل الذي استعرضت فيه أحاديث وأقوال وتوجيهات علماء التشابه اللفظي للآيات المتشابهة في موضوع الفصل والوصل، مستنيراً بأقوال علماء التفسير في كل موضع تناولته بالدراسة والتحقيق. وبهذا الفصل أصل إلى نهاية المطاف في هذا البحث، سائلاً المولى سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعلني ممن خدام كتابه العزيز، بهذا الجهد اليسير، وأن يعفو عنه وكرمه عما جاء فيه من تقصير، فما كان فيه من صواب فمنه سبحانه وله الحمد أولاً وآخراً، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

= وهو قول قتادة، والحسن، والضحاك، وابن زيد. والثاني: أنه شيطان الكافر الذي كان يزين له الكفر في الدنيا، وهو قول لمجاهد، والثالث: أنه الصاحب من الإنس الذي كان قرينه في الدنيا، وهو لابن زيد أيضاً.





الخاتمة



## الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد: فقد آن لهذه الرحلة مع هذه الرسالة العلمية أن تنتهي، وقد صحبت فيها آيات كتاب الله تعالى الذي لا تنتهي عجائبه ولا يمل من كثرة الترداد، والتي عشت فيها مع كتب علماء أجلاء بذلوا جهدهم وفكرهم في تأليف مصنفات عظيمة خدمة لكتاب الله تعالى، وكانت مصنفاتهم حول المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، الذي يعد أحد أسرار كتاب الله تعالى، الذي أعجز العرب الخلفاء وحيّر عقولهم.

وقد بدأت بحديث موجز عبارة عن مدخل تحدثت فيه عن معنى المتشابه، وأبرز الكتب التي ألفت فيه، وعن دراسة المتأخرين لهذا الموضوع، وأبرز الكتب التي تقوم عليها هذه الرسالة، ثم ولجت إلى ساحة البحث، وكانت البداية مع الكتب الخمسة التي تناولتها بحثاً ودراسة، فوقفت مع كل كتاب ثلاث وقفات الأولى التعريف بالمؤلف، ثم التعريف بالكتاب، ثم بيان قضايا الكتاب ومصادره، وأبرز ملامحه، وبعد هذا الحديث عن الكتب، خضت عباب بحر الآيات المتشابهة، فتناولت المتشابه اللفظي في الكلمة، وبدأت الحديث عن الاختلاف بين الآيات المتشابهة في اختيار الصيغة، ثم عن الأفراد والجمع، ثم التذكير والتأنيث، ثم التعريف والتنكير، وختمت بالحديث عن الحروف، كما نظرت في الآيات المتشابهة من خلال التراكيب، وتحدثت طويلاً عن الآيات المتشابهة في الذكر والحذف، ثم تناولت الآيات المتشابهة المختلفة من حيث التقديم والتأخير، وختمت البحث بحديث عن الاختلاف



بين الآيات المتشابهة في موضوع الفصل والوصل.

هذه خلاصة رحلتي مع الآيات المتشابهة في كتب هؤلاء الأعلام، وقد عشت مع هذا البحث أياماً وليالي لا تنسى، وهبت له أنفسي أوقاتي، وتصفححت مئات الكتب من أجله، وزرت عشرات المكتبات مطلعاً أو مقتنياً.

وقد كان لهذه الرحلة الطويلة نتائج وثمرات علمية مهمة، وإليك طرفاً منها:

١- أن البلاغة القرآنية هي المجال الأرحب للدراسات والبحوث البلاغية الراقية، فهي ذروة سنامها وعمودها، وبحرها الذي لا ينفد.

٢- أن المنهج التطبيقي في البحث البلاغي الذي يعتمد التحليل والبحث عن الأسرار البلاغية الدقيقة أفضل المناهج، وأكثرها فائدة، وأقربها إلى نفس المتلقي، وهو المنهج الذي سار عليه سلف هذه الأمة، وعرف عند أئمة البلاغة وروادها.

٣- تعد كتب التشابه اللفظي التي قامت عليها الدراسة مثلاً جيداً ومتميزاً، في استخدام المنهج التطبيقي في الدراسات البلاغية.

٤- أظهر البحث أن الآيات المتشابهة من أعظم الدلائل على إعجاز القرآن الكريم، باختلاف جملة أو كلمة، بل وحرف، يبرز أسراراً عظيمة، وحكماً عجيبة، لا يتصورها إلا من يتأمل ويتدبر هذا الإعجاز العظيم.

٥- يعد كتاب درة التنزيل وغرة التأويل أقدم كتاب وصل إلينا في توجيه الآيات المتشابهة، وعليه اعتمد كل الذين صنفوا بعده، سواء أشاروا إليه كالكرماني، وابن الزبير، أو أغفلوا ذكره كابن جماعة والأنصاري وغيرهما.

٦- كما أن كتاب البرهان في متشابه القرآن للكرماني يعد أبرز الكتب في اختصار توجيه الآيات المتشابهة، أما كتاب ملاك التأويل فهو أحسن الكتب

من حيث السعة والتفصيل، وبسط المسائل، وقد استدركا ما فات على الإسكافي من آيات.

٧ - برز في البحث عناية علماء التشابه اللفظي بالسياق، فكثيراً ما يربطون بين الآية وما جاورها من آيات، وهذا باب جيد ومذهب حسن في ملاحظة السياق الأسلوبي، فملاءمة العناصر بعضها لبعض أحد الأسس التي بنى عليها العلماء دراستهم للآيات المتشابهة، فأصبح لكل كلمة مع ما جاورها مقام، وهذا الباب يمكن أن ينقل لدراسة النصوص الأدبية.

٨ - ومن عنايتهم بالسياق نظرهم المتكرر في سياق السورة كاملة، ففي بعض المسائل يربطون بين سياق الآية وسياق السورة كاملة، وهذه نظرة كلية للنص فهو كالجسد الواحد، ونجد هذه النظرة في سورة محمد، أو الأنعام، أو الكهف، أو سبأ.

٩ - ظهر في البحث دراسة علماء التشابه الجادة والتميزة للنظم في القصة القرآنية، وهو ما غفل عنه علماء التفسير الذين لهم عناية بالبلاغة القرآنية، فأظهرت الدراسة خصائص القصة القرآنية وضروبها، وبلاغة التشابهات فيها بطريقة استعراض القصص قصة قصة، وهو ما حصل في سورة الأعراف والشعراء والمؤمنون والحجر، وغيرها من السور.

١٠ - أبان البحث سمة أخرى للإعجاز القرآني وهي سمة الترتيب، وتمثل ذلك في الترتيب داخل الجملة، ويتضح ذلك في موضوع التقديم والتأخير بين الجمل في الآيات المتشابهة، كما شمل ذلك ترتيب الآيات والمناسبة فيما بينها، وكذلك ترتيب السور وأن كل سورة لها مكانها الخاص الذي وضعت فيه.

١١ - أظهر البحث أن لعلماء التشابه دراسة مستفيضة ومتأنية في موضوع الذكر والحذف في الآيات المتشابهة، أبرزت جوانب الإعجاز القرآني في هذا الموضوع، سواء في حذف الحروف وذكرها، أو الكلمات أو الجمل.

١٢ - برز في البحث دراسة لعلماء التشابه للفواصل القرآنية وبلاغتها،

ولاسيما الآيات التي لها طابع واحد، وتمثل نهايات معان وختام كلام، وكأنها تؤذن بوصول المعنى المراد إلى القارئ أو السامع.

١٣ — أسفر البحث عن دراسة متأنية للكلمة في التشابه اللفظي، مثل اختيار الصيغة، والتعريف والتنكير، والإفراد والجمع، والتذكير والتأنيث، كما أسفر عن دراسة للحروف ودلالاتها في الآيات المتشابهة ولاسيما حروف العطف، والجر.

١٤ — كشف البحث مسألة التأثير والتأثير بين علماء التشابه، كما أظهر قدرات علماء التشابه العلمية واللغوية الواسعة، التي كان لها أعظم الأثر في بناء مصنفاتهم.

هذه أبرز النتائج الرئيسة التي ظهرت في البحث، وهناك نتائج فرعية كثيرة برزت في أثناء معالجة المسائل البلاغية المختلفة مما يضيق المقام بحصرها.

وبعد فإن هذا جهد المقل المعترف بالتقصير، لكن الذي أرجو أن أكون أسهمت في وضع لبنة من لبنات البلاغة القرآنية الأصيلة، وكشفت جانباً من جوانب الإعجاز في كتاب الله تعالى وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم.

والحمد لله رب العالمين  
وصلّى الله وسلم على نبينا محمد



## الفهرس

- أولاً : فهرس الآيات القرآنية المتشابهة.
- ثانياً : فهرس الأبيات الشعرية.
- ثالثاً : ثبت المصادر والمراجع.
- رابعاً : فهرس الموضوعات.



## أولاً: فهرس الآيات القرآنية المتشابهة

الآية	رقمها	رقم الصفحة
(سورة البقرة)		
﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا﴾	٣٥	٣٤١ ، ٢٦٩
﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾	٣٨	١٥٧ ، ٨٢
﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾	٤٨	٤١٣
﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾	٤٩	١٥٦
﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾	٤٩	٤٦٧
﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾	٥٧	٤٠٢
﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا﴾	٥٨	٩٠ ، ٦٣ ، ٤٠
		٢٧٠ ، ١٢٢
﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾	٥٨	٤١٦ ، ٤٠ ، ٣٢
﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾	٥٨	٤٠ ، ٢٠٢ ، ٤١٦ ، ٤٧٠
﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾	٥٩	٤٠ ، ٣٦٩
﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بْنَ بَغْيٍ الْحَقِّ﴾	٦١	٢٣٩ ، ٢٠٤ ، ١٠٠
﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى﴾	٦٢	٤١٨ ، ٦٤
﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾	٨٠	١٨٥ ، ١١٨ ، ٦٥
﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾	٩٥	٣٠٨ ، ٦٥
﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾	١٢٣	٤١٣
﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾	١٢٦	٢٣٥ ، ٨٧
﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾	١٢٩	٣٨٤
﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾	١٢٩	٤٢٢
﴿ءَا مَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾	١٣٦	٣٤٣ ، ٢٩٨ ، ١٠٤
﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾	١٦٤	٣٢٣
﴿وَلَحِمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾	١٧٣	٤٢٤



الآية	رقمها	رقم الصفحة
﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرُ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾	١٧٣	٣٩٤
﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾	١٩٣	٣٥٣
﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾	٢٠٣	١٨٥
﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾	٢٣٢	٢٠٠
﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾	٢٣٤	٢٤١
﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾	٢٤٠	٢٤١
﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾	٢٦٤	٤٢٦ ، ٦٧
﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾	٢٨٤	٤٢٣
﴿فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾	٢٨٤	٤٣٣ ، ١٢٠
(سورة آل عمران)		
﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا﴾	٣	١٥٠
﴿قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾	٢٤	١٨٥ ، ١١٨ ، ٦٥
﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾	٢٧	١٣٤
﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبَدُّوهُ﴾	٢٩	٤٢٣
﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾	٤٩	٢١٥
﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾	٥١	٤٧١ ، ٣٥٩
﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾	٨٤	٣٤٣ ، ٢٩٨ ، ١٠٤
﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾	١١٢	١٣٩ ، ٢٠٤
﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾	١١٧	٤٠٢
﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾	١٢٦	٤٢٧ ، ٣٧١
﴿يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾	١٢٩	٤٣٣
﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾	١٣٦	٤٧٤
﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ﴾	١٦٤	٣٨٤
﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾	١٦٤	٤٢٢
﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ﴾	١٨٤	٣١٩

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣١٩ ، ٢٢٦	١٨٤	﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (سورة النساء)
٣٢٩	١٣	﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾
٤٧٥ ، ٣٥١	١٣	﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾
٣٥٩	٢٢	﴿إِنَّهُ دَكَانٌ فَحِشَّةٌ وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾
٢١٠	٢٥	﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَفِّحَاتٍ﴾
٤٢٩	٤١	﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾
٣٧٣	٤٣	﴿فَأَمْسَحُوا بُيُوتَهُمْ كُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾
٤٣٠ ، ١٠٨	١٣٥	﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ (سورة المائدة)
٤٢٤	٣	﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾
٢١٠	٥	﴿مُحْصَنِينَ غَيْرِ مُسَفِّحِينَ﴾
٣٧٣	٦	﴿فَأَمْسَحُوا بُيُوتَهُمْ كُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾
٤٣٠ ، ١٠٨	٨	﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾
٣٠٧	٩	﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾
٣٧٤	١٧	﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ﴾
٤٣٣	١٨	﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾
٣٩٧ ، ١٠٩	٢٠	﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾
٤٣٢	٤٠	﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾
٤١٨ ، ٦٤	٦٩	﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾
٤٠٣	٩٢	﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾
٢١٥	١١٠	﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾
٣٥١ ، ٣٢٩	١١٩	﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾

رقم الصفحة	رقمها	الآية
		(سورة الأنعام)
٣٩٩	٥	﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾
٢٨٨ ، ٨٦ ، ٦٠	١١	﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا﴾
٢٧٣ ، ٢٥١	٢١	﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾
١٩٤	٢٥	﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾
٤٣٣	٣٢	﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾
١٤٤	٣٢	﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾
١٧٨ ، ١٥٢	٣٧	﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾
١٦٣	٤٢	﴿فَاخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾
٣٧٥	٥٠	﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْعُ﴾
٤٣٣	٧٠	﴿اتَّخِذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾
٢١١	٩٠	﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾
٣٤٢	٩٤	﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾
١٣٤	٩٥	﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾
١٧١	٩٩	﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾
٤٤٢	١٠٢	﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾
٣٢١ ، ٦٧	١١٧	﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾
٣٣٦	١٣٥	﴿إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾
١٧١	١٤١	﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾
٤٢٤	١٤٥	﴿أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾
٣٩٥	١٤٥	﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاعٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ﴾
٤٣٨ ، ٢٤	١٥١	﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾
٣٣٠	١٦٥	﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
		(سورة الأعراف)
٣٤١ ، ٢٧٠	١٩	﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا...﴾



رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣٦٢	٤٥	﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ﴾
٤٣٣	٥١	﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾
١٤٣	٥٧	﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا﴾
٤٧٥	٥٩	﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾
٣٤٤ ، ١٣١	٦٠	﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾
١٣١	٦٢	﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا لِيَمُنَّ وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾
٢٥٩ ، ٨٢ ، ٦٧	٦٤	﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾
٣٤٤ ، ١٣١	٦٦	﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ...﴾
١٣١	٦٨	﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾
١٥٤	٧١	﴿سَمِيتُوهَا أَنْثَىٰ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا﴾
٣٢٨	٧٤	﴿وَتَنَحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾
١٨٢	٧٨	﴿فَاتَّخَذَتْهُمْ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾
١٧٦	٧٩	﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا لِيَمُنَّ وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾
٢٧٥	٨٢	﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾
١٨٢	٩١	﴿فَاتَّخَذَتْهُمْ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾
١٧٧ ، ١٣٢	٩٣	﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا لِيَمُنَّ وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾
١٦٣	٩٤	﴿أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾
٣٧٨	١٠١	﴿فَمَا كَانُوا يَوْمِنَا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾
٣٧٦	١١٠	﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾
١٧٠	١١٢	﴿يَا نُؤُوكَ بِكُلِّ شَجَرٍ عَلِيمٍ﴾
٣٠٢	١٢٣	﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَاْمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاْذَنَ لَكُمْ﴾
٣٩٥	١٢٥	﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾
١٥٦	١٤١	﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾
٩٠ ، ٦٣	١٦١	﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُتُوا هَذِهِ الْقَرْيَةُ وَكُلُوا مِنْهَا﴾
٤١٦ ، ٤٠ ، ٣٢	١٦١	﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾

## الآية

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٤٠، ٢٠٢، ٤١٦،	١٦١	﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾
٤٧٠		
٤٠، ٣٦٩	١٦٢	﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا﴾
٣٣٠	١٦٧	﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
١٤٤	١٦٩	﴿وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾
٤٣٩	١٨٨	﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾
٢٩٦	١٨٩	﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾
٢٤٣، ٨٣	٢٠٠	﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
		(سورة الأنفال)
٤٢٧، ٣٧١	١٠	﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَضْمِنَ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾
١٦٥	١٣	﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ﴾
٣٥٣	٣٩	﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾
٤٤٣، ٦٢، ٦١	٧٢	﴿وَهَاجِرُوا وَجْهَهُ وَأَيُّ مَوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾
		(سورة التوبة)
٤٤٣، ٦١	٢٠	﴿وَهَاجِرُوا وَجْهَهُ وَأَيُّ سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾
٢٨٥	٥٥	﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾
٢٨٥	٨٥	﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾
٣٥١، ٣٢٩	٨٩	﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾
٤٧٥	٨٩	﴿.. خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾
٢٩٣	٩٤	﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾
٣٥١، ٣٢٩	١٠٠	﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾
٢٩٣	١٠٥	﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾
		(سورة يونس)
٢٧٣، ٢٥١	١٧	﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾
٤٤١، ٣٠	١٨	﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٨٧	٣١	﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾
٤٧٧	٣٣	﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾
١٩٤	٤٢	﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾
٤٣٩	٤٩	﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا...﴾
٢٦١	٥٥	﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
٣٨٩	٦٠	﴿...وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾
٤٥٥ ، ٣٨	٦١	﴿...مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾
٢٦١	٦٦	﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾
٢٥٩ ، ٨٢ ، ٦٧	٧٣	﴿فَكَذَّبُوهُ فَانْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾
٣٧٨	٧٤	﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾
		(سورة هود)
٣٦٢	١٩	﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾
١٦٨	٢٢	﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ﴾
٤٧٥	٢٥	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ...﴾
٤٤٤	٢٨	﴿وَأَتَنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُصِّيتْ عَلَيْكُمْ﴾
٣٧٥	٣١	﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ...﴾
٢٧٧ ، ٢٧٦	٥٨	﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَاهُ...﴾
٣٤٦	٦٠	﴿وَاتَّبِعُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾
٤٤٤	٦٣	﴿وَأَتَنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرَّنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾
٢٧٧ ، ٢٧٦	٦٦	﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَاهُ...﴾
٢٢٧	٦٧	﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾
٣٣٨	٧٧	﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىءَ بِهِمْ﴾
٤٠٤	٨١	﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾
٢٧٧	٨٢	﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا...﴾
٢٧٧ ، ٢١٨	٨٢	﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾



رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣٣٦	٩٣	﴿إِنِّي عَلِمْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾
١٨٣	٩٤	﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَاهُ..﴾
٢٢٧ ، ١٨٣	٩٤	﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾
	٩٤	﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِمِينَ﴾
٣٤٧	٩٧ ، ٩٦	﴿أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾
٣٤٦	٩٩	﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾
١٣٧	١١٧	﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾
		(سورة يوسف)
٤٠٥	٢٢	﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ رَزَقْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾
١٥٤	٤٠	﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾
٢٧٨	٥٩	﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾
٢٧٨	٧٠	﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾
٢١١	١٠٤	﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾
٣٢٧ ، ١٤٤	١٠٩	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾
٢٧٩ ، ١٤٤	١٠٩	﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾
١٤٤	١٠٩	﴿.. وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾
		(سورة الرعد)
٣٠٤	٢	﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾
٢٦٢	١٥	﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾
		(سورة إبراهيم)
٣٩٧ ، ١٠٩	٦	﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾
٤٦٧	٦	﴿.. يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾
٤٢٧ ، ٦٧	١٨	﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾
٢٣٥ ، ٨٧	٣٥	﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾
١٦٧	٥٢	﴿وَلْيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾

الآية	رقمها	رقم الصفحة
(سورة الحجر)		
﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾	١٢	١٤٦
﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾	٣٥	٢٥٤
﴿...وَاتَّبِعْ أَذْبَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾	٦٥	٤٠٤
﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾	٧٤	٢١٨
﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾	٨٥	٣٣٣
﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾	٨٨	٤٠٦
(سورة النحل)		
﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾	١١	١٧٩
﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾	١٤	٤٤٦
﴿خَالِدِينَ فِيهَا فَلْيُبَشِّرْ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾	٢٩	٣٣٥
﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾	٣٦	٢٨٨
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾	٤٣	٣٢٧
﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾	٤٩	٢٦٢
﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾	٦٥	٣٢٣
﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُؤْذِنُوا بِطُونِهِ﴾	٦٦	٣١٩
﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾	٦٧	١٨٠
﴿لَكِنِّي لَا يَعْلمُ بَعْدَ عِلْمِ شَيْئًا﴾	٧٠	٣٢٥
﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾	٧٢	٣٦٤
﴿...وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾	٨٩	٤٢٩
﴿...أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾	٩٦	٢٥٧ ، ١٠٠ ، ٥٣
﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾	١٠٩	١٦٨
﴿وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾	١١٥	٤٢٤
﴿فَمَنْ أَضْطَرُّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ﴾	١١٥	٣٩٥
﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾	١٢٥	٣٢١

رقم الصفحة	رقمها	الآية
		(سورة الإسراء)
٤٣٨ ، ٢٥	٣١	﴿خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾
٣٥٩	٣٢	﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾
٣٨٦	٥٦	﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾
٤٤٨ ، ٣٦	٨٩	﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾
٣٥٤	٩٨	﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾
		(سورة الكهف)
٣٤٢	٤٨	﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾
٤٤٨ ، ٣٦	٥٤	﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ﴾
٢٩١	٥٧	﴿ذِكْرَ بَيِّنَاتٍ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾
٣٨٠ ، ١٦٢	٧٢	﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾
٣٨٠ ، ١٦٢	٧٥	﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾
١٦١ ، ١٥٩	٧٨	﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾
١٩٨ ، ١٠٣	٧٩	﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾
١٩٨ ، ١٠٣	٨١	﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ﴾
١٩٨ ، ١٠٣	٨٢	﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا..﴾
١٦١ ، ١٥٩	٨٢	﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾
١٥٩ ، ٦٣	٩٧	﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ﴾
٣٥٤	١٠٦	﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا﴾
٣٩٩	١١٠	﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ..﴾
		(سورة مريم)
٢٤٥ ، ٧	١٥	﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾
٢٤٥ ، ٧	٣٣	﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾
٤٧١ ، ٣٥٩	٣٦	﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾
٣٥٠	٦٠	﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾



الآية	رقمها	رقم الصفحة
﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾	٨١	٣٨٧
(سورة طه)		
﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾	١٥	٣٣٣
﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾	٤٧	١٩٣
﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ وَقَبِلْ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾	٧١	٣٠٢
﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾	١٢٣	١٥٧، ٨٢
﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كُرْهُهُنَا فَتَبَاهَوْا﴾	١٢٨	٣٢٦، ٢٨١
(سورة الأنبياء)		
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾	٧	٣٢٧
﴿وَإِذْ أَرْأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾	٣٦	٣٩٣
﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾	٩١	٢٢١
﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾	٩٣	٢٨٣
﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحِدٌ﴾	١٠٨	٤٠٠
(سورة الحج)		
﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾	٥	٣٢٥
﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ﴾	١٧	٤١٨، ٦٤
﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا﴾	٢٢	٣٨١
﴿فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾	٢٨	
﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ﴾	٤٦	٢٧٩
﴿وَآتٍ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾	٦٢	٣٦٦، ٣٥
(سورة المؤمنون)		
﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾	٩	١٩١
﴿لَكُمْ فِيهَا فَاوِكَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾	١٩	٤٧٩، ٢٠٥
﴿لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِيُزَكِّىٰكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾	٢١	٢١٩
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾	٢٣	٤٧٥

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٤٥١	٢٤	﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾
٤٥١	٣٣	﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾
٢٤٩	٤١	﴿فَبَعْدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾
٢٤٩	٤٤	﴿فَبَعْدَ الْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾
٢٨٣	٥٣	﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾
٤٥٢	٨٣	﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾
		(سورة النور)
٢٥٠	٥٨	﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾
٢٥٠	٥٩	﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾
		(سورة الفرقان)
٣٨٧	٣	﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾
٣٩٣	٤١	﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِتَّخَذُوكَ آلِهَةً وَثَرَةً﴾
١٤٣	٤٨	﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا﴾
٤٤١، ٣٠	٥٥	﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾
٣٥٠	٧٠	﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾
		(سورة الشعراء)
٣٩٩	٦	﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾
١٩٣	١٦	﴿فَأَتِيَافِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
٣٧٦	٣٥	﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ...﴾
١٧٠	٣٧	﴿يَا تُوكَ بِكُلِّ سِحَارٍ عَلِيمٍ﴾
٣٠٢	٤٩	﴿قَالَ أَمْ نُمِثُّ لَهٗ وَقَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾
٣٩٥، ٣٣٢	٥٠	﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾
٣٢٨	١٤٩	﴿وَتَنَحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾
٤٨٠	١٥٤	﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا...﴾
٤٨٠	١٨٦	﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا...﴾

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٤٦	٢٠٠	﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾
٤٠٧	٢١٥	﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾
		(سورة النمل)
١٥٥	٥٣	﴿وَأُنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾
٢٧٥	٥٦	﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾
٤٥٢	٦٨	﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾
٢٨٨ ، ٨٦	٦٩	﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾
		(سورة القصص)
٤٠٥	١٤	﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾
٤٥٨	٢٠	﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾
٣٢٢	٣٧	﴿رَبِّ أَعْلَمْ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾
١٣٧	٥٩	﴿وَمَا كَانَتْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ﴾
٣٥٦	٦٠	﴿وَمَا أُوتِشُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾
٣٢٢	٨٥	﴿رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾
		(سورة العنكبوت)
٢٨٨	٢٠	﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾
٢٧٥ ، ١٨١	٢٤	﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ...﴾
١٨١	٢٤	﴿...إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾
٢٧٥	٢٩	﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ...﴾
٣٣٨	٣٣	﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ﴾
١٨١	٤٤	﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾
١٧٨ ، ١٥٢	٥٠	﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾
٤٧٤	٥٨	﴿...خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾
٣٢٣	٦٣	﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾
٤٣٤	٦٤	﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾



رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣٦٤	٦٧	﴿أَفِيَ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (سورة الروم)
٤٠٢ ، ٢٧٩	٩	﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾
٢٨٨	٤٢	﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾
٣٨٢	٤٦	﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ (سورة لقمان)
٤٠٠	٧	﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا..﴾
٣٣١	١٧	﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾
٣٠٤	٢٩	﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾
٣٦٦ ، ٣٥	٣٠	﴿وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ الْبَاطِلِ﴾ (سورة السجدة)
٢١٣	٢٠	﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾
٣٨١	٢٠	﴿..عَذَابِ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾
٢٩١	٢٢	﴿ذُكِّرَ بَنَاتٍ رَبِّهٖ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾
٣٢٦ ، ٢٨١	٢٦	﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾
٣٢٦	٢٦	﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ (سورة سبأ)
٤٥٥ ، ٣٨	٣	﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾
٤٥٥ ، ٣٨٦	٢٢	﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾
١٨٧	٢٤	﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
٢١٣	٤٢	﴿عَذَابِ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (سورة فاطر)
٣٢٠ ، ٢٢٦	٤	﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾
٤٤٧	١٢	﴿وَتَرَى الْفُلُكُ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾
٣٠٤	١٣	﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾

رقم الصفحة	رقمها	الآية
٣٢٠	٢٥	﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾
٢٧٩	٤٤	﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾
		(سورة يس)
٤٥٨	٢٠	﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾
٣٨٧	٧٤	﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾
		(سورة الصافات)
٣٦٧	١٧٥	﴿وَأَبْصَرُهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾
٣٦٧	١٧٩	﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾
		(سورة ص)
٢٨٦	٤	﴿وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾
١٦٧	٢٩	﴿وَلَيْتَذَكَرُوا أُولَئِكَ الْآلَاءِ﴾
٢٥٤	٧٨	﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾
		(سورة الزمر)
٣٠٠	٢	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾
٣٠٤	٥	﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾
٢٩٦	٦	﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾
٢٥٧ ، ١٠٠ ، ٥٣	٣٥	﴿.. أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
٣٣٦	٣٩	﴿إِنِّي عَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾
٣٠٠	٤١	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾
٣٤٠	٧١	﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا﴾
٣٣٥	٧٢	﴿خَالِدِينَ فِيهَا فِي شَأْنٍ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾
٣٤٠	٧٣	﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾
		(سورة غافر)
٤٧٧	٦	﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾
٢٧٩	٢١	﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾

رقم الصفحة	رقمها	الآية
١٩٧	٢٢	﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾
٣٤٧	٢٤، ٢٣	﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾
٣٣٣	٥٩	﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيَّتُهُ لَارِيبَ فِيهَا﴾
٣٨٩	٦١	﴿.. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾
٤٤٢	٦٢	﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾
٣٣٥	٧٦	﴿خَالِدِينَ فِيهَا فِيئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾
٢٧٩	٨٢	﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾
		(سورة فصلت)
١٥٥	١٨	﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾
٣٢٩	٢٠	﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾
٢٤٣، ٨٢	٣٦	﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
٢٩٤	٥٢	﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾
		(سورة الشورى)
٣٥٦	٣٦	﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾
٣٣١	٤٣	﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لِمَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ﴾
		(سورة الزخرف)
٣٣٢	١٤	﴿وَأَنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾
٣٤٧	٤٦	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾
٣٦٠	٦٤	﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾
٤٧٩، ٢٠٥	٧٣	﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾
		(سورة الجاثية)
٣٢٣	٥	﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾
٤٠٠	٨	﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾
٣٨٢	١٢	﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾



رقم الصفحة	رقمها	الآية
		(سورة الأحقاف)
٢٩٤	١٠	﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾
		(سورة محمد)
١٥٤ ، ٨٥	٩	﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾
٢٧٩	١٠	﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾
١٥٤ ، ٨٥	٢٦	﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾
٤٣٤	٣٦	﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ﴾
		(سورة الفتح)
٣٧٤	١١	﴿قُلْ مَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ﴾
٤٣٣	١٤	﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾
٣٠٧ ، ١٠٥	٢٩	﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾
		(سورة ق)
٢٨٦	٢	﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾
٤٨٣	٢٣	﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَيْنِي﴾
٤٨٣	٢٧	﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾
		(سورة الذاريات)
٣٥٨ ، ١٠٥	١٩	﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾
		(سورة النجم)
١٥٤	٢٣	﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا﴾
٣٢١ ، ١٤٥	٣٠	﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾
		(سورة الحديد)
١٤٨	١	﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
٤٦٠	١٢	﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾
٣٥١ ، ٣٢٩	١٢	﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾
٤٣٤	٢٠	﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ﴾

رقم الصفحة	رقمها	الآية
		(سورة المجادلة)
٣٥١ ، ٣٢٩	٢٢	﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾
		(سورة الحشر)
١٦٥	٤	﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾
		(سورة الصف)
٢٥١	٧	﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾
		(سورة الجمعة)
١٤٨	١	﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾
٤٢٢	٢	﴿بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾
٤٢٢	٢	﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾
٣٠٨ ، ٦٥	٧	﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾
		(سورة التغابن)
١٤٨	١	﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾
١٩٨	٦	﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾
٤٠٧	٩	﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾
٤٠٣	١٢	﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْحَبِيثُ﴾
		(سورة الطلاق)
٢٠٠	٢	﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾
٤٠٧ ، ٣٥١	١١	﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾
		(سورة التحريم)
٤٦٠	٨	﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَفُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾
٢٢١	١٢	﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾
		(سورة القلم)
٣٢١ ، ١٤٥ ، ٦٧	٧	﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾

الآية	رقمها	رقم الصفحة
(سورة المعارج)		
﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾	٢٤	٣٥٨ ، ١٠٥
﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾	٣٤	١٩١
(سورة المدثر)		
﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ﴾	٥٤	٢٢٤ ، ٦٧
(سورة الإنسان)		
﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ﴾	٢٩	٢٢٤
(سورة عبس)		
﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذَكُّرٌ﴾	١١	٢٢٤ ، ٦٧
(سورة التكوثر)		
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾	٢٧	٢١١
(سورة الانشقاق)		
﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ﴾	٢٢	١٤٠
(سورة البروج)		
﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾	١٩	١٤٠
(سورة البينة)		
﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾	٨	٣٥١





## ثانياً: فهرس الأبيات الشعرية

البيت	الصفحة
فمن يك أمسى بالمدينة رحله	٤١٩ ، ٦٤
ألكني إليها وخير الرسو	١٩٤
يا أيها الراكب المزجي مطيته	٢٢٧
قليل منك يكفيني ولكن	٢٤٦
نحن معاً عندنا وأنت بما	٣٤٧
قد طلبنا فلم نجد لك في السؤ	٣٩١
فإنني وقيار بهما الغريب	
لأعلمهم بنواحي الخبر	
سائل بني أسد ما هذه الصوت	
قليلك لا يقال له قليل	
عندك راضٍ والرأي مختلف	
دد والمجد والمكارم مثلاً	





## ثالثاً: ثبت المصادر والمراجع

- ١ - ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن للدكتور: عبدالفتاح لاشين، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.
- ٢ - أبو القاسم السهيلي ومذهبه النحوي للدكتور محمد البناء، دار البيان العربي، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ٣ - الإتيقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار التراث القاهرة.
- ٤ - الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين الخطيب، تحقيق: محمد عبدالله عنان، ط: الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٣هـ.
- ٥ - أدب الكاتب لابن قتيبة، ت: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- ٦ - الأزهيّة في علم الحروف للهروي، تحقيق: عبدالغني الملوحي، من مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٤٠٢هـ.
- ٧ - أساس البلاغة للزمخشري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ٣، ١٩٨٥م.
- ٨ - أساليب بلاغية، الفصاحة، البلاغة، المعاني، للدكتور أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.
- ٩ - أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم، للدكتور محمود شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- ١٠ - الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، للدكتور: محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: ١، ١٤٠٥هـ.
- ١١ - الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن الكريم، للدكتور محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: ١، ١٤١٣هـ.
- ١٢ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٠هـ.
- ١٣ - إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

- ١٤ - أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب التنزيل لمحمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: عبدالرحمن المطرودي، دار الكتب، الرياض، ط: ١٠، ١٤١٢هـ.
- ١٥ - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام المصري، ت: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجليل، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٣٩٩هـ.
- ١٦ - الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح وتعليق: محمد عبدالمنعم خفاجي، الطبعة الثانية، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
- ١٧ - البحث البلاغي عند السهيلي، دراسة وتقويماً، رسالة ماجستير، صالح الشثري، كلية اللغة العربية، الرياض، ١٤١٦هـ.
- ١٨ - البحر المحيط لأبي حيان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: ٢، ١٤١١هـ.
- ١٩ - بدائع الفوائد لابن القيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٢٠ - البداية والنهاية لابن كثير، تحقيق: أحمد ملحم، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢١ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع لمحمد بن علي الشوكاني، الطبعة الأولى، ١٣٤٨هـ، مطبعة السعادة.
- ٢٢ - البديع لابن المعتز، تحقيق: أغناطيوس، دار السيرة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.
- ٢٣ - البرهان الكاشف في إعجاز القرآن لابن الزملكاني، مطبعة المعاني، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ.
- ٢٤ - البرهان في ترتيب سور القرآن لابن الزبير، ت: محمد شعباني، المغرب، الرباط: ١٤١٠هـ.
- ٢٥ - البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة.
- ٢٦ - البرهان في متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرمانی، تحقيق: أحمد عز الدين خلف الله، دار الوفاء، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٢٧ - البرهان في متشابه القرآن للكرمانی، تحقيق الشيخ ناصر العمر، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين جامعة الإمام، الرياض، ١٣٩٩هـ.
- ٢٨ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي، ت: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.

- ٢٩ - بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة لعبدالمتعال الصعيدي، مكتبة إحياء الكتب الإسلامية، بيروت.
- ٣٠ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.
- ٣١ - البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها، لأمين الخولي، الجمعية الجغرافية الملكية، ١٣٤٩هـ.
- ٣٢ - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، وأثرها في الدراسات البلاغية للدكتور محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ٣٣ - البلاغة القرآنية في ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي، للباحث: إبراهيم الزيد، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام، الرياض، ١٤١٣هـ.
- ٣٤ - البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، للدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.
- ٣٥ - بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطابي، (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف، ومحمد زغلول، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠م.
- ٣٦ - البيان والتبيين للجاحظ، ت: عبدالسلام هارون، الخانجي، القاهرة، ١٩٧٥م.
- ٣٧ - تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، للعيدروسي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، بيروت.
- ٣٨ - تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ.
- ٣٩ - التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن لابن الزمكاني، تحقيق: أحمد مطلوب، وخديجة الحديشي، مطبعة المعاني، بغداد الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ.
- ٤٠ - التحبير في علم التفسير للسيوطي، ت: زهير نور، وزارة الأوقاف الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- ٤١ - التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.
- ٤٢ - تدميث التذكير والتأنيث في التأنيث والتذكير، لإبراهيم الجعبري، تحقيق: محمد عامر حسن، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٤١١هـ.
- ٤٣ - تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي، تصحيح: عبدالرحمن العلمي، طبعة دار الكتب



العلمية، بيروت.

- ٤٤ — التذكير والتأنيث في اللغة لرمضان عبدالنواب، ومعه رسالة أبي الحامض في التذكير والتأنيث، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ٤٥ — التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الكلبي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ.
- ٤٦ — التعريف والإعلام فيما أهم من الأسماء والأعلام في القرآن الكريم، للسهيلى، تحقيق: إبراهيم مهنا، دار الكتب العلمية، ط: ١، ١٤٠٧هـ، بيروت.
- ٤٧ — تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) لأبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٤٨ — تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، للبيضاوي، مطبعة الحلبي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٨٨هـ.
- ٤٩ — تفسير القرآن الجليل (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، لعبدالله النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٥٠ — تفسير القرآن العظيم لابن كثير، دار الحديث، القاهرة، ط: ٢، ١٤١٠هـ.
- ٥١ — التفسير القرآني للقرآن لعبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي.
- ٥٢ — التفسير القيم لابن القيم الجوزية، جمع: محمد الندوي تحقيق: حامد الفقهي، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة.
- ٥٣ — التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للفخر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٥٤ — تنبيه الحفاظ للآيات المتشابهات الألفاظ لمحمد المسند، دار الوطن، الرياض، ١٤١٧هـ.
- ٥٥ — تهذيب سيرة ابن هشام لعبدالسلام هارون، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الرابعة عشرة، ١٤٠٦هـ.
- ٥٦ — التوقيف في مهمات التعاريف لمحمد عبدالرؤوف المناوي، تحقيق: محمد الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط: ١، ١٤١٠هـ.
- ٥٧ — الحمل في النحو لأبي القاسم الزجاجي، تحقيق: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٤هـ.

- ٥٨ - الجنى الداني في حروف المعاني للحسن المرادي، ت: د. فخر قباوة، ومحمد فاضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ.
- ٥٩ - حاشية ابن المنير على الكشف (الإنصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال) لناصر الدين أحمد بن المنير، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٣٩٢ هـ.
- ٦٠ - حاشية الشهاب الخفاجي، (عناية القاضي، وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي)، دار إحياء التراث، بيروت.
- ٦١ - حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٦٢ - الحذف البلاغي في القرآن الكريم لمصطفى أبو شادي، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٩٢ م.
- ٦٣ - الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين، للدكتور هادي هلال، مكتبة النهضة الحديثة، بيروت، ط: ١، ١٤٠٦ هـ.
- ٦٤ - حروف المعاني للزجاجي، تحقيق: علي الحمد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت، ١٤٠٦ هـ.
- ٦٥ - حروف المعاني لعبدالحى جمال، مكتبة المعارف، ط: ٢، الطائف، ١٤٠٦ هـ.
- ٦٦ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٨٧ هـ.
- ٦٧ - حقائق التأويل في متشابه التنزيل للشريف الرضي، شرح محمد الرضا، طبعة دار المهاجر، بيروت.
- ٦٨ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبدالقادر البغدادي، تحقيق: د. محمد نبيل طريفي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.
- ٦٩ - خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٨٠ م.
- ٧٠ - خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للدكتور عبدالعظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ.
- ٧١ - دراسات لأسلوب القرآن الكريم للشيخ محمد عبدالحال عزيمة، مطبعة الإحسان، مصر، القاهرة.
- ٧٢ - دراسة في البلاغة والشعر للدكتور محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة

الأولى، القاهرة، ١٤١١هـ.

- ٧٣ - درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز للخطيب الإسكافي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- ٧٤ - درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، عناية الشيخ عبدالمعطي السقا، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٢٦هـ.
- ٧٥ - درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي، مطبعة الوراق، مصر، ١٣٢٧هـ.
- ٧٦ - درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، دار الآفاق، بيروت، ١٩٧٣م.
- ٧٧ - درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، دراسة وتحقيق وتعليق، رسالة دكتوراه، لمحمد مصطفى آيدين، كلية أصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤١٤هـ.
- ٧٨ - درة الحجال في أسماء الرجال (ذيل وفيات الأعيان) لابن القاضي، تحقيق: محمد الأحمد أبو النور، المكتبة العتيقة، تونس.
- ٧٩ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، ت: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ.
- ٨٠ - الدر المصون في علم الكتاب المكنون للسمين الحلبي، تحقيق: علي معوض وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٨١ - دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ٨٢ - دليل المتشابهات اللفظية في القرآن الكريم للدكتور: محمد الصغير، دار طيبة، الطبعة الأولى، الرياض، ١٤١٨هـ.
- ٨٣ - الديباج المذهب لابن فرحون، تحقيق: محمد أبو النور، دار التراث، القاهرة.
- ٨٤ - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لأبي عبدالله المراكشي، ت: محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت.
- ٨٥ - ديوان البحري، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.
- ٨٦ - الرحيق المختوم لصفي الدين المباركفوري، دار الحديث، القاهرة، ١٤١١هـ.
- ٨٧ - رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي، ت: أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- ٨٨ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، عناية: علي



- عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.
- ٨٩ - الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لأبي القاسم السهيلي، تحقيق وتعليق وشرح: عبدالرحمن الوكيل، الطبعة الأولى، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- ٩٠ - سر صناعة الإعراب لابن جني، دار القلم، الطبعة الأولى، دمشق، ١٤٠٥ هـ.
- ٩١ - الشافية لابن الحاجب، تحقيق: محمد نور الحسن، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥ هـ.
- ٩٢ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار المسيرة، الطبعة الثانية، بيروت، ١٣٩٩ هـ.
- ٩٣ - شرح شافية ابن الحاجب للشريف الرضي، تحقيق: محمد نور، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥ هـ.
- ٩٤ - شروح التلخيص مجموع فيه خمسة شروح على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني وهي: المختصر لسعد الدين التفتازاني، ومواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي، وعروس الأفراح للسبكي، وحاشية الدسوقي، وكتاب الإيضاح لمؤلف التلخيص نفسه، وهو الخطيب القزويني، طبعة دار السرور، بيروت.
- ٩٥ - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل الجوهري تحقيق: أحمد العطار، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤ هـ.
- ٩٦ - ضياء السالك إلى أوضح المسالك لمحمد عبدالعزيز النجار، مصر، ١٤٠١ هـ.
- ٩٧ - طبقات الشافعية لعبدالرحيم الأسنوي، ت: عبدالله الجبوري، دار العلوم، ١٤٠١ هـ.
- ٩٨ - طبقات المفسرين للداودي، دار الكتب العلمية، ط: ١، بيروت، ١٤٠٣ هـ.
- ٩٩ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى العلوي، مكتبة المعارف، الرياض.
- ١٠٠ - عروس الأفراح للسبكي، طبعة دار السرور، بيروت.
- ١٠١ - عيار الشعر لابن طباطبا، ت: عبدالعزيز المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ١٠٢ - غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري، عناية: ح. برجستر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠ هـ.
- ١٠٣ - غرر التبيان فيمن لم يسم في القرآن لبدر الدين بن جماعة، تحقيق: د. عبدالجواد خلف، دار قتيبة، الطبعة الأولى، دمشق.

- ١٠٤ - فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن للأنصاري، تحقيق: محمد علي الصابوني، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- ١٠٥ - فتح القدير للإمام الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- ١٠٦ - الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، تحقيق: حسام الدين المقدسي، دار زاهد القدسي، القاهرة.
- ١٠٧ - القاضي بدر الدين بن جماعة حياته وآثاره، للدكتور عبد الجواد خلف، دار الوفاء، مصر، ١٩٨٨م.
- ١٠٨ - القزويني وشروح التلخيص للدكتور أحمد مطلوب، مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ.
- ١٠٩ - الكتاب لسيبويه، ت: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- ١١٠ - كتاب الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري، ت: علي البحايي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٠٦هـ.
- ١١١ - الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لجار الله الزمخشري، مكتبة مصطفى الحلبي، مصر، الطبعة الأخيرة، ١٣٩٢هـ.
- ١١٢ - كشف الظنون لحاجي خليفة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.
- ١١٣ - كشف المعاني في التشابه من المثاني لبدر الدين بن جماعة، تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف، دار الوفاء، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ١١٤ - الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة لنجم الدين الغزي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.
- ١١٥ - لطف التدبير في سياسة الملوك للخطيب الإسكافي، ت: أحمد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.
- ١١٦ - مبادئ اللغة للإسكافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤٠٥هـ.
- ١١٧ - متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار، تحقيق: عدنان زر زور، طبعة دار التراث، القاهرة، ١٩٦٩م.
- ١١٨ - متشابه القرآن لأبي الحسن علي الكسائي، ت: صبيح التميمي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

- ١١٩ — متشابه القرآن دراسة موضوعية د. عدنان زرزور، دار الفتح، دمشق، ط: ١، ١٣٨٩هـ.
- ١٢٠ — متشابه القرآن العظيم لأبي الحسين بن المنادى، ت: عبدالله الغنيمان، طبعة كلية القرآن والدراسات الإسلامية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط: ١، ١٤٠٨هـ.
- ١٢١ — المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة.
- ١٢٢ — مجاز القرآن لأبي عبيدة، تحقيق: فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.
- ١٢٣ — مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع: عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، طبعة الرئاسة العامة للبحرين الشريفيين.
- ١٢٤ — مجموع فتاوى الشيخ محمد بن عثيمين، جمع وترتيب فهد السليمان، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ.
- ١٢٥ — المختصر على تلخيص المفتاح للتفتازاني، مكتبة محمد صبيح، القاهرة.
- ١٢٦ — مدارج السالكين لابن القيم، طبعة دار الحديث، القاهرة.
- ١٢٧ — مدخل إلى كتابي عبدالقاهر للدكتور محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- ١٢٨ — مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليمني، مطبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، حيدر آباد.
- ١٢٩ — المطول لسعد الدين التفتازاني، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ١٣٣٠هـ.
- ١٣٠ — معاني الحروف للرماني، ت: عبدالفتاح سبكي، دار الشروق، جدة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- ١٣١ — معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، تحقيق: علي البجاوي، دار الفكر العربي، مصر، ١٣٩٢هـ.
- ١٣٢ — معجم الأدباء لياقوت الحموي، ت: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
- ١٣٣ — معجم البلاغة العربية لبدوي طبانة، طبعة دار المنار، جدة، ط: ٣، ١٤٠٨هـ.



- ١٣٤ — معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥ م.
- ١٣٥ — معجم العين للخليل بن أحمد، تحقيق: د. مهدي المخزومي، و د. إبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٩٢ م.
- ١٣٦ — معجم المؤلفين لعمر كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٦ هـ.
- ١٣٧ — معجم المصطلحات البلاغية وتطورها للدكتور أحمد مطلوب، طبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧ هـ.
- ١٣٨ — معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف سر كيس، مكتبة الثقافة، القاهرة.
- ١٣٩ — معجم المفسرين لعادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، ط: ٢، ١٤٠٩ هـ.
- ١٤٠ — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار الحديث، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١١ هـ.
- ١٤١ — معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ت: عبد السلام هارون، دار الجيل.
- ١٤٢ — المغني في تصريف الأفعال للشيخ محمد عبد الخالق عزيمة، طبعة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ.
- ١٤٣ — مغني اللبيب لابن هشام، تحقيق: محمد عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١١ هـ.
- ١٤٤ — مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم لأحمد مصطفى (طاش كبرى زاده)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٤٥ — مفتاح العلوم للسكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ هـ.
- ١٤٦ — المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني، ت: محمد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠ م.
- ١٤٧ — مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ت: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، الطبعة الثالثة.
- ١٤٨ — ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ.
- ١٤٩ — ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي، تحقيق: محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٥ هـ.

- ١٥٠ - من أسرار التعبير في القرآن (حروف القرآن) لعبدالفتاح لاشين، مكتبة عكاظ، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- ١٥١ - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، للدكتور محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبه، القاهرة، ط: ١، ١٤٠٩هـ.
- ١٥٢ - من بلاغة التشابه اللفظي في القرآن الكريم، للدكتور محمد الصامل، دار إشبيلية للنشر، الرياض، ١٤١٧هـ.
- ١٥٣ - المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغرى بردى، ت: محمد أمين، وسعيد عاشور، الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٤م.
- ١٥٤ - الموازنة بين الطائنين للآمدي، ت: السيد أحمد صقر، مصر، ١٩٧٣م.
- ١٥٥ - نتائج الفكر في النحو للسهيلي، ت: محمد البناء، دار الرياض، ١٤٠٤هـ.
- ١٥٦ - النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، طبعة دار الكتب العلمية، مصر.
- ١٥٧ - النحو الوافي لعباس حسن، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.
- ١٥٨ - نظرية الحروف العاملة، مبناها وطبيعة استعمالها القرآني بلاغياً لهادي هلالى، عالم الكتب، ومكتبة النهضة الحديثة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ١٥٩ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.
- ١٦٠ - نقد الشعر لقدامة بن جعفر، تحقيق: محمد عبدالمنعم خفاجي، ط: ١، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
- ١٦١ - النكت في إعجاز القرآن للرماني، (ثلاث رسائل في الإعجاز)، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة.
- ١٦٢ - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي، تحقيق: أحمد حجازي السقا، المكتب الثقافى، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.
- ١٦٣ - هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب للسخاوي، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ١٦٤ - الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي البخاوي، دار القلم، بيروت.





## رابعاً: فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
١	المقدمة .....
	الباب الأول .....
١١	تراث أهل العلم في توجيه المتشابه اللفظي .....
	الفصل الأول .....
١٣	درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي مصادره وقضاياها .....
١٥	التعريف بالمؤلف .....
١٧	التعريف بالكتاب .....
٢٦	قضايا الكتاب وقيمه العلمية .....
	الفصل الثاني .....
٤٥	البرهان في متشابه القرآن للكرماني مصادره وقضاياها .....
٤٧	التعريف بالمؤلف .....
٥٠	التعريف بالكتاب .....
٦٠	قضايا الكتاب وقيمه العلمية .....
	الفصل الثالث .....
٦٩	ملاك التأويل لابن الزبير مصادره وقضاياها .....
٧١	التعريف بالمؤلف .....
٧٣	التعريف بالكتاب .....
٨٣	قضايا الكتاب وقيمه العلمية .....
	الفصل الرابع .....
٩٣	كشف المعاني لابن جماعة مصادره وقضاياها .....
٩٥	التعريف بالمؤلف .....
٩٨	التعريف بالكتاب .....

رقم الصفحة	الموضوع
١٠٧	قضايا الكتاب وقيمه العلمية .....
	<b>الفصل الخامس</b> .....
١١١	فتح الرحمن للأنصاري مصادره وقضاياها .....
١١٣	التعريف بالمؤلف .....
١١٥	التعريف بالكتاب .....
١٢٠	قضايا الكتاب وقيمه العلمية .....
	<b>الباب الثاني</b> .....
١٢٥	الكلمة المفردة في التشابه اللفظي .....
	<b>الفصل الأول</b> .....
١٢٧	الاختلاف بين الآيات المتشابهة في اختيار الصيغة .....
١٣١	الاختلاف في الاسمية والفعلية .....
١٤٢	الاختلاف في صيغة الماضي والمضارع .....
١٤٩	الاختلاف في صيغ الفعل الماضي .....
١٦٨	الاختلاف في صيغ الاشتقاق .....
	<b>الفصل الثاني</b> .....
١٧٣	الاختلاف بين الآيات المتشابهة في الإفراد والجمع .....
١٧٦	الجمع والإفراد في الأسماء الظاهرة .....
١٩٤	الجمع والإفراد في الضمائر .....
٢٠٢	الاختلاف في صيغ الجمع .....
	<b>الفصل الثالث</b> .....
٢٠٧	الاختلاف بين الآيات المتشابهة في التذكير والتأنيث .....
٢١٠	التذكير والتأنيث في الأسماء الظاهرة .....
٢١٥	التذكير والتأنيث في الضمائر .....
٢٢٦	التذكير والتأنيث في الأفعال المسندة للضمائر .....
	<b>الفصل الرابع</b> .....
٣٣١	الاختلاف بين الآيات المتشابهة في التعريف والتنكير .....

الموضوع	رقم الصفحة
التعريف بالألف واللام	٢٣٥
التعريف بالاسم الموصول	٢٥٦
الفصل الخامس	.....
الاختلاف بين الآيات المتشابهة في اختيار الحرف	٢٦٥
حروف العطف	٢٦٩
حروف الجر	٢٩٨
حروف أخرى	٣٠٨
الباب الثالث	.....
التراكيب في التشابه اللفظي	٣١٣
الفصل الأول	.....
الاختلاف بين الآيات المتشابهة في الذكر والحذف	٣١٥
الذكر والحذف في الحروف	٣١٩
الذكر والحذف في الكلمات	٣٤٠
الذكر والحذف في الجملة	٣٩٤
الفصل الثاني	.....
الاختلاف بين الآيات المتشابهة في التقديم والتأخير	٤٠٩
الفصل الثالث	.....
الاختلاف في الفصل والوصل	٤٦٣
الخاتمة	٤٨٧
الفهارس	٤٩٣
فهرس الآيات القرآنية المتشابهة	٤٩٥
فهرس الأبيات الشعرية	٥١٥
فهرس المصادر والمراجع	٥١٧
فهرس الموضوعات	٥٢٩





إِنَّ وَزَارَةَ الشُّؤْنِ الْأَسْلَامِيَّةِ وَالْأَوْقَافِ وَالذَّعْوَةِ وَالْإِشْلَاقِ

فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ

الْمُشْرِفَةِ عَلَى مُجْتَمَعِ الْمَلِكِ فَهْدٍ

لِطَبَاعَةِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

إِذْ يُسْرُّهَا أَنْ يُصَدَرَ الْمَجْمَعُ كِتَابَ

الْمُتَشَابِهَاتِ لِلْفُضِيحِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَأَسْرَارِهِ الْبَلَاغِيَّةِ

تَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَ بِهِ عُمُومَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ يَجْزِيَ

خَادِمَهُ الْحَمِيدَ الشَّرِيفَ الْمَلِكِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْغَنِيِّ الرَّسُولِ

أَحْسَنَ الْجَزَاءِ عَلَى جُهُودِهِ الْعَظِيمَةِ فِي نَشْرِ كِتَابِ اللَّهِ الْكَرِيمِ

وَسُنَّةِ وَسِيرَةِ رَسُولِهِ الْأَمِينِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ

بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ

تَمَّ تَنْفِيذُ هَذَا الْكِتَابِ وَطَبْعُهُ فِي

مُجَمَّعِ الْمَلِكِ فَهْدٍ لِطَبِيبِ عِزِّ الْمُصَحِّفِ الشَّرِيفِ

بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

بِإِشْرَافِ

وَزَارَةِ الشُّؤُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْأَوْقَافِ

وَاللَّعَنَةُ وَالْإِشْنَاءُ

عَامَ ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

